طبعة مزيدة ومنقحة

مكتبة الرمحي أحمد ٧٧

زاد المربين

من القصص التربوي الهادف

إبراهيم بدر شهاب الخالدي

دار الفاروق
عمان - الأردن

زادُ المربّين

من القصص التربويّ الهادف

إبراهيم بدر شهاب الخالدي

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد 77

https://t.me/ktabpdf

دار الفاروق

عمّان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد:

كانت تراودني، وأنا لم أزل بعد طالباً في المرحلة الثانوية، فكرة جمع القصص، التي كنت أقرأ بعضها فيما يتوافر لدينا من كتب ومراجع آنذاك، وما كنت أسمعه من أفواه المدرسين وأئمة المساجد في تلك الأثناء، وذلك لتعلقي الشديد بالقصص وشغفي بسماعها وحفظها واستظهارها، ولخشيتي أن تضيع مثل هذه القصص الرائعة التي كنت أسمعها إن لم تجمع وتدوّن في كتاب، وقد تعزّزت قناعتي بذلك سيما وأن أكثرها مما يتناقله الناس مما ليس في كتاب، ثم إن جمعها في كتاب واحد يسهّل على الدارسين والمربين الوصول إلى القصص التي يريدون، في سبيل تعزيز أفكارهم وزرع القيم النبيلة في نفوس تلاميذهم.

ولما صرت معلماً في المدارس وجدتني أمتِّعُ طلابي بما أحفظه من تلك القصص، وما توافر لدي من حصيلة ما جمعته منذ إحساسي بالحاجة إلى جمع تلك القصص وتصنيفها. وكنتُ ألحَظُ مدى استمتاع الطلاب الشديد وإصغاءهم التام للحديث، وهدوءهم وانضباطهم في الحصص التي أقف فيها أمامهم في غرفة الصف، ولم أكن أجد ما يعانيه زملائي المعلمون من الفوضى التي يحدثها الطلاب وعدم انضباطهم أو انتباههم للدرس.

ومما لا شك فيه أن القصة تعدّ من أقدر الأساليب الأدبية على تمثيل الأخلاق، وتصوير العادات، ورسم خلجات النفوس، كما أنها - إذا شرف غرضها ونبل مقصدها - تهذب الطباع وترقق القلوب، وتدفع الناس إلى المثل العليا والقيم النبيلة: كالإيمان، والواجب، والحق، والتضحية، والكرم، والشرف، والإيثار. ذلك أن القصص على اختلافها ولا سيما المحكمة الدقيقة منها تطرق السمع بشغف، وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا

تكل، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الآزاهير والثمار. ذلك أن في القصة سحراً يسحر النفوس، وقد يكون ذلك بسبب انبعاث الخيال الذي يتابع مشاهد القصة وأحداثها ويتعقبها من موقف إلى موقف أو بسبب المشاركة الوجدانية لأشخاص القصة وما تثيره في النفس من مشاعر تتفجر وتفيض، أو بسبب انفعال النفس بالمواقف، حيث يتخيل السامع للقصة نفسه داخل الحوادث ومع ذلك فهو ناج منها متفرج من بعيد.

وأياً كان الأمر فلا شك أن قارئ القصة أو سامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً من شخوصها وحوادثها، فهو على وعي منه أو غير وعي يرى نفسه على مسرح الحوادث، ويتخيل أنه كان في هذا الموقف أو ذاك، وبروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة فيوافق أو يستنكر، أو يملكه الإعجاب، أو يتمنى أن يكون مكان أحد الشخوص الطيبين أو الأبطال الذين يقهرون الشر والظلم ويدافعون عن الحق وعن الضعفاء وعن القيم النبيلة التي تهدف القصة إلى إبرازها(١).

وإذا كنا نسلّم بأهمية القصة ودورها الواضح في التوجيه التربوي، فإن علينا أن نقرر في هذا الشأن أنه ليس من المقبول سرد القصة كيفما اتفق، بل لا بد من الوقوف على الطريقة التربوية التي يجب أن يتم نسج القصة وسردها على أساسها. وذلك بإيراد المواقف التي لها علاقة بالغرض الذي سيقت القصة من أجله، والتغاضي عما عداها من التفاصيل، وأن تقحم النصائح والعظات في ثناياها، كيلا يندمج السامع مع الأحداث بكل تفكيره، وينسى المقصد الأصلي للقصة، فإذا فقدت هذه العناصر، غاب عنصر التربية والتوجيه منها بسبب تغلب تسلسل الأحداث فيها على ما في مضمونها من عبرة ومعنى(٢)

وهنا أنصح إخواني المربين ألا يسردوا القصة على مسامع طلابهم أو مستمعيهم سرداً عقيماً مجرداً من كل حسّ أو انفعال، كمن يقرأ الأخبار في صحيفة يومية، بل يجب على المربي – سواء أكان أباً أم مدرساً أم خطيباً في المسجد – أن يضيف للقصة

(١) انظر: محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ص (١٩٢).

(٢) محمد عقلة: تربية الأولاد في الإسلام ص (٤٨).

من انفعالاته وتعابير وجهه وحركات يديه وجسمه ونبرة صوته ما يجعل أحداث القصة وكأنها تدور أمام أعينهم، وكأنه هو عدة شخوص تتحرك في مواقف مختلفة تصنع الأحداث التي تدور في القصة التي يعرضها، مما يجعل الطالب أو المستمع ينشدّ لها ويتفاعل معها، فتحدث في نفسه الأثر المطلوب. ذلك أن كثيراً من الألفاظ التي ترد في القصص والمفاهيم والتعابير المختلفة لا يفهمها الطالب إلا عن طريق ما يضيفه المعلم من حركات وانفعالات ونبرة صوت متغيرة وفق السياق.

ولا بد أن تبدو على وجه المعلم تعابير الفرح والسرور عندما يمرّ بموقف يتطلب ذلك، وتعابير الغضب والتوتر عندما يمرّ بموقف يتطلب ذلك كذلك. كما لا بدّ للمعلم من الخروج عن النص الحرفي الذي كتبت به القصة، ويضيف بعض الألفاظ والعبارات، أو يكرر بعضها الآخر ليخدم الغرض الذي يرمي إليه، أو الذي يريد أن يؤكده لطلابه. كما أنصح أن يقرأ المعلم القصة قبل أن يدخل غرفة الصف، ويستخرج ما فيها من الكلمات والتعابير الغامضة، ويشرحها للطلاب قبل سرد القصة؛ كي يتابعه الطلاب في أثناء السرد دون أن يعيقه سؤال يستوضح عن معنى الكلمة الغامضة أو التعبير غير المفهوم.

أما هذا «الزاد» فقد اجتهدت في اختيار محتوياته وتنويع موضوعاته، لتشمل العبر والمواعظ والحكم والأمثال والأدب واللغة والفكاهة والنوادر.. وغيرها من الموضوعات الشيقة التي تدور حول أهداف تربوية سامية، ولا بدّ أن أشير إلى أنني قد تصرفت في بعض هذه القصص وفق ما رأيته مناسباً لأسلوب هذا الكتاب وللغرض الذي أردته منه، فعدّلت وبدّلت في بعض الأفكار والعبارات، واختصرت بعض القصص الطويلة المملة، دون الإخلال بجوهرها أو بمضمونها العام. سيّما وأن الكثير منها لم آخذه من كتاب كما ذكرت بل مما سمعته من الأفواه.

والله أسأل أن ينفع به القراء والمربين.

د. إبراهيم بدر شهاب

الباب الأول
في مكارم الأخلاق

من أخلاق النبوة

انطلق ثُمامة بن أُثال سيد بني حنيفة وملك اليمامة إلى مكة للطواف حول الكعبة والذبح لأصنامها، وبينما هو في طريقة قريباً من المدينة، أسرَتْه سرية من سرايا الرسول ﷺ - وهي لا تعرفه - وأتت به المدينة، وشدّته إلى سارية من سواري المسجد، منتظرة أن يقف النبي الكريم ﷺ بنفسه على شأن الأسير، وأن يأمر فيه بأمره.

ولما خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد وهمّ بالدخول، رأى ثمامة مربوطاً في السارية، فقال لأصحابه: أتدرون من أخذتم؟!

فقالوا: لا يا رسول الله.

فقال: هذا ثمامة بن أثال الحنفي، فأحسنوا أساره.

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى أهله وقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال. ثم أمر بناقته أن تُحلب له في الغدو والرواح، وأن يُقدّم إليه لبنها.

وقد تم ذلك كله قبل أن يلقاه رسول الله ﷺ أو يكلّمه. ثم إن النبي ﷺ أقبل على ثمامة يريد أن يستدرجه إلى الإسلام فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير، إن تَقْتُل تَقْتُل ذا دم، وإن تُنعِم، تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت.

فتركه الرسول ﷺ، حتى كان من الغد، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تقتل، تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم على شاكر، وإن كنتَ تريد المال، فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ: «أطلقوا ثُمامة».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. يا محمد ! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلّها إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلّها إليّ. فبشّره رسول الله ﷺ بالخير الذي كتبه الله له بإسلامه.

فانبسطت أسارير ثمامة وقال: يا رسول الله إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى أن أفعل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: امضِ لأداء عمرتك ولكن على شرعة الله ورسوله. وعلَّمَه ما يقوم به من المناسك. فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت[١]؟ !، قال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

[صور من حياة الصحابة: ٥٨]

حسن الطلب وحسن الأداء.

قال عبد الله بن سلام: لما أراد الله هدي زيد بن سعنة، قال زيد: «ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حِلمُه جهلَه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلا حِلماً» فلبثت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمَه من جهله، فخرج ﷺ يوماً من الحجرات ومعه عليّ، فأتاه رجل كالبدوي، فقال: يا رسول الله، إن نَفَري قد أسلموا، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً، وقد أصابتهم سَنَةٌ وقحوط من الغيث، فأخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً، كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم شيئاً تعينهم به، فعلت، فنظرت إلى رجل أراه عمر، فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله. فقال زيد بن سعنة: فقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً في حائط[٢] بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ قال: «لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمراً إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان» قلت: نعم، فباعني، فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب، فأعطاها

---

(١) صبأ الرجل: ترك دينه واعتنق ديناً آخر.

(٢) حائط: يعني بستان.

الرجلَ، وقال: «أعْجِل عليهم وأغِثْهم»، قال زيد: فلما كان قبل مَحِلِّ الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة، دنا إلى جدار ليجلس إليه أتيته، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت له: ألا تقضيني حقي يا محمد؟ ! فو الله ما علمتُكم بني عبد المطلب إلا مُطلاً(١)، ونظرتُ إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه، ثم رماني بنظره، وقال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما أرى ! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذرُ فوتَه لضربتُ بسيفي هذا عنقَك، ورسول الله ﷺ ينظر إليّ في سكون وتؤده، ثم قال: «إنّا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه، اذهب به يا عمر، فأعطه حقه، وزِدْه عشرين صاعاً من تمرٍ مكان ما روَّعتَه» فذهب بي عمر فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعاً، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك.

قلت: أتعرفني يا عمر؟

قال: لا.

قلت: أنا زَيد بن سعنة.

قال: الحَبْر(٢)؟.

قلت: نعم الحَبْر.

قال: فما دعاك إلى أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت وتفعل به ما فعلت؟!

قلت: يا عمر، لم يكن من علامات النبوة شيء إلا عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين، لم أخبرهما منه ؛ يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلْماً، فقد خبرتُهما، فأشهدك يا عمر، أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وأشهدك أن شَطر مالي صدقة على أمة محمد ﷺ. قال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تَسَعُهم. قلت: أو على بعضهم.

فرجع عمر وزيد إلى النبي ﷺ فقال زيد:

---

(١) مطلاً: مماطلين في أداء الحقوق.

(٢) الحبر: العالم من علماء الدين اليهودي.

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وآمن به وصدقه، وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك. مقبلاً غير مدبر. رحم الله زيداً.
[موارد الظمآن: ٥١٦]

الدين المعاملة
(التاجر وابنه الصادق الأمين)

أرسل تاجر ابنه إلى بعض عملائه بصرّة فيها مبلغ من المال كان متأخراً له عليه من ثمن بعض البضائع، وفيما هو سائر بها وقعت منه على شاطئ نهرٍ، ولم يشعر بفقدها إلا قرب وصوله إلى محل قصده، فآب عَوداً على بدء يبحث عنها، فجلس تحت شجرة نائحاً قائلاً: ربي، إني ضئيل سيئ الحظ، لا عاضد لي سواك، فأرشدني إلى ضالتي كي أشكر فضلك، وبوّئني مبوّأ صدق، إنك المبدئ المعيد:

يا من يرجى في الشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزَعَ
ما لي سوَى قَرْعي لبابك حيلة ... فلئن رُدِدْتُ فأيَّ بابٍ أقرعُ

فاتفق وقتئذ أن مرّ أمير من الأمراء، فسمع بكاءه، فدنا منه وسأله عن سبب بكائه، فقص عليه قصته. فأخرج الأمير من جيبه صرّةً حسنةً فيها لآلئ ذهبية، وقال له: أهذه؟ فنظر إليها الولد وقال: لا. فأخرج الأمير صرة أخرى كان قد عثر عليها وسأل الولد: أهذه؟ فقال: نعم هي بعينها. فأعطاه الأمير إياها، وأضاف إليها الأولى بما فيها جزاء صدقه، وأنشد قول القائل:

أجَلّ للمرء من مجد الغنَى شرفاً ... مجدُ الوفاء وتقوى الله والكرمُ
وأرفعُ الناس عند الله منزلةً ... من لم يكن لحقوق الناس يهتضمُ

[المفرد العلم: ١٣١]

مروءة العربي

أمضى الفارس العربي في المدينة عشرين يوماً، ثم غادرها في ضحى يوم قائظ.كانت نفسه منبسطة، وكان قلبه منشرحاً بقرب العودة إلى البيت والأهل. ومضى في طريقه ممتطياً جواده، مزهواً به، لأنه جواد عربي كريم، لم يجر في الحلبة مرة

إلا أتى سابقاً. والجواد عزيز على صاحبه العربي، فهو رمز الفتوة والفروسية، والعربي رفيق بالحيوان الذي يخدمه في حِلّه وترحاله.

ارتفعت الشمس حتى بلغت كبد السماء، وصار الحرّ شديداً، حتى كأن رمال الصحراء جمر متوقد. وإنه لفي بعض الطريق، إذا به يلقى رجلاً أرهقه الحرّ. كان الرجل حافياً، والرمال محرقة تحت قدميه. فترجل الفارس، ودعا ذلك الرجل ليركب الجواد. فامتطاه شاكراً حامداً، داعياً له بطول البقاء.

ولم يسيرا سوى لحظات، حتى نهز[1] الرجل الجواد، فانطلق يعدو به. وعند ذاك تبينت للفارس حقيقة الأمر، لقد كان الرجل لصاً محتالاً، قد سرق الجواد العزيز الحبيب، فأطرق الفارس قليلاً ثم صاح بأعلى صوته: «يا رجل ! يا أخي ! قف وخذ عني هذه الكلمات».

أوقف اللص الجواد، وأنصت للفارس الذي قال: «الحصان حلال عليك يا أخي، ولكني أرجوك أن تكتم هذا الأمر عن الناس، لئلاّ ينتشر الخبر بين قبائل العرب، فلا يغيث القوي الضعيف، ولا يرقّ الراكب للماشي، فتصبح الصحراء خالية من المروءة، ويزول بزوالها أجمل ما فيها. فإن المروءة زينة الصحراء، والصحراء منزل الجود والكرم والفتوة».

ويا للدهشة، لقد عاد اللص حزيناً آسفاً، وأقبل على الفارس خجلاً وقلبه ممتلئ بالندم، وقال للفارس: «إن الكرم خلق نبيل، وإن الصفح طبع الكرام. فاصفح عن زلتي، إني أعيد إليك جوادك أيها الفارس النبيل، خشية أن يقال: إن عربياً أساء لمن أحسن إليه، فضاعت المروءة في رمال الصحراء».

من أخلاق التاجر المسلم

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حُلل مختلفة الأثمان: ضَرْبٌ منها قيمة كلّ حلّة منه أربعمئة، وضربٌ كلّ حلّة قيمتها مئتان، فذهب إلى الصلاة وترك ابن أخيه في الدّكان، فجاء أعرابي وطلب بأربعمئة، فعرض عليه من حلل المئتين فاستحسنها

(١) نهز الجواد: حفزه ودفعه في المسير.

ورضيها، فاشتراها ثم مضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلّته، فقال للأعرابي بكم اشتريت هذه الحلة؟ فقال الأعرابي: بأربعمئة. فقال يونس: إنها لا تساوي أكثر من مئتين، فارجع حتى تردّها. فقال الأعرابي: هذه في بلادنا تساوي خمسمئة وأنا ارتضيتها فقال له يونس: انصرف فإن النّصح في الدّين خير من الدنيا بما فيها، ثم ردّه إلى الدّكان، وردّ عليه مئتي درهم، وخاصم في ذلك ابن أخيه وقال له: أما استحييت؟! أما اتّقيت الله؟! تربح مثلَ الثّمن وتترك النّصح للمسلمين؟!. فقال ابن أخيه: والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها. قال يونس: فهلاّ رضيت له بما ترضاه لنفسك؟!

[الإيمان والحياة: ٢٠٣]

حِلم مَعْنِ بن زائدة

لما تولى معن بن زائدة[١] إمارة العراق، وكان قد اشتهر بالحلم والكرم، أتاه أعرابي يختبر حِلمَه. فدخل عليه دون أن يؤذن له. فلما مثل بين يديه قال له:

أتذكر إذْ لحافُك جلد شاةٍ وإذْ نعلاك من جلد البعيرِ

قال: نعم، أذكر ذلك ولا أنساه.

قال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلّمَك الجلوسَ على السريرِ

قال معن: سبحانه على كل حال. يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء.

قال الأعرابي:

فلستُ مسلّماً ما عشتُ دهراً على مَعْنٍ بتسليمِ الأميرِ

قال معن: إن السلام سنة يا أخا العرب، تأتي به كيف شئت.

قال الأعرابي:

(١) معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني، أبو الوليد: من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك العصرين الأموي والعباسي، ولاه المنصور اليمن، قتل غيلة سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨م.

سأرحلَ عن بلادٍ أنت فيها ... ولو جارَ الزمانَ على الفقير

قال معن: إن أقمت فينا فمرحباً بالإقامة، وإن رحلت عنّا فمصحوب بالسلامة.

قال الأعرابي:

فَجُد لي بشيءٍ يا ابن ناقصة(١) ... فإني قد عزمتُ على المسيرِ

قال معن: يا غلام أعطِهِ ألف دينار تخففُ عنه مشاقّ الأسفار. فأخذها وقال:

قليلٌ ما أتيتَ به وإني ... لأطمعُ فيك بالمال الكثيرِ

قال معن: يا غلام أعطه ألفاً أخرى ليكون عنا راضياً.

فأخذها الأعرابي وقال:

سألتُ اللهَ أن يبقيك ذخراً ... فما لك في البريةِ من نظيرِ

فمنك الجودُ والإفضالَ حقاً ... وفيضُ يديك كالبحر الغزيرِ

قال معن لغلامه: أعطه ألف دينار أخرى. فأخذها الأعرابي وقال: أيها الأمير، إنما جئت مختبراً حِلمَك لما بلغني عنه. فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قسم على أهل الأرض لكفاهم.

قال معن: يا غلام، كم أعطيته على نظمه؟ قال: ثلاثة آلاف دينار. قال: أعطه في نثره مثلها. فأخذها الأعرابي وذهب في طريقه شاكراً.

[قصص العرب: ٣/ ٢٤٣]

العفو عند المقدرة / ١

يروى أن رجلاً من الفرس كان يسوء آخراً من العرب، فتمكن العربي يوماً من القصاص منه، والفارسيّ وحده، والعربيّ وسط فئة من قومه، كل واحد منهم أشار عليه برأي، فمنهم من قال: نضربه حتى يفارق الحياة. ومنهم من قال: نجلده ومنهم من قال: نشنقه، وهكذا. وبقي منهم رجل لم ينطق بكلمة واحدة. فقال له العربيّ: ما رأيك فيه؟ قال: الرأي عندي العفو عنه لأن من جازى اللئيم بلؤمه، كان مثله.

---

(١) يا ابن ناقصة بدلاً من قوله: يا ابن زائدة.

والعفو عند المقدرة خير من التشفي. قال العربيّ: «أصبت، وما قصدت غير ذلك». ثم قال للفارسي: «لقد عفوت عنك، فلا تعد إلى مثل ما كنت تفعل معي، فإن تقلبات الدهر سريعة، يوم لك وآخر عليك» فشكر له الفارسيّ كرم أخلاقه، وحسن صنعه، وندم على ما فعل معه بادئ الأمر، واتخذه من أعظم أصدقائه. واستدل بذلك على مروءة العرب وكرم أخلاقهم.

[المفرد العلم: ٢٧٩]

العفو عند المقدرة / ٢

قيل: إن العرب لما فتحوا بلاد الأندلس، اعتدى شاب إسباني على فتى من العرب وقتله، ثم فرّ هارباً، واتفق أن مرّ في طريقه بحديقة على بابها رجل هرم يبلغ عمره نحو مئة سنة، فاستغاث به الشاب، فأخفاه الرجل في حجرة بالحديقة.

وبعد قليل من الزمن، حضر الناس يحملون القتيل، ووقفوا به على باب الحديقة، فتأمله الرجل فوجده ابنه، فحزن ووقع على الأرض مغشياً عليه، ولكنه أخفى حزنه، وكتم غيظه وانتظر حتى دخل الليل، ثم ذهب إلى الشاب، وعرّفه أن القتيل ابنه. فخاف وأيقن أن الرجل سيقتله، فهدّأ الرجل روعه، وأزال خوفه، وقال له: قد استغثت بي فأغثتك، وليس من ديني أن أنقض عهدي معك، فكن آمناً مني، ولكن لا آمن عليك من قومي أن يقتلوك، ففرّ من هذا البلد، وانج بنفسك. وزوّده بألف درهم. فأثّر هذا الوفاء وذلك الخلق الكريم في هذا الفتى تأثيراً شديداً، حتى أيقن أن للإسلام فضائل لو عمل بها أهله لكانوا من أرقى أمم الأرض.

[المفرد العلم: ٢٨٠]

الصدق طريق النجاة

خرج غلام(١) في قافلة من مكة المكرمة إلى بغداد في طلب العلم، وكان عمره لا يزيد على اثنتي عشرة سنة، وقبل أن يغادر مكة المكرمة قال لأمه: يا أماه أوصني؟ قالت له أمه: يا بني عاهدني على ألاّ تكذب، فعاهدها على ذلك، ثم أعطته أربعمئة

---

(١) قيل إن الغلام هو عبد القادر الكيلاني رحمه الله. وقيل أنه أبو يزيد البسطامي. والله أعلم.

درهم ينفق منها في غربته، فركب دابته وانضم إلى القافلة المتوجهة إلى بغداد، وفي بعض الطريق خرج عليهم قطاع الطريق، فاستوقفوهم وأخذوا يسلبونهم واحداً واحدا، فلما وصلوا إلى الغلام سألوه عما يحمل وماذا يخبِّئ.

قال لهم: معي أربعمائة درهم، فسخروا منه وقالوا له: انصرف أتهزأ بنا؟ أمثلك يكون معه أربعمئة درهم؟ فتركوه، وبينما هو في الطريق إذ خرج عليه رئيس العصابة نفسه فاستوقفه وقال له: كم معك يا غلام؟ فقال الغلام: معي أربعمئة درهم وضعتها أمي في معطفي وأخاطت عليها بخيط متين كي لا تسقط مني في أثناء الطريق، فسلبه إياها، ثم سأل الغلام: لماذا صدقتني عندما سألتك ولم تكذب علي كما فعل الآخرون، وأنت تعلم أن المال إلى ضياع؟ فقال له الغلام: صَدَقْتك لأنني عاهدت أمي على ألا أكذب، وأنا أرعى عهد أمي فلم أكذب!

فتأثر قاطع الطريق بما سمع وخشع قلبه لله رب العالمين وقال للغلام: عجبت لك يـ غلام تخاف أن تخون عهد أمك، وأنا لا أرعى عهد الله جل جلاله؟ يا غلام خذ مالك وانصرف آمناً، وأنا أعاهد الله أنني قد تبت إليه على يديك توبة لا أعصيه بعدها أبداً، وفي المساء جاء التابعون له من اللصوص ليسلموه ما تجمع لديهم من النهب والسرقة فوجدوه يبكي بكاء الندم، ثم قال لهم: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها.

فقالوا له: يا سيدنا إذا كنت قد تبت وأنت زعيمنا فنحن أولى بالتوبة منك إلى الله، وتابوا جميعاً ببركة صدق الغلام وأمه الصالحة.

[تربية الأولاد في الإسلام: ١/ ١٧٥]

أكرم الناس

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفى جميع رجال بني أمية – وكان منهم إبراهيم بن سليمان – فشفع له عند الخليفة العباسي الأول بعض خواصه، فأعطاه الأمان، ثم أحله مجلسه، وأكرم مثواه. وقال له الخليفة ذات يوم: يا إبراهيم، حدثني عن أغرب ما مر بك أيام اختفائك.

فقال: كنت مختفياً في الحيرة(١) بمنزل مشرف على الصحراء، فبينما كنت يوماً على

(١) الحيرة: قاعدة الملوك اللخميين بين النجف والكوفة في العراق.

ظهر ذلك البيت أبصرت أعلاماً سوداً قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فأوجست[١] منها خيفةً إذ حسبتها تقصدني. فخرجت مسرعاً من الدار متنكراً، حتى أتيت الكوفة، وأنا لا أعرف من أختفي عنده، فبقيت متحيراً في أمري، فنظرت وإذا أنا بباب كبير فدخلته، فرأيت في الرحبة[٢] رجلاً وسيماً، نظيف الثياب فقال لي: من أنت؟ وما حاجتك؟ قلت: رجل خائف على دمه جاء يستجير بك. فأدخلني منزله، وواراني[٣] في حجرة تلي حجرة حرمه. فأقمت عنده، وقدّم لي كل ما أحب من طعام وشراب ولباس، وهو لا يسألني عن شيء من حالي، إلاّ أنه كان يركب في كل يوم من الفجر ولا يرجع إلاّ قبيل الظهر. فقلت له يوماً: أراك تدمن[٤] الركوب، ففيم ذلك؟ قال لي: إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبي، وقد بلغني أنه متخف في الحيرة، فأنا أطلبه لعلي أجده وأدرك منه ثأري. فلما سمعت ذلك – ياأمير المؤمنين – عظم خوفي وضاقت الدنيا في عيني، وقلت إني سقت نفسي إلى حتفي[٥].

ثم سألت الرجل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرني عن ذلك. فعلمت أن كلامه حق، فقلت له: يا هذا إنه قد وجب علي حقك، وجزاءً لمعروفك لي، أريد أن أدّلك على ضالتك. فقال: وأين هو؟ فقلت: أنا بغيتك إبراهيم بن سليمان، فخذ بثأرك. فتبسم، وقال: هل أضجرك الاختفاء والبعد عن دارك وأهلك فأحببت الموت؟ قلت: لا والله ! ولكني أقول لك الحق، وإني قتلت أباك في يوم كذا من أجل كذا وكذا. فلما سمع الرجل كلامي هذا، وعلم صدقي تغير لونه، واحمرت عيناه، ثم فكر طويلاً، والتفت إلي، وقال: أما أنت فسوف تلقى أبي عند حاكم عادل فيأخذ بثأره منك، وأما أنا فلا أخفر ذمتي[٦] ولكني أرغب أن تبعد عني فإني لست آمن عليك من نفسي. ثم أنه قدم لي ألف دينار، فأبيت أخذها، وانصرفت عنه ! فهذه الحادثة

(١) أوجس: أحس.

(٢) الرحبة: الساحة.

(٣) واراني: خبأني وسترني.

(٤) تدمن: تديم.

(٥) الحتف: الموت.

(٦) لا أخفر ذمتي: لا أنقض عهدي معك ولا أغدر بك بعد أن أمنتك.

أغرب ما مرّ بي، وهذا الرجل أكرم من رأيته، وسمعت عنه بعدك يا أمير المؤمنين.

[المستجاد من فعلات الأجواد: ٣٢- ٣٤]

المجتمع الإسلامي

لبث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على المدينة المنورة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مدة عام كامل لم يختصم إليه فيها اثنان، فطلب من أبي بكر أن يعفيه من مهمة القضاء! فقال له أبو بكر: أَمِن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟! فقال: لا يا خليفة رسول الله، ولكن ليس لي حاجة عند قوم مؤمنين عرف كل منهم ماله من حق، فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أصيب واسوه، دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيم يختصمون؟!!

[النظم الإسلامية: ٣٢٢]

من محاسن الأخلاق

من محاسن الأخلاق ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم فينغص عليّ نومي. فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان(١) نحو ثلاثمائة خطوة. فأخذ منها كوزاً فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطأ خطوات خائفاً ألاّ ينبهني حتى صار إلى فراشه. ثم رأيته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أوّل الليل وآخره. فقعد طويلاً حاول أن أتحرك فيصبح بالغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح: يا غلام، وتأهب للصلاة. ثم جاءني. فقال لي: كيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت، جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. قال: لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك، فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصّك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك

---

(١) الكيزان: جمع كوز وهو إبريق من الفخار يوضع فيه ماء الشرب.

سيرتهم، فهنّاك الله بهذه النعمة، وأتمّها عليك. فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت. قال: وبِتُّ عنده ذات ليلة، فانتبه وقد عرض له السَّعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأَرض لئلا يعلو صوته، فأنتبه.

قال يحيى: وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالريحان، يأخذ منه الطاقة والطاقتين، ويقول لقيِّم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول، قال يحيى: ومشينا في البستان من أوّله إلى آخره. وكنت مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي. فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظلّ وتحوّل هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

أنظر إلى أخلاقهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها، نسأل الله أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا في أرزقنا إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

[ثمرات الأوراق: ٣٤٨]

مصالحة بين شقيقين

جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وأخيه محمد بن الحنفية (رضي الله عنهما) كلام، فانصرفا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعةً وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين بن علي، أما بعد: فإن لك شرفاً لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه، فإن أمي امرأة من بني حنيفة، وأمك فاطمة بنت رسول الله ولو كان نساء ملء الأرض مثل أمي ما وفَينَ بأمك، فإذا قرأت رقعتي فالبس رداءك ونعليك وسر إليَّ فترضاني، وإياك أن أكون سابقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني، والسلام.

فلما قرأ الحسين كتاب شقيقه لبس رداءه ونعليه وجاء إليه وترضّاه.

[جمهرة رسائل العرب: ٢/ ٢٦]

إخوان المروءة

كان (الواقدي) من أوائل من صنفوا في التاريخ الاسلامي، وهو من أهل القرن الهجري الثاني. وقد حدّث عن نفسه، فقال:

كان لي صديقان، وكنا كنفس واحدة، فنالتنى ضيقة شديدة، وحضر العيد، فقالت امرأتي: أما نحن أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي إشفاقاً ورحمةً، لأنهم يرون أنفسهم على هذه الحال من الثياب الرثة، ويرون صبيان الجيران وقد أصلحوا ثيابهم، واتخذوا زينة العيد فلو احتلت بشيء نصرفه في كسوتهم؟. فكتبت إلى أحد الصديقين، أسأله التوسعة علي بما حضر، فوجه إليّ كيسا مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم، فما استقر قراري حتى كتب إليّ الصديق الآخر، يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي، فوجهت إليه الكيس بحاله، وخرجت من البيت مستحياً من امرأتي، فلما رجعت إليها ليلاً أخبرتها بما فعلت، فاستحسنت ما كان مني، ولم تعنفني عليه.

وبينما أنا كذلك، إذ وافاني الصديق الأول، ومعه الكيس كهيئته، فقال لي: أصدقني عما فعلت فيما وجهت إليك من المال. فعرّفته الخبر على وجهه، فقال: إنك كتبت إلي في طلب التوسعة، وما أملك على الأرض الا الكيس الذي بعثت به إليك، وقد كتبت بعد ذلك إلى صديقنا الآخر أسأله المواساة، فإذا هو يوجه إليّ بخاتمي.

فتقاسمنا الكيس بيننا أثلاثاً.

ونمى الخبر إلى الخليفة (المأمون)، فدعاني، فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، لكل واحد الفان، ولزوجتي ألف.

[وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٤/ ٣٤٩]

مساحة وسخاء

ذكر الخطيب البغدادي عن شيخ، قال: حضرت يوم الجمعة المسجد الجامع بمدينة المنصور، فرأيت رجلاً بين يديّ في الصف، حسن الوقار ظاهر الخشوع دائم

الصلاة، لم يزل يتنفل(١) مذ دخل المسجد إلى أن قرب قيام الصلاة، ثم جلس.

قال: فغلبتني هيبته، ودخلت قلبي محبته، ثم أقيمت الصلاة، فلم يصل مع الناس الجمعة، فكبر عليّ ذلك من أمره، وتعجبت من حاله، وغاظني فعله. فلما قضيت الصلاة تقدمت إليه، وقلت: أيها الرجل ! ما رأيت أعجب من أمرك، أطلت النافلة وأحسنتها، وتركت الفريضة وضيّعتها ! فقال: يا هذا، إن لي عذراً وبي علة منعتني من الصلاة. قلت: وما هي ! قال: أنا رجل عليَّ دين، اختفيت في منزلي مدة بسببه، ثم حضرت اليوم الجامع للصلاة، فقبل أن تقام التفتُّ فرأيت صاحب الدين، فمن خوفه أحدثت في ثيابي، فهذا خبري، فأسألك بالله إلا سترت علي وكتمت أمري. فقلت: ومن الذي له عليك الدين ! قال: دعلج بن أحمد. وكان إلى جانبه صاحب لدعلج قد صلى وهو لا يعرفه، فسمع هذا القول، ومضى في الوقت إلى دعلج، فذكر له القصة. فقال دعلج: امض إلى الرجل واحمله إلى الحمام، واطرح عليه خلعة من ثيابي، وأجلسه في منزلي حتى أنصرف من الجامع. ففعل الرجل ذلك، فلما انصرف دعلج إلى منزله أمر بالطعام فأحضر، وأكل هو والرجل، ثم أخرج حسابه، فنظر فيه فإذا له عليه خمسة آلاف درهم. فقال له: انظر لا يكون عليك في الحساب غلط أو نسي لك نقد. فقال الرجل: لا. فضرب دعلج على حسابه، وكتب تحته علامة الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن خمسة آلاف درهم، وقال له: أما الحساب الأول فقد حللناك مما بيننا وبينك فيه، وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم، وتجعلنا في حل من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيانا في مسجد الجامع.

[وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٢/ ٢٧١، ٢٧٢]

عدي وشقيقته سفانة

وجّه رسول الله ﷺ إلى «طيْ» فريقا من جنده، يقدمهم علي رضي الله عنه، ففزع عدي بن حاتم الطائي، وكان من أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ، وفرّ إلى الشام، فصبّح على القوم، واستاق خيلهم ونعمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله ﷺ.

فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم «سفّانة بنت حاتم»، فقالت: يا

---

(١) يتنفل: يصلي النافلة (وهي غير الفريضة).

«محمد» هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ! فإن أبي كان سيّد قومه، يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائي.

فقال النبي ﷺ: يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لتحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. ثم قال: ارحموا عزيز قوم ذلّ، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهال. وامتنّ عليها بقومها فأطلقهم تكريماً لها.

فاستأذنته بالدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم ألا جعلك سبباً في ردها عليه.

فلما أطلقها رجعت إلى أخيها «عدي» وهو «بدومة الجندل»، فقالت له: يا أخي إيت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني رأيته هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة، ورأيت خصالاً تعجبني: رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه، فإن يكن نبياً فللسابق فضله، وإن يكن ملكاً فلن تزلّ في عزّ ملكه. فقدم «عدي» إلى رسول الله ﷺ فأسلم وأسلمت «سفانة».

[قصص العرب: ١/ ١٨٠]

صور من الإيثار[1]/ ١

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! إني مجهود ـ أي شديد الجوع ـ.
فأرسل إلى بيت أحد زوجاته يسألها: هل عندك شيء من طعام؟
فقالت: لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء.
فأرسل إلى بيوت أزواجه كلهن، يسألهن ...
فكان جواب كل واحدة: لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء.
فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟

(١) الإيثار: ضد الأثرة، ويعني تفضيل المرء غيره على نفسه، بينما تعني الأثرة الأنانية وحب الذات.

فقام رجل من الأنصار، وذهب به إلى بيته، ودخل على زوجته فقال:
أكرمي ضيف رسول الله!
وفي رواية، أنه سألها: هل عندك شيء من طعام؟.
فقالت: ما عندي إلا قوت صبياني.
فقال: علّليهم فإذا أرادوا الطعام فنوميهم ! فإذا كان الليل، فضعي الطعام بين يدي الضيف ! ثم قومي إلى السراج فأصلحيه، ثم أطفئيه ! وأريه أنا نأكل، حتى يأكل الضيف ويشبع.
ففعلت ما أشار به زوجها، فنومت أطفالها على الجوع، ووضعت الطعام بين يدي الضيف ؛ ثم قامت إلى السراج فأطفأته ـ وهي تظهر أنها تريد إصلاحه ـ وجلست مع زوجها، وضيفها على الطعام. وتظاهرا أنهما يأكلان ـ ولا يأكلان ـ حتى أكل الضيف وشبع وحمد الله تعالى. فنزل جبريل عليه السلام، وأخبر النبي ﷺ بخبر الأنصاري فذهب النبي ﷺ إلى الأنصاري، وقال له: إن الله تعالى عجب من صنيعكما بضيفكما البارحة.
يعني رضي عنكما كل الرضا.ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].
وحكي أنه اجتمع ثلاثون رجلاً في سفر، ولهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان، وأطفأوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رفع ؛ فإذا الطعام بحاله، ولم يأكل منه أحد، إيثاراً على نفسه!.
[حياة الصحابة، للكاندهلوي: ٢/ ١٧٠]

صور من الإيثار / ٢

عن أبي الجهم بن حذيفة العدوي قال:
انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي ومعي شنة من ماء، فقلت: إن كان به رمق سقيته من الماء، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به ينشغ(١)، فقلت: أسقيك؟ فأشار أي نعم، فإذا برجل يقول: آه. فأشار ابن عمي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام بن

(١) ينشغ: شهق حتى كاد يغشى عليه.

العاص أخو عمرو بن العاص رضي الله عنهما فأتيته. فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه. فأشار هشام أن أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، ثم أتيت ابن عمي، فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم.

[الجهاد، لابن المبارك: ١/ ١٢٣]

التسامح فوق الحق

كان عبد المطلب بن هاشم ، جد النبي صلى الله عليه وسلم ، يتفقد إبلاً له بظاهر مكة فمر به ثلاثة إخوة ، وهو يشرب حليباً في قعب ، فسلموا عليه ، وهم لا يعرفونه، طلب إليهم أن يشاركوه شربه، فشاركوه. ثم سألهم عن وجهتهم، فأخبروه بأنهم يقصدون مكة للالتقاء بسيدها عبد المطلب بن هاشم . ولما سألهم ماذا يريدون من سيد مكة هذا ، أخبروه بأن والدهم قد توفي، وأنهم اختلفوا على تقسيم الإرث بينهم ، حتى كادوا أن يلجؤوا للسيوف حكماً بينهم

قال عبد المطلب : وهل أنتم إخوة أشقاء من رجل واحد وامرأة واحدة ؟

قال أكبرهم : نعم ، نحن إخوة أشقاء ، من رجل واحد وامرأة واحدة .

قال عبد المطلب أليس أكرم وأشرف لكم ، يا أولادي ، أن تقلعوا شوككم بأيديكم ، وتغمضوا أكفكم على جراحكم ؟

قال أوسطهم : لقد حاولنا ، فلم نستطع

قال عبد المطلب وماذا يستطيع رجل غريب ، كعبد المطلب ، أن يفعل لإخوة أشقاء ، عزّ عليهم التفاهم فيما بينهم ؟

قال أصغرهم يستطيع ، وهو الطرف المحايد ، والرجل النزيه العارف ، أن ينطق بالحق .

قال عبد المطلب : ولكن الحق ، يا بني ، لا يُرضي طرفين .. فكيف يرضى به ثلاثة أطراف ؟

قال أكبرهم : الحق ، يا سيدي ، لا يغضب من يتبع الحق .

قال عبد المطلب : المشكلة يا بني تكمن في هذا : في من يتبع الحق ؟

قال أوسطهم الحق بيِّن يا سيدي... وهل يتغاضى عنه إلا الأعمى ؟!

قال عبد المطلب لو كان الأمر كما تقول ، لما جشمتم أنفسكم ، وأنتم إخوة

أشقاء ، عناء الحضور إلى مكة ، والبحث عن سيدها ، وإطلاعه على عوراتكم .

قال أصغرهم : لم يكن لنا ، يا سيدي ، بدٌّ من ذلك ، وإلا لكنا خسرنا أنفسنا

قال عبد المطلب : ولكن هناك شيء فوق الحق الذي تبحثون عنه عند سيد مكة ، يمكنه أن يختصر طريقكم إليه ، ويحل مشكلتكم ، ويعيد صفاءكم ووحدتكم .

قال الجميع (مندهشين) : فوق الحق ؟!

قال عبد المطلب : نعم ، فوق الحق .

قال الجميع : وما هو ؟!

قال عبد المطلب : التسامح ... التسامح . يا أولادي ، فوق الحق .

ونظر الإخوة إلى بعضهم ، ونظر إليهم عبد المطلب ، وكأنه يغريهم بمعانقة بعضهم بعضاً ، فقاموا وتعانقوا وتسامحوا ، وتنازل كل منهم عن حقه لأخويه .

وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما علموا أنهم في حضرة سيد قريش .

☆ ☆ ☆

الباب الثاني
باب الكرامات وغرائب الأمور

عقبة بن نافع يبني القيروان

عندما ذهب القائد المسلم عقبة بن نافع[١] رضي الله عنه لفتح شمال أفريقيا، أصدر أمره إلى كتيبة من الجيش لتقوم ببناء مدينة القيروان في تونس (وكانت تسمى يومئذ أفريقية)، فذهبت الكتيبة إلى المكان الذي ستبنى فيه المدينة فوجدته عبارة عن أحراش عالية، وأشجار كثيفة تسكنها الأسود والذئاب والثعابين، فرجعوا إلى قائدهم عقبة، ووصفوا له ما في المكان من وحوش وثعابين، فذهب عقبة بن نافع رضي الله عنه إلى ذلك المكان، ووقف على صخرة عالية ونادى بأعلى صوته: أيتها الأسود..، أيتها الذئاب..، أيتها الثعابين، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، أخرجي سالمة وإلا لا لوم علينا إذا قتلناك، ووقف الجيش يعجب لنداء عقبة بن نافع، كيف يخاطب أسوداً وذئاباً؟! وأفاعي؟! إن هذا لشيء عجاب. وبعد لحظات خرجت الأسود والذئاب والأفاعي، فقال له أحد الجنود: ألا نقتلها أيها القائد ؟ فرد عليه عقبة: لا لن نقتلها إننا إن قتلناها نكون قد خنّا العهد مع الله، فلقد أعطيناها الأمان، فكيف ننقض العهد الذي أمنّاها فيه[٢].

[البيان المغرب، لابن عذاري المراكشي: ١/ ٢٠]

(١) تابعي جليل وقائد إسلامي شجاع، وهو أول فاتح للمغرب، وصل إلى شواطئ الأطلسي أيام الأمويين . استشهد في معركة شهوذة أواخر عام ٦٣هـ ٦٤٨م. بنى مدينة القيروان.

(٢) يشكك بعضهم في صحة هذه الرواية ويعدها من الأساطير، ويقولون إن الوحوش إنما هربت من ضوضاء الجيش وهم يقطعون الأشجار وإضرام النار فيها، وليس من النداء. والله أعلم.

دعاء المكروب
(كن مع الله تجده تجاهك)

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يكنى أبا معلق، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره، وكان له ورع ونُسُك، فخرج ذات مرة فلقيه لص مقنع في السلاح فقال له: ضع متاعك فإني قاتلك، قال: شأنك بالمال فخذه، قال: لست أريد إلا دمك، قال: فذرني أصلي، قال: صلِّ ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى وأخذ يدعو، فكان من دعائه يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما يريد، أسالك بعزتك التي لا ترام، وملكك الذي لا يضام، وبنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، قالها ثلاثاً، فإذا هو بفارس بيده حربة رافعها بين أذني فرسه فطعن اللص فقتله ثم أقبل على التاجر، فقال له التاجر: من أنت فقد أغاثني الله بك، قال: إني ملك من أهل السماء الرابعة، لما دعوتَ سمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت ثانياً فسمعتُ لأهل السماء ضجة، ثم دعوتَ ثالثاً فقيل لي: دعاء مكروب، فسألت الله أن يوليني قتله، ثم قال: أبشر واعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء أستجيب له، مكروباً كان أم غير مكروب.

[تروى هذه القصة بطرق مختلفة، انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٧١ والإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ١٨٢]

وما يعلم جنود ربك إلا هو

قال هنّاد بن الأسود: تجهزت أنا وأبو لهب وابنه عتبة مع قوم لنا للسفر إلى الشام، فقال عتبة: والله لأنطلق إلى محمد ولأؤذينّه في ربه. فانطلق حتى أتى النبي ﷺ وقال: يا محمد إني كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل على النبي ﷺ وطلّق ابنته أم كلثوم وكانت زوجته يومئذٍ، فغضب النبي ﷺ ودعا عليه فقال: اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك. ثم رجع عتبة إلى بيته فذكر لأبيه ما جرى، فقال له أبوه (أبو لهب): يا بني والله ما آمن عليك من دعائه. وبعد ذلك سافرنا إلى الشام وفي الطريق نزلنا ليلاً في صومعة راهب، وأوصى أبو لهب قومه على ولده عتبة، وأخبرهم بخبر دعوة محمد على ولده، وطلب من القوم أن يفرشوا لعتبة بينهم ويحيطوا به من

كل جانب، وبينما هم نيام في الليل إذ جاء أسدٌ ضارٍ فجعل يشم رؤوس القوم واحداً واحداً، ثم يتركهم حتى إذا وصل إلى عتبة هجم عليه وقطع رأسه من جسده، وجعل أبو لهب يقول: والله لقد أصابته دعوة محمد.

أما أبو لهب فكان شديد العداوة للرسول ﷺ، فابتلاه الله بمرض معد كالطاعون يسمى (العدسة) فصار يهلوس ويدور في الطرقات خارج مكة فهلك، وبقي ثلاثة أيام وهو مطروح في الفلاة[1] حتى أنتن، فلم يجرؤ أحد أن يقترب منه كي لا يعديهم المرض، فلما خافوا العار حفروا بجانب جثته حفرة ولكزوه بعود حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه[2] ثم هالوا عليه التراب. وهذا أقل ما يجازى به أعداء الله وأعداء رسوله.

[صفوة التفاسير: ٣/ ٦١٨]

رب ضارة نافعة
(حكاية الأعمى والمقعد)

تدور هذه الحكاية حول أعمى ومقعد، كان الفقر يلفهما بعباءته وكانت الظروف محيطة بهما في بيئتها الصحراوية قاسية وصعبة. إذ القوي الشديد يطارد سبل العيش من هنا وهناك، بتعب ومشقة مع تلمّس للمداخل المعينة على ذلك بشتّى الحيّل... فالذهن يقدح، والجهد البدني يبذل، وماء الوجه يراق كل ذلك من أجل لعلّ وعسى...

ولما كان الرزق لا بد من السعي وراءه، ولما كانت المصائب تجمع المصابين، فقد تآلفا وشعرا بحاجة بعضهما إلى بعض، لعل قلباً رحيماً يعطف عليهما أو هاجساً وجدانياً يحنو عليهما. كانا يسكنان في قرية صغيرة، يساعدهما أهلها بما يتوافر من محاصيل زراعية، كلٌ بطاقته وقدرته المحدودة، وكان رزق أهل القرية كَفافاً[3]، فإذا نزل المطر، وجادت الأرض بعطاها، زادت مياه الآبار، وشعر الناس بوفرة في القوت، أما إذا قل النزول، فإن مياه الآبار تتلاشى تدريجياً، فيحصل الجدب، وتقل موارد الغذاء... وعند ذلك

---

(١) الفلاة: الصحراء.

(٢) واراه: أخفوا جثته تحت الحجارة.

(٣) كفافاً: بمقدار الحاجة من غير زيادة.

يهاجر القادر على الرحيل إلى ما يتوقع رزقاً أوفر له ولمن وراءه.

وفكر الرفيقان في سنة شهباء، بعد أن هجر القرية معظم سكانها، أن يسلكا الطريق الذي يذهب إليه المغادرون، ساقهما الهاجس في إحدى الجلسات بينهما، إلى الطموح للمغامرة، كما يغامر غيرهما، ولكن إلى أين، وكيف ؟! ومن يحملهما وينفق عليهما حتى يصلا إلى المكان المراد؟.. وأي مكان هو ؟ وهما وبما فيهما من عوق.

كبرت هذه الأمنية مع ترديد الرغبة، فقال أحدهما للآخر: الحل قد يكون عندي... إن القوافل التي تمر بقريتنا بين وقت وآخر خير وسيلة لنقلنا إلى حيث يذهب الآخرون، لنجد المجال الرحب لكسب الرزق، كما يكسبه غيرنا... ومعهم من نعرفه ونسمع باسمه. فردّ عليه صاحبه: ألا تظن بأن ما بنا من عاهات، يحول بينهم وبين مساعدتنا، ونحن عبء عليهم فمع علة كلّ منا يغلِّفُنا الفقر المدقع بعباءته. فرد عليه الآخر قائلاً: إن المثل يقول: كل ذي عاهة جبار.. فإن عابونا بفقرنا وبما حل بكل منا من عاهة، فلن تعوزنا الحيلة، التي تجعلهم يقبلون اصطحابنا معهم، وكان أن وجدا في قريتهما وفي القرى المجاورة من له مثل رغبتهما.

اعترضا إحدى القوافل المارة بالقرية، وذهب الأعمى إلى قائد الحملة، مبدياً رغبته وصاحبه في صحبتهم إلى الهدف المنشود، ومبينا أنهما سيأتيان ببضاعة، فصاحبه المعاق قد تحصَّل على إرث كبير، ولأن هذه أول مرة يسافر فيها، فقد أحب مشاركته ومرافقته، ونحن نريد منك ومن أهل الخبرة في القافلة التعاون والنصح، ولا مانع من المشاركة بقدر ما تريد.

عرض رئيس القافلة الأمر على بعض الخواص معه، فرحبوا بالأمر ظانين أن هذين المعاقين مكسب ثمين وصيد نادر.

جاء الرجلان لينضما إلى القافلة، ولكن بدون زاد ولا راحلة، فتحملهم الركب ظانين أن سرعة سير القافلة هي السبب، وأن الرواحل وما يتبعها ستلحق بهم... فكانا في اليومين الأولين موضع الإكرام.. إلا أن وزنهما بدأ يخف، حتى جاء اليوم السابع، الذي خرج فيه التهامس، إلى الإعلان والضجر المكبوت إلى مصارحة وتأفف.. بدأت الحيل والأفكار تطرح، وأساليب التخلص منهما تتوارد.

وفي ذات ليلة، والجمع حول موقد النار يتسامرون، قال أحدهم: ما رأيكم في الخلاص من هذين الرجلين ؟ قيل له بلهفة: وكيف ؟ قال: نغادر المكان مع طلوع

الفجر، ونتحرك بهدوء ولا ضجيج فيه ينبههما من نومهما، ثم نتركهما في المبيت، ولن يحركهما إلا حرارة الشمس، فإذا التمسونا نكون قد قطعنا القفار[١]، ولا مطية معهما يلحقان بنا.. حيث بانَ لنا من أمرهما أنهما عبء كبير علينا، مع عدم الاطمئنان إلى ما قالاه!! قالوا: هذا هو الرأي وعلى الجميع الحذر من انكشاف الأمر، لأن من الحكمة قضاء الحوائج بالكتمان.

مضت القافلة في طريقها، والرجلان يغطان في نومهما بعد جهد السفر وتتابع المسير، فأيقظهما حر الشمس. تحسّس الأعمى الأصوات أو الحركة، فلم يجد سوى الصمت المطبق كهدوء المقابر، فنبه صاحبه، فقام المقعد وفتح عينيه فلم يجد سوى الآثار والبَعَر، الذي يدل على مكان البعير، وآثار خطى الإبل التي توضح جهة الاتجاه.

تداول مع صاحبه الرأي وقال: إن بقينا في القفر هلكنا جوعاً وعطشاً. ولكن ما الحل وأنت لا تستطيع المشي؟؟! ولا بد من التعاون، قال المقعد: أرى أن تحملني على ظهرك، وأدلك الطريق. وافق الأعمى بعد تردد، لأن المضطر يركب الصعب. وبدأ المسير، هذا يسير ويحمل صاحبه على ظهره والآخر يوجهه الطريق السهل، ويباعده عن الأخطار.

شعر الأعمى بالجوع والتعب، قبل صاحبه لأنه يبذل جهداً كبيراً في المشي والحمل الثقيل على ظهره.. فأشار على المقعد بأنه يريد أن يستريح، وما عليه إلا أن يختار المكان المناسب للراحة، لعل غادياً أو رائحاً مع هذا الطريق يمر بهما فيطعمهما أو يسقيهما إذا تعذر عليه حملهما. فبشّر المقعد صاحبه، بأن طائراً على الشجرة، وما عليه إلا أن يقترب منه برفق، كي يتمكن هو من اصطياده، ثم يذبحه ويشويه لعله يسدُّ رمقاً من جوعهما.

وافقه الكفيف، فسار حيث يوجهه صاحبه برفق وحذر، حتى أمسك المقعد بالطائر مبشّراً صاحبه بهذا الصيد الثمين.. جلسا في ظل شجرة، وأخذ المقعد يزحف يميناً وشمالاً، ليجمع ما تيسر من أعواد الحطب اليابسة، ثم تشاغل في إضرام النار، من زناد كان معه، ثم بدأ في شواء الطائر بعد ما ذبحه... ولكن الشيطان أدخل

(١) القفار: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا كلأ.

الوساوس عليه حباً للأثرة(١) بدافع الحياة، قائلاً: كيف تصنع بهذا الطائر الصغير، إنه لا يكفي لأحدكما لقمة واحدة، فكيف تعطي هذا الكفيف نصفه؟.. وهذا النصف لضآلته لن يصل إلى المعدة... لانَ قلبه لهذه الخواطر، ولكن ما العمل وهذا الأعمى يشم الشواء، وينتظر نصيبه على أحرّ من الجمر ؟ وبينما المقعد في هواجسه لاحت منه التفاتة إلى ناحية جذع الشجرة، فأبصر ثعباناً كبيراً خُيِّل إليه أنه يترصده، وأن ريح الشواء قد أخرجه من حجره، ومن يدري فلعله جائع مثلهما. تلمّس شيئاً يضربه به، قبل أن ينقضّ عليه فيكون في لدغته الموت لا محالة، وهو الذي لا تستطيع قدماه حمله للهرب. ضرب الثعبان ضربة خفيفة من غصن وجده متدلياً، ولم تكن مثل هذه الضربة لتميته، ولكنها للتخويف فقط لعله يهرب عنه.. لكنه فوجئ بالثعبان وقد قلبته الضربة على جنبه ولا حراك به، ثم قرب منه فإذا هو ميت منذ مدة، وقد بدأ عليه أثر ديدان الأرض. عند ذلك خطرت بباله مكيدة للأعمى، بأن يشوي له جزءاً من الثعبان، ويطعمه إياه، ليستأثر هو وحده بالطائر، وبالطبع لن يعرف الأعمى شيئاً عن ذلك، ولما كان المتبادر بأن سم الثعبان في غاسقة(٢)، وهو الفم، فإنه ابتعد عن رأس الثعبان،واجتزأ من باقي الجسم بمقدار حجم الطائر فأدخله النار للشواء، ثم قدمه للأعمى الذي شوقه إليه الجوع، ورغّبته فيه الرائحة الشهية، فأكل بنهم أما هو فازدرد(٣) الطائر بكامله في لحظات، حمد الأعمى الله على هذه النعمة ومسح وجهة شاكراً ربه ثم رفع صوته قائلاً، يا إلهي.. إنني بدأت أرى.. هذا الذي أمامنا جبل، وهذه أشجار، وهذا أثر المسافرين... ثم نظر فيما تبقى في يده من طعام، فإذا هو جزء من الثعبان القريب من موقد النار فأدرك أن صاحبه قد خدعه، وخاف من سم الثعبان أن يقتله... فاغتاظ من تصرف هذا المقعد الخبيث، فقرر أن ينتقم منه فانقضّ على المقعد ورفعه فوق رأسه ودار به يميناً وشمالاً وقال له: ما جزاؤك وقد عملت بي ما عملت، وأنا الذي حملتك فوق ظهري طوال النهار فلا بد أن انتقم منك...

---

(١) الأثرة: الأنانية أي حب الذات

(٢) غاسق: ظلام ، والليل إذا اشتدت ظلمته.

(٣) ازدرد: ابتلع.

وأخذ المقعد يتلطف إليه ويترجاه أن يحسن إليه، وهو رفيق عمره، مذكراً إياه بصداقتهما الطويلة، وحاول الاعتذار ولكن الأمر لم يزد صاحبه إلا عناداً وغيظاً وقال: والله لأطرحنك في النار التي شويت لي فيها الثعبان، فهذا أقرب جزاء لك. ثم رماه فيها بكل قوته، ولكن الخوف وألم النار دفعا بالمقعد إلى محاولة الخروج من هذا الموقف الذي فيه هلاكه لا محالة، فظهرت فيه القوة الكامنة، التي يقول عنها المختصون: بأن الخائف المرعوب تظهر فيه طاقة فوق المعهود عنه... وإذا بالمُقْعد ينهض بشدة من النار ويولي هارباً بعد أن انحلت العقدة العصبية في رجليه بسبب الحرارة، وشدة الخوف...

وهكذا شاءت إرادة الله أن يخرج الاثنان من هذه المحنة التي مرت بهما متعافيين: الكفيف أرجع الله إليه بصره والمقعد انحلت رجلاه، وبرئتا مما فيهما.. تصافح الرجلان، وتعانقا وقالا: الحمد لله.. هذه نعمة من الله كل مقدماتها هذا اليوم مما تكرهه النفوس ويؤلم القلوب.. ولكن العافية جعلها الله حميدة، ولكل شيء سبب، فالله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه.. والمثل يقول: ربما صحت الأبدان بالعلل. ثم لحقا بالقافلة: فتعجب الناس منهما وسألوهما عما حصل لهما، فلما أخبراهم قالوا: والله ما أردنا إلا الخلاص منكما... ولكن الله أراد بكما خيراً... فاشكراً الله على ذلك، فبالشكر تدوم النعم... وصار الناس يتناقلون هذا المثل عندما يرون مبتلى ويقولون: عافاك الله كعافية المعاقين.

[عن المجلة العربية ع٢٤٨ سنة ١٩٩٨ بتصرف]

بطاقة نهر النيل

قال عبد الحكم : لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إليه حين دخل فقالوا له : أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنّة لا يجري إلا بها، فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر [وهو عندهم يدعى بؤنة] عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها، فأرضينا أبويها وأخذناها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل فيجري. فقال له عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام ليهدم ما كان قبله، فأقاموا ثلاثة أشهر والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء. فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه عمر أن قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد بعثت

إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم الكتاب إلى عمرو، فتح البطاقة فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك! فعرفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة! وقطع تلك السنّة السوء عن أهل مصر.

[أخبار عمر: ٣٥٥]

في الحياء شفاء

عن أبي القاسم الجهني قال: أن حظية[١] لبعض الخلفاء، أظنه الرشيد، قامت لتتمطى[٢]، فلما تمطت جاءت لترد يديها فلم تقدر وبقيتا حافتين، فصاحت وآلمها ذلك، وبلغ الخليفة فدخل وشاهد من أمرها ما أقلقه فشاور الأطباء، فكل واحد قال شيئاً واستعمله فلم ينجح، وبقيت الجارية على تلك الصورة أياماً والخليفة قلق بسبب ذلك، فجاءه أحد الأطباء، فقال: يا أمير المؤمنين، لا دواء لها إلا أن يدخل إليها رجل غريب، فيخلو بها ويمرخها[٣] مروخاً يعرفه، فأجابه الخليفة إلى ذلك طلباً لعافيتها، فأحضر الطبيب رجلاً وأخرج من كمه دهناً وقال: أريد أن تأمر يا أمير المؤمنين بتعريتها حتى أمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن، فشق ذلك عليه، ثم أمر أن يفعل ذلك ووضع في نفسه قتل الرجل، وقال للخادم: خذه فأدخله عليها بعد أن تعريها، فعريت وأقيمت. فلما دخل الرجل وقرب منها سعى إليها، وأومأ إلى فرجها ليمسه، فجزعت الجارية وغطت فرجها، قال لها الرجل: قد برئت، فلا تحركي يديك، فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد، وأخبره الخبر، فقال له الرشيد: كيف تعمل بمن شاهد فرج حرمتنا، فجذب الطبيب بيده لحية الرجل، فإذا هي ملصقة،

(١) الحظية: المرأة التي تفضل على غيرها في المحبة.

(٢) تمطى: تتبختر في مشيتها اختيالاً، وتمد يديها طرداً للكسل.

(٣) يمرخها: يدهنها بأنواع الدهن والطيب.

فانقلعت، فإذا الشخص جارية، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما كنت لأبدي حرمتك للرجال، ولكن خشيت أني أكشف لك الخبر، فيتصل بالجارية، فتبطل الحيلة، لأني أردت أن أدخل إلى قلبها فزعاً شديداً بحمى طبعها، ويقودها إلى الحمل على يديها وتحريكها وإعانة الحرارة الغريزية على ذلك، فلم يقع لي غير هذا! فأخبرتك به، فأجزل الخليفة جائزتها وصرفها. قال أبو القاسم: ولهذا استعملت الأطباء في علاج اللَّقوة[١] قلب الضعيفة الصفعة الشديدة على غفلة من ضد الجانب الملقو ليدخل قلب المصفوع من يحميه، فيحول وجهه ضرورة بالطبع إلى حيث صفع، فترجع لقوته.

[كتاب الأذكياء : ٢٠٠]

دعاء علاء بن الحضرمي

عن سهم بن منجاب قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي[٢] (دارين) وهي قرية في بلاد فارس فدعا بثلاث دعوات فاستجيب له فيهن: نزلنا منزلا فطلب الماء ليتوضأ فلم يجده، فقام فصلى ركعتين وقال: اللهم إناّ عبيدك، وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم اسقنا غيثاً نتوضأ منه ونشرب، فإذا توضأنا لم يكن لأحد فيه نصيب غيرنا. فسرنا قليلا فإذا نحن بماء حين أقلعت عنه السماء فتوضأنا منه وتزودنا وملأت أدواتي (إناء صغير من جلد) وتركتها مكانها حتى أنظر هل استجيب له أم لا ؟ فسرنا قليلاً ثم قلت لأصحابي: نسيت أدواتي. فجئت إلى ذلك المكان فكأنه لم يصبه ماء قط. ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم فقال: يا عليم، يا حليم، يا علي، يا عظيم، إنّا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلاً. فتقحّم البحر فخضنا ما يبلغ لبودنا. فخرجنا إليهم فلما رجع أخذه وجع البطن فمات فطلبنا ماءً نغسله فلم نجده فلففناه في ثيابه ودفناه.

---

(١) اللقوة: داء يعرض للوجه يعوج منه الشدق.

(٢) العلاء بن الحضرمي: (٠٠٠- ٢١هـ = ٠٠٠ ٦٤٢م) صحابي جليل من رجال الفتوح في صدر الإسلام أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، فولد بها العلاء ونشأ، ولاه رسول الله ﷺ البحرين سنة ٨هـ، وبعد وفاة النبي ﷺ أقره أبو بكر، ثم عمر، وقيل مات في البحرين. ويقال أن العلاء أول مسلم ركب البحر للغزو [الاعلام: ٥/ ٢٤٥].

فسرنا غير بعيد فإذا نحن بماء كثير فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فاستخرجناه فغسلناه، فرجعنا فطلبناه فلم نجده. فقال رجل من القوم إني سمعته يقول: يا علي، يا عظيم، يا حليم، أخف عليهم موتي، أو كلمة نحوها ولا تطلع على عورتي أحدا. فرجعنا وتركناه. والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

[ايقاظ أولي الهمم العالية إلى اغتنام الأيام الخالية: ٦٤]

وفي رواية:

ذكر أبو بكر الطرطوشي في كتابه الدعاء، عن مطرف بن عبد الله بن مصعب المدني قال: دخلت على المنصور فرأيته مغموما، فقال: يا مطرف، طرقني من الهم ما لا يكشفه إلا الله، فهل من دعاء أدعو به ؟ عسى يكشفه الله عني.

قلت يا أمير المؤمنين: حدثني محمد بن ثابت عن عمرو بن ثابت البصري قال: دخلت في أذن رجل من أهل البصرة بعوضة، حتى دخلت إلى صماخه فأنصبته وأسهرته، فقال له رجل من أصحاب الحسن البصري: ادع بدعاء العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله، الذي دعا به في المفازه وفي البحر فخلصه الله سبحانه.

قال: وما هو؟

قال: بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين فسلكوا مفازة وعطشوا عطشاً شديداً حتى خافوا الهلاك، فنزل فصلى ركعتين ثم قال: يا حكيم، يا عليم، يا علي، يا عظيم، اسقنا فجاءت سحابة مطر، فملؤوا الآنية وسقوا الركاب، ثم انطلقوا إلى خليج من البحر، ما خيض قبل ذلك اليوم، فلم يجدوا سفناً، فصلى ركعتين ثم قال: يا حكيم، يا عليم، يا علي، يا عظيم أجرنا. ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال:

جوزوا باسم الله، قال- أبو هريرة رضي الله عنه: فمشينا على الماء ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف.

فدعا الرجل بها، فو الله ما خرجنا حتى خرجت من أذنه لها طنين، حتى صكت الحائط وبرئ، فاستقبل المنصور القبلة ودعا بهذا الدعاء، ثم انصرف بوجهه إلي وقال: يا مطرف قد كشف الله عني ما كنت أجد من الهم.

[أنظر البداية والنهاية، لابن كثير: ٣٥٢]

☆ ☆ ☆

الباب الثالث
في الجهاد والفداء

زوج العيناء

عن ثابت البناني رحمه الله تعالى: أن فتى غزا زماناً وتعرض للشهادة فلم يصبها، فحدّث نفسه فقال: والله ما أراني إلا لو رجعت إلى أهلي فتزوجت، ثم نام في الفسطاط(١)، ثم أيقظه أصحابه لصلاة الظهر، فبكى حتى خاف أصحابه أن يكون قد أصابه شيء، فلما رأى ذلك قال: إني ليس بي بأس، ولكنه أتاني آتٍ وأنا في المنام فقال لي: انطلق إلى زوجتك العيناء(٢)، فقمت معه، فانطلق بي في أرض بيضاء نقية، فأتينا على روضة ما رأيت روضة قط أحسن منها، فإذا فيها عشر جوار ما رأيت مثلهن قط، ولا أحسن منهن، فرجوت أن تكون إحداهن، فقلت: «أفيكنّ العيناء؟» قلن: هي بين أيدينا ونحن جواريها.

قال: فمضيت مع صاحبي فإذا روضة أخرى، يضعف حسنها على حسن التي تركت، فيها عشرون جارية يضاعف حسنهن على حسن الجواري اللاتي خلفت، فرجوت أن تكون إحداهن، فقلت: أفيكن العيناء ؟ فقلن: هي بين أيدينا ونحن جواريها، حتى ذكر ثلاثين جارية، قال: ثم انتهيت إلى قبة من ياقوتة حمراء مجوفة قد أضاء لها ما حولها، فقال لي صاحبي أدخل، فدخلت، فإذا امرأة ليس للقبة معها ضوء، فجلست فتحدثت ساعة، فجعلت تحدثني، فقال صاحبي: أخرج انطلق، قال: ولا أستطيع أن أعصيه، فقمت فأَخَذَتْ بطرف ردائي فقالت: أفطر عندنا الليلة، فلما أيقظتموني رأيت إنما هو حلم فبكيت. فلم يلبثوا أن نودي في الخيل قال:

(١) الفسطاط: بيت الشعر أو الخيمة.

(٢) العيناء: ذات العيون الواسعة أو الحسنة.

فركب الناس فما زالوا يتطاردون، حتى إذا غابت الشمس وحل للصائم الإفطار، أصيب تلك الساعة وكان صائماً، وظننت أنه من الأنصار.

[تهذيب مصارع الأشواق ١٣٦]

سراقة بين جائزتين

(مئة من الإبل أو سوارا كسرى)

هبت قريش ذات صباح وَجِلَةً مذعورة، فقد سرى في أنديتها أن محمداً قد بارح مكة مستتراً تحت جنح الظلام، فلم يصدِّق زعماء قريش النبأ... واندفعوا يبحثون عنه في كل مكان، وجنّدوا من لديهم من قفاة الأثر(١) لتحديد الطريق الذي سلكه، ثم أعلنوا: أن من يأتيهم بمحمد حياً أو ميتاً فله مئة من كرائم الإبل. فما كاد سراقة بن مالك بن جشعم يسمع بالجائزة حتى اشرأبّت إليها أطماعه، فلبس درعه وتقلد سلاحه وامتطى صهوة جواده وطفق(٢) يبحث عن محمد، فلم يستطع الوصول إلى محمد إذ رآه، فقد غاصت قوائم فرسه في الرمل، فأدرك أنه ممنوع منه، فنادى: يا محمد، أدعو الله أن يطلق قوائم فرسي ولك علي أن أرد عنك الناس.. فدعا له الرسول، فانطلق فرسه، ثم قال: «كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟»

فقال سراقة: كسرى بن هرمز؟

فقال ﷺ: «... كسرى بن هرمز»

ومرت سنوات طويلة أظهر الله فيها دينه وأعز جنده، ولحق الرسول ﷺ وصاحبه بالرفيق الأعلى، وآلت دولة الخلافة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي أيام عمر أراد كسرى ملك الفرس الذي كان يسمى (يزدجرد) أن يحوِّل أمة الإسلام إلى أمة مجوسية تعبد النار كالفرس، لأن أهل فارس كانوا يعبدون النار ولا يعرفون لهم إلهاً إلا النار، فأرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جيشاً تعداده ثلاثون ألف مقاتل، وعزم على أن يقود الجيش بنفسه، ولكن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه منعه من ذلك وقال له: بل استخلف من يقود هذا الجيش يا أمير المؤمنين، فوقع

---

(١) قفاة الأثر: المختصون بتتبع الأثر، أي آثار الأقدام على الأرض

(٢) طفق: استمر.

اختيار عمر على رجل من العشرة المبشرين بالجنة هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فتولى سعد قيادة الجيش وتحرك من المدينة المنورة إلى بلاد فارس التي كانت تضم إيران والعراق، وكانت هذه الجبهة قد استعصت على كبار الفاتحين من قبل، فاستعد الجيش للتحرك إلى جبهة القتال وودعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال في وداعه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى بركة الله، يا سعد بن أبي وقاص، لا يغرنّك أنك خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، فإن الناس في ذات الله شريفهم ووضيعهم سواء يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، يا سعد أوصيك ومن معك بتقوى الله، فإننا إذا عصينا الله تساوينا مع عدونا في المعصية، وزاد علينا في العدد والعُدة فهُزِمنا، يا سعد أنا لا أخشى على الجيش من عدوه إنما أخشى على الجيش من ذنوبه، سر على بركة الله.

وسار سعد رضي الله عنه بجيشه، وعبر الطريق إلى القادسية. وما أن وصلت أخبار المسلمين إلى كسرى في المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية حتى طلب إلى رستم وهو قائد كبير من قواده أن يقود الجيش لملاقاة المسلمين، وكان لرستم مكانة في قلوب أهل فارس، فأرسل إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يرسل إليه وفداً يفاوضهم، فكلّف سعد ثلة من دهاة المسلمين لهذه المهمة، وهم النعمان بن مقرن، والمغيرة بن شعبة، وعاصم بن عمرو، والأشعث بن قيس، فذهب الوفد ودخلوا على كسرى في قصره الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً في الفن والمعمار والأثاث والترف، فقال كسرى للترجمان: سلهم ما الذي جاء بهم إلينا ؟ وما الذي دعاهم إلى غزونا ؟ فقالوا له يا كسرى جئنا لندعوك إلى توحيد الله، فاستشاط كسرى غضباً وقال: فإن لم أستجب ؟ قالوا: تدفع الجزية، فقال: فإن لم أفعل ؟ قالوا: بيننا وبينك السيف. فقال لحرسه: أخرجوهم أذلاء، ولولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم، ثم قال: من أشرفكم ؟ قالوا: لماذا تسأل عن أشرفنا ؟ قال: فإنني ساضع حملاً من التراب على رأسه، وإن لم يحمل التراب على رأسه فلأقتلنكم في مكانكم هذا، قال عاصم بن عمرو رضي الله عنه: أنا أشرفهم، وادّعى ذلك ليحمل التراب عن إخوانه، فحمله

على عنقه وعادوا جميعاً به إلى سعد متفائلين بالظفر، متأولين[١] أن كسرى أعطاهم أرضه. وإنما قصد كسرى أن يعطيهم التراب من الجزية ولا ينالون منه إلا المذلة التي تكون بحمل التراب.

وتحرك الجيش الفارسي بقيادة رستم إلى أرض المعركة، فأرسل رستم رسالة إلى سعد قبل المعركة وقال له فيها: أرسل لي رجلاً من عقلاء قومك لأحدثه ويحدّثني، وبذلك انتقلت المفاوضات من كسرى إلى رستم.

فأرسل له سعد رجلاً يسمى (رِبعيّ بن عامر) فدخل ربعي إلى خيمة رستم، فوجد فيها ما لم تر عيناه من قبل... سجاداً فاخراً، وزرابي[٢] مبثوثة، وأكواباً مصفوفة، وسرراً مطرزة، ودخل يحمل رمحه يغرزه في السجاد كلما خطا خطوة، وجلس أمام رستم على الأرض، ورفض أن يجلس على كرسي الذهب الذي هيؤوه له، فقال له رستم: ما الذي جاء بكم إلينا ؟ فقال ربعي: إن الله تعالى ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ولما لم يجد رستم فائدة في الكلام مع ربعي أنهى الحديث معه وحمَّله رسالة إلى سعد يطلب فيها أن يوفد إليه رجلاً آخر يفاوضه، غير هذا الرجل الذي وصفه بأنه غليظ جداً فأرسل سعد رضي الله عنه إليه المغيرة بن شعبة، وكان المغيرة من دهاة العرب، فدخل وجلس كما جلس صاحبه، فقال رستم: مالذي جاء بكم إلينا ؟ قال: جئنا لنخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور لا إله إلا الله. فقال له رستم: فإن لم نفعل ؟ قال: فالجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، قال: فإن لم نفعل ؟ قال: فالسيف على رقابكم. فقال رستم فإن مثلنا ومثلكم كمثل الذباب الذي قال: من الذي يوصلني إلى العسل وله درهمان، فلما سقط في العسل قال من يخرجني من العسل وله أربعة دراهم. إذهب إلى صاحبك وقل له: رستم يقول لك: ليدفننكم في أرض القادسية جميعاً.

وكانت هذه آخر المفاوضات السلمية بين الطرفين. وبات جيش المسلمين يعدّ السلاح ويتهيأ لخوض المعركة، وكان عدد الأعداء مئة وعشرين ألف جندي، وكان

---

(١) التأويل: التفسير، رد الكلام والتصرفات إلى الغاية المرجوة منها.

(٢) الزرابي: الوسائد التي تبسط للجلوس عليها . مفردها: زربيّة.

عدد المسلمين ثلاثين ألفاً، وكان مع جيش الفرس ثلاثة وثلاثون فيلاً. واستعد الجميع للمعركة، وأصدر سعد رضي الله عنه أمره إلى مؤذني الجيش أن يكبِّروا ويرفعوا أصواتهم بالتكبير في جميع الكتائب، فبدؤوا ذلك اليوم بصلاة الفجر، وقام أئمة الكتائب المجاهدون بالأذان والتكبير، ثم دارت المعركة بين الطرفين، ففوجئ المسلمون بالفيلة التي أحضرها الفرس معهم إلى أرض المعركة، فقد كانت تخيف إبل المسلمين، لأن الإبل إذا رأت الفيلة ولَّت مدبرة. وعندئذ قال القعقاع بن عمرو التميمي: لا بد أن نضع على وجوه الإبل براقعَ حتى تبدو وكأنها جان كي ترهب الفيلة، ولما برقعوا الإبل، ورأتها الفيلة خافت وولت مدبرة وألقت ما على ظهورها. ودارت المعركة ثلاثة أيام متتالية، وعند غروب شمس اليوم الثالث كان أحد الجنود المسلمين وهو هلال بن علقمة رضي الله عنه في خيمة رستم فانقض عليه فقتله، وصاح بأعلى صوته: الله أكبر، قتلت عدو الله رستم، ولما شاع الخبر في صفوف الجيش الفارسي بمقتل قائدهم ضعفت عزائمهم وانهارت معنوياتهم وانحلت عراهم، فولوا مدبرين، فركب المسلمون أكتافهم وأعملوا السيف في رقابهم، وتمت كلمة ربك الحسنى على أتباع الرسول محمد ﷺ.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصلي كل يوم ويدعو ربه ويسأله النصر على أعدائه. قال المؤرخون: إن عمر رضي الله عنه لم يذق طعم النوم في تلك الأيام، فتقرحت أجفانه من قلة النوم، وكان يخرج إلى خارج المدينة نهاراً ينتظر البريد من الميدان، وبينما هو ذات يوم خارج المدينة ينتظر الأخبار مما تحمله الركبان، إذا برجل راكب فرسه يدخل المدينة مسرعاً، فسأله عمر: كيف حال المسلمين يا أخي ؟ والرجل لا يعرف أنه أمير المؤمنين، فقال: أبشر بنصر الله يا أخا الإسلام، وأخذ يجري قاصداً بيت الخلافة وعمر يجري وراءه، إلى أن أوقفه الناس وقالوا له: أمير المؤمنين يجري وراءك، فوقف الرجل لما علم أنه أمير المؤمنين وقال: المعذرة يا أمير المؤمنين، فقال عمر: لا بأس عليك يا أخي، كيف تركت إخواننا وراءك ؟ قال: أبشر بنصر الله يا أمير المؤمنين، وسلّمه رسالة من سعد بن أبي وقاص ففتحها عمر رضي الله عنه فإذا فيها: أبشر بنصر الله يا أمير المؤمنين، فقد ركبنا أكتاف عدونا وأعملنا فيهم السيف، إن الجيش كان إذا جاء النهار فهُم فرسان كالأسود الكواسر، فإذا جن الليل سمعتُ لهم دوياً بالقرآن كدوي النحل. لقد استشهد منا

رجال سبقونا إلى ربهم ونسأل الله أن يلحقنا بهم، وما بقي من الجيش رجال يرجون الشهادة في سبيل الله. ولما انتهى عمر رضي الله عنه من قراءة الرسالة خرّ على الأرض ساجداً شاكراً الله تعالى، وأخذ يبكي وسالت دموعه على خده الشريف، فقالوا له: يا أمير المؤمنين أتبكي يوم النصر ؟ فقال: أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك.

وقعت معركة القادسية في شهر شوال من العام الرابع عشر من الهجرة واستراح الجيش ليبدأ معركة أخرى مع فارس هي معركة العبور، عبور الجيش الإسلامي لنهر دجلة، فلما آن الأوان لخوض النهر ليدكوا قصور كسرى في المدائن. قال سعد بن أبي وقاص: إن كسرى لو ترك في عاصمة الفرس لن يتنازل عن معارك أخرى. فكيف تعبرون النهر إليه ؟ فقال له عاصم بن عمرو التميمي: أيها الأمير سأخوض النهر بفرسي هذا، فإذا رآني الجنود أخوضه تبعوني وخاضوه، فأذِنَ له بذلك، فقام بتشكيل ما يسمى بكتيبة الأهوال، وهي أول كتيبة عرفت العبور في التاريخ العسكري، وركب عاصم فرسه ووقف على شاطئ النهر وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. توكلت على الله، ونزل بالفرس إلى النهر، والماء لا يكاد يصل إلى نصف قوائم الفرس، وعبر نهر دجله وتبعه ستون من الجنود بخيولهم، فرأى ذلك القعقاع بن عمرو وهو أحد الفرسان المغاوير فقال: ما يمنعني أن أخوض النهر كما خاضوه فتبعه مع ستمائة فارس، وإذا ببقية الجيش الألوف المؤلفة يخوضون النهر بخيولهم، ولقد أقسم المؤرخون أنه لم يغرق منهم أحد، وكان أهل فارس يقفون على الشاطئ الآخر لا يحركون ساكناً، فلما رأوهم عابرين الماء على خيولهم ولّوا مدبرين وقالوا: إن هؤلاء ليسوا إنساً، وإنما هم من عالم الجن والشياطين. ولما علم كسرى بقرب النهاية ولّى فاراً من البلاد ولم يعقب[1].

ويدخل القائد المسلم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه القصر وهو حافي القدمين لابساً عمامته، قابضاً على لحيته وبيده رمحه، يدخل قصراً لم تشهد العمارة له مثيلاً، ارتفاعه خمسة عشر متراً، وجبهته ستون متراً وفيه من السجاد ما تغوص فيه الأقدام،

---

(١) لم يعقب: لم يرجع، وقيل إن كسرى عندما هرب أخذ معه ألف طاهٍ، وألف مغن، وألف قيم للنمور، وألف قيم للبزاة وآخرين، وكان يستقل هذا العدد (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٤).

وفيه من نعيم الدنيا ما لم يره أحد، وكان سعد بن أبي وقاص يردد قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤- ٤٥].

ودخل القصر يخرق السجاد برمحه وهو يتلو: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٩].

وكان في القصر نار تعبد من دون الله فأخذ يكبر ويقول: الله أكبر الله أكبر.. فانطفأت نار الشرك بإذن الله، ثم جُمعت الغنائم، فوزعها سعد على أفراد جيشه، وأرسل بنصيب بيت المال إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مع سواري كسرى، فاستلمها عمر ونظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله وقال له: إن قوماً فعلوا هذا لأمناء فقال له علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، عففت فعفت رعيتك ولو رتعت رتعوا. ثم قال عمر: أين سراقة بن مالك ؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هذا وعد رسول الله لك، فبكى سراقة رضي الله عنه إذ تذكر موقفه من رسول الله ﷺ قبل إسلامه فلبسهما ثم نزعهما وقال: هما صدقة مني لبيت المال يا أمير المؤمنين.

[أيام العرب في الإسلام: ٢٣١- ٢٩١]

تضحية وفداء
(في حصار برذعة)

حاصر الترك قبل إسلامهم مدينة إسلامية في أذربيجان تسمى (برذعة) حصاراً شديداً وضيقوا عليها، فأمدهم الخليفة الأموي بجيش كثيف، يقوده سعيد الحرشي، وقد علم الترك بقربه منهم فخافوا، وأرسل سعيد إلى المسلمين المحاصرين في برذعة رجلاً من أصحابه يعرفونه جيداً ليخبرهم بوصول النجدة إليهم ويأمرهم بالصبر، خوفاً من أن يستسلموا قبل أن يصل إليهم. فسار الرجل ولقيه قوم من الترك، فأخذوه ثم سألوه عن حاله، فكتمهم فكذبوه، فأخبرهم بخبره وصدقهم. فقالوا: إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك وإلا قتلناك، فقال: ماذا تريدون؟

قالوا: أنت عارف بأصحابك ببرذعة وهم يعرفونك، فإذا وصلت تحت السور

فنادهم وأخبرهم أن ليس خلفي مدد ولا من يكشف ما بكم من غم، وإنما بعثت جاسوساً. فأجابهم إلى ذلك، فلما صار تحت السور وقف بحيث يسمع أهلها كلامه، فقال لهم: يا أهل برذعة. قالوا: نعم، قال: أتعرفونني ؟ قالوا: نعم أنت فلان بن فلان، قال: ألا إني مخبركم أن سعيداً الحرشي وصل إلى مكان كذا وكذا في مئة ألف سيف، وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد، وهو مصبحكم أو ممسيكم. فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير والتهليل. وقتلت الترك ذلك الرجل ورحلوا عنها، ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين. رحم الله الجندي المسلم الشهيد.

[هناك روايات مختلفة لهذه الواقعة، واختلاف في أسماء الأماكن والأشخاص، انظر: البداية والنهاية: ٩/ ٢١٠]

أم إبراهيم الهاشمية تخطب الحورية لابنها

من النماذج الرائعة التي حفظها لنا تاريخنا الإسلامي المجيد، قصة تلك المرأة الهاشمية التي سمعت الحث على الجهاد، ووصف ما أعد الله عز وجل من النعيم المقيم للمجاهدين في سبيله، وخاصة للشهداء الذين بذلوا أنفسهم رخيصة في سبيل الدفاع عن الإسلام، فما كان منها إلا أن خطبت لولدها الحورية التي وصفها الإمام العلامة عبد الواحد بن زيد، رحمة الله تعالى، وبذلت مهراً لها عشرة آلاف دينار، على أن يخرج ولدها مجاهداً في سبيل الله، راغباً في الشهادة، لينال المطلوب، ويحقق لأمه أمنيتها في تزويجه بتلك الحورية المسماة (العيناء المرضية).

كان في البصرة نساء عابدات، فأغار العدو على ثغر[1] من ثغور المسلمين، فانتدب الناس للجهاد، فقام عبد الواحد بن زيد البصري في الناس خطيباً فحضهم على الجهاد، وكانت أم إبراهيم هذه حاضرة في مجلسه، وتمادى عبد الواحد، ثم وصف الحور العين، وذكر ما قيل فيهن من شعر في وصف الحوراء وأنشد في صفة حوراء:

غادةٌ ذات دلالٍ ومرح ... يجدُ النّاعِتُ فيها ما اقترح
خلقت من كل شيءٍ حسن ... فيه أوصافٌ غريباتُ المَلَح
وبعين كحله من غَنجِها ... وبخد مسكه فيه رشح

(١) الثغور: جمع ثغر وهو الموضع على حدود البلاد يُخاف هجوم العدو منه.

نـاعـم تجـري على صفحتـه نـضـرة الملك ولألاء الفـرح
أتــرى خاطبهــا يســمعها إذ تدير الكأس طوراً والقدح
في ريــاض مونـق نـرجـسه كلما هــبّ لـه الريـح نفـح
وهي تدعوه بود صادق مُلئ القلب بـه حـتى طفـح
يا حبيباً لست أهوى غيره بالخواتيـم يـتـم المفتتـح
لا تكونــن كـمـن جـد إلى مـنتهى حاجتـه ثــم جمـع
لا فما يخطب مثلـي من سها إنما يخطب مثلي من ألح

فماج القوم بعضهم في بعض، واضطرب المجلس فوثبت أم إبراهيم من وسط الناس وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد ألستَ تعرف ولدي إبراهيم، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه على بناتهم، وأنا أضن[1] به عليهم، فقد والله أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عروساً لولدي، فكرر ما ذكرت منه من حسنها وجمالها، فأخذ عبد الواحد في وصف حوراء، ثم أنشد:

فلو وطأت بالنعل منها الحصى لأعشبت الأقطار من غير ما قطر
ولو شئت عقد الخصر منها كغصن من الريحان ذي ورق
يكاد اختلاس اللحظ يجرح جارح وهم القلب من خارج السرِّ

فاضطرب الناس أكثر فوثبت أم إبراهيم، وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد! قد والله أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عروساً لولدي فهل لك أن تزوجه منها وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار، ويخرج معك في هذه الغزوة، فلعل الله يرزقه الشهادة، فيكون شفيعاً لي ولأبيه يوم القيامة ؟ فقال لها عبد الواحد: لئن فعلتِ لتفوزن أنت وولدك وأبو و لدك فوزاً عظيماً.

ثم نادت ولدها: يا إبراهيم! فوثب من وسط الناس، وقال لها: لبيك يا أماه، قالت: أي بني أرضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك[2] في سبيله وترك العود في الذنوب ؟ فقال الفتى: أي والله يا أماه رضيت أي رضا، فقالت: اللهم إني أشهدك

---

(١) ضن به عليهم: بخل.

(٢) المهجة: دم القلب، والروح، ومن كل شيء خالصه.

أني زوجت ولدي هذا من الجارية ببذل مهجته في سبيلك وترك العود في الذنوب فتقبله مني يا أرحم الراحمين.

قال: ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار، وجهز الغزاة في سبيل الله، وانصرفت، فابتاعت لولدها فرساً جيداً، واستجادت له سلاحاً، فلما خرج عبد الواحد، خرج إبراهيم يعدو، والقراء حوله يقرؤون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما أرادت فراق ولدها دفعت إليه كفناً وحنوطاً(١) وقالت له: أي بني! إذا أردت لقاء العدو فتكفن بهذا الكفن، وتحنط بهذا الحنوط، وإياك أن يراك الله مقصراً في سبيله، ثم ضمته إلى صدرها، وقبلته بين عينيه، وقالت: يا بني! لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات القيامة(٢).

قال عبد الواحد: فلما بلغنا بلاد العدو، ونودي في النفير وبرز إبراهيم في المقدمة، فقتل من العدو خلقاً كثيراً، ثم اجتمعوا عليه فقُتِل، قال عبد الواحد: لا تخبروا أم إبراهيم بخبر ولدها حتى ألقاها بحسن العزاء لئلا تجزع فيذهب أجرها.

فلما وصلنا البصرة خرج الناس يتلقوننا، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج، قال عبد الواحد: فلما بصرت بي قالت: يا أبا عبيد هل قُبِلَتْ مني هديتي فأهنأ، أم رُدَّتْ عليّ فأعزّى ؟ فقلت لها: بل قُبلتْ، إن إبراهيم حي مع الأحياء يرزق، قال: فخرت ساجدة لله شكراً، وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب ظني وتقبل نسكي، وانصرفت.

فلما كان الغد أتت إلى مسجد عبد الواحد فنادته: السلام عليك يا أبا عبيد، بُشراك، فقال: لا زلت مُبَشَّرة بالخير، فقالت له: رأيت البارحة ولدي إبراهيم في روضة حسناء، وعليه قبة خضراء، وهو على سرير من اللؤلؤ، وعلى رأسه تاج وإكليل وهو يقول لي: يا أماه أبشري فقد قبل المهر وزفت العروس.

[تهذيب مصارع الأشواق: ٨٨- ٩٠]

---

(١) الحنوط: أخلاط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم، من مسك وصندل وعنبر وكافور.. إلخ.

(٢) عرصات القيامة: العرصة ساحة الدار، والبقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

قتل كعب بن الأشرف

لما انتصر المسلمون ببدر ورأى الأسرى مقرنين بالحبال خرج كعب بن الأشرف وهو من زعماء اليهود إلى قريش يبكي قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين، فقال عليه السلام: من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي: أتحب أن أقتله ؟ قال: نعم، قال: أنا لك به وأذن لي أن أقول شيئاً أتمكن به، فإذنَ له، ثمّ خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له: إن هذا الرجل (يعني رسول الله) قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا (أجهدنا وشق علينا). و إني قد أتيتك أستسلفك طعاماً، فقال (شامتاً): وأيضاً والله لتملنّه. قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين[1]. قال: نعم ولكن ارهنوني. قالوا: أي شيء تريد ؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبّ أحدهم فيقال رُهن بوسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح)، فرضي فواعده ليلاً أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع، وعباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر وكلهم أوسيون[2]، فناداه محمد بن مسلمة، فأراد أن ينزل فقالت له امرأته وكانت عروساً: أين تخرج الساعة وإنك امرؤ تُحارب ؟ فقال: إنما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، فقالت: أسألك بالله أن لا تنزل إليهم، والله إني لأسمع صوتاً يقطر منه الدم، قال: لا عليك إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب. ثمّ قال محمد لمن معه: إذا جاءني فإني آخذ بشعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه، فنزل كعب إليهم متوشحاً سيفه وهو ينفح منه ريح المسك، فقال محمد: ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب، قال: إن عندي ابنة فلان وهي أعطر العرب. قال: أتأذن لي أن أشم رأسك، قال: نعم، فشمه، فلما استمكن منه قال: دونكم عدو الله فاقتلوه ففعلوا. فأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان

---

(١) الوسق: كيس من تمر يعادل ستين صاعاً.

(٢) أوسيون: من قبيلة الأوس.

يقصدها بهم. ثمّ أتوا النبي ﷺ وهو ينتظرهم في المسجد ليلاً فقال: أفلحت الوجوه، قالوا: ووجهك يا رسول الله أفلح.

[نور اليقين: ١٤٧]

قتل أبي رافع

كان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين وهو سيدهم أبو رافع سلام بن أبي الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز، لما كان له من المهارة في التجارة، وكان ذا ثروة طائلة يقلّب بها قلوب اليهود كما يريد، فانتدب له عليه السلام من يقتله، فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عَتِيك ؛ ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف، فإن من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله ﷺ، فلا تعمل الأوس عملاً إلا اجتهد الخزرج، في مثله فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصّاهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأةً، فساروا حتى أتوا خيبر، فقال عبد الله لأصحابه: مكانكم فإني منطلق للبوّاب ومتلطف له لعلي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس فهتف به البوّاب: أدخل يا رجل إن كنت تريد الدخول فإني أريد أن أغلق الباب، فدخل وكمن قرب الباب والبوّاب لم يشعر به، وعُلّقت المفاتيح على وتد، ثم استغرق الحارس في نومه، فأخذ ابن عتيك المفاتيح وفتح باب الحصن ليسهل له الهروب، ثمّ توجه إلى بيت أبي رافع وصار يفتح الأبواب التي تُوصِل إليه، وكلما فتح باباً أغلقه من الداخل حتى انتهى إليه، فإذا أبو رافع في بيت مظلم وسط عياله، فلم يمكنه تمييزه فنادى: يا أبا رافع، قال: من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فأخطأه، وعند ذلك قالت امرأته: هذا صوت ابن أبي عتيك، فقال لها: ثكلتك أمك وأين ابن أبي عتيك الآن؟! فعاد عبد الله للنداء مغيراً صوته فقال: ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع ؟ قال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً، فتوارى ثمّ جاءه كالمغيث وقد غيّر صوته كذلك فوجده مستلقياً على ظهره، فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم، ثمّ خرج من البيت مسرعاً يفتح الأبواب باباً باباً، وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق الدرجات المؤدية إلى مخدع أبي رافع فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ثمّ انطلق إلى أصحابه وقال: النجاة النجاة

قتل والله أبو رافع، فانتهوا إلى الرسول ﷺ فحدثوه ثمّ قال لعبد الله: أبسط رجلك فمسحها عليه السلام فكأنه لم يشتكها قط وعادت أحسن ما كانت. فانظر رعاك الله إلى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء الرسول ﷺ فرضي الله عنهم وأرضاهم.

[نور اليقين: ٢٠٣]

الحرب خدعة
نعيم بن مسعود في يوم الخندق

لما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير(١) من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبني النضير، وبني قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين واشتد الأمر واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١] فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي. فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذِّل(٢) عنّا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال يا بني قريظة: قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه(٣). وأموالهم وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم، لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين

---

(١) جم غفير: مجتمعين كثيرين.

(٢) خَذلَه: حمله على الفشل وترك القتال.

(٣) ظاهرتموهم: ساعدتموهم وأعنتموهم.

الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً، قالوا: أشرت بالرأي، ثم أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم، وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر أحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموه علي، قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إنا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم ثم نكون معك على من بقي منهم، فاستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بني قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليه منكم واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر[1] فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن يُخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فتفرقوا وارتحلوا، وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التي عم نفعها وحسن وقعها.

[السيرة النبوية: ٣/ ٢٤٠]

(١) جم غفير: مجتمعين كثيرين.

عبادة بن الصامت يرعب المقوقس

لما جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون، رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين فأرسل إليهم وفداً ليعلم ما يريدون، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفداً، فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عبادة ابن الصامت، وكان عبادة أسود، شديد السواد طويلاً حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون هو الذي يتولى الكلام. فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت فهابه المقوقس لسوداه وقال لهم: نحّوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني، فقال رجال الوفد جميعاً: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإننا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله، فقال لهم: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا: كلا وإنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً وليس ينكر السواد فينا، فقال المقوقس لعُبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة، فقال عبادة – وقد رأى فزع المقوقس من السواد: إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني.

[من روائع حضارتنا: ٥٦]

عمر يتسلم مفاتيح القدس

في السنة الخامسة عشرة للهجرة حاصر المسلمون مدينة القدس، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد حصار دام أربعة أشهر تقريباً طلب قادة الجيش الإسلامي المرابط حول المدينة، وهم عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وأبو عبيدة عامر بن الجراح من حاكم المدينة آنذاك واسمه (البطريرك صفرونيوس) تسليمهم مفاتيح المدينة، فأبى وقال لهم: إننا قرأنا في كتبنا أوصافاً لمن يتسلم مفاتيح مدينة القدس ولا نرى هذه الأوصاف فيكم، ولا نسلمها إلا إليه. فأرسَلوا إلى الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطلبوا إليه القدوم، وأخبروه أن حاكم المدينة أبى أن يسلمهم مفاتيح المدينة إلا أن يحضر هو لتسلمها، فركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه غلامه، وكانا يتعاقبان ركوب الدابة تارة وتارة، ثم

يتركانها تسير وحدها لتريح ظهرها تارة ثالثة، وهكذا حتى نهاية الرحلة إلى بيت المقدس.

وعلى مشارف الشام كتب عمر إلى عماله أن يوافوه بالجابية[1]. وهي بلدة بدمشق، فوافوه بها، وكان أول من لقيه من القادة يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد بن الوليد، جاؤوا على الخيول عليهم الديباج[2]. فغضب الفاروق إذا رآهم على هذه الحال، فنزل عن راحلته وأخذ يقذفهم بالحجارة وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم، إياي تستقبلون بهذا الزي ؟ وإنما شبعتم منذ سنين وأنتم في أرض يملؤها العدو، قالوا: يا أمير المؤمنين إنها ترافقنا – أي الخيل – وإن علينا السلاح ما تركناه، قال: نعم إذاً.

وفي طريقهم إلى بيت المقدس إذا بمخاضة[3] من الطين تعترضهم فينزل عمر عن دابته ويسير في الطين بقدميه حافياً، فيسأله أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة: أتخوض الطين بقدميك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر: يا ابن الجراح لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله، ثم ركب عمر، فلما أقبلوا على المدينة قال الغلام، وكان دوره في الركوب: يا أمير المؤمنين هلا ركبت ونزلتُ أنا فإنا مقبلون على مدينة فيها مدنية وحضارة، وفيها الخيول المطهمة[4] المسرجة والعربات المذهبة، فإن دخلنا على هذه الحال – أنا راكب وأنت ماش تقود الناقة – استخفوا بنا وسخروا منّا، فقال عمر: دورك.. ولو كان دوري ما نزلت، ونزل عمر وركب الغلام الراحلة وأخذ عمر يقودها، ولما وصل الركب الكريم إلى أسوار القدس علت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مدوّ بالتهليل والتكبير، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة[5]، فقال لهم البطريرك ويلكم ما شأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شيء ؟ فانظروا ما شأنهم.

---

(١) يوافوه بالجابية: يلاقوه بها، أو يأتوه إليها.

(٢) الديباج: نوع من الثياب الحريرية . (فارسية معربة).

(٣) المخاضة: الموضع القليل الماء من النهر الذي يعبره الناس مشاة وركباناً (ج) مخاض .

(٤) المطهمة: الضخمة السمينة، والمتناهية في الحسن، والكريمة الحسن .

(٥) الجلبة: الضوضاء، والصياح، والصخب.

فأشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية، فقال: يا معاشر العرب أخبرونا ما قصتكم ؟ قالوا: إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد قدم علينا من مدينة نبينا، وهذه الضجة من فرح المسلمين به. فنزل وأخبر البطريرك بذلك، فصعدوا جميعاً إلى السور فلما رأوه أخذا بمقود الراحلة وغلامه فوقها ذهلوا، وكانوا يظنون أن الراكب هو عمر، فلما عرفوا أنه هو الذي يقود الناقة وأيقنوا أنه عمر بما علموا من صفته في كتبهم، نزلوا إليه وعقدوا معه الأمان والذمة.

ثم انتحى البطريرك صفرونيوس ناحية وبكى، فتأثر عمر وأقبل عليه يطيب خاطره ويواسيه قائلاً: لا تحزن هوّن عليك، فالدنيا دواليك يوم لك ويوم عليك. فقال صفرونيوس: أتظنني لضياع الملك بكيت ؟ والله ما لهذا بكيت، إنما أبكي لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية لا تنقطع.. فدولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة. وكنت حسبتها دولة فاتحين تمر ثم تنقرض مع السنين.

[أنظر: أخبار عمر، الواقدي، الطبري..]

نخوة المعتصم

جلس الخليفة العباسي المعتصم بالله في قصره بسامّراء وحوله جمع من حاشيته ورجاله، يتحدّثون في شؤون السياسة تارة، وفي شجون من الحديث تارة، فيرنّ حديثهم في البهو[1] رنّات تغلظ آنا، وترقّ آنا.

وهذا رجل عربي يقبل من آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، فيخفّ إلى لقاء الخليفة، ويستأذن فيؤذن له، ويمشي الرجل على سجاد من المخمل، حتى يصل إلى الخليفة فيحيّيه، ويسأله المعتصم عن أنبائه فيقول له: يا أمير المؤمنين، كنت بعمورية، فرأيت بسوقها امرأة عربية مسلمة مهيبة، تساوم رومياً في سلعة، وحاول أن يتغفلها ففوّتت عليه غرضه، فأغلظ لها فردّت عدوانه بمثله، فلطمها على وجهها لطمة كادت تخلع منها أسنانها، وتجحظ عيناها، فصاحت في لهفة: وامعتصماه. فقال الرومي في سخرية: انتظريه حتى يجيء إليك على فرس أبلق[2] وينصرك.

---

(١) البهو: الواسع من كل شيء، والمكان المخصص لاستقبال الضيوف.

(٢) أبلق: ما كان فيه سواد وبياض.

عندئذ اربدّ[1] وجه المعتصم، وبدا الجد في نظراته، وقطّب الجالسون معه وتململوا في مجالسهم، كأنّما نهشتهم حيّات، وإذا بالمعتصم ينظر إلى ناحية عمورية من مجلسه قائلاً في غضب: لبيك أيتّها المرأة الحرّة، لقد سمع المعتصم صياحك ونداءك. ثمّ استشار جلساءه في فتح عمورية، فأشاروا عليه بفتحها، فأمر بتجهيز جيش في اثني عشر ألف فارس.

سار المعتصم بجيشه إلى عمورية، فلمّا بلغها حاصرها، وكانت منيعة الحصون، عالية الأسوار، فألحّ عليها بالمجانيق والسّهام، فلم تخضع، فاقترب بطلائع جيشه إلى السور، وشدّد الضّرب، فبرز له رجل من كوة[2] وطلب أن يبارزه عشرون فارساً، فقال المعتصم: من له ؟ فتسابق القوّاد، والمتطوّعون كلّ يطلب أن يبارزه، فأذن المعتصم للمتطوّعين. برز للعلج[3] الرومي واحد من المتطوّعين المسلمين يتبعه تسعة عشر مقاتلاً، ثمّ جعل الرجلان يتطاعنان ويتضاربان، وكانت خديعة من المسلم عندما رجع القهقرى، وأخذ الرومي يتبعه ليدركه بضربة من الخلف، وإذا بالمسلم قد استدار في سرعة البرق، ورمى الروميّ بوهق[4] فوقع في عنقه، وركض حصانه فسقط الروميّ عن فرسه، فعالجه المسلم بضربة فصلت رأسه عن جسده. عندئذ كبّر المسلمون، وأنَّ الرّوم أوجع أنين، ولمّا طالت إقامتهم صاح المعتصم فيهم صيحة عنيفة: اجعلوا النّار في المجانيق، وارموا الحصون رمياً متتابعاً. ففعلوا، ورموا بها الحصون والأسوار فانكمش الروم وبعدوا عن الأسوار، فاقتحمها المسلمون، وجاسوا خلال المدينة إلى أن استسلمت عمورية، وسلّمت حصونها. وبعد أن هدأ النّاس، أمر المعتصم أن تحضر المرأة التي استغاثت به، فلما حضرت وجدها مشرقة الوجه، باسمه الثغر، فسلّمت عليه، ودعت له بأن يبقيه الله عزّاً للإسلام والمسلمين.

[قصص العرب: ٣/ ٤٤٩]

---

(١) اربدّ وجهه: احمرّ حمرة فيها سواد عند الغضب.

(٢) الكوة: فرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء جمعها كوى.

(٣) العلج: الغليظ وكل جاف شديد من الرجال.

(٤) الوهق: الحبل في أحد طرفيه عروة.

عزة المؤمن
بين الرشيد وملك الروم

جاء في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي في أحداث سنة سبع وثمانين ومئة ما نصه: (فيها ما قاله في العبر: خلعت الروم من الملك (الست ديثي)، وهلكت بعد أشهر وأقاموا عليهم نقفور، والروم تزعم أن نقفور من ولد جفنة الغساني الذي تنصر. وكان نقفور قبل الملك يلي الديوان، فكتب نقفور هذا الكتاب:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد:

فإن الملكة كانت قبلي أقامتك مقام الرخ(١)، وأقامت نفسها مقام البيدق(٢)، فحملت إليك من أموالها، وذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل قبلك، وافتد نفسك، وإلا فالسيف بيننا».

فلما قرأ الرشيد الكتاب اشتد غضبه، وتفرق جلساؤه خوفاً من بادرة تقع منه، ثم كتب بيده على ظهر الكتاب: «من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه».

ثم ركب من يومه، وأسرع حتى نزل مدينة هرقلة، وأوطأ الروم ذلاً وبلاءً، فقتل وسبى، وذل نقفور، وطلب الموادعة على خراج يحمله، فأجابه. فلما رجع الرشيد إلى الرقة، نقض نقفور العهد، فلم يجسر أحد أن يبلغ الرشيد، حتى عملت الشعراء أبياتاً يلوحون بذلك، فقال: أوقد فعلها! فكر راجعاً في مشقة الشتاء، حتى أناخ بفنائه ونال مراده، وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراب … من الملك الموفق للصواب
غداً هارون يرعد بالمنايا … ويبرق بالمذكرة الصعاب
ورايات يحل النصر فيها … تمر كأنها قطع السحاب

[شذرات الذهب، لابن عماد الحنبلي: ١/ ٢١، ٢١١]

---

(١) الرخ: نبات رخو هش، وطائر خرافي بالغ القدامى في وصفه، وقطعة من قطع الشطرنج.

(٢) البيدق: الدليل في السفر، والجندي الراجل، وحجر من أحجار الشطرنج.

موعدنا عند الظهر

جلس أبو قدامة الشامي يوما في مسجد رسول الله يحدث عن بعض غزواته. فطلب منه الجالسون أن يحدثهم عن أعجب قصصه في الجهاد.

فأخبرهم عن أعجب ما وقع له في الجهاد: أنه توجه يوما لحرب الروم، فمر بمدينة الرقة على نهر الفرات، ليشتري منها جملا يجاهد عليه.

وبينما كان في الرقة أتته امرأة، وأخبرته أنها تتصدق للجهاد بشعرها، وأنها قصت شعرها، وعفرته بالتراب، وطلبت منه أن يأخذ ذلك الشعر ليكون عقالا وخطاماً لخيل المجاهدين.

وأخبرته أن زوجها خرج للجهاد يوماً، فلقي الله شهيداً، وأن أولادها خرجوا للجهاد، فلقوا الله شهداء، ولم يبق من أولادها إلا فتى عمره خمسة عشرة عاماً، ورغم صغر سنه إلا أنه كان صوّاماً قوّاماً، حافظاً للقرآن، فارساً مجيداً للقتال، وكان من أجمل وأحسن الفتيان.

وأخبرته أن هذا الفتى خرج بعيداً عن المدينة، وإن جاءها فسوف ترسله للجهاد معه، وتقدمه هدية لله، وترجو الله له الشهادة.

انتظر أبو قدامة مجيء الفتى فلم يأت فسار بأصحابه المجاهدين من الرقة، متوجهين لقتال الروم، وساروا أياماً.. وبينما كانوا سائرين لحق الفتى المجاهد الفارس على فرسه وكلم أبا قدامة، وعرفه على نفسه، انا ابن تلك المرأة، وأن والده وإخوانه لقوا الله شهداء، وهو يريد أن ينال الشهادة مثلهم.

حاول أبو قدامة أن يرده لصغر سنه، وخشي عليه، ولكن الفتى أصر على مصاحبتهم للجهاد، وأخبره أنه عارف بالفروسية والرمي، حافظ للقرآن، عالم بسنة رسول الله ﷺ، وأنه يريد أن يكون الشهيد ابن الشهيد.

وأخبر الفتى ابن قدامة أن أمه ودعته، وأنها طلبت منه أن يحرص على الشهادة، وأن لا يفرّ من الكفار ولا يوليهم الأدبار، وأن يهب نفسه لله، ويطلب مجاورة أبيه وإخوانه وأخواله الشهداء..

تأثر ابن قدامة بما سمع واصطحب معه الفارس، ولما اقترب من معسكر الروم حان وقت غروب الشمس، وكان المجاهدون صائمين، فتطوع الفتى الفارس بطبخ

طعام إفطارهم.

ونام الفتى نومة، ونظر إليه أبو قدامة فإذا هو يضحك في نومه، فدعا أصحابه إلى أن ينظروا إليه وهو يضحك متعجبا من ذلك.

فلمّا استيقظ الفارس سأله أبو قدامة عن سبب ضحكته في نومه، فأخبرهم أنه رأى رؤيا في منامه أضحكته.

أخبرهم أنه رأى نفسه في روضة خضراء، وفي وسطها قصر من ذهب وفضة، وعليها ستور مرخاة، وفي القصر جوار وجوههن كالأقمار، ولما رأينه نزلن إليه ليرحبن به، فمد يده لإحداهن، فقلن له: لا تتعجل. أنت زوج المرضية وهي في القصر!

فصعد إلى القصر فرأى جارية كأنها الشمس، وحسنها يبهر الأبصار، فرحبت به، وأخبرته أنه لها وأنها له، ولما مد يده إليها قالت له: لا تتعجل، والميعاد بيني وبينك غدا عند صلاة الظهر، فأبشر.. فاستبشر الفتى الفارس وضحك فرحاً في نومه.

وفي الصباح وصلوا معسكر الروم، ونشبت معركة عنيفة، وهجم الروم على المجاهدين، فتصدى لهم الفتى الفارس مع إخوانه المجاهدين، وحاربهم ببسالة، وقتل منهم كثيرين..

وطالت المعركة وقتل أناساً من الفريقين، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وراح ابن قدامة يبحث عن الفتى الفارس. فإذا به صريعاً جريحاً، والدماء تنزف من جسمه، وقد علاه الغبار.

ولما أقبل عليه أخبره أن رؤياه قد صدقت، وأن الحورية التي رآها في المنام واقفة على رأسه، تنتظر خروج روحه!

وطالب الفتى أبا قدامة أن يأخذ ملابسه المضمخة بدمائه لأمه، لتعلم أنه لم يضيع وصيتها. ثم نطق بالشهادتين، وأسلم روحه ولقي الله شهيداً. فكفنوه في ثيابه، ودفنوه في مكانه.

وعاد أبو قدامة إلى الرقة، ومرّ من أمام بيت المرأة، أم الشهيد، فشاهد أخته الفتاة الصغيرة تقف على باب البيت، تسأل القادمين عن أخبار أخيها المجاهد. فاستأذن أن يكلم أمها.

خرجت أمها، ولما رأته قالت: أجئت معزياً أم مبشراً يا أبا قدامة ؟.

قال لها: ما الفرق بين البشارة والتعزية ؟ قالت: إن رجع ولدي سالماً معكم فأنت معزّ، وإن قتل ولدي شهيداً في سبيل الله فأنت مبشّر!

قال لها: أبشري لقد قبل الله هديتك، ولقي ابنك الله شهيداً. ففرحت وقالت: الحمد لله الذي جعله ذخيرة لي يوم القيامة!!

[تهذيب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق: ١١٠- ١١٢]

☆ ☆ ☆

الباب الرابع
عبر وعظات ووصايا

جزاء عقوق الوالدين

روى الأصبهاني وغيره وقد حدّث به أبو العباس بمشهد من الحفاظ فلم ينكروه، ذلك أن العوّام بن حوشي قال: نزلت مرة حيّاً وإلى جانب ذلك الحي مقبرة، فلما كان بعد العصر، انشقّ منها قبر فخرج رجل رأسه رأس حمار وجسده جسد إنسان، فنهق ثلاث نهقات ثم انطبق عليه القبر، فإذا عجوز تغزل شعراً وصوفاً، فقالت امرأة: ترى تلك العجوز؟ فقلت: ما لها؟ قالت: تلك أم هذا. قلت وما كان قصته؟ قالت: كان يشرب الخمر فإذا راحت تقول له أمه: يا بني، اتق الله إلى متى تشرب هذا الخمر؟ فيقول لها: إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار، قالت: فمات بعد العصر، قالت: فهو يشقّ عنه قبره بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر.

[الترغيب والترهيب: ٣/ ٣٢]

لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم

ذكر ابن قتيبة في كتابه «مختلف الحديث» أن المنصور الخليفة العباسي سمر ذات ليلة، فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم، وأنهم لم يزالوا على استقامة، حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات، وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله ومساخطه، جهلا باستدراج الله تعالى، وأمناً من مكره تعالى، فسلبهم الله الملك والعز، ونقل عنهم النعمة.

فقال له صالح بن علي: يا أمير المؤمنين، إن عبيد الله بن مروان لما دخل النوبة هارباً فيمن اتبعه، سأل ملك النوبة عنهم فأخبر، فركب إلى عبيد الله، فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة، ويسأله عن ذلك، فأمر المنصور بإحضاره، وسأله عن

القصة، فقال: يا أمير المؤمنين، قدمت أرض النوبة بأثاث سُلّم لي، فافترشته بها، وأقمت ثلاثاً، فأتاني ملك النوبة وقد خبر أمرنا، فدخل عليّ رجل طوال، أقنى[1]، حسن الوجه، فقعد على الأرض، ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟

فقال: إني ملك! وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله. ثم قال لِمَ تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم.

قال: فلم تطؤون الزرع بدوابكم، والفساد محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم.

قال: فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير، وهو محرم عليكم في كتابكم؟

قلت: ذهب منا الملك، وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على كره منا.

فأطرق ينكث بيده في الأرض ويقول: عبيدنا، وأتباعنا، وأعاجم دخلوا في ديننا، ثم رفع رأسه إليّ، وقال: ليس كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وأتيتم ما عنه نُهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العز، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم، وإنما الضيافة ثلاث، فتزود ما احتجت إليه، وارتحل عن أرضي.

[عيون الأخبار: ١/ ٣٠٤]

جحود النعمة وشكر النعمة
(حديث الأبرص والأقرع والأعمى)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى» أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال له: أي شيء أحب إليك؟

قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس[2]، فمسحه

(١) الأقنى: ما ارتفعت قصبة أنفه وضاق منخراه.

(٢) قذرني الناس: أي اشمأزوا من رؤيتي، وكرهوني لما نزل بي من البلاء.

فذهب عنه قذره وأُعطيَ لوناً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقةً عشراء (حاملاً). فقال: بارك الله لك فيها...

فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرةً حاملاً. وقال: بارك الله لك فيها..

فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله بصري، فأبصر الناس، فرد بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟

قال الأعمى: الغنم، فأعطي شاةً (حاملاً) فأُنتِجَ هذان، وولَّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم (أي معونة من مال) إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة!!...

فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً فأعطاك الله؟

فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر (أباً عن جد)!!

فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما رد هذا فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك، شاةً أتبلغ بها في سفري.

فقال: قد كنت أعمى فرد الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فو الله لا أَجْهَدُكَ (لا أعارضك) بشيء أخذته لله عز وجل.

فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم (اختبرتم)، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك...

[صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٦]

أصحاب الجنة

ضروان «قرية من قرى اليمن السعيد». و«اليمن» كان عبر رحلة التاريخ، مؤثل[١] ازدهار ومنبع حضارات وتقلبات أديان ومعتقدات، ومحط أنظار الطامعين والغزاة لموقعه وثرواته وإمكاناته.

وفي قرية «ضروان» هذه كان يعيش رجل صالح، في دينه وخلقه، قد آتاه الله ثروة عريضة، وسمعة طيبة بين الناس، ومكانة واحتراماً، حتى عُدّ رأس القرية، وصاحب الكلمة الأولى فيها.

وكان يملك أرضاً زراعية، حوّلها بجهده وعرقه إلى حديقة غنّاء، وجنة فينانة[٢]، دانية القطوف، فوّاحة الزهر، قد رقّت حواشيها، وتأنق واشيها، وجرى الماء في سواقيها عذباً رقراقاً...

أما أشجارها فكانت باسقة وارفة[٣] الظلال، مثقلة بالثمار.

وبعد أن يؤدي الشيخ صلاته في الصباح الباكر كل يوم، ويدعو ربه، ويتلو وِردَه، ويحمل عصاه بيده يتوكأ عليها، ثم يغدو على حرثه وحديقته، فيدخلها في أناة وخشوع، مطأطأً رأسه، معترفاً بنعمة الله عليه، مقراً بفضله سبحانه، لا يفتر لسانه عن التسبيح.

هكذا كان دأبه، وهكذا كان ديدنه[٤].. وحين يكون موسم العطاء والجني، يعمل بيده - رغم شيخوخته وتقدم سنه - مع البستاني والعمال في القطاف، وقبل أن يأتيه التجار ليساوموه ويشتروا منه، يعطي لذوي الحاجات نصيبهم المفروض، ويوزع على الفقراء والمساكين أعطياتهم، بيد سخية، ووجه متهلل، ولسان حامد شاكر.

كان للرجل أبناء ثلاثة: «حارث» أكبرهم، و«صالح» أوسطهم، و«علقمة» أصغرهم...، قد بلغوا مرحلة الشباب والفتوة، ولقد كان كبيرهم وصغيرهم لا ينفكان عن لوم أبيهما فيما يفعل من البذل والإحسان، ويرددان دائماً: إنك يا أبانا بما

---

(١) موئل: أصيل، قديم.

(٢) فينانة: طويلة الأشجار، حسنة.

(٣) وارفة: ممتدة.

(٤) ديدنه: عادته.

تنفق على الفقراء، وتعطي ما تخصهم به من رفد، إنما تبخسنا حقنا، وتنقص من أرزاقنا، وتسوي بيننا وبينهم، ولو أنك مضيت على هذا واستمريت فسوف لا تخلّف ضرعاً ولا ثمراً، ولا يبقى لنا مالاً ولا نشباً... ونصبح بعدك فقراء، نقف وقفتهم، ونتكفف الناس...

أما أوسطهم «صالح» فقد كان له من صلاح أبيه وخلقه نصيب، فكان يقف إلى جانب أبيه مشجعاً ومؤيداً.

ويرد الأب على «حارث» و«علقمة» فيقول:

ما أراكما إلا خاطئين في الوهم والتقدير...، إن هذا المال الذي تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به ليس مالي ولا مالكما، وهذا البستان ليس في حوزتي ولا حوزتكما...، إنه مال الله تعالى، مكّنني فيه وائتمنني عليه، فعلي أن أنفقه في أكرم وجوهه وأنفعها لخلقه، وللفقراء والمساكين وذوي الحاجات حقوقهم المفروضة...، فما فضل بعد ذلك فهو لي ولكما، وبهذا يزكو وينمو...، ويبارك الله تعالى فيه، على هذا درجت...، وبه آمنت، ولن أغير العادة فيغير الله سبحانه ما أكرمني به وخصني.

مضى الموسم... وحل موسم آخر... وصادف أن الأب كان مريضاً، قد أقعدته الشيخوخة عن الحركة...، ولزم فراشه، فقام الأبناء الثلاثة بمهمة الجني والقطاف، وكالعادة تجمع الفقراء والمساكين عند الحديقة ينتظرون عطاءهم، إلا أن «حارثاً» و «علقمة» ردوهم على أعقابهم، ثم أوقروا دوابهم بالأحمال الوفيرة وعادوا بها إلى المنزل ولم يمكث الرجل الصالح طويلاً، فقد اشتدت عليه العلة، وألحّ عليه السقم، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، وانتقل إلى جوار ربه.

ومرت الأيام...، وتهيأت الحديقة لموسم جديد مفعم بالخير الكثير واجتمع الأبناء يديرون الرأي، ويعدون العدة للجني والقطاف، وأجمعوا أمرهم على أن لا يدخل البستان أحد من الفقراء والمساكين، واتفقوا أن يخرجوا إلى الحديقة في اليوم التالي مع عماية الصبح[1]. قبل بزوغ الشمس، وقبل تجمع الناس...، فيقطفون ويجمعون ويعودون بأحمالهم.

---

[1] عماية الصبح: أوله.

و ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ١٨] وعلم الله تعالى سوء نيتهم، ودخيلة نفوسهم، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المساكين، وغمط(١) نصيب السائلين والمحرومين، فأرسل على جنتهم طائفاً.. بلاءً....، قلع نبتها، وأسقط ثمرها، وجفف أوراقها وأغصانها.. فلما أتوها وقد بدت خيوط الضوء، وقفوا عند بابها يتساءلون: أهذه جنتنا، لقد تركناها بالأمس مورقة... فواحة مثقلة، إنها ليست هي، لقد ضللنا عنها...

وصالح هادئ رزين، ينظر نظر المعتبر المدّكر، ويقول: بل هي جنتكم أيها الإخوة، حرمتم خيرها وعطاءها قبل أن تحرموا الفقير المسكين، وجوزيتم على ما أسلفتم من خبث النية وسوء الطوية، ولقد نصحت لكم بالأمس ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] فأبيتم واستكبرتم وكنتم من الطغاة الظالمين.. ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩] ولكن قد فات الأوان، ووقع العذاب والهوان، جزاءً بما كانوا يكسبون ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠] ويلقون التُّهم جزافاً ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: ٣١] وخدعوا أنفسهم فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

[قطب - قصص القرآن: ٣٢٧]

النعمة لا تدوم

حكي أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل ببابه، فخرج إليه وانتهره(٢)، فذهب. واتفق أن الرجل بعد ذلك افتقر وزالت نعمته، وطلق زوجته، وتزوجت بعده برجل آخر، فجلس هذا يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية، وإذا بسائل يطرق الباب، فقال الرجل لزوجته ادفعي إليه هذه الدجاجة، فخرجت بها إليه فإذا به زوجها الأول!! فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهي باكية، فسألها زوجها عن بكائها، فأخبرته أن السائل كان

---

(١) غمط: أنكر.

(٢) انتهره: زجره وصرفه.

زوجها السابق، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهزه، فقال لها زوجها: أتعرفين من كان السائل الذي انتهره؟ إنه والله أنا ذلك السائل!!.

[المستطرف: ١/ ٢٧]

الصدقة تنجي

ذُكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال: ادع الله لا بني (زيد) فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع إجابة؟ قال: بلى. قال: تصدّق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه، فخرج الرجل من عنده، وتصدّق على سائل بدرهم وقال: هذا خلاص ولدي وسلامته وما معه، فنادى في تلك الساعة منادٍ في البحر: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث. فلما قدم سأله أبوه عن حاله، فقال: يا أبت لقد رأيت في البحر عجباً يوم كذا وكذا وفي وقت كذا وكذا، وهو اليوم الذي تصدّق به والده عنه بدرهم، وذلك أننا أشرفنا على الهلاك والتلف، فسمعنا صوتاً من السماء يقول: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث. وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين.

[المستطرف: ١/ ٢٧]

من وصايا لقمان لابنه

يا بني لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أدب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني: من يَرحم يُرحم، ومن يَصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. زاحم العلماء بركبتيك، وانصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء.

يا بني: إلزم الصمت تعدّ حكيماً، جاهلاً كنت أم عالماً.

يا بني: لا تأمر الناس بالبر وتنس نفسك ؛ فيكون مثلك مثل السراج يضيء للغير ويحرق نفسه.

يا بني: لا تؤجل التوبة فإن الموت يأتي بغتة.

يا بني: من حمل ما لا يطيق عجز، ومن أعجب بنفسه هلك، ومن تكبر على

الناس ذل، ومن لم يشاور ندم، ومن جالس العلماء علم، ومن قل كلامه دامت عافيته.

[نوادر الأدباء: ٧٤]

وصية علي بن أبي طالب لولده الحسين (رضي الله عنه)

هذه الوصية القيمة الحافلة بالمواعظ والآداب الاجتماعية، وما يحتاج إليه الناس في سلوكهم، هي من أروع ما جاء في الإسلام من الأسس التربوية التي تبعث على التوازن، والاستقامة في السلوك، قال رضي الله عنه:

يا بني. أوصيك بتقوى الله عز وجل في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله تعالى في الشدة والرخاء.

يا بني: ما شرٌ بعده الجنة بشرٍّ، ولا خيرٌ بعده النار بخيرٍ، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية.

اعلم يا بني. أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره، ومن تعرّى من لباس التقوى لم يستتر بشيء من اللباس أبداً، ومن رضي بقَسْم الله تعالى لم يحزن على ما فاته، ومن سَلَّ سيف البغي قُتِل به، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن كابد الأمور عطِب(1)، ومن اقتحم الغمرات غرق، ومن أعْجِبَ برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زلّ، ومن تكبر على الناس ذلّ، ومن سَفِهَ عليهم شُتم، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم، ومن خالط الأنذال حُقِر، ومن جالس العلماء وُقِر، ومن مزح استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

يا بني... من نظر في عيوب الناس ورضي لنفسه بها فذاك الأحمق بعينه، ومن تفكر اعتَبَرَ، ومن اعتبر اعتزل، ومن اعتزل سَلِم، ومن ترك الشهوات كان حراً،

---

(١) عطب: (بفتح الطاء) لانَ ونَعُمَ، وبكسرها: هلك وفسَد.

ومن ترك الحسد كان له المحبة عند الناس.

يا بني... عز المؤمن من غناه عن الناس، والقناعة مال لا ينفد، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه.

يا بني... العجب ممن يخاف العقاب فلم يكُفّ، ورجا الثواب فلم يعمل.

يا بني... الذكر نور والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والسعيد من وُعِظ بغيره، والأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين.

يا بني... ليس مع قطيعة الرحم نماء، ولا مع الفجور غنى.

يا بني... العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله، وواحد في ترك مجالسة السفهاء.

يا بني... من تزين بمعاصي الله عز وجل في المجالس ورَّثه الله ذلاً، ومن طلب التعلم عَلِم.

يا بني... رأس العلم الرفق، وآفته الخرق، ومن كنوز الإيمان الصبر على المصائب، والعفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

يا بني... كثرة الزيارات تورث الملالة، والطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم. وإعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

يا بني... كم من نظرة جلبت حسرة، وكم من كلمة سلبت نعمة.

يا بني... لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعلى من التقوى، ولا مَعقِل(١) أحرز من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت، ومن اقتصر على بُلغة(٢) الكفاف تعجل الراحة، وتبوأ حفظ الدَّعة.

يا بني... الحرص مفتاح التعب، ومطية النصب، وداعٍ إلى التقحم في الذنوب، والشره جامع لمساوئ العيوب، وكفى أدباً لنفسك ما كرهتَه من غيرك.

يا بني... لأخيك عليك مثل الذي لك عليه، ومن تورط في الأمور من غير نظر في العواقب فقد تعرض لمجافاة النوائب. التدبير قبل العمل يؤمنك الندم، ومن

---

(١) المعقل: الملجأ والحصن، جمعها معاقل.

(٢) بُلغة: ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل.

استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطأ.

يا بني... الصبر جُنة(١) من الفاقة، والبخل جلباب المسكنة، والحرص علامة الفقر.

يا بني... وَصُولٌ مُعْدَم خير من جافٍ مكثِر، لكل شيء قوت وابن آدم قوت الموت.

يا بني... لا تؤيِّس مذنباً، فكم من عاكف على ذنبه خُتِمَ له بخير، وكم من مقبل على عمله مفسد في آخر عمره صائر إلى النار.

يا بني... من تحرى الصدق خفت عليه المؤن، في خلاف النفس رشدُها، والساعات تنقص الأعمار، ويل للباغين من أحكم الحاكمين، العالم بضمير المضمرين.

يا بني... بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد، في كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنال نعمة إلا بفوات أخرى.

يا بني... ما أقرب الراحة من النصب، والبؤس من النعيم، والموت من الحياة، والسقم من الصحة، فطوبى لمن أخلص لله تعالى علمه وعمله، وحبه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وفعله وقوله. بخ بخ لعالم عَلِمَ فكفّ، وعمل فجدّ، وخالف البينات فأعد واستعد، إن سئل أفصح، وإن ترك صمت، كلامه صواب، وصمته من غير عي(٢) جواب. والويل كل الويل لمن بلي بحرمان وخذلان وعصيان، فاستحسن لنفسه ما يكرهه من غيره.

واعلم يا بني... أن من لانت كلمته وجبت محبته، ومن لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة، لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس، ولا أي طعاميه أكل.

وفقك الله لرشده، وجعلك من أهل طاعته بقدرته، إنه جواد كريم.

[سيد الشهداء: ٤٢]

مكتبة الرمحي أحمد

(١) جُنّة: وقاية.

(٢) عي: عجز عنه فلم يستطع بيان مراده.

وصية الخطاب بن المُعلى المخزومي لابنه

أخبرنا محمد بن المنذر بن سعيد، عن أبي حاتم: محمد بن إدريس الحنظلي، عن عبد الرحمن بن أبي عطية الحمصيّ، عن الخطاب بن المُعلى المخزومي القُرشيّ أنه وعظ ابنه، فقال:

يا بُنيّ، عليك بتقوى الله وطاعته، وتجنُّب محارمِهِ، باتباع سننه ومعالمه، حتى تصحَّ عيوبُك، وتقَرَّ عينُك، فإنها لا تخفى على الله خافية، وإني قد وَسَمْت لك وَسْماً، ووضعت لك رَسْماً، إن أنت حفظته ووعيته، وعملت به، ملأت أعينَ الملوك، وانقاد لك به الصعلوك، ولم تزل مُرْتَجىً يُحتاج إليك، ويُرغبُ إلى ما في يديك، فأطِعْ أباك، واقتصر على وصية أبيك، وفرِّغ لذلك ذهنك، واشْغَلَ به قلبَك ولُبَّك. وإياك وهذرَ الكلام، وكثرَة الضحك والمُزاح، ومهازلةَ الإخوان، فإن ذلك يُذهِب البَهاء، ويُوقِع الشحناء، وعليك بالرزانة والتوقُّر، من غير كِبْر يوصف منك، ولا خُيَلاءَ تُحكى عنك، والقَ صديقك وعدوك بوجه الرضا، وكفِّ الأذى، من غير ذلّة لهم، ولا هيبة منهم، وكن في جميع أمورك في أوساطِها ؛ فإن خيرَ الأمور أوساطُها، وقَلل الكلام، وأفش السلام، وامش متمكناً قَصْداً، ولا تَخَطَّ برجلك، ولا تسحب ذيلك(١)، ولا تَلْوِ عُنقك، ولا رداءك، ولا تنظر في عِطفِك، ولا تُكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، ولا تتخذ السوق مَجْلساً، ولا الحوانيت مُتحدَّثاً، ولا تكثر المِراء، ولا تنازع السفهاء، فإن تكلمت فاختصر، وإن مزحت فاقتصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك، وتَفْقيعها، والعَبَث بلحيتك وخاتمك، وذؤابة سيفك، وتخليلِ أسنانك، وإدخال يدك في أنفك، وكثرة طرد الذُباب عنك، وكثرة التثاؤب والتمطّي(٢) وأشباهِ ذلك ما يستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك.

وليكن مجلِسُك هادياً، وحديثُك مقسوماً، وأصغِ إلى الكلام الحسن ممن حدَّثك، بغير إظهار عَجَبٍ منك، ولا إعادة مسألة، وغُضَّ عن الفكاهات، من المضاحك والحكايات، ولا تُحدِّث عن إعجابك بولدِك، ولا جاريتك، ولا عن فَرَسِك، ولا عن سيفك. وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عَجَباً بشيء منها، طمع فيها

(١) الذيل: أسفل الثوب، والمعنى لا تجر ثوبك خُيلاء وتكبراً

(٢) أصل التمطي: المطط، أي التمدد، وهو مع التثاؤب من أمارات الكسل.

السفهاء، فولّدوا لك الأحلام، واغتمزوا في عقلك. ولا تصَنَّع تصنُّع المرأة، ولا تبَذَّل تبذُّل العبد، ولا تهلبُ لحيتك ولا تُبطِّنها[١]، وتوق كثرة الحفِّ، ونتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف في الدّهن، وليكن كحلك غبّاً. ولا تُلحَّ في الحاجات، ولا تخشع في الطلبات. ولا تُعْلِم أهلك وولدك – فضلاً عن غيرهم – عدد مالِك، فإنهم إن رأوه قليلاً هُنْتَ عليهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ به رضاهم، وأخِفْهم في غير عنف، ولِنْ في غير ضَعْف، ولا تهازل أمَتك. وإذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك، وتجنب عن عجلتك، وتفكر في حُجَّتك، وأرِ الحاكم شيئاً من حلمك. ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تَحَفَّز على ركبتيك، وتوقَّ حمرة الوجه، وعَرَق الجبين[٢]، وإن سُفِه عليك فاحلُم، وإذا هدأ غضبك فتكلم، وأكرم عِرضك، وألقِ الفضول عنك، وإن قَرَّبك سلطان، فكن منه على حدّ السِّنان[٣]، وإن استرسل[٤] إليك، فلا تأمن من انقلابه عليك، وارفُق به رفقك بالصبيّ، وكلِّمه بما يشتهي، ولا يَحْمِلَنَّك ما ترى من إلطافِه[٥] إياك، وخاصته بك أن تدخل بينه وبين أحد من ولَدِهِ وأهله، وحشَمِه، وإن كان لذلك منك مستمعاً، وللقول منك مطيعاً، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صَرْعةٌ لا تُنْهَض، وزلّة لا تُقال[٦]. وإذا وعدت فحقِّق، وإذا حدَّثت فاصدُق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصمّ، ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخير محاسنَ القول بالحديث المقبول، وإذا حَدَّثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك والأحاديث العابرة المشنِّعة، التي تنكرها القلوب، وتَقِفُّ لها الجلود.

وإياك ومضعَّف الكلام، مثل: نعم، نعم، ولا، لا، وعجل، عجل، وما أشبه ذلك، وإذا توضأت فأجد عَرْك كَفيك، وليكن وضعك الحُرُض[٧] من الأشنان[٨] في

---

(١) تبطين اللحية: أن يؤخذ مما تحت الذقن والحنك.

(٢) أي لا تعمل عملاً تخجل منه فيحمر وجهك ويعرق بسببه جبينك.

(٣) أي على مثل حد الرمح، من الخوف والحذر.

(٤) استرسل عليك: تبسط واطمأن وأنس.

(٥) الإلطاف: المعاملة باللطف.

(٦) تقال: من الإقالة بمعنى الصفح والغفران.

(٧) الحرض: غاسول يزل الأوساخ، مثل الصابون.

(٨) الأشنان: القربة.

فيك، كفعلك بالسواك، ولا تنخّع في الطِّست، وليكن طرحُك الماء من فيك مترسِّلاً[١]. ولا تَمُجَّ فتَنْضَح على أقرب جلسائك، ولا تعَضّ نصف اللقمة، ثم تعيد ما بقي منها منصبغاً[٢] فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك، ولا تعبَث بالُمشاش[٣] ولا تَعِبْ شيئاً ما يُقَرَّب إليك على مائدة، بقِلَّة خَلٍّ أو تابل أو عسلٍ، عسل، فإن السحابة، قد صيّرت لنفسها مهابة[٤] ولا تُمسك إمساكَ المَثبور[٥] ولا تُبذِّر تبذير السفيه المغرور، واعرف في مالك واجبَ الحقوق، وحُرمةَ الصديق، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك. واعلم أن الجشع يدعو إلى الطبَع[٦] والرغبة- كما قيل - تدقّ الرقبة، وربَّ أكلة تمنع أكلات. والتعفف مال جسيم، وخلق كريم. ومعرفة الرجل قدره، تشرف ذكره. ومن تعدى القدْر، هوى في بعيد القَعْر[٧] والصدق زَين، والكذب شَين، ولَصِدقٌ يُسرِع عطبَ صاحبه، أحسنُ عاقبة من كذب يسلم عليه قائلُه، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم على الهوان، خير من صحبة اللئيم على الإحسان، ولَقُرب مَلِك جواد، خير من مجاورة بحر طَرَّاد وزوجة السوء الداء العُضال، ونكاح العجوز يَذهب بماء الوجه، وطاعة النساء تُزْري بالعقلاء..

تشبّه بأهل العقل تكن منهم، وتصَّنع للشرف تدركه. واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنما يُنسب الصانع إلى صناعته، والمرء يُعرف بقرينه، وإياك وإخوانَ السوء، فإنهم يخونون من رافقهم، ويُحزنون من صادقهم، وقربُهم أعدى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب. واستخفار[٨] المستجير لؤم، والعجلة شؤم، وسوء التدبير وَهْن.

---

(١) مترسلاً: قليلاً، قليلاً، لا جملة، لئلا يطير رشاش الماء على من جاورك.

(٢) من صبغ اللقمة، أي غمسها في الإدام.

(٣) المشاش: أطراف العظام، أي لا تحاول استقصاء ما عليه من اللحم، أو استخراج ما في العظم من المخ.

(٤) ارتفعت السحابة وعلت عن أن تسمع كلام الناس فيها.

(٥) المثبور: المحبوس والممنوع.

(٦) الطبع: الشين والعيب.

(٧) أي من جاوز قدره اغتراراً وقع في الهلكة.

(٨) أي الغدر بذمة اللاجئ إليك، والسين والتاء فيها للطلب، فهي صحيحة.

والإخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، فاحفظ صديق البلاء، وتجنب صديق العافية، فإنه أعدى الأعداء.

ومن اتبع الهوى، مال به إلى الرَّدى، ولا يعجبنك الجهم(١) من الرجال، ولا تحقر ضئيلاً كالخِلال(٢)، فإنما المرء بأصغريه: قلبِه ولسانه، ولا يُنتفع به بأكثر من أصغريه.

وتوقّ الفساد، وإن كنت في بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عِرضك، ولا تكثر الكلام، فتثقل على الأقوام، وامنح البِشر جليسك، والقبولَ من لاقاك.

وإياك وكثرة التَّبريق والتّزليق(٣)، فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث، وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وكن متقرباً، متعززاً، منتهزاً في فرصتك، رفيقاً في حاجتك، متثبتاً في حملتك، والبس لكل دهر ثيابه، ومع كل قوم شَكْلَهم.

واحذر ما يُلزمك اللائمة في آخرتك، ولا تعجل في أمر حتى تنظر في عاقبته، ولا تَرِد حتى تَرَى وجه المصدَر.

وعليك بالنُّورة(٤) في كل شهر مرة، وإياك وحِلاق(٥) الإبط بالنّورة، وليكن السواك السواك من طبيعتك، وإذا اسْتكْتَ فَعَرْضاً. وعليك بالعِمارة(٦)، فإنها أنفع التجارة، وعلاج الزرع، خير من اقتناء الضَّرْع، ومنازعتك اللئيم تطمِّعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس، وذمُّ الجاهل إياك أفضل من ثنائه عليك، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق، والرفيق الصالح ابن عم. ومن أيْسَرَ أُكبِرَ، ومن افتقر احتُقِر، قصّر في المقالة، مخافة الإجابة والساعي إليك غالب عليك، وطول السفر ملالة، وكثرة المُنى ضلالة، وليس للغائب صديق، ولا على الميت شفيق، وأدبُ الشيخ عَناء، وتأديب الغلام شقاء، والفاحش أمير، والوقاح وزير، والحليم مَطِية الأحمق، والحمق داء لا شفاءَ له، والحلم خير وزير، والدِّين أزين الأمور، والسماجة سفاهة،

---

(١) الجهم: العبوس الكالح الوجه، كبراً على الناس..

(٢) الخلال: العود تخلل به الأسنان.

(٣) التبريق: التزيين: صبغ البدن بالأدهان ونحوها حتى يصير كالمزلقة ملامسة ونعومة ملمس.

(٤) النورة: مادة كالجير، تزيل الشعر.

(٥) الحلاق: الحلق.

(٦) العمارة: تعمير الدور وبناؤها.

والسكران شيطان، وكلامه هَذَيان، والشِّعر من السَّحر[١] والتهدُّد هُجْر، والشحّ شقاء، والشجاعة بقاء، والهدية من الأخلاق السَّريّة، وهي تُورث المحبة، ومن ابتدأ المعروف صار دَيناً، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة، وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء، ولرياء بخير، خير من معالَنة بشرّ، والعِرق نزَّاع[٢] والعادة طبيعة لازمة: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومن حلَّ عَقْداً، احتمل حِقداً. ومراجعة السلطان، خُرْق بالإنسان، والفِرار عار، والتقدم مخاطرة. وأعجل منفعة إيسار في دَعة، وكثرة العلل من البخل. وشرُّ الرجال الكثير الاعتلال. وحسن اللقاء يذهبُ بالشَّحْناء، ولين الكلام من أخلاق الكرام.

يا بُني، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العروق الطيبة، تنبت الثمار الحلوة.

واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف، فتوقَّ منهن كل ذات بَذَاء[٣]، مجبولةً على الأذى، فمنهن المعجبة بنفسها، المُزرية ببعلها[٤] إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر على جميل، ولا ترضى منه بقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت القِحَةُ[٥] سِتر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعوارها[٦] ولا تستحي من جارها، كلبةٌ هرَّارة[٧]، مهارشة عقّارة[٨]، فوجهُ زوجها مكلوم، وعرضُه مشتوم، ولا تُرْعِى عليه لدين ولا لدنيا، ولا تحفظه لصحبة، ولا لكثرة بنين، حجابه مهتوك، وسِتره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيباً، ويمسي عاتباً، شرابه مُرّ، وطعامه غيظ، وولده ضياع، وبيته مستَهْلك، وثوبه وسِخ، ورأسه شَعِث، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره، نهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحية العقَّارة، وتلسعه مثل

---

(١) له تأثير خفي في النفس مثل تأثير السحر.

(٢)من كان فيه عرق من خير أو شر، رجع به إلى أصله.

(٣) ذات بذاء: السليطة اللسان.

(٤) المزرية ببعلها: العائبة لزوجها.

(٥) القحة: قلة الحياء.

(٦) أعور الإنسان: أتى بالعوراء في منطقه، وهي الكلام القبيح.

(٧) هرارة: من الهرير، وهو صوت يخرج من صدر الكلب دون نباح.

(٨) المهارشة: التي تهيج الشر، والعقارة: التي تعقر غيرها، أي تجرحه كما يعقر الكلب الناس، أي يعضهم.

العقرب الجرارة.

ومنهن شفشليق شَعْشَعٌ سلفع[١] ذات سَم مُنقَع[٢] وإبراق[٣] واختلاق، تهب مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم، قالت: لا، مولدة لمخازيه، محتقرة لما في يديه، تضرب له الأمثال، وتقصِّر به دون الرجال، وتنقله من حال إلى حال، حتى قَلَى[٤] بيته، وملَّ وَلَده، وغثَّ[٥] عيشَه، وهانت عليه نفسُه، حتى أنكره إخوانه، ورحمه جيرانه.

ومنهن الوزْهاء[٦] الحمقاء: ذات الدَّل في غير موضعها، الماضغة للسانها، الآخذة في غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر الشمس ولما يُسمع لها صوت، ولم يُكْنس لها بيت، طعامها بائت، وإناؤها وضِر[٧] وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع[٨]، وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب.

ومنهن العَطوف الوَدود، المباركة الوَلود، المأمونة على عيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سِرها وإعلانها، الكريمة التبعُّل[٩]، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتاً، النظيفة بيتاً، خادمها مُسَمَّن، وابنها مُزَيَّن، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

جعلك الله يا بني ممن يقتدي بالهُدى، ويأتمُّ بالتقى، ويجتنب السخط، ويحب الرضا، والله خليفتي عليك، والمتولِّي لأمرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد نبيِّ الهدى، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

[روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ١٧٤- ١٧٩]

---

(١) الشفشليق: العجوز المسترخية، والشعشع: الطويلة، والسلفع: الصخابة البذيئة السيئة الخلق.

(٢) السم المنقع: السم المذاب المهيأ.

(٣) الإبراق: التهديد.

(٤) قلاه يقليه ويقلاه قلى: أبغضه وكرهه غاية الكراهة.

(٥) غث عيشه: صار غثاً هزيلاً.

(٦) الورهاء: الحمقاء.

(٧) وضر: الذي فيه وسخ الدسم واللبن ونحوه.

(٨) مزروع: مطروح.

(٩) التبعل: رعاية البعل (الزوج) والتودد له.

الوصيَّة الذهبية

بعد أن أخذ يوسف بن خالد السمتي العلم عن أبي حنيفة وأراد الرجوع إلى بلدته البصرة استأذن أبا حنيفة في ذلك، فقال له أبو حنيفة: «حتى أزوِّدك بوصية فيما تحتاج إليه في معاشرة الناس، ومراتب أهل العلم، وتأديب النفس وسياسة الرعية، ورياضة الخاصة والعلماء، وتفقد أمر العامة، حتى إذا خرجت بعلمك كان معك آلة تصلح له ولا تشينه». وها هي الوصية التي زوده بها:

«اعلم أنك متى أسأت معاشرة الناس صاروا لك أعداء، وإن كانوا لك آباء وأمهات، ومتى أحسنت معاشرة قوم ليسوا لك بأقرباء، صاروا لك أمهات وآباء، كأني بك وقد دخلت البصرة، وأقبلت على من يخالفوننا بها، ورفعت نفسك عليهم، وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم، وخالفتهم وخالفوك. وهجرتهم وهجروك، وضللتهم وضللوك وبدّعوك، واتصل ذلك الشين بنا وبك، فاحتجت إلى الانتقال عنهم، والهرب منهم، وهذا ليس من رأي، لأنه ليس بعاقل من لم يدارِ من ليس له من مداراته بدّ، حتى يجعل الله له مخرجاً.

إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقلك، فأنزل كل رجل منهم منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعظم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرَّب من العامّة، ودار الفجار، واصحب الأخيار، ولا تتهاون بالسلطان، ولا تحقرنَّ أحداً، ولا تقصرنَّ في إقامة مروءتك، ولا تُخرجَنَّ سرك إلى أحد، ولا تثقن بصحبة أحد حتى تمتحنه، ولا تخادن خسيساً ولا وضيعاً، ولا تألفنَّ ما ينكر عليك في ظاهره، وإياك والانبساط إلى السفهاء، ولا تجيبنَّ دعوة، ولا تقبلنَّ هدية، وعليك بالمداراة والصبر، والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر، واستجدَّ ثيابك، واستفره دابتك، وأكثر استعمال الطيب، واجعل لنفسك خلوة ترم بها حوائجك، وابحث عن أخبار حَشَمك، وتقدم في تأديبهم وتقويمهم، واستعمل في كل ذلك الرفق، ولا تكثر العتاب فيهون العدل، ولا تلِ تأديبهم بنفسك فإنه أبقى وأهيب لك، وحافظ على صلواتك، وابذل طعامك، فإنه ما ساد بخيل.

ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار الناس، فمتى عرفت بفساد بادرت إلى إصلاحه، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية.

وزُر من يزورك ومن لا يزورك، وأحسن إلى من يحسن إليك أو يسيء إليك،

وخذ العفو وأمر بالمعروف، وتغافل عما لا يعنيك، واترك كل لما يؤذيك، وبادر في إقامة الحقوق. ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك، ومن غاب منهم افتقدت أحواله، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه، وصل من جافاك، وأكرم من أتى، واعف عمن أساء إليك، ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن والجميل، ومن مات منهم قضيت حقه، ومن كانت له فرحة هنأته بها، ومن كانت له مصيبة عزيته عنها، ومن أصابته جائحة توجعت بها.

ومن استنهضك بأمر من أمور نهضتَ له، ومن استغاثك أغثته، ومن استنصرك نصرته، وأظهِر تودداً إلى الناس ما استطعت، وأفش السلام ولو على قوم لئام، ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس أو ضمك إياهم مسجد، وجرتّ المسائل وخاضوا فيها بخلاف ما عندك لا تبد لهم منك خلافاً، فإن سُئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول: فيها قول آخر، وهو كذا وكذا، والحجة له كذا، فإن سمعوه منك عرفوا منزلتك ومقدارك، وأعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظر فيه، و خذهم بجليّ العلم دون دقيقه، وآنسهم ومازحهم أحياناً، وحادثهم فإنه يستديم لك المودَّة، وأطعمهم أحياناً، وتغافل عن زلاَّتهم، واقض حوائجهم، وارفق بهم وسامحهم، ولا تبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجراً، وكن كواحد منهم.

وعامل الناس بمعاملتك لنفسك، وارض منهم ما ترضاه لنفسك، واستعن على نفسك بالصيانة لها والمراقبة لأحوالها، ودع الشغب، واستمع لمن يستمع إليك، ولا تكلف الناس ما لا يطيقون، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدم إليهم حسن النية، واستعمل الصدق، واطرح الكبر جانباً، وإياك والغدر وإن غدروا بك، وأدّ الأمانة وإن خانوك، وتمسّك بالوفاء، واعتصم بالتقوى، وعاشر أهل الأديان وأحسن معاشرتهم، فإنك إن تمسّكت بوصيتي هذه رجوتُ لك أن تَسْلَم.

ثم قال له: إنه يحزنني مفارقتك وتؤنسني معرفتك، فواصلني بكتبك، وعرّفني حوائجك، وكن لي كُلَّكَ، فإني لك كُلِيّ.

وكان يقول: من كان فقيراً فليأت إلي أُعطه رأس مال يستغني بذلك، ألا وهو «الأمانة».

[أحسن القصص: ٤/ ٣٣]

عبر وعظات

الاستعداد ليوم الرحيل :

روي أن ملك الموت دخل على داوود عليه السلام فقال له النبي داود عليه السلام: من أنت؟ فقال: أنا من لا يهاب الملوك، ولا يُمنع من دخول القصور، قال: فإذن أنت ملك الموت؟ قال: نعم، قال: أتيتني ولم أستعد للموت بعد. قال: يا داوود أين فلان قريبك؟ وأين فلان جارك؟ وأين فلان صديقك؟ قال: ماتوا، قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة؟!

الاستغفار:

جاء رجل إلى الإمام الحسن البصري رضي الله عنه فقال له: يا تقي الدين إن السماء لم تمطر، فقال له الحسن: اسْتغفِر الله، ثم جاءه رجل آخر فقال: يا تقي الدين أشكو الفقر، فقال له: اسْتغْفِر الله، ثم جاءه ثالث فقال له: يا تقي الدين امرأتي عاقر لا تلد، فقال له: اسْتغْفِر الله، ثم جاءه بعد ذلك من قال له: يا تقي الدين أجدبت الأرض فلم تنبت، فقال له: استغفر الله، ثم جاءه بعد ذلك من قال له: يا تقي الدين جف الماء في الأرض، فقال له: استغفر الله، فقال الجالسون للحسن البصري: عجباً لك يا إمام أوكلما جاءك شاكٍ قلت له استغفر الله؟ فقال الحسن: أو ما قرأتم قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

نصيحة قيمة :

لما دخل العارف بالله الحسن البصري رضي الله عنه على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قال أمير المؤمنين للحسن البصري: عظني يا تقي الدين، فقال: صم عن الدنيا، وأفطر على الموت، وأعد الزاد لليلةٍ صبحها يوم القيامة.

الدعوة بين القول والعمل :

قال الإمام السري رضي الله عنه لتلميذه أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: يا جنيد

اذهب إلى المسجد وعظ الناس، فقال الجنيد: يا أستاذي إنني أستطيع الوعظ ولكني أخشى ثلاث آيات في كتاب الله، فقال له الأستاذ: ما هي؟ قال التلميذ: أولها قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وأما الآية الثانية فقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وأما الآية الثالثة فقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ١- ٢].

عمر بن عبد العزيز يعظ نفسه:

ذكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

ثم يبكي وينشد:

نهارُك يا مغرور سهوٌ وغفلةَ ... وليلكَ نومٌ والردى لكَ لازمُ
تَسَرُّ بما يفنى وتفرَحُ بالمُنى ... كما سُرَّ باللذاتِ في النّوم حالمُ
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّةَ ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

اليد الأمينة واليد الخائنة:

سئل أحد العلماء المسلمين: إن اليد إذا قطعها أحد بدون ذنب فإنه يدفع ديتها خمسمئة دينار، ولكنها تقطع إذا سرقت ربع دينار فقط، فرد عليه العالم قائلاً: لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، وأنشد قائلاً:

يَدٌ بخمسمائةِ عسجدٍ(١) وُدِيَتْ ... ما بالَها قُطعت بربع دينارِ؟
عِزّ الأمانةِ أغلاها، وأرخصها ... ذلّ الخيانةِ فافهم حِكمَةَ الباري

---

(١) العسجد: الذهب.

دواء القلب :

عن إبراهيم الخواص رضي الله عنه قال:
دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

نصيحة :

بلغ أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه لبس خاتماً بألف درهم، فأرسل إليه وقال له: يا عاصم إذا وصلك كتابي هذا فبع الخاتم الذي في إصبعك وتصدّق به على ألف فقير، واشتر خاتماً من حديد، واكتب عليه: «رحم الله امرأ عرف قدر نفسه».

الزهد في الدنيا :

جاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله يسأله: ما سر زهدك في الدنيا يا إمام؟ فقال: أربعة أشياء: علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به وحدي، وعلمت أن الله مطلع عليّ فاستحييت أن يراني على معصية، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي.

قتيل النار :

حكي أن رجلاً كان يعرف بدينار العيّار، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة، فأخذ منها عظماً، فتفتت في يده، ففكر في نفسه وقال: ويحك يا دينار كأني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً(١) والجسم تراباً، فندم على تفريطه وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ألقيتُ إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب، فقال: يا أماه ما يُصنع بالعبد الآبق (الهارب) إذا أخذه سيده؟ قالت: يخشِّن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعير و غِلينّ (قيدين)،

---

(١) رفاتاً: حطاماً وفتاتاً.

وافعلي بي كما يُفعَل بالعبد الآبق لعل مولاي يرى ذُلي فيرحمني، ففعلت به ما أراد، فكان إذا جنَّ عليه الليل أخذ في البكاء والعويل ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار، ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بني أرفق بنفسك، فقال: دعيني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً، يا أماه إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي ربّ جليل ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل أم إلى شرِّ مقيل(1) قالت: يا بني خذ لنفسك راحة، قال: لست للراحة أطلب، كأنك يا أماه غداً بالخلائق يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه، فأخذ بالبكاء والعبادة وقراءة القرآن، فقرأ في بعض الليالي ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣] ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه، فجاءت أمه إليه، فنادته، فلم يجبها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف يا أماه: إن لم تجديني في عرصات(2) القيامة، فاسألي مالكاً خازن النار عني، ثم شهق شهقةً فمات رحمه الله تعالى، فغسلته أمه وجهزته، وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب، فلم يُرَ أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم، فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة، فرآه يتبختر في الجنة وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ويقول: وعزته وجلاله، سألني ورحمني وغفر لي وتجاوز عني، ألا أخبروا عني والدتي بذلك.

[المستطرف: ١-٣٢٦]

الحسن البصري يعظ ابن هبيرة

لما ولي عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين وأئمة المسلمين. فقال لهم: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليّ في أشياء، إن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فتكلم الشعبي وابن سيرين كلاماً فيه تقية

---

(١) مقيل: مكان القيلولة..

(٢) العرصة: الساحة أو البقعة الواسعة.

ومداراة، والحسن ساكت. قال له: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

قال: أقول يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك الله من يزيد بن عبد الملك، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله، يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك. يا عمر بن هبيرة: لقد أدركتُ ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشدّ إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يردّ عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد في معاصيه وَكَلَكَ الله إليه. فبكى عمر حتى أخضلت لحيته، وزاد في إكرام الحسن على الشعبي وابن سيرين.

[عيون الأخبار ٢/ ٣٧١]، [مروج الذهب: ٣/ ١٨٦]

المنديل الأخضر

حج رجل صالح إلى بيت الله الحرام، فانقطعت به السبل بعد أداء الحج، ولم يجد ما يستطيع به العودة إلى بلده، فأخذ يبحث عن عمل لعله يستطيع أن يحصل بسببه على المال الكافي الذي يمكنه من العودة فلم يجد، ومكث أياماً وليالي لم يذق فيها الطعام، بل كان يكتفي بالشرب من ماء زمزم.

وفي ذات يوم، وبينما هو خارج من المسجد إذا به يجد منديلاً أخضرَ وكان بداخله عقد من اللؤلؤ يقدر ثمنه بألف دينار، ففرح به أيّما فرح.. ولكنه تذكر أن هذا المنديل إنما هو لقطة الحرم، ولقطة الحرم لا بد فيها من التعريف، ولا يجوز التصرف بها إلا بعد عام إن لم يجدها صاحبها.

فأخذ يتردد على المسجد في أوقات الصلاة علَّهُ يجد صاحب المنديل، فإذا برجل ينادي في الناس ينشد منديلاً أخضر، ويعرض لمن وجده مكافأة حسنة. فقام صاحبنا إليه وقال له: أهذا هو المنديل الذي تبحث عنه؟ قال: نعم، إنه هو! جزاك الله خيراً، وأراد أن يكافئه لأمانته، ولكن الرجل أبى أن يأخذ منه شيئاً، رغم حاجته الملحة لمثل هذه المكافأة، فقد مضت أيام عديدة لم يذق فيها الطعام، وقال: والله ما كنت لآخذ ثواباً على أمانتي إلا من الله، وأخشى أن تحرمني مكافأتك الأجر يوم القيامة.

ومكث هذا الرجل الأمين بعد ذلك مدة طويلة ينتظر الفرج، حتى يسّر الله له

السفر بحراً مع جماعة من المسافرين، وبعد مسيرة أيام هاج بهم البحر فتحطمت السفينة التي كانوا يستقلونها، وغرق من فيها، أما هو فقد تشبث بخشبة من حطام السفينة، وأخذ يسبح مستعينا بها إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر بعد جهد جهيد وعناء شديد، ومن هناك لجأ إلى قرية كانت بالقرب من الشاطئ، وكان أهل القرية من المسلمين الصالحين، فآووه وأكرموه، وكان هو عالماً بالحديث وقارئاً للقرآن، فأخذ يؤمهم في الصلاة في مسجد القرية، وبعد أيام عديدة أصبح هو الإمام والمقدم فيهم، فأحبوه وبالغوا في إكرامه، ثم عرضوا عليه الزواج من إحدى بنات القرية، فقال: ولكني لا أملك شيئاً من المال ولا من متاع الدنيا كما تعلمون، وقد خرجت من البحر لا لي ولا عليّ، فقالوا له: نحن نزوجك، فالبيت جاهز وسنعينك في تأثيثه وفي اختيار العروس التي تليق بك.

ولما دخل عليها رأى في جيدها ذلك العقد الذي وجده في مكة، فوقف مندهشاً، وقال في نفسه: أهذا العقد الذي وجدته في مكة أم عقد يشبهه؟ فسألها من أين لك هذا العقد؟ قالت: لقد أهداه لي أبي. فذهب في اليوم التالي إلى أبيها وسأله: هل حججت يوماً؟ قال: نعم، في السنة الفلانية، فقال: أخبرني عما جرى لك في الحج. فذكر له أشياء كثيرة ومنها قصة العقد، وقال: أنا رجل ثري بفضل الله، وليس عندي إلا هذه البنت التي زوجتك إياها، فاشتريت لها من هناك عقداً ثميناً من اللؤلؤ هدية لها، فضاع العقد مني في مكة، فبحثت عنه فلم أجده، فأخذت أنادي في الناس، وإذا برجل من الصالحين يقول لي: أهذا عقدك الذي تبحث عنه؟ فقلت: نعم، إنه هو، وعرضت عليه مكافأة فأبى، فشكرته على أمانته. وبعد أيام جلستُ مفكراً في أمر الرجل الأمين، وقلت في نفسي إذا لقيت ذلك الرجل لأزوجنه ابنتي ولأعطينه ذلك العقد، فقال: أنا ذلك الرجل الذي وجد ضالتك! فقال: سبحان الله، من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وها قد جاءك العقد ومعه العروس.

[بتصرف عن مجلة التربية الإسلامية/ بغداد]

لقمة بلقمة!

قيل: كان لامرأة ابنٌ غابَ عنها غيبة منقطعة. فجلست تأكل يوماً، فحين قطعت

لُقْمةً، وأهوت بها إلى فيها، تصدّق[1] منها سائل وقف بالباب، فامتنعت من أكل اللقمة، وحملتها مع تمام الرغيف، فتصدّقت بها، وبقيت جائعة.

وكانت شديدة الحذر على ابنها والدعاء بردّه، فما مضت إلاَّ ليالٍ يسيرة على هذا الحديث، حتى قَدِمَ ابنها، فأخبر بشدائد مرَّت به عظيمة.

وقال: أعظم شيءٍ مرَّ على رأسي، أنّي كنت في وقت كذا، أسلك أَجَمَةً[2] في البلد الفلاني، إذ خرج أسدٌ، فقبض عليَّ من حمار كنت فوقه، فغار الحمار[3] فَتَشَبَّكَتْ مخالب السبع، في مُرَقَّعَةً كانت عليَّ، فما وصلت إليَّ، وذهب عقلي، وجرَّني فأدخلني الأَجَمَة.

فما هو إلاَّ أن بَرَكَ عليَّ ليفرسَني، حتى رأيت رجلاً عظيم الخلق، أبيض الوجه والثياب، وقد جاء حتى قبض على قَفا الأسد، ورفعه حتى خبط به الأرض، وقال: قُم يا كلب، لقمةٌ بلقمةٍ، فقام السبع مهرولاً، وثاب إليَّ عقلي، وطلبت الرجل، فلم أجده.

وجلست ساعات، إلى أن عادت إليَّ قوَّتي، ثم نظرت إلى نفسي، فلم أجد بها بأساً، فمشيت، فلحقت القافلة، وأخبرتهم فعجبوا من خلاصي، ولم أدرِ ما معنى لقمة بلقمة!.

فنظرت المرأة إلى الوقت فإذا هو الوقت الذي أخرجت اللقمة من فيها، فتصدّقت بها. فأخبرته الخبر.

[التنوخي: نشوار، ٢٠/ ٤٢]

بل غضبت للدينارين!

كان في قرية من قرى بني إسرائيل شاب صالح عابد، وكان في القرية شجرة غريبة الأطوار، تظهر لها أحوال توهم الناس أنها مباركة، تمتاز بأسرار وعجائب ففتنوا بها، وأخذوا يتقربون إليها، ويمنحونها من التعظيم والتقديس ما حقه أن يكون لله – تبارك وتعالى – فغضب الشاب لهذا الشرك، وعزم على أن يقطع الشجرة، فيخلص

---

(١) تصدق منها: طلب الصدقة.

(٢) أجمة: غابة كثيفة الأشجار.

(٣) غار: لغة بغدادية لم تزل مستعملة، وتعني: أغار: أي أسرع في عدوه.

الناس من الشيطان الذي يقودهم إلى النار، فأخذ عدته ومضى، وبينما هو في الطريق، عرض له الشيطان، فقال له: إلى أين أيها الشاب؟

قال: إلى هذه الشجرة، قال: وما حاجتك بها؟ قال: أقطعها لأن الناس فتنوا بها، وعبدوها من دون الله - والشاب هنا صادق النية وعمله لوجه الله - فقال الشيطان: لا لن تستطيع الوصول إليها وإني أمنعك من هذا، وأمسك بتلابيب الشاب، فغضب الشاب، وأمسك الشيطان ورفعه كما ترفع الريشة وطرحه على الأرض وبرك على صدره وضيق عليه الخناق، فأخذ الشيطان يستعطف الشاب ويعتذر ويتودد ويتلطف له بالكلام اللين قائلا: يا سيدي ما كان قصدي أن أمنعك عن قطع هذه الشجرة، إنما كنت أريد أن تتركها يوماً أو يومين لأن لي فيها مأرباً، ثم عرض على الشاب أن يعطيه في كل يوم يتركها ديناراً واحداً.

وهكذا قال الشاب في نفسه: وماذا لو تركتها بضعة أيام لآخذ بضعة دنانير ثم أقطعها؟ واتفق الشاب مع الشيطان على إبقائها بضعة أيام نظير الدنانير، ومضى كل إلى شأنه، وفي اليوم التالي جاء رسول الشيطان، وأعطى الشاب الفقير ديناراً ففرح به، فذهب إلى السوق فاشترى اللحم والخبز والفاكهة، وفي اليوم الثاني جاء الرسول بالدينار الثاني، فاشترى الشاب كسوة لنفسه ولأمه وتوالت الأيام وتوالت الدنانير، وركن الشاب إلى النعيم المادي، ونسي ما كان يفكر به من قطع الشجرة تلك، وفي يوم من الأيام، انقطع الرسول، فأخذ الشاب ينتظر طول نهاره، فلم يجده الانتظار شيئاً، لكن مضى اليوم الثالث والرابع، والشاب ينتظر على أحرّ من الجمر، هنا ذكر أمر الشجرة!!

فحمل عدته وراح متجهاً نحو الشجرة يريد قطعها نكاية بصاحبه الذي قطع عنه الدنانير، هنا تغيرت النية من الغضب لله إلى الغضب للنفس والدنانير، فلقيه الشيطان فسأله: إلى أين؟ قال: أريد قطع الشجرة.

فضحك الشيطان وقال: سأمنعك من الوصول إليها، وأمسك بتلابيبه، وحاول الشاب أن يرفعه - كما فعل في المرة الأولى - فوجده أثقل من جبل، فرفعه الشيطان وطرحه على الأرض وبرك على صدره، وراح الشاب يتلطف بالكلام، ويعتذر للشيطان، ويأخذ على نفسه العهود أن لا يعود إلى ذلك، وقبل الشيطان ذلك بشرط أن يفعل للشجرة مثل ما يفعل سائر الناس لها من التقديس والتعظيم!!

وعندما سأل الشاب الشيطان عن هذا السر، أجابه الشيطان: لقد كنت بالأمس غاضباً لله عز وجل، فوهب لك الله هذه القوة الجبارة التي صرعتني بها، أما اليوم فأنت غاضب للدينار، فسلبك الله قوتك وتخلى عنك ووكلك إلى الدينار فغلبتك.

[انظر مكائد الشيطان،٦٠،حلية الأولياء ٢/ ٢٧٣ تلبيس إبليس٣٣]

عدل الله

جاءت امرأة إلى داود عليه السلام قالت: يا نبي الله، ربك عادلٌ أم ظالم؟

فقال داود: ويحك يا امرأة، هو العدل الذي لا يجور! ثم قال لها: ما قصتك؟

قالت: أنا أرملة. عندي ثلاث بنات. أقوم عليهن من غزل يدي. فلما كان أمس شددت غزلي في خرقة حمراء. وأردت أن أذهب الى السوق لأبيعه.

فإذا أنا بطائر قد انقض عليّ، أخذ الخرقة والغزل وذهب. وبقيت حزينة لا أملك شيئاً أبلّغ به أطفالي. فبينما المرأة مع داود عليه السلام في الكلام، إذا بالباب يطرق على داود فأذن له بالدخول. وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده مئة دينار. فقالوا يا رسول الله: أعطها لمن يستحقها. فقال لهم داود عليه السلام: ما كان سبب حملكم هذا المال... قالوا يا نبي الله. كنا في مركب فهاجت بنا الريح وأشرفنا على الغرق. وإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل. فسددنا به ثقب السفينة. فهانت علينا الريح وانسدّ الثقب ونذرنا لله أن يتصدق كل واحد منا بمئة دينار. وهذا المال بين يديك. فتصدق به على من أردت فالتفت داود عليه السلام إلى المرأة وقال لها: ربّ يتجر لك في البر والبحر وتجعلينه ظالماً..؟ وأعطاها الألف دينار وقال: أنفقيها على أطفالك.

☆ ☆ ☆

الباب الخامس
بين العلماء والحكام

ابن بنان وابن طولون(١)

قال أبو علي أحمد الروزبادي البغدادي: لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري فقال لي: لعلك اشتفيت من خبر ابن بنان مع ابن طولون، فمن أجله زعمت جئت إلى مصر. قلت: إنه تواضع، فلم يخبرني وهبته فلم أسأله. قال: تعال أحدثك الحديث.

كان أحمد بن طولون من جارية تركية، وكان أبوه طولون مملوكاً حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك، فولد أحمد في منصب ذلة تستظهر بالطغيان، وكانت هاتان طبيعته إلى آخر عمره، فذهب بهمته مذهباً بعيداً، ونشأ في أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله، فطلب الفروسية والعلم والحديث، وصحب الزهاد وأهل الورع، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالي، وظل يرمي بنفسه، وهو في ذلك يكبر ولا يزال يكبر، كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على ما يعلم الله.

قال: وكان عقله من أثر طبيعته كالعقلين لرجلين مختلفين، فله يد مع الملائكة

---

(١) هو أحمد بن طولون، أبو العباس (٢٢٠- ٢٧٠هـ/ ٨٣٥- ٨٨٤م) الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، تركي مستعرب، كان جواداً شجاعاً حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه. من آثاره الجامع المنسوب إليه في القاهرة، وقلعة يافا بفلسطين. توفي في مصر يؤخذ عليه أنه كان حاد الخلق، سفك كثيراً من الدماء في مصر والشام.

ويده الأخرى مع الشيطان، فهو الذي بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء، وهو أول من نظر في المظالم من أمراء مصر، وهو صاحب يوم الصدقة: يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه، ومراتبه في ذلك في كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس، ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون في كل اثنين منها فالوذج (نوع من الحلوى) وفي الآخرين من القدور، وينادي: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر! وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو في المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته، وكان راتب مطبخه في كل يوم ألف دينار، واقتدى به ابنه خمارويه، فأنشأ بعده مطبخ العامة ينفق عليه ثلاثة وعشرون ألف دينار كل شهر.

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها في مدة ولايته ألفي ألف ومائتي ألف دينار، وكان كثير التلاوة للقرآن، وهو الذي فتح أنطاكية في سنة خمسة وستين ومائتين، ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها، فلما نابذه أهلها وقاتلهم أمر أصحابه أن ينهزموا عنها، ليبلغ ذلك طاغية الروم فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس، فيكون بهذا كأنه قاتله وصدّه عن بلد من بلاد الإسلام، ويجعل هذا الخبر كالجيش في تلك الناحية!

ومع كل ذلك فإنه كان رجلاً طائش السيف، يجور ويعسف، وقد أحصي من قتلهم صبراً أو ماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً، وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة في حادثة معروفة. وقال له: غرّك قول الناس ما في الدنيا مثل بكار؟ أنت شيخ قد خرفت! ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولاية القضاء، فكانت عشرة آلاف دينار، قيل إنها وجدت في بيت بكار يختمها لم يمسها زهداً وتورّعاً.

ولما ذهب الشيخ أبو الحسن بن بنان يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، طاش عقله فأمر بإلقائه إلى الأسد، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغكم في بغداد...

قال: وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه وكان

خمارويه هذا مشغوفاً بالصيد، لا يكاد يسمع لسبع في غيطة(١) أو بكن(٢) وادٍ إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود(٣)، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من الغابة عنوة وهو سليم، فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم.

وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيماً، ضارياً، عارم الوحشة، متزيّل العضل(٤) شديد عصب الحلق، هراساً، فراساً، أهرت الشدق(٥) يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر، ينبئ أن جوفه مقبرة، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله!

وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه فجذبوه فارتفع وهجهجوا بالأسد يزحزحونه، فانطلق يزمجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة!

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعرّ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة، فما بقى من أجل الشيخ إلا طرفة عين ورأيناه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به، وما منا إلا كاد ينتهك حجاب قلبه من الفزع والرعب والاشفاق على الرجل.

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته، فأقعى على ذنبه، ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون

---

(١) غيطة: الغيط الواسع في الأرض.

(٢) الكن: كل ما يرد الحر والبرد، وما يستر من الأبنية والأشجار ونحوها.

(٣) لبود: كل شعر وصوف متلبد، وما يوضع تحت السرج، أو ضرب من البسط.

(٤) متزيل العضل: متباعد، متفرق.

(٥) أهرت الشدق: متسع.

وإرادة الله!

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمي عمل، ولم يكن منه بازاء لحم ودم، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة، ولا يرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها، كحياة الدود والنملة وما دونها من الهوام والذر!

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى: فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله، وكان مندمجاً في يقين هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله، فخاف منه، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة، خرج الأسد من ذاته ومعانيها الوحشية، فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة، ومن ذلك ليس في الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة.

ونسي الشيخ نفسه فكأنما الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه.

قال: وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ، فإذا هو ساهم مفكر، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظنّا في تفكيره، فمن قائل إنه الخوف أذهله عن نفسه، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد وأكثرنا من ذلك وتجارينا فيه، حتى سأله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟

فقال الشيخ: لم يكن عليّ بأس، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد، أهو طاهر أم نجس...

[وحي القلم: ٣/ ٤٥]

أمراء للبيع

قال الإمام تقي الدين بن دقيق العيد: ما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة.

ثم قدم إلى مصر في سنة ٦٣٩هـ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتحفىّ به وولاه خطابة مصر وقضاءها، وكان أيوب ملكاً شديد البأس، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء، وقد جمع من المماليك الترك مالم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر، فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم: يا أيوب! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر، فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه.

فحدثني الباجي قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت: يا سيدي، كيف كانت الحال؟

قال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به.

قلت: أما خفته؟

قال: يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامي كالقط. ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيته الدنيا كلها، بيد أني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا، بل هو لا شيء في صورة شيء.

* * *

قال الإمام تقي الدين: وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة إلا

أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها، ففكر شيخنا في هؤلاء الأمراء وقال: إن هؤلاء مماليك، فحكم الرق مستصحب عليهم(١) لبيت مال المسلمين، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق!

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم ثم احتدم الأمراء وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضي ابن عبد السلام.

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصح لهم شيء من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي!

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه، ويتحملون عليه بالشفاعات، وهو مصرّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم، ولا يخشى اتسامه بعداوتهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه. واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لايعنيه، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه، وهم وافرون وفي أيديهم القوة ولهم الأمر والنهي.

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه، وأزمع الهجرة من مصر، فاكترى(٢) حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد(٣) حتى طار الخبر في القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي، وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبي من بين المؤمنين به، واستعلنت قوة الشرع في مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير، فقيل للسلطان: إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك! فارتاع السلطان، فركب بنفسه ولحق بالشيخ

---

(١) مستصحب عليهم: ملازم لهم.

(٢) اكترى: استأجر.

(٣) البريد: أصله الدابة التي تحمل الرسائل، والرسول، والمسافة بين كل منزلتين من منازل الطريق، وهي أميال يحددها بعضهم كما يلي: اليوم =٢ بريد = ٨ فراسخ = ٤٤.٣٥٢ كيلو متراً. فالبريد = ٤ فراسخ = ٢٢.١٧٦ كيلو متراً [انظر: الخراج في الدولة الإسلامية للأستاذ محمد ضياء الدين الريس]

يترضاه ويستدفع به غضب الأمة، وأطلق له أن يأمر بما شاء، وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ولبس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائر.

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة في بيعهم، وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كلّ القاهرة، ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم في هذا الرقيق الغالي!

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه، فلم يعبأ الشيخ به فهاج هائجه وقال: كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا، فما يموت رأيه وهو حي.

ثم ركب النائب في عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب، فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى، فانقلب إلى أبيه وقال له: انج بنفسك، إنه الموت، وإنه السيف، وإنه وإنه...

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير، بل قال له: يا ولدي! أبوك أقلّ من أن يقتل في سبيل الله!

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت، ونظر إلى نائب السلطنة وفي يده السيف، فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها.

وتناوله بروحه القوية، فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ.

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له ثم قال: يا سيدي، ما تصنع بنا؟ قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم!

- وفيم تصرف ثمننا؟
- في مصالح المسلمين.
- ومن يقبضه؟
- أنا.

فتم للشيخ ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، واشتط في ثمنهم، لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ، وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة

يستامونه ليشتروه...

ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التي أعلنها الشرع: أمراء للبيع! أمراء للبيع...

[وحي القلم: ٣/ ٥٢]

الخديوي إسماعيل وعلماء الأزهر

وقعت الحرب بين مصر والحبشة في زمن الخديوي إسماعيل[١] وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها، وضاق صدر الخديوي لذلك فقال لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة[٢] تريد أن تدفعها؟

فقال: يا أفندينا ؟إن الله عودني إذا حاق بي شيء من هذا أن ألجأ إلى «صحيح البخاري» يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عني[٣].

---

(١) هو إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي الكبير [١٢٤٥- ١٣١٢هـ = ١٨٣٠- ١٨٩٥م] خديوي مصر، ولد في القاهرة، كان مولعاً بالهندسة والرسم والتخطيط، ولما ولي اتجه إلى تنظيم المدن وإنشائها، وفي أيامه أوصلت أسلاك البرق (التلغراف) وسكك الحديد إلى بلاد السودان، وأقيمت عبّارات في البحر الأحمر، وبنيت مدينة الإسماعيلية. وكان مسرفاً في الإنفاق على ملذاته وعلى مشروعاته. ولي مصر وعليها من الديون ثلاثة ملايين جنيه. واعتزلها وعليها نحو مئة مليون جنيه. ورضي بالمراقبة الأجنبية على خزائن مصر. عزل سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م وقضى بقية أيامه في أوربا وتركيا إلى أن توفي في الآستانة، ونقلت جثته إلى القاهرة.

[الإسلام بين العلماء والحكام: ١٠٣]

(٢) الملمة: الشدة، والنازلة الشديدة من شدائد الدهر.

(٣) من الجدير بالذكر والتعليق على هذه الواقعة أن قراءة صحيح البخاري هي من باب الدعاء، لأن فيه ذكر الله وتمجيده، والتضرع إليه سبحانه وتعالى لطلب النصر، كما كان يفعل رسول الله ﷺ وقد ثبّته وذكره البخاري في صحيحه، والدعاء مطلوب شرعاً كل ساعة، ولا سيما ساعات الشدة وأوقات المحنة والضيق، وكما استشهد الشيخ رحمه الله تعالى بالحديث الشريف «...فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم» ولكن الدعاء وحده ليس طريقاً لرد العدو والانتصار عليه، فلا بد أن يكون مع الدعاء القتال بإعداد لوازمه وحسن البلاء

فكلّم الخديوي شيخ الجامع الأزهر الشيخ العروسي فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة بالأزهر، ومع ذلك ظلت أنباء الهزائم تتوالى.

فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إليهم غاضباً وقال: إما أن هذا الذي تقرؤونه ليس صحيح البخاري، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح، فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً. فوجم العلماء لذلك، ثم ابتدره شيخ من آخر الصف وقال: منك يا إسماعيل.. فإنا روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»(١).

فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ولم ينطق بكلمة. وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه، ثم عاد شريف باشا يسأل عن الشيخ فأخذه إلى الخديوي فأجلسه الخديوي إلى جواره وقال له: أعد يا أستاذ ما قلته؟

فأعاد الشيخ كلامه وردد الحديث وشرحه.

فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟

قال له الشيخ: أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحاً؟ أليس.. أليس.. وعدد له المنكرات التي تجري بلا إنكار. ثم قال: فكيف تنتظر بعد ذلك النصر من السماء؟

فيه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله..)، (وقاتلوا المشركين)، (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال)، فسيدنا محمد ﷺ، كان يدعو ويلح في الدعاء لاستنزال النصر وطلب التأييد من رب العالمين سبحانه وتعالى، وفي الوقت نفسه كان يعد العدة الحربية ويحرض المؤمنين على القتال، وربما قاتل بنفسه كما حدث في بعض غزواته، وتلك طريقة الإسلام في رد العدو أو الجهل لحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم.

[الإسلام بين العلماء والحكام: ١٠٣]

(١) رواه البزار والطبراني.

فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه مدنيتهم؟
فقال الشيخ: إذاً ما ذنب البخاري وما حيلة العلماء؟
ففكر الخديوي ملياً وأطرق طويلاً ثم قال: صدقت. صدقت.
وعاد الشيخ لزملائه مرفوع الرأس بعد أن كان ميؤوساً من رجوعه.
[الإسلام بين العلماء والحكام: ١٠٣]

بين سفيان الثوري والرشيد

كتب الرشيد إلى سفيان الثوري(١) يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر.

أما بعد: يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين، وجعل ذلك فيهم له، واعلم أني آخيتك مؤاخاة لم أصرم(٢) بها حبك، ولم أقطع منها ودّك، وإني منطو على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلبي من المحبة، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحت لهم بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتنى، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإن ورد عليك كتابي فالعجل العجل...

فرد عليه سفيان الثوري بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد، الذي سُلب حلاوة الإيمان. أما بعد: فإني قد

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري. من بني ثور، من مضر، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى وخرج من الكوفة (سنة ١٤٤هـ) فسكن مكة والمدينة وانتقل إلى البصرة، فمات فيها. له من الكتب: الجامع الكبير، الجامع الصغير، وكلاهما في الحديث.

(٢) أصرم حبك:: أقطع ودك

كتبت إليك أعرّفك أني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك، وقليت[1] موضعك فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك، بما هجمت به على بيت مال المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنفذته في غير حكمة، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء[2] عنّي، حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك، أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى.

يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك؟ فشد يا هارون مئزرك[3]، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً، وللظالمين إماماً.

يا هارون قعدت على السرير، وأسلبت ستراً من دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويسرقون ويقطعون السارق، ويشربون الخمور ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدون الزاني، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟

فكيف بك غداً يا هارون إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]. أين الظلمة وأعوان الظلمة، فقدمك بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وإنك لهم سابق وإمام إلى النار، كأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وإنك ترى حسناتك في ميزان غيرك

(١) قلى: هجر وأبغض.

(٢) ناء: بعيد.

(٣) مئزرك: الإزار، ويعني تهيأ للأمر.

زيادة على سيئاتك، بلاء على بلاء، وظلمة على ظلمة، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أني قد نصحتك، وما أبقيت لك في النصح غاية، فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ، وأحسن الخلافة عليهم. واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك، وهو سائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل إلى أهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته... فإياك أن تكتب إليّ كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام.

فأقبل هارون يقرأ، ودموعه تنحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق، فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه وأثقلته بالحديد، وضيقت عليه بالسجن، كنت تجعله عبرة لغيره.

فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، وإن سفيان أمة وحده، فاتركوا سفيان وشأنه. ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله.

[الإسلام بين العلماء والحكام: ٩٤]

عالم وطاغية
(سعيد بن جبير[1] والحجاج بن يوسف)

أنكر سعيد كما أنكر غيره من الفقهاء سيرة الحجاج في الناس، وعُلوِّه في الأرض بغير الحق، وإذلاله للمسلمين، وسفكه للدماء، ووأده للحريات، وانتهاكه للحرمات، وقد ثار ضده القائد الشجاع عبد الرحمن بن الأشعث القيسي، وانضم إليه كثير من أهل العلم والدين، وفي طليعتهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله بن الشخير، ودارت المعارك بين جنود ابن الأشعث وجنود

---

(١) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء، الكوفي، تابعي، [٤٥- ٩٥هـ = ٦٦٥- ٧١٤م] كان أعلم التابعين على الإطلاق. وهو حبشي الأصل من موالي بني أسد. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر، ولما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الله بن مروان. كان سعيد معه، ثم هرب سعيد إلى مكة، فقبض عليه وأرسل إلى الحجاج فقتله بواسط.

الحجاج، استطاع الحجاج في النهاية أن يتغلب ويهزم ابن الأشعث هزيمة ساحقة في معركة (دير الجماجم) فقد فرّ بعدها ابن الأشعث وقُتل من قُتل من أنصاره وأُسر من أُسر وهرب من هرب.

وكان سعيد بن جبير أحد الذين فرّوا واختفوا فطلبه الحجاج حتى قبض عليه بعد بضعة عشرة عاماً، وكان الحوار التالي:

الحجاج (لحاشيته): هاتوا شيخ السوء، ورأس الفتنة.

(يدخل سعيد بن جبير).

الحجاج: (متجاهلاً) من أنت؟

سعيد: سعيد بن جبير.

الحجاج: بل شقي بن كسير.

سعيد: أمي كانت أعلم باسمي واسم أبي منك.

الحجاج: شقيت وشقيت أمك.

سعيد: إنما يشقى من كان من أهل النار، فهل اطلعت على الغيب؟

الحجاج: لماذا فررت واختفيت هذه المدة كلها؟

سعيد: أقول ما قال موسى عليه السلام (ففررت منكم لمّا خِفتكم).

الحجاج: (محتداً): أتعرض بي؟

سعيد: بل أقرر واقعاً.

الحجاج: أكافر أنت أم مؤمن؟

سعيد: (في قوة) ما كفرت بالله منذ آمنت.

الحجاج: تدّعي الإيمان أيها المنافق!! والله لأوردنك حياض الموت!

سعيد: (في ثقة وارتياح): إذن أصابت أمي حين سمتني سعيداً. فأي سعادة أعظم من الشهادة في سبيل الله وجوار سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب؟

الحجاج: (ساخراً ومهدداً): لن تجاور إلا الخوارج والمارقين، ولأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى.

سعيد: (واثقاً) لو علمت أن ذلك بيدك، لاتخذتك إلهاً من دون الله!.

الحجاج: (مغتاظاً) ويلك يا شقيّ.

سعيد: إنما الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

(يتجه الحجاج بالحديث إلى ناحية أخرى).

الحجاج: ما قولك في الخلفاء؟ وأيهم أفضل؟

سعيد: (يسد هذا الباب عليه) لست عليهم بوكيل، وما أنا عليهم بحفيظ.

الحجاج: أيهم أحب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقه عز وجل.

الحجاج: ومن منهم أرضاهم لخالقه؟

سعيد: علم ذلك عند من يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أبيت أن تصدقني.

سعيد: بل لم أرد أن أكذب عليك.

الحجاج: وما تقول في معاوية؟

سعيد: لقد شغلني أمر نفسي عن تتبع أعمال الرجال والحكم عليهم.

الحجاج: تفرّ من الجواب؟!

سعيد: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

الحجاج: ما رأيك في اقتتال علي ومعاوية؟

سعيد: تلك دماء طهّر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا.

الحجاج: وما تقول فيّ؟

سعيد: أنت أعلم بنفسك!

الحجاج: ولكني أريد أن أعرف رأيك.

سعيد: إذن يسوؤك ولا يسرك.

الحجاج: ولو... أريد أن أعرفه.

سعيد: أعفني.

الحجاج: لا عفا الله عني إن أعفيتك.

سعيد: إن كان ولا بد فإني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وهدي الراشدين من خلفائه. ترى من نفسك أموراً تريد بها حفظ هيبتك وتمكين سلطانك، وهي تقحمك الهلكة وسترد غداً على الله فتعلم.

الحجاج: ألم أرسل الجيوش لتقاتل في سبيل الله؟ ألم أبعث محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند؟ ألم أوطِّد دعائم الأمن في ديار العراق؟

سعيد: بلى.. ولكنك جبّار في الأرض، مسرف في الدماء، والرسول ﷺ يقول: (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم) فكيف بمن قتل الألوف من المسلمين؟ إنك تريد يا حجاج أن تتخذ عباد الله عبيداً لك، يطيعون في المعروف والمنكر، ويقولون في الحق والباطل: سمعنا وأطعنا. وديننا لا يقر الطاعة إلا بالمعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الحجاج: (كالمعتذر) أو تريد أن نترك الطامعين والمتربصين حتى يفتكوا بنا؟ لا بدّ أن نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا.

سعيد: ولكن دين الله لا يعرف هذه الوجبات المنكرة. الغداء بقوم والعشاء بآخرين! ولو كنت تريد الآخرة يا حجاج لم تؤثر عليها سلطاناً إن بقي اليوم زال غداً.

(الحجاج يظهر التجلد، ويكظم غيظه، ويتجه بالحديث وجهة أخرى)

الحجاج: أنا أحب إلى الله منك.

سعيد: الله أعلم بالغيب، وستوفى غداً كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون.

الحجاج: أنا مع إمام الجماعة، وأنت مع إمام الفرقة والفتنة.

سعيد: الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه. والفتنة هي اضطهاد الناس في دينهم.

الحجاج: هذه آراؤك الضالة التي تلقنها لتلاميذك.

سعيد: بل هو عِلْم رسول الله ﷺ، أخذه عنه أصحابه، ورويناه نحن عنهم.

الحجاج: ألا ترى ما نجمع لأمير المؤمنين؟

سعيد: لم أرَ شيئاً.

الحجاج: يا غلام، أحضر من الذهب والفضة والكسوة والجوهر.

(فأحضره فوضعه بين يدي الحجاج).

الحجاج: ما قولك في هذا؟

سعيد: هو حسن إن قمت بشرطه.

الحجاج: وما شرطه؟

سعيد: أن تأخذه من حله، فتضعه في حقه، ولا تبخل به عن حقه، وإلا ففزعة واحدة يوم القيامة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها.

الحجاج: أتحب أن لك من هذا شيئاً؟

سعيد: لا أحب ما لا يحب الله.

الحجاج: دعنا من هذا كله، يقولون أنك لم تضحك قط!! فما سر هذا؟

سعيد: لم أجد في الحياة ما يضحكني!! وكيف يضحك امرؤ طريقه من فوق جهنم؟ لا يدري أيمر من هناك ناجياً أم يسقط فيها جاثياً؟ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

الحجاج: فما بالنا نحن نضحك؟

سعيد: لم تستو منا القلوب. وكل ميسر لما خلق له.

الحجاج: ألم تسمع إلى العود والناي؟!

سعيد: لقد شغلني أمر أخرني عن لهو الحديث.

الحجاج: أحضروا العود والناي.

(يحضر الناي فينفخ فيه نافخ فيبكي سعيد).

الحجاج: ما الذي يبكيك؟! أهو اللهو والطرب؟!

سعيد: بل هو الحزن والكمد. لقد ذكرني هذا النفخ أمراً عظيماً: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

الحجاج: أتخدعني برقائق الكلام لأعفو عنك؟

سعيد: (شامخاً): إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر يا حجاج.

الحجاج: (في غضب) فاختر لنفسك أي قتلة تريد أن أقتلك!!.

سعيد: (في صرامة): بل اختر لنفسك أنت يا حجاج. فو الله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

الحجاج: والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك، ولا أقتلها أحداً بعدك!!

سعيد: إذن تفسد عليّ دنياي، وأفسد عليك آخرتك.

الحجاج: يا غلام. السيف والنطع[١].

(يحضر الغلام النطع والسيف)

الحجاج: خذوه.

(يأخذه الغلام. فلما ولى ضحك، فأخبره بعض جلسائه أن سعيداً ضحك).

الحجاج: ردوه.. ألم تقل أنك لم تضحك قط، فما الذي أضحكك الساعة؟

سعيد: أضحك من جرأتك على الله تعالى، ومن حلم الله عليك.

الحجاج: (مغيظاً) اقتلوه، اقتلوا هذا الرجل.

سعيد (وقد اتجه إلى القبلة): ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

الحجاج: وجّهوه إلى قبلة النصارى، الذين تفرقوا واختلفوا بغياً بينهم، فإنه من حزبهم.

سعيد: (مبتسماً): ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

الحجاج: (يشتد غضبه): كبوه لوجهه. اجعلوا وجهه إلى الأرض.

سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]

الحجاج: اذبح عدو الله، فما أسرع لسانه بالقرآن.

سعيد: أما أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة يا حجاج.. اللهم لا تسلطه على أحد بعدي.

قالوا فمات الحجاج بعده بخمسة عشر يوماً ما غمض له خلالها جفن، وكان يخيل له في المنام سعيد بن جبير وهو يطعنه بخنجر فينتفض مذعوراً، وبقي على هذه الحال حتى مات.

[عالم وطاغية: ٤٤- ٥٢]

(١) النطع: بساط من الجلد كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل لامتصاص دمه.

هشام بن عبد الملك وطاووس اليماني

حكي أن هشام بن عبد الملك قدم حاجّاً إلى مكة فلمّا دخلها، قال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل يا أمير المؤمنين قد فنوا، فقال: من التابعين، فأتي بطاووس اليماني، العالم الجليل رحمه الله، فلما دخل عليه، خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يكنه، وجلس بجانبه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً، حتى همّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكن ذلك...

فقال: يا طاووس ما الذي يحملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضباً وغيظاً. قال هشام: خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي، ولم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت كيف أنت يا هشام.

فقال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني، ولا يغضب عليّ، وأما قولك لم تقبّل يدي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة، وأما قولك لم تسلم بإمرة المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك لم تكنني، فإن الله سمّى أنبياءه أولياءه فقال: يا داود، يا يحيى، يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب، وأما قولك جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قومه قيام.

[ثمرات الأوراق ابن حجة الحمري: ص٢٣٧]

العز بن عبد السلام[1] وسلطان الشام

حكي أن خلافاً نشأ واشتد، وخصاماً طفق[2] منذراً بالكيد والحرب بين الأخوين: سلطان الشام الملك الصالح إسماعيل، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب. أوجس إسماعيل خيفة من نجم الدين، فاستعان بالصليبيين أعداء الإسلام، وتحالف معهم على قتال أخيه، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا، على رواية السبكي، وكذلك قلعة صفد وغيرها، وعلى رواية المقريزي وغيره، وأمعن إسماعيل في هذه الخيانة فسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون، وأثار هذا الصنيع المنكر استياء المسلمين وعلمائهم. فهب الشيخ العز واقفاً بوجه الخيانة والخائنين، وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم. وصعد على منبر الجامع الأموي بدمشق يوم الجمعة حيث كان خطيبه الرسمي وأعلن الفتوى، وشدد في الإنكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانته الفظيعة للأمة الإسلامية. وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ، وصار يدعو بدعاء منه: (اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تُعزّ فيه أولياؤك وتُذّل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك...).

والمصلون يضجون بالتأمين على دعائه، ولم يكن السلطان حاضراً تلك الخطبة إذ كان خارج دمشق، ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ من خطبة الجمعة، واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار. وكان أنصار الشيخ العز قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من كيد السلطان،

(١)هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي [٥٧٧- ٦٦٠هـ = ١١٨١- ١٢٦٢] الملقب بسلطان العلماء، فقيه مجتهد، ولد ونشأ في دمشق وتولى الخطابة والتدريس بالجامع الأموي. ولما سلم الصالح إسماعيل بن العادل قلعة «صفد» للفرنج اختياراً، أنكر عليه ابن عبد السلام ولم يدع له في الخطبة، فغضب عليه وحبسه، ثم أطلقه فخرج إلى مصر. وتوفي في القاهرة.

(٢)طفق: استمر.

وأعدوا له وسائل الهرب، لكنه رحمه الله تعالى أبى ذلك، وألحوا عليه فأصرّ على الإباء، فعرضوا عليه أن يختبئ في مكان أمين لا يهتدي إليه السلطان ورجاله، فرفض هذا العرض أيضاً وقال: (والله لا أهرب ولا أختبئ وإنما نحن في بداية الجهاد، ولم نعمل شيئاً بعد. وقد وطّنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل. والله لا يضيع عمل الصابرين).

ثمّ لما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما بعد الاعتقال. ولكن العز بن عبد السلام أُمر بملازمة داره وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة.

ومرت الأيام، والشيخ في إقامته الجبرية، وقد مُنع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه، وتعطلت هوايته المفضلة، وواجبه المقدس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فطلب الهجرة من دمشق قاصداً مصر. وأفرج عنه بعد محاولات ومراجعات، فأقام بدمشق ثم انتزع منها إلى بيت المقدس. فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق، وأخذه وأقام بنابلس مدة. وجرت له معه خطوب[1] ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة. ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس.. يقصدون الديار المصرية، فسيّر الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك تدخل به عليّ، وإن خالفك فاعتقله في خيمته إلى جانب خيمتي. فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه زيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير، فقال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقّبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد. الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به. فقال الرسول: يا شيخ قد رسم لي أن توافق على ما يطلب منك، وإلا اعتقلتك، فقال الشيخ: والله افعلوا ما بدا لكم، فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان. وكان الشيخ يقرأ القرآن في معتقله والسلطان يسمعه. فقال يوماً لملوك الفرنج: تسمعون هذا

---

(١) خطوب: جمع خطب وهو الأمر الشديد.

الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ فقالوا نعم. قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، قد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم!! فقالت له ملوك الفرنج: (لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها). تلك إجابة الفرنج إلى السلطان الخائن التي كانت سهماً في قلبه وإنكاراً متضمناً لفعله، والفضل ما شهدت به الأعداء. وذلك قول السلطان العبد لأسياده الفرنج يفتخر بخيانته!!. ثم وقعت الحرب بين الأخوين وكانت الدولة والنصر للسلطان نجم الدين أيوب على رغم قلة جيشه في العدد والعدة بالنسبة لجيش إسماعيل وحلفائه. وتلك عاقبة الخائنين في كل حين. وبذلك نجا الشيخ من أسر السلطان الخائن، ووصل إلى مصر معززاً مكرماً، وتولى منصب قاضي القضاة.

[الإسلام بين العلماء والحكام: ١٩١]

أبو غياث الزاهد يعظ الأمير

روي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن المقابر في بخارى، فدخل المدينة ليزور أخاً له، وكان غلمان الأمير نصر بن أحمد، ومعهم المغنون والملاهي يخرجون من داره، وكان يوم ضيافة الأمير، فلما رآهم الزاهد. قال: يا نفس وقع أمر، إن سكتِّ فأنت شريكه. فرفع رأسه إلى السماء، واستعان بالله وأخذ العصا، فحمل عليهم حملة واحدة، فولوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان، وقصّوا على الأمير قصتهم مع الزاهد. فدعا به وقال له:

أما علمت أنه من يخرج على السلطان يتغدّى في السجن؟

فقال له أبو غياث: أما علمت أنه من يخرج على الرحمن يتعشى في النيران؟

قال له: من ولّاكَ الحسبة؟

فقال: الذي ولّاكَ الإمارة.

فقال الأمير: ولّاني الخليفة.

قال أبو غياث: وأنا ولّاني الحسبة رب الخليفة.

فقال الأمير: اذهب فقد ولّيتك الحسبة بسمرقند.

فقال: عزلت نفسي عنها.

قال الأمير: العجب في أمرك، تحتسب حين لم تؤمر، وتمتنع حين تؤمر؟

قال: لأنك إن ولّيتني عزلتني، وإذا ولّاني ربي لن يعزلني أحد.

فقال الأمير: سل حاجتك.

فقال: حاجتي أن ترد عليّ شبابي.

فقال: ليس ذلك إليّ، فهل لك حاجة أخرى؟

قال: أن تكتب إلى مالك خازن النار أن لا يعذبني.

قال: ليس لي ذلك أيضاً، ثم قال: هل لك حاجة أخرى؟

قال أبو غياث: فأنا مع الرب الذي هو مالك الحوائج كلها، لا أسأله حاجة إلا أجابني إليها.

فخلى الأمير سبيله.

[تربية الأولاد في الإسلام: ١/ ٤٩١]

☆ ☆ ☆

الباب السادس
في التربية والتوجيه

التربية بالقدوة

يروى أن طاووساً كان معجباً بألوانه مزهواً بجماله، أخذ يتبختر ويتمشى أمام صغاره بغنج وتمايل، فصار أولاده يقلدونه في مشيته، وفيها من مظاهر الميوعة والغنج الشيء الكثير، فصاح بهم: لماذا هذه المشية المائعة، فقالوا: يا أبانا رأيناك تتمايل فتمايلنا، ولو عدّلت مشيتك لعدلنا، فإن الواحد منا يقلد أباه في كل تصرفاته وينشأ على ما عوده والده في كل شيء.

فقال الشاعر:

مشى الطاووس يوماً باعوجاج ... فقلّد شكل مشيته بنوه
فقال عَلامَ تنحرفون؟ ... قالوا سبقتَ به ونحن مُقلَدوه
فخالف سيركَ المعوجَّ واعدل ... فإنا إن عدّلتَ معدِّلوه
أما تدري أبانا كل فردٍ ... يجاري في الخطى من علّموه
وينشأ ناشئُ الفتيانِ منّا ... على ما كان عوّده أبوه

الصدق ينجي
(الحطاب والهارب)

بينما كان حطّاب يحتطب ويجمع الحطب ويصنع منه أكواماً قبل نقله إلى بيته، إذا بشاب يركض ويلهث من التعب، فلما وصل إليه طلب منه أن يخبئه في أحد أكوام الحطب كي لا يراه أعداؤه الذين هم في أثره يريدون قتله، فقال الحطاب: أدخل في ذلك الكوم الكبير، فدخل وغطاه ببعض الحطب كي لا يرى منه شيء. وأخذ الحطاب يحتطب ويجمع الحطب.

وبعد قليل أبصر الحطاب رجلين مسرعين نحوه، فلما وصلا سألاه عن شاب مر به قبل قليل ووصفاه له، وإذا به الشاب نفسه المختبئ عنده، فقال لهم: نعم لقد رأيته وخبأته عنكما في ذلك الكوم ابحثوا عنه فإنكم ستجدونه، والشاب في كوم الحطب يسمع الحديث، فكاد قلبه يقف لشدة الخوف والهلع عندما سمع الحطاب يخبرهم بمكانه.

فقال أحدهما للآخر: إنّ هذا الحطاب الخبيث يريد أن يشغلنا في البحث عنه في كوم الحطب الكبير هذا ليعطيه فرصة للهرب. لا تصدقه، فليس من المعقول أن يخبئه ثم يدل عليه. هيا نسرع للحاق به. ومضيا في طريقهما مسرعين.

ولما ابتعدا واختفيا عن الأنظار خرج الشاب من كوم الحطب مذهولاً مستغرباً، وقد بدت عليه آثار الاضطراب والخوف والغضب، فقال معاتباً الحطاب: كيف تخبئني عندك وتخبرهم عني؟ أليس لك قلب يشفق؟! أليست عندك رحمة.. أليس.. أليس..؟

قال الحطاب: يا بني أتراك هلكت أم نجوت؟ قال: بل نجوت، ولكن يجب عليك ألا تدلهم علي. فقال الحطاب: أنجاك الصدق يا بني وإذا كان الكذب ينجي فالصدق أنجى، ووالله لو كذبت عليهم لبحثوا عنك ووجدوك ثم قتلوك. سر على بركة الله وإياك والكذب. واعلم أن الصدق طريق النجاة.

لا تبد ما ستر الله

عن الشعبي – رحمه الله – أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إن لي ابنة كنت وأدتها في الجاهلية، فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدركت معنا الإسلام فأسلمت، فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله تعالى، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها(١)، فداويناها حتى برئت، ثم أقبلت بعد بتوبة حسنة، وهي تخطب إلى قوم، أفأخبرهم من شأنها بالذي كان؟ فقال عمر: أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه؟! والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، بل أنكحها نكاح العفيفة المسلمة.

[أخبار عمر: ١٨٨]

---

(١) الوِداج: عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة.

أخطأت في ثلاث

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من شدة حرصه على تعرف الأحوال، وإقامة قسطاس العدل، وإزاحة أسباب الفساد، وإصلاح الأمة، يعسّ[1] بنفسه، ويباشر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثاً غريباً، فوقف على الباب يتحسس، فرأى عبداً أسود قدامه إناء فيه مِزْر[2] وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح، ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له: يا أمير المؤمنين لقد أخطأت وإني تائب، فاقبل توبتي، فقال: لا بد من عقابك جزاء ما اجترحت من الإثم. فقال يا أمير المؤمنين: إن كنتُ قد أخطأتُ في واحدة، فأنتَ أخطأتَ في ثلاثة: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وأنت تجسست، وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] وأنت دخلت وما سلمت، فهب هذه بتلك، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك لا أعود، فاستتوبه، فاستحسن كلامه. والله أعلم بالصواب.

[جمهرة قصص العرب: ٣/ ٢١٩]

جزاء صنع المعروف مع غير أهله

خرج قوم للصيد فطاردوا ضبعاً حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي، فأجارها ومنعهم وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه

(١) يعس: يطوف بالليل يتفقد الرعية.

(٢) المزر: نبيذ الذرة.

وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى في خبائه ميتاً فتتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

ومـن يصـنع المعـروف في غـير أهلـه ... يـلاقِ كـما لاقـى مجـيرُ أم عـامرِ
أعــدّ لهــا لمــا اسـتجارت ببيتــه ... أحاليــبَ ألبـانِ اللقـاحِ الـدوائرِ
وأســمنها حتــى إذا مــا تمكنــتْ ... فَرَتــه بأنيــاب لهــا وأظــافر
فقل لذوي المعروف هـذا جزاءُ من ... يجـود بمعـروف عـلى غـيرِ شـاكرِ

[مجمع الأمثال: ١/ ٤٤٦]

الطبع غلب التطبع

حكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى، وأنشدت:

بقــرتَ شُــوَيْهتي وفَجَعــتَ قلبــي ... وأنـــتَ لشـــاتِنا ابـــنٌ ربيـــبُ
غُــذيتَ بــدرِّها ونشــأتَ معهــا ... فمـــن أنبـــاك أن أبـــاك ذيـــبُ
إذا كــان الطبــاعُ طبــاعَ ســوءٍ ... فــلا أدب يفيـــدُ ولا أديـــبُ

الشافعي في ضيافة ابن حنبل

زار الإمام الشافعي - رضي الله عنه- الإمام أحمد بن حنبل ذات يوم في داره، وكانت له ابنة صالحة تقوم الليل وتصوم النهار وتحب أخبار الصالحين والأخيار، وتود أن ترى الشافعي لتعظيم أبيها له، فلما زارهم الشافعي فرحت البنت بذلك، طمعاً أن ترى أفعاله وتسمع مقاله. وبعدما تناول طعام العشاء قام الإمام أحمد إلى صلاته وذِكْرِه، والإمام الشافعي مستلقٍ على ظهره، والبنت ترقبه إلى الفجر، وفي الصباح قالت بنت الإمام أحمد لأبيها: يا أبتاه أهذا هو الشافعي الذي كنت تحدثني عنه؟ قال لها: نعم يا ابنتي، فقالت: سمعتك تعظم الشافعي وما رأيت له في هذه الليلة لا صلاةً ولا ذكراً ولا أوراداً؟ وقد لاحظت عليه ثلاثة أمور عجيبة، قال: ما هي يا بنية؟ قالت: أنه عندما قدمنا له الطعام أكل كثيراً على خلاف ما سمعته عنه،

وعندما دخل الغرفة لم يقم ليصلي قيام الليل، وعندما صلى بنا الفجر صلى من غير أن يتوضأ.

فلما طلع النهار وجلسا للحديث ذكر الإمام أحمد لضيفه ما لاحظته ابنته، فقال الإمام الشافعي (رضي الله عنه): يا أبا محمد لقد أكلت كثيراً لأني أعلم أن طعامك من حلال، وأنك كريم وطعام الكريم دواء، وطعام البخيل داء، وما أكلت لأشبع وإنما أكلت لأتداوى بطعامك، وأما أنني لم أقم الليل فلأنني عندما وضعت رأسي لأنام نظرت كأن أمامي الكتاب والسنة ففتح الله علي باثنتين وسبعين مسألة من علوم الفقه رتبتها في منافع المسلمين، فحال التفكير بها بيني وبين قيام الليل، وأما أنني صليت بكم الفجر بغير وضوء، فوالله ما نامت عيني حتى أجدد الوضوء. لقد بقيت طول الليل يقظاناً، فصليت بكم الفجر بوضوء العشاء. ثم ودعه ومضى.

فقال الإمام أحمد لابنته: هذا الذي عمله الشافعي الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم.

* * *

يروى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي، وقال ابنه: يا أبتِ أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس، فانظر يا بني هل من هذين خلف؟ هكذا كان العلماء الصالحون كالشمس للدنيا والعافية للناس، وليس منهما خلف، فإن الله يدفع بهم البلاء وينزل الرخاء، وتعم البركة وتنشر الرحمة.

وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني: كنت عند أحمد بن حنبل وجرى ذكر الشافعي، فرأيت أحمد يعظه، فقال: يروى عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها» فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى.

[عن الروض الفائق – بتصرف: ١٦٣ – ١٦٥]

نماذج من المواطنة الصالحة

كتب أحد الصحفيين العرب يقول: «... في عام ١٩٤٩ شاء القدر أن أكون نزيلاً في مستشفى الأرز في مدينة توتنجهام في انجلترا للمعالجة من كسر أصاب ساقي

أثناء رحلتي الصحفية إلى هناك، وصدف ذات مساء أن غادرت سريري إلى قاعة الجلوس، تاركاً المصباح الذي يعلو السرير مضاءً، ويبدو أن مكوثي في تلك القاعة قد طال بعض الوقت، وعندما عدت إلى السرير وجدت بجانبه صبياً من نزلاء المستشفى لا يتجاوز عمره الرابعة أو الخامسة عشرة، واقفاً ينتظرني، ولما رآني حيّاني وقال لي بصوت فيه بعض الانفعال (اسمح لي يا سيدي أن أقول لك بأنك مسرف ومبذر...) وهنا قاطعته بانفعال ماذا تقول وكيف؟ فأجاب بهدوء: ألم تقرأ في صحف الأسبوع النداء الموجه إلى المواطنين من مؤسسة الكهرباء في توتنجهام، بلزوم الاقتصاد في استعمال الكهرباء لوجود عجز في القوى الكهربائية في المؤسسة؟ وأنت تركت المصباح مضاءً دون فائدة، وهذا إسراف يخالف المقصود من النداء بالاقتصاد في استعمال الكهرباء.

والواقع أنني ما ارتبكت يوماً أو أحرجت، بل وخجلت من نفسي مرة، كما حدث لي أمام ذلك الصبي الصغير الذي لم يكتف بالشعور بالمسؤولية تجاه نفسه ومجتمعه، بل وحاول أن يعلمها لغيره، لقد اعتذرت لذلك الصبي ووعدته بأن لا يتكرر ما حدث مرة أخرى.

* * *

وذات صباح كنت أسير مع زميل من نزلاء المستشفى قاصدين دكاناً قريباً لشراء طوابع بريدية، وفي طريقنا شاهدنا شاباً وفتاة يسيران معاً وفجأة توقفا، وناول الشاب لفافة ورق كان يحملها بيده لرفيقته، وأسرع يقطع الشارع إلى الرصيف الآخر، وبقيت الفتاة تنتظر على الرصيف. وتابعنا مسيرنا إلى أن وصلنا إلى تلك الفتاة، وهنا حياها صاحبي تحية الصباح ثم قال لها: يجب أن تعلّمي رفيقك أن يسلك سلوكاً أحسن. ونظرت إليه الفتاة بدهشة، وتابع صاحبي قوله: لقد عبر رفيقك الشارع من غير المكان المخصص للعبور، وهو لا يبتعد كثيراً عن مكان وقوفكما، وقد تكون سيارة قادمة مسرعة فتصيبه وتحدث مصيبة أول ما تصيبك أنت، أفهمت!

وبدلاً من أن تجيبه الفتاة، وما دخلك أنت، أو ما شأنك، أو نحن أحرار نفعل ما نريد، اعتذرت له وتأسفت عن تصرف زميلها، وشكرته على ملاحظته ووعدت بأنها ستلوم رفيقها وتحذره من تكرار ما فعل، وكررت له الشكر والاعتذار. وسرنا

في طريقنا وأنا أفكر فيما لو فعلت في بلدي مثل ما فعل صاحبي ماذا يكون الرد عليّ؟.

* * *

وهناك حادثة مماثلة سمعتها[١] من شخصية كبيرة كانت تعمل في انجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية، أنقلها كما سمعتها، قال صاحبنا: كنت أذهب صباح كل يوم إلى عملي، وأمرّ بحديقة مجاورة وأشاهد فتاة جميلة تتعهد أزهار تلك الحديقة وورودها بالعناية، وكانت تسقي تلك الأزهار والورود وتنسقها بيديها الجميلتين، ويوماً بعد يوم تزداد هذه الحديقة بهاءً وجمالاً ونضارةً، ومضت الأيام وكان منظر تلك الفتاة الجميلة ينسيني مرارة الغربة والبعد عن الأهل والوطن، وسكتَ محدثنا لحظة ثم تابع: ولكن بمضي الزمن أخذت ألاحظ أن الحديقة صارت مهملة وأن أغصانها وورودها أخذت تذوي وتذبل، إلى أن جفت الحديقة وتعرت من أزهارها وورودها تماماً، وكنت أعجب وأتأسف لما صارت إليه الحديقة الجميلة، وذات صباح شاهدت تلك الفتاة واقفة أمام دارها ويدها على خدها تنظر باكتئاب إلى حديقتها الذاوية، فدفعني الفضول إلى الاقتراب منها، وسألتها: لماذا لم تداومي على الاعتناء بحديقتك، حتى صارت إلى ما صارت إليه؟ وهنا أجابتني الفتاة – إنها الحرب والمجهود الحربي، ولما طلبت مزيداً من التفسير، قالت الفتاة: أن بلدية لندن ناشدت المواطنين أن يقتصدوا باستعمال الماء، وأن يقتصروا في استعماله على الحاجات الضرورية الملحّة فقط ليوفروا الماء لاستعماله للمجهود الحربي، وهنا قلت لها: هل تؤثر بضعة صفائح من الماء تسقي بها هذه الأزهار على المجهود الحربي؟ فأجابتني الفتاة بحدة: وإذا لم أستجب أنا لنداء البلدية وصرفت هذه الصفائح من الماء وفعل غيري مثل ما أفعل، نفدت المياه من مدينتنا وأسأنا نحن لبلدنا وقومنا وللمجهود الحربي، وربما نكون سبباً في خسران الحرب، وعندها تكون المصيبة الكبرى.

هذا الحس الوطني وهذا المستوى العالي من الوعي والإدراك والسلوك المتحضر هو الذي دفع الصبي الصغير إلى أن ينبهني إلى خطئي، ودفع زميلي إلى تنبيه الفتاة إلى

---

(١) المتحدث هو الصحفي المشار إليه في أول القصة.

خطأ رفيقها، ودفع الفتاة الجميلة إلى الامتناع عن رعاية حديقتها، لأن أي خطأ قد يرتكبه أي منهم سيؤثر على المجتمع بكامله، وتأثيره على المجتمع سينعكس عليه بالذات – وبالنتيجة سيكون هو المتضرر الأول والأخير من هذا الخطأ.

إن علينا أن ننمي مثل هذا الشعور بالمواطنة وبالمسؤولية الاجتماعية في مجتمعنا وبأهمية الرباط المقدس بين الفرد وأمته في نفوسنا وخاصة في مدارسنا ومنتدياتنا وجمعياتنا، ونعمق الوعي تعميقاً جذرياً في العقول آخذين بقول رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

[عن صحيفة الدستور الأردنية بتصرف]

ابدأ بنفسك
(عندما يوافقُ فعلُ الخطيب قولَه)

إنها قصة ذلك العالم القدوة، الذي آتاه الله ملكة الخطابة المؤثرة، ومقدرة الحديث المشوق، والذي كان بمثابة المحور الروحي للناس، يلتفون حوله، ويتعشقون سماعه، ويتلهفون إلى عظته، وما أن ينفض مجلسه، حتى يتطلعون إلى لقائه.

اقترب منه عبدٌ ضاق ذرعاً برقِّه وعبوديته، وتاقَت نفسه إلى الحرية، وهمس في أذنه برجاء أن تكون خطبة الجمعة القادمة عن عتق الرقيق، لعل الله يهدي سيده وكان من المواظبين على سماع الشيخ فيتأثر بالخطبة، فيعتقه، فوعده الشيخ بذلك، وطال على العبد انتظاره في أن يبر الشيخ بوعده، حتى كان يوم تحدث فيه عن العتق، وما فيه من مثوبة وأجر، وما يناله المعتق من رضوان الله ومثوبته، وقد اقتحم العقبة، وفك رقبة، وحررها من أسر العبودية، وكان الشيخ كعادته موفقاً مؤثراً، حين لمس بحديثه شغاف القلوب، فنالت الموعظة من قلب سيد العبد مكانها فأعتقه، وتحققت أمنية العبد، ونالت نفسه بغيتها، فجاء إلى الشيخ الواعظ يشكره، ويحمد له صنيعه، ثم عاتبه على تأخره، في إنجاز وعده، حتى كاد اليأس أن يبلغ منه مبلغه، فأجابه الواعظ بتأثر واضح: لقد كنت أملك عبداً يقوم على خدمتي، ويقضي حوائجي، وأنا في هذه السن المتقدمة، وأردت أن أعتقه، واحتجت إلى ذلك هذا الوقت، لجمع المال كي أستأجر به من يؤدي عمله بعد عتقه.

لقد أراد الشيخ الواعظ، أن يبدأ بنفسه، قبل أن يعظ غيره، فجاءت خطبته بكل الصدق، والعمق، والتفاعل، وكان قدوة لسواه بالفعل، حيث لم تنفصم عظته عن فعله. والله تعالى يلفتنا إلى هذا فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]. وينعى على أهل الكتاب عدم التزامهم فيقول: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. ويقول النبي ﷺ «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه(١) في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه» رواه البخاري.

[دراسة في البناء الحضاري: ١٠٨]

ما عال من اقتصد
(مريم الصّناع وحسن تدبيرها)

قال الراوي:... فأقبل عليهم شيخ فقال: هل شعرتم بموت مريم الصنّاع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح. قالوا: فحدّثنا عنها. قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل، ولكنّي أخبركم عن واحدة فيها كافية. قالوا: وما هي؟ قال: زَوّجت ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلّتها الذهب والفضة وكستها المروي والوشي والقزّ والخزّ وعلّقت المعصفر(٢)، ودقّت الطيب وعظّمت أمرها في عين الختن، ورفعت من قدرها عند الأحماء. فقال لها زوجها: أنّى لك هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله. قال: دعي عنك الجملة وهاتي التفسير، والله ما كنتِ ذات مال قديماً ولا ورثته حديثاً، وما أنت خائنة في نفسك ولا في مال بعلك، إلا أن

---

(١) أقتابه: أمعاؤه.

(٢) المروزي: المنسوب إلى مدينة مرو، الوشي: الثياب المنقوشة، القز والخز: الحرير، المعصفر من الستائر: ما صبغ باللون الأصفر.

تكوني قد وقعت على كنز وكيف دار الأمر، فقد أسقطت عني مؤونة، وكفيتي هذه النائبة؟ قالت: اعلم إنّي منذ يوم ولدتها إلى أن زوّجتها كنت أرفع من دقيق كلِّ عجنة حفنة، وكنّا -كما قد علمت- نخبز في كل يوم مرّة،فإذا اجتمع من ذلك مكّوك[١] بعته. قال زوجها: ثبّت الله رأيك و أرشدك، ولقد أسعد الله من كنتِ له سكناً، وبارك لمن جُعلتِ له إلفاً! وإني لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح، وعلى مذهبك المحمود. وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما يثبّت الله بك في عقبي من هذه الطريقة المرضية.

[البخلاء: ٢٣]

في أدب الخلاف
(بين أبي حنيفة ومحمد الباقر)

يروى أنّ الإمام أبا حنيفة قد التقى محمد الباقر بن زين العابدين في المدينة، فقال محمد الباقر: أنت الذي حولت دين جدي وأحاديثه بالقياس[٢]؟ فقال أبو حنيفة: معاذ الله أن أحوِّل دين جدك بالقياس. فقال محمد: بل حولته. فقال أبو حنيفة: اجلس مكانك كما يحق لك، حتى اجلس كما يحق لي، فإن لك حرمة كحرمة جدك ﷺ في حياته على أصحابه. فجلس ثم جثا أبو حنيفة بين يديه، ثم قال: إني سائلك عن ثلاث مسائل فأجبني: الرجل أضعف أم المرأة؟ فقال محمد: المرأة، فقال أبو حنيفة: كم سهم للمرأة؟ يعني في الميراث فقال: للرجل سهمان وللمرأة سهم. فقال أبو حنيفة: هذا قول جدك، ولو حولت قول جدك لكان ينبغي في القياس أن

---

(١) المكوك: مكيال يسع نصف رطل أو ما يعادل صاعاً ونصفاً.

(٢) القياس في اللغة: رد الشيء إلى نظيره، وفي الفقه: حمل فرع على أصل لاشتراكهما في العلة، كالحكم بتحريم شرب مسكر على الخمر، لاشتراكهما في علة التحريم، وهي الإسكار. وهو هنا يعني المنطق، ويراد به أي قول مركب في قضيتين أو أكثر متى سُلِّم لزم عنه لذاته قول آخر، كما إذا قلنا: كل ذي أذن في الحيوان يلد، والسلحفاة ذات أذن، فإن هذا يستلزم القول بأن السلحفاة تلد. (المعجم الوسيط).

يكون للرجل سهم واحد وللمرأة سهمان، لأن المرأة أضعف من الرجل. ثم قال: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال: الصلاة أفضل. قال: هذا قول جدك، ولو حولت دين جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضي الصلاة ولا تقضي الصوم. ثم قال: البول أنجس أم النطفة؟ قال: البول أنجس. قال: فلو حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة. ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس. فقام محمد فعانقه وقبل وجهه الكريم.

[أبو حنيفة: ٦٤]

سعة الصدر واحتمال الأذى

لما نشبت الحرب الطائفية في يوغسلافيا السابقة، ودارت الدائرة على المسلمين في البوسنة والهرسك، تداعى أهل الخير من المسلمين لجمع التبرعات المالية والعينية لإغاثة إخواننا المنكوبين هناك. وكان أحدهم يجمع المساعدات من التجار في مكة المكرمة، إذا مرّ بتاجر منهم ومد يده قائلاً له: ماذا لديك تقدمه لإخوانك المجاهدين في البوسنة والهرسك؟ فما كان من التاجر الذي ظهرت عليه آثار الغضب والانفعال إلا أن سحب يد الرجل وتفل فيها وقال بصوت عال: هذا ما لدي أقدمه للمجاهدين في البوسنة والهرسك، اذهب فادفعه إليهم!

وإزاء هذا الموقف الصعب غير المتوقع لا يملك أي منا إلا أن يثور ويغضب ويرد عليه بما هو أقسى وأشنع، ولكن صاحبنا أكبر من ذلك، فقد آتاه الله من سعة الصدر والقدرة على تحمل مثل هذا الموقف أن يجعل من نار الغضب برداً وسلاماً، إذ مسح بيده على صدره، وقال بلسان المؤمن الواعي: هذه لي، يعني البصقة، فماذا عندك لله؟! فانهار التاجر باكياً، حيث لم يتوقع هو الآخر مثل هذا التصرف الحليم، وأحس في نفسه كم كان فظاً وجلفاً مقابل هذه السماحة والطيبة وكرم الأخلاق، وأخذ يعتذر ويتأسف لما بدر منه، ثم قال للداعية: هذا الصندوق أمامك خذ منه ما تشاء لمن تشاء، فقال الداعية: لا، الصندوق صندوقك أعطنا أنت ما تشاء. فأعطاه ما قسم الله في ذلك، وخرج الداعية يتابع مسيرة الخير في جمع التبرعات.

[عن صحيفة السبيل الأردنية..]

من صبر ظفر
(أنوشروان ووزيره)

غضب أنوشروان على وزيره فسجنه، وصفّده بالحديد، وألبسه الخشن من الصوف، وأمر ألا يعطى من القوت إلا القليل من الخبز والملح والماء، وأن تقيد ألفاظه حتى يطلع عليها، فأقام الوزير أشهراً لم يسمع له لفظ واحد. فوجه إليه الملك قوماً ينظرون في أمره فقالوا له: يا أيها الوزير، نراك فيما نراك فيه من الشدة والضيق وأنت كما أنت لم تتغير حالك، فما شأنك؟ قال: إني استعنت على أمري بستة أشياء: الثقة بالله تعالى، وعلمي أن كل مقدر واقع، وبالصبر الجميل، ومعرفة أني إن لم أصبر أكن قد أعنت على نفسي الجزع، وأني ربما أكون في شر أصعب من هذا، وما بين ساعة وأخرى يأتي الله بالفرج القريب، فلما قالوا مقالته لأنوشروان عفا عنه، ورده إلى عمله، وأحسن إليه.

[المفرد العلم: ٤٨]

كتمان السر من خلق الحر
(الملك ووزيره)

يروى أن ملكاً من ملوك العجم، استشار وزيريه معاً في مسائل سرية. فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً في أسراره إلا خالياً، فإنه أصون للسر، وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة[1] بعض، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد، أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جملة، لأن الواحد رهن بما أفشي إليه، والثاني مطلق عليه ذلك الرهن، والثالث زائد. وإذا كان السر عند واحد، كان أحرى ألا يظهره رغبة أو رهبة. وإن كان عند اثنين كان على شبهة واتسعت على الرجلين المعاريض[2]، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن

---

(١) الغائلة: الفساد والشر، جمعها غوائل.

(٢) المعاريض من الكلام: ما يقال فراراً من الحقيقة ويظنه السامع حقيقة.

اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة معه.

[المفرد العلم: ٧٥]

المرء حيث يجعل نفسه
(كافور الإخشيدي[1] وصاحبه)

كان كافور وصاحبه عبدين أسودين. فجيء بهما إلى قطائع[2] ابن طولون، حاضرة الديار المصرية وقتئذ، ليباعا في أسواقها، فتمنى صاحبه أن يباع لطباخ حتى يملأ بطنه بما شاء، وتمنى كافور أن يملك هذه المدينة ليحكم وينهى ويأمر، وقد بلغ كلّ مناه، فبيع صاحب كافور لطباخ، وبيع كافور لأحد القواد المصريين، فأظهر كفاءةً واقتداراً، ولما مات مولاه، قام مقامه واشتهر بذكائه، وكمال فطنته حتى صار رأس القواد، وصاحب الكلمة عند الولاة، وما زال يجد ويجتهد حتى ملك مصر والشام والحرمين. ومرّ يوماً بصاحبه فرآه عند الطباخ بحالة سيئة، فقال لمن معه: «لقد قعدت بهذا همته فكان كما ترون، وطارت بي همتي فكنت كما ترون، لو جمعتني وإياه همة واحدة، لجمعنا عمل واحد، ولله در عمرو بن العاص حيث يقول: «المرء حيث يجعل نفسه، فإن رفعها ارتفعت، وإن وضعها اتضعت»».

[المفرد العلم: ٧٧]

---

(١) هو الأمير كافور بن عبد الله الإخشيدي [٢٩٢- ٣٥٧هـ = ٩٠٥- ٩٦٨م] كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدي ملك مصر فنسب إليه، وأعتقه فترقى عنده. وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر سنة [٣٥٥هـ] وكان فطناً ذكياً حسن السياسية، توفي في القاهرة.

(٢) القطائع: مدينة قديمة اخطتها ابن طولون في مصر على غرار مدينة سامراء التي بناها المعتصم في العراق.

في الاتحاد قوة

(المهلب بن أبي صفرة[1] وأولاده)

لما أشرف المهلب بن أبي صفرة على الوفاة، وكان أحد رؤساء جيش عبد الملك بن مروان، استدعى أبناءه السبعة، وبذل لهم النصائح التي تنفعهم دنيا وأخرى. ثم أمرهم بإحضار رماحهم مجتمعة، وتقدم إليهم أن يكسروها واحداً فواحداً مبتدئاً بأصغرهم، فلما يقدروا. فقال لهم: فرقوها وليتناول كل واحد رمحه ويكسره، فكسروها دون كبير عناء، فعند ذلك قال لهم: اعلموا أن مثلكم مثل هذه الرماح، فما دمتم مجتمعين ومؤتلفين يعضِّد بعضكم بعضاً، لا تنال منكم أعداؤكم غرضاً، أما إذا اختلفتم وتفرقتم فإنه يضعف أمركم، وتتمكن منكم أعداؤكم، ويصيبكم ما أصاب الرماح، وأنشد:

كونوا جميعاً يابنيّ إذا اعترى خطبٌ[2] ولا تتفرّقوا آحادا

تأبى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكسّراً وإذا افترَقْنَ تكسرتْ أفرادا

[نوادر الأدباء: ١٣٨]

مقياس الصلاح

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته ولكن انظروا من إذا حدّث صدق، وإذا اؤتمن أدّى، وإذا أشفى ورع (أي إذا أشرف على معصية امتنع). وبذلك فقد وضع رضي الله عنه المقاييس الصحيحة التي يجب

---

(١) هو المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي [٧- ٨٣ هـ = ٦٢٨- ٧٠٢م]، أمير بطاش، جواد، سيد سيد أهل العراق، ولد في دبا، ونشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر، ولي إمارة البصرة، وانتدب لقتال الأزارقة، فأقام يحاربهم تسعة عشر عاماً، وأخيراً تم له الظفر بهم، ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان سنة ٧٩هـ ومات فيها. ب

(٢) اعترى خطب: أصابكم أمر شديد أو ملمة.

الاستهداء بها في الحكم على سلوك الناس ومعرفة حقائق الرجال، ومدى صلاحهم. وقد رويت عنه القصة التالية في هذا السياق:

«طلب من رجل إحضار شاهد يعرفه في قضية عُرضت عليه، ولما جاء به إليه سأله عمر: أتعرف هذا الرجل؟

قال: نعم أعرفه.

قال: هل أنت جاره الذي يعلم مدخله ومخرجه؟

قال: لا

قال: هل عاملته بالدرهم والدينار الذي يعرف به ورع الرجل؟

قال: لا.

قال: هل صاحبته في السفر الذي تعرف به مكارم الأخلاق؟

فأجاب: لا.

فصاح به عمر: لعلك رأيته قائماً قاعداً يصلي في المسجد، يرفع رأسه تارة ويخفضه أخرى؟

فرد الرجل: نعم.

فقال عمر: اذهب فإنك لاتعرفه، والتفت إلى الرجل وقال له: ائتني بمن يعرفك»[1].

[عيون الأخبار: ٣/ ١٥٨]

---

(١) يشير هذا الموقف إلى أن عمر رضي الله عنه، يعد المعرفة القائمة على الرؤية في المسجد- وإن تكررت- غير كافية للحكم على مدى صلاح الأشخاص، ولذلك فهو لا يقبل الشهادة بها، بل يقرر أنه لا بد لحصول معرفة الكاملة من محكات عملية، يُمتحن فيها الناس امتحانات سلوكية مباشرة، تسفر عن معادنهم وأخلاقهم وورعهم، وبالتالي، مدى صلاحهم للشهادة وتولي الإدارة أو التزويج، وأهم المحكات في نظره هي: المجاورة في المسكن، والصحبة في السفر، والتعامل المالي. بالإضافة إلى ذلك فإن المؤمن كيّس فطن لا يخدعه الكلام المعسول المنمّق ولا المظاهر الشكلية والسلوكية.

احذر الغيبة

جاء عن سفيان بن حسين الواسطي قال:

«ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة، فنظر في وجهي وقال:

أغزوتَ الروم؟

قلت: لا!

قال: والسند والهند والترك؟

قلت: لا.

قال: أفَسَلِم منك الروم والسند والهند والترك ولم يَسْلم منك أخوك المسلم؟!

قال سفيان: فلم أعد بعدها إلى عيب أحد من الناس أو غيبته.

[البداية والنهاية: ٩/ ٦٣٣]

رضا الناس غاية لا تدرك

حكى الكاتب الشاعر الرحالة (ابن سعيد) عن نفسه ـ فيما بين القرن السادس والسابع الهجري ـ أنه كان يتحدث إلى أبيه يوما في اختلاف مذاهب الناس، وأنهم لا يوافقون أحداً فيما اختار، ولا يرضون منه ما ارتضي. فقال أبوه: متى أردت أن يوافقك كل واحد على ما تصنع دون أن يعترض عليك، أتعبت نفسك باطلاً، وطلبت غاية لا تدرك..

واستطرد الأب يضرب لولده مثلاً، يدله به على صواب رأيه، فقال: إن رجلا من عقلاء الناس كان له ولد، فقال له ذات يوم: لا يا أبي، ما للناس ينتقدون عليك أشياء، وأنت عاقل، لو سعيت في مجانبتها سلمت من النقد. فقال له الأب: يا بني، إنك غر، لم تجرب الأمور، وإن رضا الناس محال، وأنا أقفك على حقيقة ذلك..

وعمد الأب إلى حماره، وقال لولده: اركب هذا الحمار، وأنا أتبعك ماشياً. ففعلا، وبينما هما كذلك إذ سمعا رجلاً يقول: انظروا ما أقل أدب هذا الغلام، يركب هو وأبوه يمشي!

وبعد مرحلة، قال الوالد لولده: اركب الحمار معي. فما أن رآهما أحد السابلة، حتى قال: يا لقسوة الأب وابنه كيف يركبان الحمار معاً وفي آن واحد منهما كفاية!.

وبعد مرحلة، قال الوالد لولده: انزل بنا فنزلا، ومشيا، وقدامهما الحمار، ليس عليه راكب، فانبرى شخص يشير بإصبعه، قائلا: ما أحمق الرجل وابنه، ولاخفف الله عنهما، انظروا كيف تركا الحمار فارغاً، وجعلا يمشيان خلفه!

فقال الرجل لولده: أرأيت يا بني، لقد سمعت كلام الناس، على اختلاف الأحوال، وعلمت أن الاعتراض في طبع البشر، ولا يسلم منه أحد، على أية حال كان...

[محمد شوقي أمين: طرائف وفكاهات من تراثنا العربي: ٢٧٤]

العمل، العمل..

فالذي يؤثر الفراغ والكسل والتبطل، لن يجد أمامه شاء أم أبى سوى سبل المسألة والاقتراض والتهالك في هوان وشقوة ...

والذي يجد العمل ويعمل ويكدح ويجني ثمار عمله تعف نفسه. وتعلو يده، ويحيا حياة طيبة وكريمة.

من أجل هذا كان البديل الصحيح لحياة الفقر والمسألة والشظف، هو العمل.. ثم المزيد من العمل. ولنصغ إلى أنس رضي الله عنه يحدثنا فيقول: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فسأله.. فقال النبي: أما في بيتك شئ..؟

قال: بلى.. حلس أي كساء غليظ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء.

قال الرسول ﷺ: ءأتني بهما..

فأتاه بهما فأخذهما الرسول ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين..؟

قال رجل: أنا آخذهما بدرهم.

قال رسول الله: من يزيد على درهم..؟

قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين.. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً وأتني به، فأتاه به فشد الرسول فيه عوداً بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً. ففعل، وجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً. وببعضها طعاماً.

فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة».

[إسلاميات، لخالد محمد خالد: ٥٢٢]

حق الولد على أبيه

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقال: إن ابني هذا – وأشار إلى ولده – يعقني. فقال عمر للابن: أما تخاف الله في عقوق والدك؟ فإن من حق الوالد كذا فقال الابن: يا أمير المؤمنين! أما للابن على والده حق؟ قال: نعم، حقه عليه أن يستنخب أمه لكيلا يكون للابن تعيير بها، ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن. فقال الابن: فوالله ما استنخب أمي إلا سندية اشتراها بأربعمائة درهم، ولا أحسن اسمي، سماني جعلاً، ولا علمني من كتاب الله آية واحدة. فالتفت عمر – رضي الله عنه – إلى الأب وقال: تقول ابني يعقني، فقد عققته قبل أن يعقك، قم عني.

عقوق مقابل عقوق

وعن أبي حفص البسكندي – وكان من علماء سمرقند – أنه أتاه رجل فقال: إن ابني ضربني وأوجعني. قال: سبحان الله! الابن يضرب أباه؟! قال: نعم ضربني وأوجعني: فقال: هل علمته الأدب والعلم؟ قال: لا قال: فهل علمته القرآن؟ قال: لا. قال: فأي عمل يعمل؟. قال: الزراعة. قال: فلعله حين أصبح، وتوجه إلى الزرع، وهو راكب على الحمار والثيران بين يديه، والكلب خلفه، وتعرضت له في ذلك فظن أنك بقرة، فاحمد الله حيث لم يكسر رأسك.

عن ثابت البناني رحمه الله تعالى قال: روي أن رجلاً كان يضرب أباه في موضع، فقيل له ما هذا؟ فقال الأب خلوا عنه فإني كنت أضرب أبي في هذا الموضع، فابتليت بابني يضربني في هذا الموضع، هذا بذاك ولا لوم عليه، قال بعض الحكماء: من عصى والديه لم ير السرور من ولده، ومن لم يستشر في الأمور لم يصل إلى حاجته، ومن لم يدار أهله ذهبت لذة عيشه.

وروى الشعبي عن النبي ﷺ، أنه قال: رحم الله والداً أعان ولده على بره. يعنى لا يأمره بأمر يخاف منه أن يعصيه فيه.

وروي عن بعض الصالحين أنه كان لا يأمر ابنه بأمر وكان إذا احتاج شيء يأمر

غيره، فسأل عن ذلك فقال: إني أخاف إني لو أمرت ابني بذلك يعصيني في ذلك، فيستوجب النار، وأنا لا أحرق ابني بالنار.

وقال: الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: تامّ المروءة من بر والديه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه، وحسن خاتمه مع أهله.

[انظر: تنبيه الغافلين، للمسرقندي: ٨١- ٨٢]

☆ ☆ ☆

الباب السابع
قصص في العدل والظلم

أمير المؤمنين بين يدي القاضي

أتت امرأةٌ يوماً شَريك بن عبد الله[١] قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي! قال: من ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى عمّ أمير المؤمنين، كان لي بستان على شاطئ الفرات، فيه نخل ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي فيه، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلاً فارسياً يحفظ النخل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي، وساومني على بستاني ورغّبني في بيعه إليه، فلم أبعه، فبعث بخمسمائة غلام، فاقتلعوا الحائط فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً، واختلط بنخل إخوتي.

فقال القاض: ياغلام أحضر طينة[٢] فأحضرها، فختمها وقال: امض بها إلى الأمير حتى يحضر معك، فأخذها الحاجب، ودخل على الأمير موسى، فقال: أجب القاضي شريك، وهذا ختمه، فقال: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به، فقال له: امض إلى القاضي شريك، وقل له: يا سبحان الله! ما رأيت أعجب من أمرك! امرأة ادّعت دعوى لم تصح أعديتها[٣] على الأمير! قال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك! فقال: امض، ويلك! فخرج، وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي إلى حبس

---

(١) هو شَريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، عالم فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهيته، ولي قضاء الكوفة سنة ١٥٣هـ، وكان مثالاً للعدل والنزاهة، توفي سنة ١٧٧هـ.

(٢) الطينة: القطعة من الطين.

(٣) أعديتها على الأمير: أعنتها عليه.

القاضي بساطاً وفراشاً وما تدعو إليه الحاجة إليه، ثم مضى إلى شريك، فلما وقف بين يديه أدى إليه ما قاله موسى، فقال لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس. فقال صاحب الشرطة: والله لقد علمت أنك ستحبسني، فقدمت ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجه إليه الحاجب، وقال له: رسول أدى رسالة، فأي شيء عليه حتى تحبسه؟! فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه في الحبس، فحُبس.

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى اسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، وقال لهم: أبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخف بي. وأني لست كالعامّة، فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في جمع من الناس، فكلمتموني؟ ثم نظر يميناً وشمالاً فقال: من ها هنا من فتيان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنة، وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجادّ أنت فيما تقول؟ قال: نعم، حتى لا تعودوا لرسالة ظالم. فحبسهم جميعاً.

فركب الأمير موسى بن عيسى في الليل إلى باب السجن، وفتح الباب، وأخرجهم كلهم، فلما كان الغد، وجلس شريك للقضاء جاءه السجان، فأخبره بما كان. فدعا بوعاء الكتب فختمه، ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: إلحق بمتاعي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم (يعني القضاء)، ولكن أكرهونا عليه، وقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة في طريقه إلى بغداد، وبلغ الخبر موسى بن عيسى، فركب في موكبه، فلحقه، وجعل يناشده الله، ويقول: يا أبا عبد الله، تثبت، انظر إخواني، أتحبسهم! قال: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يَجُزْ لهم المشي فيه، ولست ببارح حتى يُردّوا جميعاً، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي، فأستعفيه مما قلدني من أمر القضاء.

فأمر موسى بردِّهم جميعاً إلى الحبس، وهو واقف مكانه حتى جاء السجّان، فقال: قد رجعوا جميعاً إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته (أي دابة الأمير) بين يدي إلى مجلس الحكم، فمرّوا به بين يديه حتى أُدخل المسجد، وجلس في مجلس القضاء، فجاءت المرأة المتظلمة فقال: هذا خصمك قد حضر، فقال موسى وهو واقف مع المرأة بين يديه: يا سيدي القاضي بما أنني قد حضرت، فأرجو أن يخرج

أولئك من الحبس، فقال شريك: أما الآن فنعم، أخرجوهم من الحبس، ثم قال: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرة؟ قال: صَدَقَت. قال: تردّ ما أخذت منها، وتبني لها حائطها سريعاً كما كان. قال أفعل ذلك، قال لها: أَبَقِيَ لك عليه دعوى؟ قالت: لا يا سيدي القاضي، وبارك الله بك وعليك، وجزاك خيراً.

فلما فرغ قام وأخذ بيد الأمير موسى بن عيسى وأجلسه مكانه، وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء؟ فقال بأي شيء آمر؟ وضحك، فقال له شريك: أيها الأمير، ذاك الفعل حقّ الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب، فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول: من عظّم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه.

[أخبار القضاة: ١/ ١٧٠]

مكتبة الرمحي أحمد ٧٧

شريح يحكم بين علي بن أبي طالب ويهودي

بينما كان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالسوق إذ شاهد درعاً له عند رجل يهودي، ولما تعرف عليه أنكرها اليهودي، فترافعا إلى قاضي المسلمين شُريح رضي الله عنه، فقال القاضي: اجلس يا أبا الحسن (بكنيته) ولم يكنِّ اليهودي، فغضب علي كرّم الله وجهه، وقال للقاضي: إما أن تكنّي الخصمين معاً أو تدع تكنيتهما معاً (لأن في التكنية تكريم، والقاضي كنّى الإمام علياً وحده، وهو يومئذ خليفة وفي ذلك ميل إليه، وفيه مظنة الظلم، وهو ما لا ينبغي للقاضي المسلم).

ثم سأل شريح أمير المؤمنين عن قضيته فقال علي رضي الله عنه: هذه درعي سقطت عن جمل لي يوم كذا، وافتقدتها منذ ذلك اليوم إلى أن رأيتها مع هذا الرجل. فسأل شريح اليهودي: وما تقول فيما يقوله أمير المؤمنين؟ قال اليهودي: درعي وفي يدي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

قال القاضي: يا أمير المؤمنين هل من بينة أو شاهدين؟ فدعا علي كرم الله وجهه قنبراً مولاه وابنه الحسن وشهدا أنها درعه.

قال القاضي: شهادة مولاك أخذنا بها أما شهادة ابنك فلا نجيزها. قال علي: ثكلتك أمك، أما سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا أهل الجنة». قال: نعم ولكن لا تقبل شهادة الولد لأبيه، ثم قال لليهودي: خذ الدرع. فأخذها اليهودي وانصرف وهو يخالس النظر ولا يكاد

يصدق نفسه، فإذا بأمير المؤمنين وقاضيه يتعانقان.

فقال اليهودي متعجباً: أمير المؤمنين يخاصمني إلى قاضي المسلمين فيقضي لي عليه ويرضى، صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جملك الأورق[١] يوم كذا وكذا فالتقطتها، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقال الإمام علي رضي الله عنه أما وأنك قد أسلمت فالدرع لك.

[صور من حياة التابعين: ١١٤]

عدالة الإسلام
(اضرب ابن الأكرمين)

مما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالساً إذ جاءه رجل قبطي من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضي الله عنه: لقد عُذْتَ بمجير فما شأنك؟ فقال: سابقت بفرسي ابناً لعمرو بن العاص(وهو يؤمئذ أمير على مصر) فجعل يضربني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين. فبلغ ذلك عَمْراً أباه فخشي أن آتيك، فحبسني في السجن، فانفلتّ منه فهذا الحين أتيتك، فكتب إلى عمرو بن العاص: «إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم (يعني موسم الحج) أنت وولدك فلان، وقال للقبطي أقم حتى يأتيك، فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج».

فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام القبطي فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدرة، قال أنس: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين، قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. قال: ضعها على ضلع عمرو، فقال يا مير المؤمنين: لقد ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟! فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول إني لم أشعر بهذا.

[أخبار عمر: ١٤٣]

---

(١) الجمل الأورق: ما في لونه بياض إلى سواد.

عاقبة الظلم

مما نقل في الأثر في زمان موسى عليه السلام: أن رجلاً من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة، وكان صياداً يصطاد السمك يقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يوماً للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها، ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله، فلقيه أحد العوانية (الرجال الأشداء) فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن، فدعا الصياد عليه وقال: إلهي جعلتني ضعيفاً وجعلته قوياً عنيفاً، فخذ لي بحقي منه عاجلاً فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته، وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها، ففتحت السمكة فاها ونكزته في أصبع يده نكزةً طار بها عقله، وصار لا يقر بها قراره، فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به، فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه[1]، فقال له الطبيب: ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها، فانتقل الألم إلى الساعد، فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه، فخرج هائماً على وجهه مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك، امض إلى خصمك الذي ظلمته فارضه. فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه، وطلب منه الإقالة (الصفح) مما جناه، ودفع إليه شيئاً من ماله وتاب من فعله، فرضي عنه خصمه الصياد، فسكن ألمه في الحال، وبات تلك الليلة مطمئناً، فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام وقال: يا موسى يقول الله عز وجل وعزّتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به الحياة.

[المستطرف: ١/ ٢٣٨]

---

(١) الفرائص: (العضلات الصدرية) اللحم بين الكتف والصدر يرتعد عند الفزع.

على الباغي تدور الدوائر

حكي: أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل عليه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده، وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله، أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله فطبخ له طعاماً، وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر[1] وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب من فوره كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقاله له: امضِ به إلى فلان وائتني بالجواب. فامتثل البدوي لما أمر به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب، وخرج به من عنده، وبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيت من الرأي افعل.

قال: اعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي في المدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عني للناس أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان

---

(١) أبخر: نتن رائحة الفم.

ذلك مكراً منه وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذه وزيراً، وراح الوزير بحسده.

[ثمرات الأوراق: ٣٨٩]

الحجّاج والشيخ والمأخوذ بذنب العشيرة

الحاجب: بالباب شيخ كبير يقول: أن له حاجة إلى الأمير.

الحجاج: ردوه.. ليس هذا يوم الحوائج، ولا طلاب الحوائج.

الحاجب: لقد انتهره الشرطة فصاح، وقال: إما أن تقتلوني، أو تدخلوني على الأمير. وهو شيخ مقوس الظهر تشتعل لحيته شيباً.

الحجاج: أدخله.

(يدخل شيخ وقور ذو لحية بيضاء).

الشيخ: السلام عليكم أيها الأمير.

الحجاج: وعليكم السلام. ما حاجتك؟

الشيخ: لقد أخذتم ابني منذ سنة أو أكثر، فلا أنتم أطلقتموه، ولا أنتم حققتم في أمره. وإن له لأماً عجوزاً لا يرقأ[1] لها دمع من أجله، وأختاً أرملة هي أم لأيتام ثلاثة، وهو العائل الوحيد لهذه الأسرة كلها، والاعتماد بعد الله تعالى عليه.

الحجاج: (غير مكترث) ولماذا أخذناه؟

الشيخ: (محتداً) عجباً، أتحبسون الناس ولا تدرون لمَ حبستموهم؟!

الحجاج: (متلطفاً) يا شيخ، المحبوسون كثيرون، ولكل منهم جناية وتهمة.

الشيخ: إن ابني لم يرتكب جناية ولا بعض جناية. كل ما في الأمر أن أحد أفراد العشيرة قد اتهمه عاملك، فطلبه ليقبض عليه فلم يجده، فأخذ ابني مكانه.

الحجاج: هذا يحدث كثيراً. والأجرب قد يعدي السليم. وإن أردت أن تفرج عن ابنك فأحضر الرجل الهارب. أما سمعت قول الشاعر:

(١) يرقا الدمع: يجف وينقطع.

ولــرُبَّ مــأخوذ بــذنبِ عشــيرةٍ ونجــا المَقــارف[1] صــاحب الــذنب

الشيخ: (في صرامة) ولكني سمعت الله تعالى قال غير ذلك!

الحجاج: وماذا قال؟

الشيخ: قال تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

الحجاج: أفحمتني أيها الشيخ وقطعت حجتي. أطلقوا سراح ابنه.

[عالم وطاغية: ١٢]

عَدَلْتَ فَأَمِنْتَ فَنِمْتَ

أرسل كسرى رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلما دخل المدينة سأل أهلها: أين ملككم؟

فقالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير، قد خرج إلى ظاهر المدينة، فخرج الرسول في طلبه، فرآه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع بردته كالوسادة، والعرق يسقط من جبينه قد بل الأرض. فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه. وقال: رجل لا يقر للملوك قرار من هيبته وتكون هذه حاله! ولكنك يا عمر عَدَلتَ فأَمِنْتَ فنِمْتَ، وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً، أشهد أن دينك الحق، ولولا أنني أتيت رسولاً لأسلمت، لكن أعود وأسلم.

وعبّر شاعر النيل حافظ إبراهيم عن هذه القصة بقوله:

وراعَ[2] رسولَ كسرى أن رأى عمراً بــين الرعيــة عطــلاً[3] وهــو راعيهــا

وعَهــدُه بملــوك الفــرس أن لهــا سوراً مـن الجنـدِ والأحـراس يحميهـا

رآه مســـتغرقاً في نومـــه فـــرأى فيــه الجلالــة في أســمى معانيهــا

---

(١) المقارف: المذنب، من أصاب ذنباً.

(٢) راعه: أدهشه.

(٣) عطلاً: متجرداً من مظاهر الأبهة.

فـوقَ الثـرى تحـت ظـلَ الـدوح ... بـبردةٍ كـاد طـول العهـد يبليهـا
فهـانَ(٢) في عينـه مـا كـانَ يُكْـبِرُهُ ... مـن الأكـاسر والـدنيا بأيـديها
وقـال قولـةَ حـقٍّ أصـبحت مـثلاً ... وأصبحَ الجيـل بعـد الجيـل يرويهـا
أمِنْـتَ لمـا أقمـتَ العـدلَ بيـنهم ... فنمـتَ نـومَ قريـر العـين(٣) هانيهـا

[سمير المؤمنات: ٢١١]

جَبَلة بن الأيهم يَفِرُّ مِنَ العَدالة

قال أبو عمر الشيباني: لما أسلم جبلة بن الأيهم الغسّاني(٤)، وكان من ملوك آل جفنة كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه فأذن له عمر، فخرج إليه في خمسمائة من أهل بيته من عك وغسّان، حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه، فسرّ عمر وأمر الناس باستقباله، وبعث إليه بإنزال، وأمر جَبَلَة مائتي رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحرير وركبوا الخيول معقودة أذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضة، ولبس جبلة تاجه وفيه قرطا ماريّة وهي جدّته ودخل المدينة، فلم يبق بها بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زِيّه. فلمّا انتهى إلى عمر رحب به وألطفه وأدنى مجلسه. ثم أراد عمر الحج فخرج معه جبلة. فبينا هو يطوف بالبيت وكان مشهوراً بالموسم، إذا وطأ إزاره رجل من بني فزارة فانحل فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري. فشكاه إلى عمر، فبعث إلى جبلة فأتاه.

فقال: ما هذا الذي صنعت؟

قال: نعم يا أميرالمؤمنين، إنه تعمّد حل إزاري، ولولا حرمة الكعبة لضربته بين عينيه بالسيف.

---

(١) مشتملاً: ملتفاً بكساء. والدوح: الشجر العظيم المتشعب ذو الفروع الممتدة.

(٢) هان: صَغُرَ.

(٣) قرير العين: مطمئن وهادئ.

(٤) جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، عاش زمناً في العصر الجاهلي، أسلم في أيام عمر، ثم ارتد عن الإسلام وعاد إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية حيث أقام عند هرقل إلى أن توفي سنة (٢٠) هـ.

فقال عمر: قد أقررت، فإما أن ترضي الرجل وإما أقيده منك.

قال: وماذا تصنع بي؟

قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت.

قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سوقة (يعني من عامة الناس) وأنا ملك؟

قال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية.

قال جبلة: قد ظننت يا أمير المؤمنين أني أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية.

قال عمر: دع عنك هذا، فإنك لم ترض الرجل أقدته منك.

قال جبلة: إذاً أتنصر!

قال عمر: إذا تنصرت ضربت عنقك، لأنك قد أسلمت فإن ارتددت قتلتك.

فلمّا رأى جبلة الصدق من عمر قال: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه. وقد اجتمع بباب عمر من حيّ هذا وحيّ هذا خلق كثير حتى كادت تكون بينهم فتنة. فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف حتى إذا نام الناس وهدؤوا تحمّل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام، فأصبحت مكة وهي منهم بلاقع (خاوية).

فلمّا انتهى إلى الشام تحمل مع خمسمائة رجل من قومه حتى أتى القسطنطينية، فدخل إلى هرقل فتنصر هو وقومه، فسرّ هرقل بذلك جداً، وظن أنه فتح من الفتوح عظيم، وأقطعه حيث شاء، وأجرى عليه من النزل ما شاء، وجعله من محدثيه وسمّاره. ثم إن عمر بدا له أن يكتب إلى هرقل يدعوه إلى الله عزّ وجل وإلى الإسلام، ووجه إليه رجلاً من أصحابه وهو جثّامه بن مساحق الكناني، فلما انتهى إليه الرجل بكتاب عمر أجاب إلى كل شيء سوى الإسلام، فلما أراد الرسول الانصراف قال له هرقل: هل رأيت ابن عمك هذا الذي جاءنا راغباً في ديننا؟ قال: لا.

قال: فالقه.

قال الرجل: فتوجهت إليه، فلمّا انتهيت إلى بابه رأيت من البهجة والحسن والسرور مالم أرَ بباب هرقل مثله، فلمّا أُدخلتُ عليه إذا هو في بهو عظيم وفيه من التصاوير مالا أحسن وصفه، وإذا هو جالس على سرير من قوارير قوائمه أربعة أسد من ذهب، وإذا هو رجل أصهب[1] ذو سبال[1] وعثنون (لحية) وقد أمر بمجلسه

(١) أصهب: أبيض الوجه ضارب إلى حمرة وصفار.

فاستقبل به وجه الشمس، فما بين يديه من آنية الذهب والفضة يلوح فما رأيت أحسن منه، فلمّا سلمت رد السلام ورحّب بي وألطفني ولامني على تركي النزول عنده، ثم أقعدني على شيء لم أثبته، فإذا هو كرسي من ذهب فانحدرت عنه، فقال: مالك؟ فقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا. سألني عن الناس وألحف في السؤال عن عمر، ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن في وجهه فقلت: ما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام؟ قال: أبعد الذي كان؟ قلت: قد ارتد الأشعث ابن قيس ومنعهم الزكاة وضربهم بالسيف ثم رجع إلى الإسلام، قال: ذرني من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته، ويولّيني الإمرة من بعده رجعت إلى الإسلام، قال: ضمنت لك التزويج، ولم أضمن لك الإمرة. قال: لا. فتحدثنا ملياً ثم قال: أتعرف هذه المنازل؟ قلت: لا. قال: يا جارية هاتي، فأتته بخمسمائة دينار وخمسة أثواب من الديباج فقال: ادفع هذه إلى حسان بن ثابت وأقرئه مني السلام، ثم راوَدَني على مثلها فأبيت، فبكى ثم قال:

تنصّرت الأشرافُ من عار لطمةٍ ... وما كان فيها لو صبرتْ لها ضررُ
تكنفني(٢) فيها لجاج(٣) ونخوة ... وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فيا ليتَ أمي لم تَلِدْني وليتني ... رجعتُ إلى القولِ الذي قال لي عمرُ
ويا ليتني أرعى المخاض(٤) بدمنة(٥) ... وكنت أسيراً في ربيعةَ أو مضر
ويا ليتَ لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

ثم بكى وبكيت معه حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كأنها اللؤلؤ، ثم سلمت عليه وانصرفت، فلما قدمت على عمر سألني عن هرقل وجبلة، فقصصت عليه

---

(١) ذو سبال: السبلة الدائرة في شفة الرجل العليا، وطرف الشارب.

(٢) تكنفني: أحاط بي.

(٣) لجاج: واسع اللجج: واللجج؛ معظم الماء حيث لا يدرك قعره.

(٤) المخاض: الإبل التي دنا ولادها.

(٥) دمنة: آثار الناس والمزبلة.

القصة من أولها إلى آخرها، فقال: أو رأيت جبلة يشرب الخمر؟ قلت: نعم، قال: أبعده الله تعجل فانية اشتراها بباقة فما ربحت تجارته. وأخبرته خبر جبلة، وما دعوته إليه من الإسلام، والشرط الذي شرطه، وأني ضمنت له التزويج، ولم أضمن له الإمرة قال: هلاّ ضمنت له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل! ثم قال: فهل سرّحَ معك شيئاً؟ قلت: سرّح إلى حسان خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج، فبعث إلى حسان فأقبل يقوده قائده حتى دنا فسلّم وقال: يا أميرالمؤمنين إني لأجد أرواح آل جفنة، فقال عمر رضي الله عنه: قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه وأتاك بمعونة.

ثم قال: جهزني عمر إلى قيصر، وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غلب عليه في أم الكتاب.

[أخبار عمر: ١٩٣]

اتق دعوة المظلوم
(الشكوى من سعد بن أبي وقاص)

من الشكاوى العجيبة التي سمعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان حقها الإعراض عنها، وزجر أصحابها، شكوى الجراح بن سنان الأسدي ونفر من قومه من سعد بن أبي وقاص واتهامه في دينه وصلاته، وفي عدله. فبعث عمر رضي الله عنه محمد بن مسلمة، وهو المفتش العام على العمال، وكان عمر يثق به ثقة لا حد لها، ويبعثه في كل قضية.

ولم يجر التحقيق سراً، بل جرى على أسلوب لا يحتمله موظف صغير فضلاً عن مثل سعد القائد الكبير، والصحابي الجليل. ذلك أن ابن مسلمة كان يأخذه من مسجد إلى مسجد، ويسألهم عنه وعن سيرته علناً، فيقولون لا نعلم إلا خيراً، ولا نشتهي به بديلاً، حتى وصل إلى الجماعة التي كانت تمالىء الجراح (صاحب الشكوى) فلم تجرؤ أن تطعن عليه أو تقول فيه سوءاً فسكتت. حتى انتهى إلى مسجد بني عبس، فقال محمد بن مسلمة: أنشد الله رجلاً منكم يعلم حقاً إلا قال، فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة وقال: اللهم إذا نشدتنا فإن سعداً لا يقسم

بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية.

قال سعد: اللهم إن كان قالها كاذباً ورئاء وسمعة، فأعم بصره، وأطل عمره، وأدم فقره، ولا تمته إلا مفتوناً. فعمي بعد ذلك، وصار عنده عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عثر عليه قال: أصابتني دعوة سعد الرجل المبارك.

قال عبد الملك بن عمير: فأنا رأيته بعد أن سقط حاجباه على عينيه، وإنه ليتعرض للجواري يغامزهن.

وخرج به محمد بن مسلمة إلى عمر حتى قدما عليه، فأخبره الخبر فقال: يا سعد ويحك كيف تصلي؟ قال: أطيل الأولين وأخف الأخريين. فقال: هكذا الظن بك يا أبا إسحق، ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا، (أي حقق احتياطاً مع اعتقاده براءة سعد وافتراء هؤلاء عليه).

[أخبار عمر: ١٣٩]

☆ ☆ ☆

الباب الثامن
في المحن والشدائد

قُبْلَةُ الحُرِّيَّة

في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسر هرقل حاكم الروم الصحابي الجليل عبد الله بن حذاقة رضي الله عنه مع جماعة من أصحابه، وأراد أن يجبره على الكفر، فأوقفه أمامه في باحة قصره، وقال له: هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ فقال عبد الله بن حذاقة: إفعل ما تشاء فإنما تعذب بدناً فانياً وجسداً مولِّياً، أما الروح فلا يملكها إلا الله، فأمر هرقل أن يصلب على صليب، وأن يضرب بالسهام في يديه ورجليه وفي غير مقتل كي يرهبه لعله يبدل دينه، فصُلِب ورُمي بالسهام، وكلما أصابه سهم قال: لا إله إلا الله، فقال هرقل: أنزلوه، وأمر بقدر ماء، فغلى الماء في القدر حتى كاد القدر أن يحترق من شدة الغليان، وقال له: يا عبد الله إما أن تتنصر وإما أن نلقي بك في هذا الماء الحار، فتقدم عبد الله بن حذاقة رضي الله عنه إلى الماء الذي يغلي، فلما اقترب منه بكت عيناه، فظن هرقل أنه قد جزع، فقال: أبكيت يا عبد الله؟ قال: والله ما بكيت جزعاً من الموت، فأنا أعلم أنني سائر إلى الله، ولكني بكيت لأنه ليس لي سوى نفس واحدة، وكنت أود أن يكون لي مائة نفس تُعّذب في سبيل الله. فقال هرقل: أرجعوه، وأمر بإحضار امرأة غانية من نساء الروم وقال: أدخلوها معه في غرفة لتراوده عن نفسه، ودخلت معه الغانية وغُلِّقت الأبواب وأخذت تتمايل أمامه وتظهر له مفاتنها وتغريه بها، ولكنه استعصم، وبعد ساعات مضت قال هرقل: أحضروها لأسمع منها ما حدث فلما حضرت قالت له: يا سيدي لست أدري إلى من أرسلتني؟ أأرسلتني إلى بشر أم إلى حجر؟ إني كلما خطوت أمامه وظهرت له مفاتني لأغريه بي، ما سمعت منه إلا قول: لا إله إلا الله.

فقال هرقل: ادخلوه في غرفة ولا تحضروا له من الطعام إلا الخمر ولحم الخنزير،

فأحضروا له ذلك وأغلقوا عليه الباب وليس عنده طعام سواهما، وظل عبد الله بن حذاقة رضي الله عنه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ثم دخلوا عليه فوجدوه يذكر الله ويصلي، والخمرة كما هي ولحم الخنزير كما هو فقالوا له: يا عبد الله ما منعك من الشرب والأكل وأنت مضطر لذلك والجوع يعبث بأمعائك؟ فقال لهم: خفت أن أُشْمِتَ أعداء الله في دين الله. فلما يئس هرقل قال له: يا عبد الله قبّل رأسي وأطلق سراحك فقال له: بل تطلق معي سراح إخواني المأسورين جميعهم، فوافق على ذلك، ولما هم ليضع فمه عى رأس هرقل دعا ربه قائلاً: اللهم إنك تعلم أنه مشرك نجس، فإذا سألتني عن ذلك يوم القيامة سأقول لك وعزتك وجلالك ما فعلت ذلك إلا لأُطلق سراح إخواني.

ووضع عبد الله فمه على رأس هرقل. فأطلق هرقل سراحه وسراح إخوانه المأسورين، ثم عادوا إلى المدينة المنورة والتقوا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقصّوا عليه ما جرى، فقال عمر: حق على كل مسلم فينا أن يقبل رأسك يا عبد الله، وأنا أبدأ بنفسي. وقام رضي الله عنه وقبّل رأسه إكراماً لعزته ولدينه.

وكان الصحابة يمازحون عبد الله ويقولون له: قبّلت رأس علج، فيقول لهم: أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين.

[انظر: تهذيب مصارع الأشواق: ٢٢٢]

حديث أصحاب الأخدود

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال(١): «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلمّا كبر قال للملك: إنّي قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السّحر. فبعث إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه، وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت من الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت من

---

(١) ليس في سياق قصة أصحاب الأخدود ما يشير صراحة أنها من كلام النبي ﷺ. قال الحافظ أبو الحجاج المزي: يحتمل أن يكون من كلام صهيب الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى، والله أعلم. [انظر: قصص القرآن لابن كثير ص١٣٧]

الملك فقل حبسني الساحر. فبينما هو كذلك أتى على دابّة عظيمة(١) قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهمّ إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بنيّ، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنّك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ. وكان الغلام يبرئ الأكمه(٢) والأبرص بإذن الله ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنالك أجمع إن أنت شفيتني. قال: إنّي لا أشفي أحداً، إنما الشافي هو الله تعالى، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربّي. قال: ولك ربّ غيري؟! قال: ربي وربك الله. فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه حتى وقع شقاه، ثمّ جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه بها حتى وقع شقاه، ثمّ جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلاّ فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللّهمّ اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور (قارب صغير)، فتوسّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلاّ فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللهمّ اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، وقال للملك: إنّك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثمّ خذ سهماً من كنانتي، ثمّ ضع السّهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله ربّ الغلام، ثمّ ارمني به، فإنّك إذا

(١) الدابة: كانت أفعى ضخمة.

(٢) الأكمه: الذي ولد أعمى.

فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثمّ أخذ سهماً من كنانته، ثمّ وضع السّهم في كبد القوس، ثمّ قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السّهم، فمات، فقال الناس: آمنا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فخُدّت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فارموه فيها، أو قيل له اقتحم. ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّي اصبري فإنك على الحق.

[رياض الصالحين: ٢٠]

قصة جريج الرومي

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً، اتخذ صومعة فكان يتعبد فيها، فأتته أمه وهو قائم يصلي فنادت: يا جريج. يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، ثم قال: ربي أعظم عليّ حقاً من أمي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلمّا كان الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلمّا كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، قال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته. فغضبت أمه ودعت: اللهم لا تمته حتى ينظر وجوه المومسات (الزانيات)!

فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي حسناء يُتَمَثّلُ بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننّه لكم، قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً للغنم كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغّي فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف من صلاته أتى الصبي فغمزه في بطنه وقال: يا غلام بالله الذي لا إله إلا هو من أبوك؟ فأنطق الله الغلام فقال: أبي فلان الراعي، كانت أمي تختلف إليه في الشعاب فينزو بها.

قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ويعتذرون إليه، وقالوا: نبني لك

صومعتك من ذهب وفضة، قال: لا، بل أعيدوها من طين كما كانت.

[روي هذا الحديث من طرق أخرى. انظر: الصحيحين ومسند أحمد]

على ماء الرجيع

تقول الرواية: أنه لما قامت معركتا بدر وأحد.. وهزم المسلمون في هذه الواقعة الأخيرة، وتلمس أعداؤهم الفرص للإيقاع بهم والقضاء عليهم، وفشا النفاق في المدينة وكثر. وفي تلك الأثناء أقبل على الرسول رهط(١) من قبيلة عضل يعرضون نصرهم وإسلامهم على الرسول ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا ويعلموننا شرائع الإسلام، واستبشر المسلمون خيراً، وأرسل الرسول فيهم ستة من أعلام الصحابة.. من البدريين الذين أيدتهم الملائكة وأطل عليهم الله المتعالي وقال لهم: «افعلوا ما شئتم لقد غفرت لكم» وكان هؤلاء الستة من البدريين من السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق. وأمّرَ رسول الله ﷺ عليهم مرثداً. ومضوا حتى إذا كانوا على (الرجيع) ماء لهذيل، فغدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم في الرحال غير الرجال يحيطون بهم من كل جانب وبأيديهم السيوف قد غرهم، فأخذ الصحابة الأطهار سيوفهم ليقاتلوهم، فقال لهم أعداؤهم:

إنا والله ما نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

ودار القتال عنيفاً شديداً بين جم غفير من المشركين وثلاثة من المسلمين.. فقُتِل عاصم وهو يقول: أللهم إني حميت دينك أول نهاري فاحم لي لحمي آخر نهاري، وقتل مرثد وقتل خالد في ميعة الصبا(٢) وشرخ الحياة(٣)، فقد كان في الرابعة والثلاثين.

---

(١) رهط: جماعة من الناس.

(٢) ميعة الصبا: أوله.

(٣) شرخ الحياة: أول الحياة ونضارتها.

آن إذن لسلافة بنت سعد أن تشرب الخمر في رأس عاصم، واقترب المشركون من هذيل من جسد عاصم ليقطعوا رأسه ويبيعونها إلى سلافة بأبخس الأثمان، ولكن لم يعلموا أن الله منع جسده منهم – فلقد أحاطت الدبر بعاصم فما استطاع مشرك أن يقترب منه فقالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه.. وأمطرت السماء وبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً معه.

أما زيد وخبيب فقد قدموا بهما مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فابتاع حجر بن أبي أهاب التميمي خبيباً ليقتله بأبيه... وابتاع صفوان بن أمية زيداً ليقتله بأبيه أمية بن خلف.. وسجن الأول في بيت ماوية مولاة حجير بن أبي أهاب، والثاني في بيت صفوان. وكانت حياة كل منهما في تلك الفترة التي قضياها في مكة سُمُوّاً على الحياة، وكلها إعجازاً للقرشيين، ولكن ما كان لتلك القلوب أن تؤمن.. كانت كالحجارة أو أشد قسوة.

وكانا يقضيان نهارهما في العبادة وليلهما في التهجد. وقد رفض زيد وخبيب أن يأكلا مما لم يذكر اسم الله عليه- فكانا يتناولان اللبن- وتقول ماوية بعد ذلك: «كان خبيب عندي حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً وإن في يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل..».

وقد طلب منها يوماً حين عرف موعد قتله سكيناً يتطهر بها للقتل، قالت: فأعطيت غلاماً من الحي السكين، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت. ثم قالت: فو الله ما هو إلا أن ولى الغلام بها حتى قلت لنفسي ما صنعت؟! أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل. فلما ناوله السكين أخذها من يده ثم عطف وحنا عليه وقال: لعمرك أما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة؟ ثم أخذ يلاعبه ويناغيه. وهنا أقبلت المرأة مذعورة فنظر إليها خبيب وقال: أتحسبين أني أقتله؟ إن ديني ينهى عن الغيلة.

وخرجوا بزيد وخبيب إلى القتل، وفي وسط المدينة تقابل الشهيدان، ومع كل واحد منهما جماعة من قريش فتعانقا، وأوصى كل واحد منهما الآخر بالصبر على ما يصيبه، ثم ساروا بزيد إلى التنعيم[1] ليقتل هناك، وسار خلفه طائفة من أهل قريش

---

(١) التنعيم: موضع بمكة.

من الرجال والنساء والصبيان، وهناك قال له أبو سفيان:

- أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت آمن في أهلك؟ قال:

- والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه وهو الآن في مكانه الذي هو فيه وأنا جالس في أهلي. قال أبو سفيان:

- ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً. وفي تلك الأثناء انقض عليه نسطاس فقتله.

ثم ساروا بخبيب بعده إلى التنعيم أيضاً ليصلبوه، وهناك قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا: دونك فاركع.

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا تظنوا أني إنما طولت جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين، ثم رفعوه على خشبة وأوثقوه ثم قالوا له: ارجع عن الإسلام نخلي سبيلك. فقال: -لا والله- ما أحب أن أرجع عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً.

- ارجع يا خبيب.

- لا أرجع أبداً.

- أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك.

- إن قتلي في الله لقليل، ثم أنشد:

ولستُ أبالي حين أقتلَ مسلماً ... على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذاتِ الإله وإن يشأ ... يُبارك على أوصالِ[1] شلوٍ[2] مُمَزَّعِ

وجعلوا وجهه من حيث جاء، فقال: أما صرفكم وجهي عن القبلة فإن الله يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ثم قال: اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، أللهم إنه ليس ههنا أحد يبلغ رسولك عني

---

(١) أوصال: جمع وصل وهو المفصل أو مجتمع العظام، وكل عكمة على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره.

(٢) الشلو: العضو، والقطعة من اللحم، جمعها: أشلاء.

السلام، أللهم فبلغه أنت عني السلام.

وفي تلك اللحظة اقتربوا منه بالرماح وقد أتوا بأربعين من أبناء قتلى بدر وأعطوهم الرماح ثم قالوا: هذا الذي قتل آباءكم ببدر، فقال: أللهم قد بلغنا رسالة رسولك فأبلغه الغداة ما يصنع بنا. أللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

وهنا ألقى معاوية بن أبي سفيان – وكان من بين القرشيين – نفسه إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب، وهرب حكيم بن خزام، واختفى جبير بن مطعم.. فاستدار خبيب إلى الكعبة وقال: «الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين». ثم عادوا طعنه مدة ساعة وهو يردد: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»..

وكان الرسول الكريم في المدينة بين صحبه، فأخذته غيمة كما كان يأخذه إذا نزل عليه الوحي، ثم قال: هذا جبريل يقرئني من أخيكم خبيب السلام. وتركه أهل مكة مصلوباً أياماً عدة، أرسل الرسول الكريم بعدها عمرو بن أبي أمية الضمري في سرية لقتل أبي سفيان، وقد غافل عمرو الحراس وبينما هو يفك وثاق خبيب إذ رأته قريش فاحتمل جسد خبيب وولى مسرعاً، ولكن ما لبث القرشيون أن كروا عليه، فترك الجثة ومضى، ولكن قبل أن يغيب رأى الأرض تنفرج فرجة وتبتلعه...

[شهداء الإسلام في عهد النبوة: ٩٢– ٩٧]

☆ ☆ ☆

الباب التاسع
في الأمانة والتقوى

تُفّاحَةُ أبي حَنيفة

كان أحد الصالحين واسمه ثابت بن إبراهيم يسير ذات يوم بين الحقول وكان جائعاً، إذ مرَّ بجدول ماءٍ صغير، وقد حمل الماء معه تفاحةً قد سقطت من إحدى أشجار بستان قريب، فأخذها وأكلها، ثم تذّكر أنها ليست ملكه ولا يحل له أكلها، فدخل على البستاني وقال له: لقد أكلت من بستانك تفاحة كان الماء يدفعها عبر الجدول الذي يمر فيه فهل تسمح لي بها؟ فقال له البستاني: أنا لا أملك السماحة لأن البستان ليس لي، وإنما هو ملك سيدي فلان، وهو في بيته في المكان الفلاني وبينك وبينه مسيرة يوم وليلة، فقال: لأذهبن إليه مهما كان الطريق بعيداً، فلا يحل لي أن آكل شيئاً بدون إذن مالكه، والنبي ﷺ يقول: «من نبت جسمه من حرام فالنار أولى به».

وحملته قدماه إلى بيت صاحب البستان فطرق بابه، ففتح له الرجل الباب، وبعد أن سلّم عليه قال له: يا سيدي لقد أكلت تفاحة سقطت من أشجار بستانك وجدتها خارج البستان يدفعها الماء عبر الجدول المار به، فهل تسمح لي بها؟ فنظر إليه صاحب البستان ملياً ثم قال: لا لن أسامحك! فقال: إذن بعني إياها. قال: ولا أبيعك إياها. فقال سبحان الله! وماذا تريد إذن؟! فقال له (وقد رأى منه التقوى والصلاح): إلا ان تتزوج ابنتي، فقبل ثابت هذا العرض مسروراً. فقال له صاحب البستان: ولكن انتبه إن ابنتي عمياء وبكماء وصماء ومقعدة، فذُهِل ثابت وفكّر ملياً ثم قال في نفسه: أهذه زوجة يصح أن أقترن بها، ومن أجل هذا لا يريد أن يسامحني فيما أكلت؟ ثم قال له صاحب البستان: بغير هذا الشرط لن أسامحك، فقال ثابت: قبلت خطبتها، وسأقبل زواجها وأتاجر فيها مع الله رب العالمين، أقوم على خدمتها وأكون بذلك قد أسقطت إثم ما أكلت من ملك غيري بدون إذنه.

فدعا أبوها بشاهدين، فشهدا على العقد، ثم جاء صاحب البستان بابنته وأدخلها حجرتها، واستعد ثابت للدخول عليها، فلما دخل سلم عليها، فردت عليه السلام ونهضت واقفة ووضعت يدها في يده. فقال ثابت في نفسه: ما هذا؟! ردت السلام! إذن هي ليست بكماء، وسمعت السلام إذن هي ليست صماء، وقامت واقفة فليست مقعدة، ومدت يدها إلى يدي فهي إذن ليست عمياء؟! فلماذا أخبرني أبوها أنها عمياء بكماء صماء مقعدة؟! ثم سألها عمّا قاله أبوها بشأنها، فقالت الفتاة: لقد صدق أبي فيما أخبرك من شأني، فقال لها: لكني لا أرى شيئاً من هذا كله؟ فقالت: إن أبي قد أخبرك بأنني عمياء ذلك لأن عيني لم تنظر إلى ما حرم الله، فأنا عمياء عن الحرام، صماء الأذنين عن كل ما لا يرضي الله، مقعدة لأن قدمي لم تحملاني إلى مكان يغضب الله تعالى، ولهذا كله فإني بكماء اللسان لأن لساني لا يتحرك إلا بذكر الله، وكان أبي يصفني دائماً بأنني مثل النحلة التي تحط على أجمل الزهور، وتأخذ من الزهور الرحيق، وتخرج لنا العسل. فقال ثابت: فنظرت إلى وجهها فكأنما هو فلقة القمر ليلة تمامه.

ودخل بها وأنجب منها مولوداً ملأ طباق الأرض علماً وصلاحاً، إنه الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه.

[أنيس المؤمنين: ١١٠]

الحارس الأمين

يروى أنه كان بمدينة مرو رجلٌ يقال له: نوح ابن مريم. وكان رئيس البلدة وقاضيها، وذا نعمة وجاه، وحالٍ موفق. كان يملك بستاناً كبيراً من العنب بظاهر المدينة التي يحكمها، وقد ذهب في أحد الأيام يتفقد بستانه ويطلع أحواله، فرأى شاباً يسير بالقرب من البستان وكانت تبدو عليه سيما الصلاح، فاقترب منه وسلم عليه، ثم سأله عن اسمه، فقال: اسمي المبارك. فقال الحاكم: يا الله.. وقع في نفسي أنه مبارك! وسأله عن عمله فأخبره أنه بدون عمل، فاقترح عليه أن يحرس بستانه مقابل جعل (أجر) في نهاية كل عام. فوافق الشاب، وباشر مهامه منذ اللحظة، وعاد الحاكم بعد أن بيّن للشاب حدود البستان وما يزرع فيه من الثمار والأشجار. ولما حان موسم العنب ونضوج الثمر في أشهر الصيف جاء الحاكم وزوجته في أحد الأيام عصراً يتمشيان إلى البستان. فسلما على المبارك وسألاه عن أحواله وأحوال

البستان، ثم طلب منه الحاكم أن يحضر لهما بعضاً من العنب، فأحضر لهما قطفين، فلما ذاقاه وجداه حصرماً(١)، فقال الحاكم: إنه حصرم! ائتنا بعنب ناضج، فذهب وأحضر قطفين آخرين وكانا حصرماً كسابقيهما، وهنا كاد الغضب يستولي على نوح لولا ما يتحلى به من الحلم والأناة، فكتم غضبه وقال: إنه حصرم أيضاً يا مبارك ألم تتذوقه؟ قال: لا، قال الحاكم: ولم لا تتذوقه؟ قال: لأنني حرسته من نفسي قبل أن أحرسه من غيري، وأنت لم تسمح لي أن أتذوقه أو آكل منه، بل أمرتني بحفظه، وما كنت لأخون في مالك، وأخالف أمرك. والله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. فابتسم الحاكم وهز رأسه سروراً بما سمع وقال: يا مبارك كُل منه واشبع وأعط السائل والمحتاج، فأنت صاحب البستان والمتصرف فيه.

فذهب المبارك وأحضر عنباً حلواً ناضجاً، فجاء به إلى الحاكم، فوجده كما يحب ويشتهي، ثم طلب من الحارس أن يجلس للحديث، وقال له: يا مبارك إني أستشيرك في أمر فأشر عليّ بما ترى، فإني رأيتك ذا عقل وحكمة. قال: عفوك يا سيدي أنا رهن إشارتك وطوع أمرك. فقال: إن لي بنتاً هي آية في الجمال والكمال. وقد خطبها كثير من الرؤساء والزعماء وأصحاب الجاه والثروة، وقد حِرْتُ في أمر تزويجها، ولمن أعطيها. فأشر علي في هذا الأمر. قال مبارك: يا سيدي كان الناس في الجاهلية يرغبون في الأصل والحسب والنسب، واليهود والنصارى يرغبون في الحسن والجمال، وفي زمن رسول الله ﷺ يرغبون في الدين والتقوى، وفي زماننا هذا يرغبون في المال والجاه، فاختر لنفسك ولابنتك من هذه الأشياء ما شئت.

كان الحاكم يصغي إلى مبارك فوجد في كلامه حكمةً يعجز عنها الفصحاء والحكماء، فازداد له حباً وبه تعلقاً. فقال: يا مبارك إني راغب في الدين والتقوى، وإني وجدتك ذا دين وأمانة وتقوى، وإني عزمت على أن أزوجك بها فماذا تقول؟ قال: قبلت إن كانت بصلاح أبيها، قال: هي بنت أبيها نسباً وصلاحاً إن شاء الله. ثم عاد الحاكم وزوجته إلى قصرهما، فقال لابنته: يا بنية، لقد وجدتُ شاباً كله صلاح وعليه سيما الصلاح ووجهه يشعُّ نوراً، وقد اخترته زوجاً لك، فماذا تقولين؟ قالت: الخير ما اختاره أبي وأنا ابنتك وأمري إليك لا أعصيك أبداً ولا أخالفك، وأنا راضية

---

(١) الحصرم: العنب قبل النضج.

ما رضيته لي..

فتزوجا وأعطاهما الحاكم مالاً كثيراً، نعما به في حياتهما، وعاشا سعيدين موفقين. وكان من بركة زواجهما أن أنجبا مولوداً أسمياه عبد الله، واشتهر بعبد الله بن المبارك[1] المعروف عند العلماء والأولياء والصالحين رضي الله عنه. وتلك ثمرة الأمانة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة.

[وفيات الأعيان: ٢/ ٢٣٧، الأمانة والأمناء: ٦١]

بِشْرُ الحافي وأخته

جاءت امرأة إلى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه تستفتيه فقالت: يا إمام، لي جيران مذهبهم فاسد ومطعمهم فاسد، وحياتهم مليئة بالفساد، وعندهم سراج ينبعث نوره إلى فناء بيتنا، وأنا أجلس على نور سراجهم في فناء البيت أغزل الصوف، فهل يحل لي ذلك أم يحرم؟ فقال: ممن تكونين أيتها المرأة؟ قالت: أنا أخت بشر الحافي[2]. قال: أنت أخت بشر الحافي؟ قالت: نعم، أنا أخته. قال: من بيتكم خرج الورع لا تغزلي، كي يبقى النور يخرج من بيتكم آل بشر.

هذا ما كان من أمر المرأة وسؤالها عن الحلال والحرام. أما أخوها بشر الحافي فقد كان إماماً في الزهد والتقوى. اشترى يوماً حذاءً جديداً وخلعه بباب المسجد ودخل يصلي بالناس إماماً. فلما خرج لم يجد حذاءه فبكى! فقال المصلون: لا ينبغي لمثلك يا إمام أن يبكي من أجل حذاء فقده، نحن نشتري لك حذاءً جديداً بدلاً منه. فقال: والله ما أبكاني فقد الحذاء، وإنما أبكاني أنني سببت معصية لأحد المسلمين، فلولا حذائي الجديد لما سَرَق، ولما اكتسبت معصيةً وإثماً. وحلف أنه لن ينتعل حذاءً بعد اليوم، وقضى حياته حافياً. ولقب بعد ذلك ببشر الحافي..

[الروض الفائق: ١٧٢، البداية والنهاية: ١٠/ ٢٩٣، صفة الصفوة: ٢/ ٣٣٨]

---

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح، كان أبوه مولى لبني حنظلة، وأمه خوارزمية، وأبوه كان تركياً. وعرف عبد الله بالتقوى والصلاح، وكان كثير الانقطاع للعبادة محباً للخلوة، شديد التورع.

(٢) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين، له في الزهد والورع أخبار كثيرة، وهو من ثقات رجال الحديث. من أهل «مرو» سكن بغداد وتوفي بها سنة (٢٢٧هـ - ٨٤١م).

حلم الخليفة وتواضعه
(قُمْتُ وأنا عُمر ورجَعْتُ وأنا عُمَر)

كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشدي الخامس حليماً صفوحاً، يتطاول عليه الرجل فلا يجيبه، فيقال لعمر: ما يمنعك منه؟ فيجيب: إن التقى ملجم.

وحدث ذات مرة أن دخل ومعه الحارس إلى المسجد وهو مظلم، فعثر برجل نائم فيه، فصاح به الرجل: أمجنون أنت؟ فأجابه عمر بهدوء: لا. فهمّ الحارس بالرجل يريد أن يضربه، فمنعه عمر قائلاً: لماذا كلّ هذا العنف، لم يخطئ الرجل، فقد سألني فأجبته، إنما هو سؤال وجواب لا أكثر.

هكذا بكل بساطة، صحيح أن السؤال مصحوب بانفعال، ولكن جواب الخليفة الحليم كان خلواً منه.

وكان رضي الله عنه متواضعاً غاية التواضع، يصلح من شأنه بنفسه، فقد كان يكتب - في إحدى الليالي - إلى عماله الكتب وعنده رجاء بن حيوة[1] يستعرض معه كتب العمال التي ترد إليه من الأمصار، فيضطرب السراج، فينهض عمر ويصلحه، فقال رجاء: هلاّ وكلت إلي أمر السراج يا أمير المؤمنين وأنا أقوم بإصلاحه؟ فيجيبه عمر: وماذا عليّ لو أصلحته بنفسي، قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز!.. استمر يا رجاء.

فيتناول رجاء كتاباً منها ويقول: هذا كتاب من عاملك على المدينة يشكو قلة القراطيس والأوراق عنده. فيقول عمر: اكتب إليه وقل له: أدق قلمك، وقارب بين سطورك وأوجز في كلامك.

[الحاكم العادل: عمر بن عبد العزيز: ١٥، ١٤٢]

---

(١) رجاء بن حيوة: هو أبو المقدام -ويقال أبو نصر- رجاء بن حيوة الكندي. وهو تابعي جليل كبير القدر، ثقة فاضل عادل، وكان وزير صدق لخلفاء بني أمية. وقد صحب عمر بن عبد العزيز وكتب له وأشار عليه وأخلص معه؛ وكان مكحول إذا سئل عن مسألة يقول: سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة. وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة وعدّوه ثقة في الرواية. وله كلام حسن. توفي سنة ١١٢هـ.

لا تذهبي بنفسك عن الحق

قال علي بن أبي رافع: كنت على بيت مال علي بن أبي طالب وكاتبه، وكان في بيت المال عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة، فأرسَلَتْ إليّ بنت علي بن أبي طالب فقالت لي: إنه قد بلغني أنه في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمّل به في يوم الأضحى. فأرْسَلْتُ إليها فقلت لها: عارية مضمونة مردودة بعد ثلاث أيام يا بنت أمير المؤمنين. فدفعته إليها، فرآه أمير المؤمنين عليها فعرفه، فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟ فقالت: استعرته من ابن أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين، لأتزين به في العيد، ثمّ أرده. فبعث إليّ أمير المؤمنين فجئته، فقال لي: أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخون المسلمين، فقال: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد بغير إذني ورضاهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنها ابنتك، وسألتني أن أعيرها العقد تتزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن ترده سالماً إلى موضعه، فقال: ردّه من يومك، وإياك أن تعود إلى مثله، فتنالك عقوبتي، ثم قال: ويل لابنتي: لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونة لكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها في سرقة.

فبلغت مقالته ابنته، فقالت له: يا أمير المؤمنين، أنا ابنتك وبضعة منك، فمن أحق بلبسه مني؟ فقال لها: يا بنت ابن أبي طالب لا تذهبي بنفسك عن الحق، أكلّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيّنّ في مثل هذا العيد. بمثل هذا؟ فقبضته منها ورددته إلى موضعه.

[جمهرة قصص العرب: ٤/ ٦٧]

جعَلْتُ لهم النّهار وجَعَلْتُ الليْلَ لله عَزّ وجَل

قال خالد بن قعدان: استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر الجمحي، فلما قدم عمر حمص قال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه وقالوا: نشكو منه أربعاً: لايخرج إلينا حتى يتعالى النّهار. قال: أعظم بها. قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب احداً بليل، قال: وعظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: وله يوم في

الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: عظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: يغنط[1] الغنطة يعني يعتريه في بعض الأحيان شيء من الذهول فيغمى عليه.

فجمع عمر بينهم وبينه، ليحقق في الأمر، وقال: اللّهم لا تخيب رأيي فيه اليوم، وسأل عمر الناس في حضرته، وأمره بالإجابة عن أسئلتهم. فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال سعيد بن عامر الوالي: والله إن كنت لأكره ذكره، ليس لأهلي خدم فأعجن عجيني، ثمّ أجلس حتى يختمر، ثمّ أخبز خبزي، ثم أتوضأ ثمّ أخرج إليهم. قال: فما تشكون منه؟ قالوا: لايجيب أحداً بليل. قال: فما تقول: قال: إن كنت لأكره ذكره. إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل. قال: وما تشكون، قالوا: إن له يوماً في الشهر لايخرج إلينا فيه، قال: وماتقول؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف ثم أدلكها لأخرج إليهم في آخر النهار. قال: وما تشكون منه؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام، قال: ما تقول؟ قال: شهدتُ مصرع خبيب الأنصاري بمكة قبل إسلامي، وقد بضعت قريش لحمه ثمّ حملوه على جذعه فقالوا له: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي، وأن محمداً ﷺ شيك بشوكة. ثمّ نادى: يا محمد، فلما ذكرت ذلك اليوم، وتركي نصرته في تلك الحالة وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً، قال: فيصيبني شيء من الذهول، ثمّ أفيق. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يخيب فراستي وظني فيك، فبعث إليه بألف دينار، وقال استعن بها على أمرك. فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك. فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها – يعني من يأتينا بها يوم القيامة– قالت: نعم، فدعا رجلاً من أهل بيته يثق به فصرّها صرراً ثمّ قال: انطلق بهذه إلى أرملة فلان، وبهذه إلى يتيم آل فلان، وبهذه إلى مسكين آل فلان، وبهذه إلى مبتلى آل فلان، فبقيت منها ذهبية، فقال لزوجته: أنفقي هذه، ثمّ عاد إلى عمله.

وما هو إلا قليل حتى وفد على أمير المؤمنين بعض من يثق بهم من أهل حمص، فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم كي أسد حاجتهم.

---

(١) غنط: أشرف على الهلاك ثم أفلت، والهم الشديد والمشقة.

فرفعوا كتاباً فإذا فيه: فلان وفلان، وسعيد بن عامر.

فقال: ومن سعيد بن عامر؟

قالوا: أميرنا.

قال: أميركم فقير؟!

قالوا: نعم، ووالله إنه لتمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار.

فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته، ثم عمد إلى ألف دينار فجعلها في صرة وقال: اقرؤوا عليه السلام، وقولوا له: بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حوائجك.

فأخذ الدنانير فجعلها صرراً ثم وزّعها على فقراء المسلمين كما فعل من قبل.

[صور من حياة الصحابة: ١٧-٢٥]

الأمانة في البيع والشراء

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:«اشترى رجلٌ عقاراً من رجل آخر، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرةً فيها ذهب، فقال الذي اشترى العقار: خذ ذهبك، إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر الذهب، فقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ فقال أحدهما: لي جارية، وقال الآخر لي غلام. قال انكحا الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه وتصدقا». فانصرفا راضيين.

[متفق عليه]

الفرج بعد الشدة
(عزّ الأمانة)

قال أحد التجار: قصدت الحج في بعض الأعوام، وكانت تجارتي عظيمة، وأموالي كثيرة، وكان في وسطي هميان(١)، فيه دنانير وجواهر قيّمة، وكان الهميان من ديباج أسود. فلمّا كنت ببعض الطريق نزلت لأقضي بعض شأني، فانحل الهميان من

(١) الهميان: كلمة فارسية معربة معناها النطاق الذي يُشدُّ فيه على الوسط وتُجعل فيه النقود.

وسطي، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرت عن الموضع فراسخ، ولكنّ ذلك لم يكن يؤثر في قلبي لما كنت أحتويه من غنى، واستخلفت ذلك المال عند الله إذ كنت في طريقي إليه تعالى.

ولمّا قضيت حجّي وعدت، تتابعت المحن عليّ حتى لم أملك شيئاً! فهربت على وجهي من بلدي. ولمّا كان بعد سنين من فقري أفضيت إلى مكان وزوجي معي، وما أملك في تلك الليلة إلا دانقاً(١) ونصفاً، وكانت الليلة مطيرة، فأويت في بعض القرى إلى خان خراب، فجاء زوجي المخاض فتحيّرت، ثم ولدتْ فقالت: يا هذا، الساعة تخرج روحي، فاتّخذ لي شيئاً أتقوى به، فخرجت أخبط الظلمة والمطر، حتى جئت إلى بدّال (تاجر) فوقفت عليه، فكلّمني بعد جهد، فشرحت له حالي، فرحمني.. وأعطاني بتلك القطع حلبة وزيتاً وأغلاهما، وأعارني إناء جعلت ذلك فيه، وجئت أريد الموضع، فلما مشيت بعيداً وقربت من الخان زلقت رجلي، وانكسر الإناء وذهب جميع ما فيه، فورد على قلبي أمر عظيم ما ورد عليّ مثله قط! فأقبلت أبكي وأصيح، وإذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك داره، وقال: ويلك! مالك تبكي! ما تدعنا ننام!

فشرحت له القصة، فقال: يا هذا: البكاء كلّه بسبب دانق ونصف! قال: فداخلني من الغمّ أعظم من الغم الأول، فقلت: يا هذا، والله ما عندي شيء لما ذهب منّي، ولكنّ بكائي رحمة لزوجي ولنفسي، فإن امرأتي تموت الآن جوعاً، والله لقد حججت سنة كذا وكذا وأنا أملك من المال شيئاً كثيراً، فذهب مني هميان فيه دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار، فما فكرت فيه، وأنت تراني الساعة أبكي بسبب دانق ونصف، فاسأل الله السلامة، ولا تعايرني فتبلى بمثل بلواي.

فقال لي: بالله يا رجل، ما كانت صفة هميانك، فأقبلت أبكي، وقلت: ما ينفعني ما خاطبتني به أو ما تراه من جهدي وقيامي في المطر حتى تستهزئ بي أيضاً! وما ينفعني وينفعك من صفة همياني الذي ضاع منذ كذا وكذا!

ومشيت، فإذا الرجل قد خرج وهو يصيح بي: خذ يا هذا، فظننته يتصدّق عليّ، فجئت وقلت له: أي شيء تريد؟ فقال لي: صف هميانك، وقبض عليّ، فلم أجد

---

(١) الدانق: عملة قديمة تعادل سدس الدرهم، كما تعني الساقط المهزول.

للخلاص سبيلاً غير وصفه له، فوصفته فقال لي: ادخل، فدخلت، فقال: أين امرأتك؟ قلت: في الخان، فأنفذ غلمانه فجاؤوا بها، وأُدخِلتْ إلى حرمه، فأصلحوا شأنها وأطعموها كلّ ما تحتاج إليه، وجاؤوني بجبة وقميص وعمامة وسراويل، وأدخلت الحمام سحراً، وطرح ذلك عليّ، وأصبحت في عيشة راضية. وقال: أقم عندي أياماً. فأقمت عشرة أيام، كان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير، وأنا متحير في عظيم برّه بعد شدّة جفائه.

فلمّا كان بعد ذلك قال لي: في أي شيء تتصرف؟ قلت: كنت تاجراً، قال: فلي غلاّت وأنا أعطيك رأس مال تتّجر فيه وتشركني. فقلت: أفعل، فأخرج لي مئتي دينار فقال: خذها واتجر فيها ها هنا، فقلت: هذا معاش قد أغناني به الله يجب أن ألزمه، فلزمته.

فلما كان بعد شهور ربحت فجئته وأخذت حقّي وأعطيته حقّه، فقال: اجلس، فجلست، فأخرج لي همياني بعينه وقال: أتعرف هذا؟ فحين رأيته شهقت وأغمي عليّ، فما أفقت إلا بعد ساعة! ثمّ قلت له: يا هذا، أملك أنت أم نبيّ! فقال: أنا أحفظه منذ كذا وكذا سنة، فلمّا سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته، وطالبتك بالعلامة فأعطيتها أردت أن أعطيك للوقت هميانك، فخفت أن يغشى عليك، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهتمك أنّها هبة، وإنما أعطيتكها من هميانك، فخذ هميانك واجعلني في حلّ. فشكرته ودعوت له.

وأخذت الهميان ورجعت إلى بلدي، فبعت الجوهر وضممت ثمنه إلى ما معي واتجرت، فما مضت إلا سنيّات حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالي.

[الفرج بعد الشدة: ١٧٩ - ١٨١]

قصة الهِمْيَان(١)

كان آذان الفجر يصعد من مآذن مكة في أول يوم من رمضان سنة أربعين ومائتين للهجرة. وكانت صفوف المؤمنين قائمة للصلاة، تدور بالكعبة من جهاتها كلها، وأمّ

---

(١) الهميان: كلمة فارسية معربة، معناها النطاق الذي يشد على الوسط وتجعل فيه النقود.

أهلُ مكة الحرم، ولم يبق في داره إلا شيخ في السادسة والثمانين من عمره، محطّم، ما عليه إلا قميص يشده بحبل، وقاموا للصلاة ما يستطيعون الوقوف، مما حشوا به بطونهم من طيبات الطعام، ومن كل حلو وحامض، وحار وبارد، وسائل وجامد، ووقف يصلي وما يستطيع القيام من الجوع فقد أمسك للصوم بلا سحور، ونام ليلة البارحة بلا عشاء، وأمضى أمسه من قبلها بلا عشاء...

فلما قضى صلاته قعد في بيته منكسراً حزيناً، وما كان يفكر في نفسه، فلقد طال عهده بالفقر حتى ألفه، وهون إيمانه عليه الدنيا حتى نسي نعيمها وازدراها، ولكنه كان يفكر في هذه البطون الجائعة من حوله، وهو كاسيها ومعيلها، وهذه المناكب العارية...

ولو كان في مكانه رجل آخر قاسى الذي قاساه، ورأى الأغنياء يبذرون المال تبذيراً، ويضعون الألوف في الباطل، على حين يحتاج هو إلى الدانق فلا يجده لثار على الدنيا، وذم الزمن، وحقد على الناس، ولكنه كان رجلاً مؤمناً، موقناً أن الله هو الذي قسّم الأرزاق، فأعطى - لحكمة يعرفها - ومنع، وأن الناس لا يملكون عطاءً ولا منعاً، وأن ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك، رفعت الأقلام وجفت الصحف، فقال: آه الحمد لله على كل حال.

وقام ونزع القميص، وقال: يا لبابة! فجاءت امرأة متلحفة بخرقة قذرة، فدفع إليها القميص، وأخذ الخرقة فالتفّ بها.. فقالت المرأة: يا أبا غياث، هذا ثالث يوم لم نذق فيه طعاماً، وهذا يومُ صيام وحر... فإذا صبرتَ وصبرتُ أنا فإن البنات والعجوز لا يقدرن على الصبر، وقد هدّهن الجوع، فاستعن بالله، واخرج فالتمس لنا شيئاً، فلعل الله يفتح عليك بدوانق أو كسيرات ندخرها لفطورنا. قال: أفعل إن شاء الله.

وانتظر حتى علت الشمس، وكان الضحى، فخرج يجول في أزقة مكة وطرقها، وكان الناس انصرفوا إلى دورهم ليقيلوا، فلم يلق في تجواله أحداً، واشتد الحر، وتخاذلت ساقاه، وزاغ بصره، وأحس بجوفه يلتهب التهاباً من العطش، وكان قد صار في أسفل مكة، فألقى بنفسه في ظل جدار، فوجد «هميانا» فيه الذهب، فأحس كأن جوعه وعطشه قد ذهبا، وكأن القوة قد صبت في أعصابه، والشباب قد عاد إليه... وتصور أنه سيحمل إلى نسائه الشبع والدَّعة والراحة، ورغد العيش، وجعل

يفكر فيما يشتريه لهن، وكيف يتلقين هذه النعمة التي ساقها الله إليهن حتى كاد يخالط في عقله. ثم تذكر أن هذا المال إنما هو لقطة، ولا بد له من التعريف بها سنةً، فإذا لم تجد صاحبها حلت له، وتصور السنة وطولها، وهو الذي يبحث عن عشاء يومه... وهل يبقى حيّاً سنةً أخرى؟ وهل تبقى أسرته في الحياة؟ وجعلت الأفكار تصطدم في رأسه، وتتراكض وتصطرع، حتى شعر أن عظم صدغيه سيتكسر من قرع الأفكار المتراكضة في رأسه، وطفق يسمع صوتاً يهتف به أن: أخذها، فهي رزق ساقه الله إليك، ادفع بها الموت عن بناتك اللاتي أطاف بهن الموت، ثم سمع هاتف دينه يقول له: اصبر يا رجل، لاتخن أمانتك ولا تعص ربك. وعقد العزم على الصبر، واستعان بالله، وذهب إلى داره يخبئ الهميان حتى يجيء صاحبه، أو يحكم الله فيه...

ودخل الدار متلصصاً، فرأته امرأته، فقالت: ما جاء بك يا أبا غياث؟! قال: لاشيء. قالت: بلى والله إن معك شيئاً، فما هو؟! فخاف أن تراه فيستطار لبها.. فقص عليها القصة. وكانت امرأة تقية متدينة ولكنها أضعف منه إرادة. وأوهن عزماً فقالت: افتحه وخذ منه دنانير، اشتر بها لنا شيئاً، فإننا مضطرون، والمضطر يأكل الميتة... قال: لا والله، ولئن مسسته، أو أخبرت أحداً خبره فأنت طالق. وتركها مغيظة محنقة، وخرج يبحث عن صاحبه، لعله يأخذ منه شيئاً حلالاً. يدفع به الضر عن عياله. ومشى إلى الحرم، وكان فيه شاب طبري[1] طالب علم.

قال الشاب الطبري: فرأيت خراسانياً ينادي، معاشر الحجاج، من وجد همياناً فيه ألف دينار، فردّه عليّ أضعف الله له الثواب. فقام إليه شيخ من أهل مكة كبير السن، فقال: يا خراساني، بلدنا فقير أهله شديد حاله، أيامه معدودة، ومواسمه منتظرة، ولعله يقع في يد رجل مؤمن، يرغب فيما تبذله له حلالاً، فيأخذه ويرده عليك.

قال الخراساني: يابا، وكم يريد؟

قال: العشر، مائة دينار.

قال:يابا، لا نفعل، ولكن نحيله على الله تعالى. وافترقا.

قال الطبري: (فوقع لي أن الشيخ هو الواجد للهميان فتبعته، فكان كما ظننت، فنزل إلى دار مشغولة (فيها سكان) زرية الباب والمدخل، فسمعته يقول: يا لبابة!

---

(١) هو محمد بن جرير الطبري رحمه الله.

قالت: لبيك يا أبا غياث.

قال: وجدت صاحب الهميان ينادي عليه مطلقاً. فقلت له: قيده، بأن تجعل لواجده شيئاً، فقال: كم؟ قلت: عُشْرهُ. قال: لا نفعل، ولكننا نحيله إلى الله عز وجل، فأيش نعمل؟! لا بد لي من ردِّه. فقالت له: نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة، ولك أربع بنات، وأختان، وأنا، وأمي، وأنت تاسع القوم، يا أبا غياث إن الله أكرم من أن يعاقب رجلاً يحيي هذه الانفس، إنك لم تسرقه، ولم تغصبه، ولكن الله هو الذي وضعه بين يديك، فلا ترفض نعمة أنعم الله بها عليك، إن الله يسألك عن هؤلاء النسوة. فتذكر الشيخ بناته الجائعات العاريات، ولكنه ذكر أنه صبر خمسين سنة، فما كان ليضيع ذلك كله في لذة يوم. وذكر أنه على شفير القبر، وأنه سيلقى الله (فما كان ليلقاه خائناً لأمانته) أما عياله فلهم الله، والله أرأف بهم، وأشفق عليهم، وشد من عزمه، وصاح بها: (لست أفعل، ولا أحرق حشاشتي[1] بعد ست وثمانين سنة).

قال الطبري (ثم سكت، وسكتت المرأة، وانصرفت أنا).

وأذن المغرب، وقعد الشيخ ونساؤه على كُسيرات وتمرات التقطها لهم... وقعد الناس من حولهم على موائد حافلات بشهي الطعام، تفوح من بيوتهم روائح الشواء والحلوى، يأكلونها، ويستمتعون بها، وينسون أن رمضان شهر الإنسانية والإيثار، فمن يقعد إلى مائدته الحافلة بالطعام، وجاره يتلوى من الجوع، لا يفكر فيه، ولا يشاركه طعامه فما صام ولا عرف الصيام، وإن جاع نهاره وعطش.

وأمضى الشيخ ليلته الرابعة بلا طعام، لأنه ترك الكُسيرات والتمرات للعجوز والبنات يتبلغن بها...

قال الطبري: فلما كان من الغد سمعت الخراساني يقول: معاشر الحجاج، ووفد الله من حاضر وباد من وجد همياناً فيه ألف دينار وردّه علي أضعف الله له الثواب...

فقام الشيخ إليه، فقال: يا خراساني، قد قلت لك بالأمس ونصحتك، وبلدنا والله فقير قليل الزرع والضرع، وقد قلت لك: أن تدفع إلى واجده (من وجده) مائة دينار فلعله يقع في يد رجل مؤمن يخاف الله عز وجل، فامتنعت، فاجعل له عشرة دنانير

---

(١) الحشاشة: بقية الروح في المريض.

منها فيرده عليك، ويكون له في العشرة ستر وصيانة.

فقال له الخراساني: يابا، لا نفعل ولكن نحيله إلى الله عز وجل، وافترقا.

فلما كان اليوم الذي بعده سمعت الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه، فقام الشيخ، فقال: يا خراساني قلت لك أول أمس العشر منه، وقلت لك أمس عشر العشر عشرة دنانير، فلم تقبل، فاعطه ديناراً واحداً عُشْر عُشْر العشر، يشتري بنصف دينار قربة يسقي عليها المقيمين بمكة بالأجرة، وبالنصف الآخر شاة يتخذها لعياله. قال: يابا لا نفعل ولكنّا نحيله إلى الله عز وجل.

فرأى الشيخ أن لا حيلة له فيه، وانقطع آخر خيط من حبال آماله. وتوهم حالة بناته وأختيه وزوجته وأمها... وأن هذا الخراساني منعهم ديناراً واحداً من ألف دينار يدفعون الجوع والعري والموت الكامن وراءهما. ورأى الألف كلها بيده، فحدثته نفسه بأن يمسكها، أو يدفعها إليه ناقصة ديناراً. ولكنه ذكر الله والحساب، فاستعاذ بالله من هذا الخاطر، وقال: لا والله. ولقد روي في الحديث أن «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه» فترك له الهميان، وقال للخراساني: تعال خذ هميانك. فقال له: امش بين يدي....

قال الطبري: فمشيا وتبعتهما، حتى بلغا الدار، فدخل الشيخ الدار فما لبث أن خرج، وقال: ادخل يا خراساني فدخل ودخلت، فنبش الشيخ تحت درجة له فأخرج الهميان، وقال: هذا هميانك؟ فنظر إليه، وقال: هذا همياني. ثم حل رأسه من شد وثيق، ثم صب المال في حجره وقلبه مراراً، ثم قال: هذه دنانيرنا.

وكانت لبابة والبنات ينظرن من شقّ الباب إلى الذهب الذي نسين لونه وشكله، وحسبنه قد فقد من الأرض، وأعاد الرجل الذهب إلى الهميان وشدّه، ووضعه على كتفه، وقلب حلقاته فوقه وخرج، ولم ينظر في وجه الشيخ، ولم يلق له كلمة شكر....

وأحست لبابة كأنه اختطف وحيدها، وكأن شعبة انخلعت من قلبها، فطارت وراءه، وشُدِه البنات، ولبثن مفتوحات الأشداق دهشةً وذهولاً... فلما ابتعد وأيسْنَ منه سقطنَ على وجوههن من الجوع والضعف واليأس....

وسمع الشيخ حركة، فنظر فإذا الخراساني قد رجع... فرفع إليه رأسه ينظر ماذا يريد، فقال الخراساني: يا شيخ، مات أبي وترك ثلاثة آلاف دينار فقال: أخرج ثلثها ففرقه في أحق الناس عندك له، وبع رحلي واجعله نفقة لحجك، ففعلت ذلك وأخرجت ثلثها ألف دينار، وشددته في هذا الهميان، وما رأيت مذ خرجت من خراسان إلى الآن من هو أحق به منك، فخذه بارك الله لك فيه.

قال الطبري: وكنت قد ذهبت فما راعني إلا الشيخ يسرع فيدعوني، فرجعت إليه، فقال لي: لقد رأيتك تتبعنا من أول يوم، وعلمت أنك عرفت خبرنا، وقد رووا أن النبي ﷺ قال لعمر وعلي رضي الله عنهما: «إذا أتاكم الله بهدية بلا مسألة ولا استشراف نفس فاقبلاها، ولا ترداها، فترداها على الله وهي هدية الله» والهدية لمن حضر، فسر معي. فسرت معه، فقال لي: إنك لمبارك، وما رأيت هذا المال قط، ولا أملته قط، أترى هذا القميص؟ إني والله لأقوم سحراً فأصلي الغداة فيه، ثم أنزعه فتصلي فيه زوجتي وأمها، وبناتي، وأختاي، واحدة بعد الواحدة، ثم أمضي بعد لبسه فأكتسب إلى ما بين الظهر والعصر، ثم أعود بما فتح الله به علي من تمر وكسيرات كعك، فنتداول الصلاة فيه، حتى وصلنا إلى الدار نادى: يا لبابة، يا كسيتنة، يا فلانة وفلانة. حتى جئن جميعاً فأقعدهن عن يمينه، وأقعدني عن شماله، وحل الهميان، وقال: أبسطوا حجوركم. فبسطت حجري. وما كان لواحدة منهن قميص له حجر تبسطه، فمددن أيديهن، وأقبل يعد ديناراً ديناراً، حتى إذا بلغ العاشر قال: وهذا لك، حتى فرغ الهميان، فنال كل واحدة منهن مائة دينار، ونالني مائة دينار.

ولما أذن المغرب، وحفّ نساء الشيخ بمائدة كموائد الناس، عليها الطيبات من الطعام، قال لامرأته: أرأيت يا لبابة؟ إن الله لايضيع أجر الصابرين، إن الله هو أرحم الراحمين يا لبابة، لقد منعنا أنفسنا ديناراً حراماً فجاءنا الله بألف دينار حلالاً. وأكل الشيخ لقيمات، ثم قام ليخرج فقالت له امرأته: إلى أين يا أبا غياث؟ قال: أفتش في الناس، فلعلي أجد فقيراً صائماً لا يجد ما يفطر عليه فنشركه في طعامنا....

ذيل القصة:

قال الشيخ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري:

وقد نفعني الله بهذه الدنانير فتقوّتُّ بها، وكتبت العلم سنين، وعدت إلى مكة بعد ست عشرة سنة، فوجدت البنات ملكات تحت ملوك، وعلمت أن الشيخ قد توفي بعد ما فارقته بشهور، فكنت أنزل على أزواجهن وأولادهن، فأروي لهم القصة ويكرمونني غاية الإكرام.

وسألت عنهم بعد ذلك بأربعين سنة فعلمت أنه لم يبق منهم أحد. رحمة الله عليهم جميعاً.

[علي الطنطاوي: مجلة الرسالة ع٦٨٣ ص٨٥، وانظر صفة الصفوة: ٢/ ١٧٢]

أعْطِيك من مالِي إنْ شِئْتِ

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، أتت عمة له إلى زوجته فاطمة فقالت: إني أريد كلام أمير المؤمنين، قالت لها: اجلسي حتى يفرغ فجلست، فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجاً فقالت لها فاطمة: إن كنت تريدينه فادخلي عليه الآن، فإنه إذا كان في حوائج العامة كتب على ضوء الشمع، وإذا صار في حاجة نفسه دعا بسراجه. فقامت فدخلت عليه، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت وهو يتعشى، فقالت: يا أمير المؤمنين أتيتُ لحاجةٍ لي، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي، قال: وما ذاك يا عمة؟ قالت: لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا وأجود؟ قال: ليس عندي يا عمة ولو كان لفعلت. قالت: يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يُجْري علي[1] كذا وكذا، ثم ولي الوليد فزادني ثم صار الأمر إلى سليمان فزادني، ثم وليت أنت فقطعته عني. قال: يا عمة إن عمي عبد الملك وابنه الوليد وكذا سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين، وليس ذلك المال لي فأعطيك، ولكني أعطيك من مالي إن شئت. قالت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: عطائي (راتبي) مئتا دينار، فهل لك فيه؟ قالت: وما يبلغ مني عطاؤك؟ قال: فلست أملك غيره يا عمة، فانصرفت عنه.

[قصص العرب: ١/ ٢٣٧]

الشمعة والسراج

وفد على عمر بن عبد العزيز رسول من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلاً، فقرع الباب، فخرج إليه البوّاب، فقال له: أخبر أمير المؤمنين أن بالباب رسولاً من فلان عامله، فدخل وأخبر عمر وكان أراد أن ينام فقعد، وقال: ائذن له. فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة وأوقد عليها ناراً، وأجلس الرسول، وجلس عمر، فساله عن حال أهل البلد ومَنْ بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل فيهم؟ وكيف الأسعار؟ وكيف أبناء المهاجرين والأنصار، وأبناء السبيل، والفقراء؟ وهل أعْطي كل ذي حق حقه؟ وهل له شاكٍ؟ وهل ظلم أحداً؟ فأنبأه بجميع ما

---

(١) يجري علي: يعطيني جراية أي راتباً.

علم من أمر تلك الولاية، حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له: يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل بيتك ومن تعنى بشأنه؟ فنفخ عمر على الشمعة فأطفأها بنفخته، وقال: يا غلام عليّ بسراجي، فأتى بفتيلة لا تكاد تضيء، فقال: سل عما أحببت، فسأله عن حاله، فأخبره عن حال ولده وأهل بيته، فعجب الرسول للشمعة وإطفائه إياها، وقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلت أمراً ما رأيتك فعلت مثله! قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك. فقال: يا عبد الله، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألك من حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشمعة تقد بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم، فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين، وأوقدت شمعتي التي هي خاصتي.

[قصص العرب: ١/ ٢٣٨]

وأين الله!!

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرسنا(١) في بعض الطريق، فانحدر بنا راع من الجبل فقال له: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم.

فقال: إني مملوك.

فقال - اختباراً له -: قل لسيدك أكلها الذئب.

فقال الراعي: وأين الله؟!

فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال:

أعتَقَتْكَ في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

[الإيمان والحياة: ٢٠٠]

---

(١) عرسنا: من أعرس المسافرون إذا نزلوا آخر الليل للراحة.

ويؤثرون على أنفسهم / ١
(الرأس المشوي)

ذكر الغزالي في «الإحياء» عن عمر بن الخطاب قال: أُهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة فأعطاه لولده وقال: يا بني اذهب به إلى جارنا فلان، فهو أحوج منا إليه، فما لبث أن بعث به هو أيضاً إلى آخر يراه أحوج منه إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة!

[الإيمان والحياة: ٢٠٧]

ويؤثرون على أنفسهم/ ٢
(صائمة نسيت فطورها)

بعث معاوية بن أبي سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة رضي الله عنها وكانت صائمة، وعليها ثوب خَلَقٌ، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولم يتبق منه شيء فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين ما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم نفطر عليه؟

فقالت: يا بنيه لو ذكرتني لفعلت!

فآثرت غيرها ونسيت نفسها في سبيل إسعاد الآخرين من جيرانها وأبناء مجتمعها المسلم، وليس في بيتها ما تفطر عليه غيره، آثرت بمئات الألوف من الدراهم دون أن تذكر بطنها الجائع، ولا ثوبها الخلق.

[الإيمان والحياة: ٢٠٥]

ويؤثرون على أنفسهم / ٣
(التكافل والرحمة)

قال محمد بن إسحاق: «كان أناس بالمدينة يعيشون ولا يدرون من أين يعيشون؟ ومن يعطيهم؟ فلما مات زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره

وأكتافه أثر حمل الجراب (أي الكيس) إلى بيوت الأرامل والمساكين».

وكان الليث بن سعد ذا غلّة سنوية تزيد على سبعين ألف دينار، يتصدق بها كلها، حتى قالوا إنه لم تجب عليه زكاة قط، واشترى مرة داراً بيعت بالمزاد، فذهب وكيله يتسلمها فوجد فيها أيتاماً وأطفالاً صغاراً، فسألوه بالله أن يترك لهم الدار، فلما بلغ ذلك الليث أرسل إليهم أن الدار لكم، ومعها ما يصلحكم كل يوم.

[الأخوة الإسلامية: ٢٥، راجع سيرة ابن اسحق]

ويؤثرون على أنفسهم / ٤
(الفقير أولى من الحج)

كان عبد الله بن المبارك الإمام الكبير المحدث كثير الصدقات، تبلغ صدقاته في السنة أكثر من مائة ألف، خرج مرة إلى الحج مع أصحابه فاجتاز بعض البلاد فماتت دجاجة، فأمر بإلقائها على مَزْبَلةٍ هناك، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مرّ بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت تلك الدجاجة الميتة، فسألها عن ذلك فأخبرته أنها وأخاها فقيران لا يعلم بهما أحد، ولا يجدان شيئاً، فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال له: عُدّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى «مرو»[1]، وأعطها الباقي أفضل من حجنا في هذا العام ثم رجع فلم يحج!!

[إيقاظ أولي الهمم العالية: ١٩٦]

تُجّارُ الآخرة / ١
(لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا)

يروي الإمام الغزالي عن محمد بن المُنكدر إنه كان له شقق[2] بعضها بخمسة دراهم وبعضها بعشرة، فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقه من الخمسيات بعشرة، فلما

(١) مرو: المدينة التي كان يقيم فيها عبد الله بن المبارك، وهي مدينة في منطقة تركمانستان، فتحها المسلمون سنة ٦٥١هـ، وتسمى اليوم «ماري».

(٢) شقق: مفردها شقة، وهي القطعة المستطيلة من القماش.

عاد ابن المنكدر وعرف ما صنع غلامه مع الأعرابي، لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده فقال له: إن الغلام قد غَلَط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة.

فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال: وإن رضيت فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إمّا أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإمّا أن نردّ عليك خمسة، وإمّا أن تردّ شقتنا وتأخذ دراهمك. فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابي.

[الإيمان والحياة: ٣٠٢]

تُجّارُ الآخرة / ٢
(جاري أحقُّ بأن تشتري منه)

يذكر الأستاذ أبو الحسن الندوي في مقالة له فيقول:

«حدثني بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في الحجاز أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم، والنظر في مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار وقد باع ما يكفيه لقوت يومه وما حدده من الربح والوارد، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم، قال له في لطف وهدوء: دونك هذا الدكان الذي هو بجواري! تجد عنده ما تجد عندي، وقد لاحظت قلّة الزبائن عنده هذا اليوم، فهو أحقّ بأن تشتري منه».

ومما يضارع هذا الخبر ما يتحدث به الأستاذ محمد أسد (النمساوي) عن مدينة إسلامية عربية كبيرة هي «دمشق» فيذكر انطباعاته كما يلي:

«وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يُرى في الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعامل بها بعضهم بعضاً، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة، الذين لا ينادون المارة، أولئك كانوا – فيما يبدو- وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد، حتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره، مزاحمه في التجارة، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيما بينه

وبين نفسه، ما إذا كان ينتظر عودة البائع، أو ينتقل إلى الدكان المجاور، فيتقدم التاجر المجاور –التاجر المزاحم– ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة– لا بضاعته هو، بل بضاعة جاره الغائب– ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟

[الطريق إلى مكة: ٧٦١ باختصار]

القوي الأمين

بينما كان سيدنا عثمان بن عفان يجلس مع أصحاب له في داره ذات يوم صائف شديد الحر.. إذ شاهدوا على البعد رجلا يسوق جملين بكرين.. فقال لأصحابه:

ما على هذا الرجل.. وهو يسوق البكرين.. في هذه الظهيرة الملتهبة، لو أقام بالمدينة حتى يبرد الجو.. ثم يروح..

ودنا الرجل.. والجمع يحدقون فيه.. وسأل عثمان أصحابه: انظروا من يكون.. إني اراه.. طويلا.. عريضا فارعا.. معمما.. وإنه لأشبه الناس بالخليفة أمير المؤمنين عمر.

ويدنو الرجل أكثر.. ويصيح الناس: نعم إنه والله أمير المؤمنين عمر.. ويخرج عثمان من داره فإذا لفح السموم تهب عليه فيقول لعمر: ما أخرجك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين.

فيقول عمر:

بكران من إبل الصدقة تخلفا، وقد مضي بإبل الصدقة، فأردت أن الحقهما الحمي.. وخشيت أن يضيعا فيسألني عنهما الله.

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه رأيت عمر بن الخطاب.. يعدو.. فقلت يا أمير المؤمنين أين تذهب.

فقال:

– بعير فر من إبل الصدقة أطلبه.. فقلت: يا أمير المؤمنين، لقد اتعبت من بعدك. فقال عمر: فوالذي بعث محمدا بالنبوة..

– لو أن عنزا ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة.

– وعندما تحدث عثمان مع علي.. فيما شاهدا من عمر، قال علي لعثمان: أما

سمعت قول ابنة شعيب في كتاب الله عز وجل. بسم الله الرحمن الرحيم (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) صدق الله العظيم.

- وأشار علي إلى عمر وقال: هذا القوي الأمين..

لا تخفى على الله خافية

ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى في خلافته عن مذق اللبن بالماء، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة، فإذا بامرأة تقول لابنة لها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟

فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟

فقالت: قد مذق الناس فامذقي، فما يدري أمير المؤمنين؟

فقالت: إن كان عمر لا يعلم، فإله عمر يعلم، وما كنت لأفعله، وقد نهى عنه.

فوقعت مقالتها من عمر، فلما أصبح دعا عاصماً ابنه، فقال:

يا بني، اذهب إلى موضع كذا وكذا، فاسأل عن جارية – ووصفها له – فذهب عاصم إ فإذا هي جارية من بني هلال، فقال له عمر: اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب، فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، فأتت بعمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى.

[سيرة بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم: ٢٢- ٢٣]

☆ ☆ ☆

الباب العاشر
في العفة ومغالبة الشهوة

أبو اليسر والمرأة العفيفة

في إحدى القرى الصغيرة رأى الناس (فيناً) حداداً يحمي قضبان الحديد على النار حتى يصير الحديد كالجمر لشدة حراراته، فيمسكه بيده المجردة (بدون واق) فوقفوا ينظرون إليه مذهولين متعجبين منه، كيف يمسك الحديد الملتهب ولا يحرقه؟!

فقالو له: ننشدك الله إلا أخبرتنا عن أمرك يا رجل؟

فقال: هذه دعوة امرأة صالحة عفيفة.

قالوا: وكيف ذلك بالله عليك؟

قال: كنت فيما مضى من عمري تاجراً، وكان دكاني في بلد صغير كهذا البلد الذي تعيشون فيه ومعظم أهله فقراء، وكانت أموالي كثيرة وبضاعتي رائجة، فجاءتني امرأة أرملة وهي جارة لي، وعندها صبية صغار أيتام، وكانت فقيرة الحال ولكنها على قدر كبير من الجمال، فاستقرضتني مالاً تستعين به في إطعام أطفالها وكسوتهم، فوافقتها إلى طلبها ولكني اشترطت عليها أن تُمَكّني من نفسها، فثارت ثائرتها وكادت أن تضربني ووبختني وخرجت غاضبة تُتمتم بكلام لا أفهمه.

وذهبت تبحث عمن يقرضها ما يُعينها على سد حاجتها وسد رمق أطفالها الصغار فلم تجد، وانتظرت أياماً ثم عادت إليّ مضطرة، وكانت تبدو عليها علامات الألم والانكسار والارتباك وقالت: يا أبا اليسر، اتق الله وارحم ضعفي، فقلت لها إلا أن تمكنيني من نفسك، فأبت. وصبرت أياماً، ولما لم تجد من يجيبها إلى طلبها عادت إليَّ مكرهة تكاد تخنقها العبرات، فوقفت على باب دكاني وهي تبكي وتقول: اتق الله يا أبا اليسر وارحم ضعفي فإن أطفالي يموتون جوعاً، فقلت لها: لا بد أن تمكنيني من نفسك. فبكت بكاءً شديداً ولكنها تحت ضغط الحاجة والعوز وعضة الجوع

قبلت. فقلت لها: ادخلي إلى داخل الحانوت(١) كي لا يرانا أحد. فاغلقتُ الأبواب وتهيأت لها، فقالت: هل أغلقت الأبواب جيداً يا أبا اليسر؟ قلت: نعم، لقد أغلقتها جميعها بإحكام، فقالت: هناك باب لم تغلقه، قلت: أي الأبواب؟ قالت: إنه باب الله، فإنك لا تستطيع أن تغلقه، إنه الله الذي يراك وأنت تنتهك محارمه، وهو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو لا بد سائلك عنيّ يوم الوعيد.قال: فبردت الشهوة في جسمي، فاستغفرت ربي وتراجعت عما أنا مقدم عليه، وقلت لها: يا أخية خذي ما شئت من مالي وادعي الله لي واكتمي أمري. فسُرتْ سروراً عظيماً ورفعت يديها إلى السماء وقالت: اللهم حرّم عليه النار في الدنيا والآخرة.

ثم أخذت ما يسد حاجتها وخرجت شاكرة. وها هي دعوتها قد نفعتني في الدنيا كما ترون من قبضي على الحديد الساخن، وأسأل الله أن تنفعني دعوتها في الآخرة.

[المواعظ والمجالس: ١٥٩]

دقة بدقة

يحكى أن خياطاً كان يعيش في قرية صغيرة، فجاءه صديق له يحمل بيده قطعة قماش، فقال له: اصنع لي من هذا القماش ثوباً، فإذا فرغت من صنع الثوب أرجو أن ترسله مع زوجتك أو أحد أبنائك إلى زوجتي، فأنا على سفر الآن ولن أعود قبل أسبوعين على الأقل، ومضى.

لكن الخياط طمع في رؤية زوجة صاحبه، وحدثته نفسه بسوء، وقال في نفسه: لماذا لا أذهب أنا إليها وأعطيها الثوب فلعلي..

فأسرع بحياكة الثوب وذهب إلى بيت صديقه، وناداها، فلما طلعت عليه قال لها: هذا الثوب لزوجك أبي فلان، جاء إلي بقطعة قماش قبل أن يسافر وطلب مني أن أصنع له ثوباً. فلما تناولته غمزها في يدها، فغضبت وبصقت في وجهه وشتمته، فعاد إلى بيته خاسئاً يمسح عن وجهه آثار البصاق.

ولما وصل إلى بيته وجد زوجته ثائرة منفعلة تشتم وتلعن، فسألها ما الأمر؟ قالت:

(١) الحانوت: الدكان.

جاء السقا[١] قليل الحياء، ولما ناولني جرة الماء غمزني في يدي، قال: متى حدث هذا؟ قالت: قبل قليل. (أي في الوقت نفسه الذي كان يغامز فيه زوجة صديقه) فهز رأسه وقال: دقة بدقة ولو زدنا لزاد السقة[٢].

أترضاه لأمك؟

جاء شاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ذات يوم ودماء الشهوة ثائرة في عروقه، وكان النبي ﷺ جالساً بين أصحابه، فقال الشاب: ائذن لي بالزنا يا رسول الله؟ فثار الجالسون حول النبي ﷺ، وفارت دماء الغضب في عروقهم، فجلس الرسول عليه الصلاة والسلام في هدوء يرسل الحكمة كما يرسل القمر ضوءه، وأمر أصحابه أن يهدؤوا، ثم دعا الشاب إليه، فجاء وجلس أمام الحضرة النبوية الكريمة، وفي هدوء الأستاذ مع التلميذ وفي حكمة الطبيب مع المريض، قال الرسول عليه الصلاة والسلام للشاب: ما تريد يا فتى؟

فقال: ائذن لي بالزنا يا رسول الله؟ فقال له النبي ﷺ: يا فتى أترضاه لأمك؟ فقال الفتى: لا يا رسول الله جعلني الله فداك، فقال النبي: وكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم. ثم قال: أترضاه لأختك؟ قال: لا يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال الرسول: وكذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم. ثم أخذ يسأله: أترضاه لعمتك؟ أتراضاه لخالتك؟ وفي كل مرة يقول لا يا رسول الله جعلت فداك، والرسول يقول له: وكذلك الناس لا يرضونه لعماتهم وخالاتهم وقريباتهم. ثم قال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله، فدعا النبي الكريم الله له قائلاً: «اللهم حصّن فرجه، وطهر قلبه، واغفر ذنبه». ومسح على صدره.

فقال الشاب: خرجت من عند رسول الله ﷺ وليس على وجه الأرض أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا شيء أبغض إليّ من الزنا.

[مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/ ١٣٤]

---

(١) السقاء: الذي يجلب الماء من البئر أو النبع ويبيعه للقاطنين في البيوت ونحوها، وهي سقاءة وسقاية.

(٢) السقة: تحريف من السقاء لمناسبة السجع.

تطاول هذا الليل واسوَدَّ جانبه

بينما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير ذات ليلة في شوارع المدينة وطرقاتها إذ سمع في ظلام الليل امرأة تنشد:

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرّقني[1] ألا حبيباً لاعبه

فوالله لولا الله تُخشى عواقبه لحرّك من هذا السرير جوانبه

فأدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مغزى كلامها وعلم أن زوجها غائب عنها، وهي تشكو من طول غيابه، فذهب إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بنته وزوجة رسول الله ﷺ وقال لها: يا بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فاستحيت حفصة أن ترد على أبيها، فقال لها: يا بنية ارحمي أباك. فأشارت بأصابعها الأربعة واستحت أن تنطق بلسانها، ثم قالت له اقرأ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

وحفصة رضي الله عنها كانت تحفظ القرآن الكريم، وهي أول من كتب المصحف الشريف بيده.

وبعد ذلك سأل أمير المؤمنين عن زوج هذه المرأة، فقيل له أنه جندي مقاتل على الجبهة الفارسية. فكتب إلى قادته أن لا يغيب الجنود المقاتلون عن زوجاتهم أكثر من أربعة أشهر. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من سن نظام التدوير على جبهات القتال.

[بتصرف عن أخبار عمر: ٣٥٣]

عُدْ يا فيروز إلى بستانك

حكي: أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج ويتأمل الطبيعة والناس، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره، لم ير الراؤون

---

(١) أرقني: امتنع علي النوم ليلاً.

أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: من هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى فيروزاً وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال:خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية، وائتني بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً في حاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك. وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعاً وتوجه متخفياً إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك أنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني، فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ ... وذاك لكثرة الورّادِ فيه
إذا سقط الذبابُ على طعامٍ ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسودُ ورود ماءٍ ... إذا كان الكلابُ ولَغْنَ فيه
ويرتجع الكريمُ خميصَ بطنٍ ... ولا يرضى مساهمةَ السفيه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شفّه الغرامُ بنا ... صاحبُ الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائلَ أبداً ... قد أكلَ الليثَ فضلةَ الذيب

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها.

هذا ما كان من أمر الملك. وأما ما كان من أمر فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فاشتم في البيت رائحة الطيب الذي يتطيب به الملك، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار،

فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة وجاء بها إلى زوجته، فسلم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك، قالت: حباً وكرامةً، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهراً، فلم يذكرها زوجها ولا ألمَّ بها، فأتى إليه أخوها، وقال له: يا فيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم فافعلوا، فما تركتُ لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم أليك البستان كما قال؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده، قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرّمت دخول البستان إكراماً للأسد، قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً، ولا ألتمس منه ورقا، ولا ثمراً ولا شيئاً، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، ووالله ما أريت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره، فرجع فيروز إلى داره ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك.

[ثمرات الأوراق: ٣٣٩]

من ترك الحرام لله ناله بالحلال

جاء عن الأمير بدر الدين يوسف المهمندار ابن الأمير سيف الدين أبي المعالي ابن رماح المعروف بمهمندار العرب قال: حكى لي الأمير شجاع الدين محمد الشرزي متولي القاهرة في الأيام الكاملية سنة ثلاثين ومائة، قال: بينما أنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد، فضيفنا وأكرمنا وكان الرجل أسمر شديد السّمرة وهو شيخ كبير، وحضر له أولاد حسان فيهم صفاء لون، فقلنا: يا فلان هؤلاء أولادك بيض وأنت

شديد السّمرة؟! فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية، أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب نوبة حطين، فقلنا: وكيف أخذتها؟ فقال: لها حديث عجيب، فقلت: أتحفنا به. فقال: زرعت كتاناً في هذه البلدة وقلعتهُ ونفضتُه فانصرف عليه خمس مائة دينار، فلم يُجب أكثر من ذلك، فأشير عليّ بحمله إلى الشام، فحملته فلم يجب أكثر من ذلك! فقيل لي: بعه صبراً أي ديناً إلى أجل لعله يرجع لك حق الطريق، فبعت بعضه صبراً إلى ستة أشهر.

فبينما أنا أبيع وقد مرّت بي امرأة إفرنجية زوج بعض الخيالة، ونساء الفرنج يمشين في الأسواق بلا نقاب، فأتت تشتري مني كتاناً، فرأيت من جمالها ما أبهرني فبعتها وسامحتها، ثم انصرفت وعادت إليّ بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من المرة الأولى، فتكررت زيارتها إلي وعلِمَت أني أحبها، فقلت للعجوز التي معها: إنني قد تعلقت بحب هذه الفتاة فكيف تتحيلين لي؟ فأخبرتها بأمري، فقالت: تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو. فقلت لها: إذا ذهبت روحي باجتماعي بها ما هو كثير، وحكت لي كلاماً كثيراً جرى بينهما. واتفق الحال على أن أدفع لها خمسين. ديناراً صورية، نسبة لموضع ضربها، وهي وافية الوزن وتجيء إليّ، قال: فأحضرت خمسين ديناراً صوريّة وسلمتها للعجوز فقالت: هيّئ لنا موضعك ونحن الليلة عندك. قال: فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلوى، وكانت داري مطلة على البحر، وكان الوقت صيفاً ففرشت على سطح الدار، وجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا، وجنّ الليل فنمنا تحت السماء ووالقمر يضيء علينا، والنجوم تنظر في البحر، فقلت في نفسي: أما تستحي من الله وأنت غريب، وتحت السماء، وعلى بحر، وتعصي الله مع نصرانية، فتستوجب عذاب النار وعذاب الدنيا، اللهم إني أشهدك أني قد عففت عن هذه النصرانية في هذه الليلة حياءً منك وخوفاً من عقابك، ثم نمت إلى الصبح. فقامت في السحر وهي غضبى ومضت، ومضيت إلى حانوتي فجلست فيه، فإذا هي قد عبرت عليّ هي والعجوز وهي مغضبة، وكأنها القمر، فهلكت وقلت في نفسي: من أنت حتى تترك هذه الجارية؟! أنت الجنيد أو السَّري السقطي! ثم لحقت بالعجوز وقلت: ارجعي، فقالت: وحق المسيح ما نرجع إليك إلا بمائة دينار، فقلت: نعم، ومضيت إلى حانوتي، وجاءت إليّ مرة ثانية، فلحقتني تلك الفكرة الأولى، وعففت عنها وتركتها لله تعالى.

ثم مضت ومضيت إلى موضعي، ثم عبرت عليّ وكلمتني وكانت مستغربة قالت: وحق المسيح ما بقيت تفرح بي عندك إلا بمائة وخمسين ديناراً أو تموت كمداً، فارتعت لذلك، وعزمت أني أغرم ثمن الكتان جميعه وأفدي نفسي. فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي: معاشر المسلمين إنّ الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى الجمعة، ليقضوا أمورهم وينصرفوا إلى بلادهم، فانقطعت عني، وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه. وأخذت معي بضاعة حسنة، وخرجت من عكا وأنا في قلبي من الافرنجية ما فيه، فوصلت إلى دمشق وبعت البضاعة التي لي بأوفى ثمن لانقطاع وصولها بسبب فراغ الهدنة، ومنّ الله عليّ بكسب جيّد، وأخذت أتجر بالجواري عسى أن يذهب ما بقلبي من الافرنجية، ولازمت التجارة فيهن.

فمضى عليّ ثلاث سنين، وجرى للسلطان الناصر ما جرى: وقعة حطين وأخذه جميع الملوك، وفتحه بلاد الساحل بإذن الله تعالى، فطلب مني جارية للملك الناصر وكان عندي جارية حسنة، فاشتريت له بمائة دينار فأوصلوا لي تسعين ديناراً، وبقيت عشرة دنانير فلم يجدوها في الخزنة ذلك اليوم، لأنه أنفق الأموال جميعها.

فشاوروه على ذلك، فقال: امضوا به إلى الخزانة التي فيها السّبي من نساء الفرنج، فخيروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التي له، فأتيت الخزانة فنظرت إليها فعرفت الجارية الافرنجية غريمتي، فقلت: أعطوني هاتيك، فأخذتها ومضيت بها إلى خيتمي، وقلت لها: أتعرفينني؟ قالت: لا. فقلت: أنا صاحبك التاجر في المكان الذي جرى له معك ما جرى، وأخذت مني الذهب، وقلت: ما بقيت تبصرني إلا بخمسين ومائة دينار وقد أخذتك ملكاً بعشرة دنانير. قالت: مدّ يدك: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فأسلمت وحسن إسلامها، فقلت: والله لا وصلت إليها إلا بأمر القاضي، فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ما جرى، فعجب وعقد لي عليها، وباتت تلك الليلة فحملت، ثم دخل العسكر فأتينا إلى دمشق فما كان إلا شهور قلائل حتى أتى رسول الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك، فردّ من كان أسيراً من الرجال والنساء، ولم يبق إلا امرأة الفارس التي

مكتبة الرمحي أحمد

عندي. فسألوا عنها وألحّوا في السؤال والكشف، فوشي[1] بها أنها عندي، فَطلبت مني، وحضرتُ وأنا في شدة وقد تغير لوني. فقالت: ما بدا لك؟ وما الذي أصابك؟ قلت: جاء رسول الملك وأخذوا الذي أقول لهم. قال: فأخذتها وأحضرتها قدام السلطان الناصر والرسول جالس عند يمينه، فقلت: هذه المرأة التي عندي. فقال لها والملك والرسول: تروحين إلى بلادك أم إلى زوجك؟ فقد فك أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وحبلت، وها بطني كما ترونه، فقال لها الرسول يخبرها: أيها أحب إليك هذا المسلم أم زوجك الفارس فلان؟ فقالت له كما قالت للسلطان، فقال الرسول لمن معه من الفرنج: اسمعوا كلامها. ثم قال لي الرسول: خذ امرأتك وامض، فوليت بها، وقد أرسل إلي عاجلاً وقال: إن أمها أرسلت لها وديعة، وقالت: إن ابنتي أسيرة، وهي عريانة شعثة، وتشتهي أن ترسل لها هذا الجمدان يعني الصندوق وتسلمه لها. قال: فتسلمت الجمدان ومضينا إلى الدار، ففتحته فوجدت قماشها بعينه، وقد صرته لها أمها، ووجدت صُرتي الذهب: الخمسين ديناراً والمائة دينار كما هما، بربطتي لم يتغيرا، وهؤلاء الأولاد منها، وهي التي صنعت هذا الطعام.

[مطالع البدور: ١/ ٢٢٧]

قصة يوسف عليه السلام

(١)

تنفس الصباح، واستيقظ يوسف من نومه على حلم عذب جميل، وجاء إلى أبيه مشرق الوجه، منبسط الأسارير. وقال: يا أبت، إني رأيت ليلة أمس رؤيا جميلة، ضاءت لها جوانب نفسي، وانشرح لها صدري (رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين).

فتهلل وجه يعقوب وأشرق جبينه، ووضح البشرُ بين عينيه وقال: يا بني، إنها رؤيا صادقة تظاهر ما توسمته فيك من فضل، وما رجوته لك من خير، إنها بشرى بما سيخصك به الله من علم، وما سيحبوك به من نعمة يتمها عليك، كما أتمها على

(١) وشي بها: من الوشاية، نمّ بها وسعى.

أبويك إبراهيم واسحاق من قبل، ولكن لا تقصص رؤياك على إخوتك، فقد عرفت غيرتهم مما أخصك به وأخاك من رعاية، وأؤثركما من إعزاز، هم اليوم حديثهم عنكما همس، وذكركما على ألسنتهم تعريض، ولو أنك حدثتهم برؤياك لا تأمن أن تشعل حقدهم، وتثير كامن كراهتهم، فيدبروا لك كيداً، أو ينصبوا لك حبائل المكروه، وما أسرع أن يشد الشيطان أزرهم، ويشحذ في الشر عزائمهم!

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعاً، وضيء الطلعة، مليح الهيئة، فتان المشاهدة. ماتت أمة راحيل(١) وتركته وأخاه بنيامين في الثامنة عشرة من عمره، أشد ما يكونان حاجة إلى قلبها الرؤوم، وصدرها العطوف. ولهذا آثرهما يعقوب عليه السلام بالحب، وخصهما بفضل وحنان، ثم جاءت هذه الرؤيا مذكية لهذا الحب، مضاعفة لهذا الحنان، ولم تخف على إخوة يوسف منزلته ومنزلة أخيه عند أبيهم وإن تحوّط في الكتمان وتظاهر بحب الجميع.

فسرى إليهم داء الحسد، وهاجت الغيرة وثار الحقد، واجتمعوا في ناد، وتشاوروا فيما يصنعون! قال قائل منهم: ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا، وأقرب إليه منا جميعاً! وبعد حوار ونقاش رأوا أن يقتلوه ويمحوا آثاره، قال يهوذا وكان من أحسنهم رأياً، وأرجحهم عقلاً: نحن أبناء يعقوب الرسول وأحفاد إبراهيم الخليل، ولنا عقل ودين، والقتل لا يقره العقل، ويأباه الدين، ويوسف غلام بريء، لم يجن إثماً، ولم يرتكب جرماً ولم يقدم سوءاً، ولكنكم إذا كنتم مجمعين له إبعاداً، فهذا الجب الذي ببيت المقدس، ملتقى الغادي والرائح، ألقوه فيه يلتقطه بعض القوافل السيارة، فيذهبوا به إلى حيث شاؤوا وحينئذ نكون قد نلنا ما نرجوه من إبعاد ليوسف وخلصنا من إثم القتل وعاره.

فاستجابوا لهذا الرأي، وبيتوا أمرهم على ذلك!

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى أبيهم، والهوى يزين لهم ما يصنعون، والشيطان يحفزهم وهم يمكرون، وقالوا: يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف، وهو أخونا وبضعة منا، ونحن جميعاً أبناؤك! هلا ترسله معنا غداً فبينما نحن نرعى الغنم،

---

(١) قيل لم تكن قد ماتت بعد، لأن ظاهر القرآن يقضي بذلك لقوله تعالى: (ورفع أبويه على العرش) وقيل بل ماتت والمقصود من أبويه أبوه وخالته، لان الخالة بمنزلة الأم والله أعلم بالصواب.

ونتعهد الأرض، يلعب هو ويركض، ويعود آخر النهار أصح جسماً، وأصفى نفسا!!

قال يعقوب - وقد حذر العاقبة، وأشفق من وقوع المكروه -: إنه لمما يبعث همي، ويثير أحزاني أن أرى يوسف بعيداً عن عيني وقلبي، وإني لأخشى أن تذهبوا به فيصادف الذئب منكم غفلة، أو ينتهز فرصة فيقتله ويأكله، وحينئذ تخلّفون لي حزناً طويلاً، وقلباً لهيفاً، وعيناً عبرى. قالوا: أيأكله الذئب ونحن عصبة ليس فينا ضعيف! لئن وقع ما تحذر إنا إذاً لخاسرون. قال يعقوب: أما على أن تحوطوه بقلوبكم، وتلحظوه بعيونكم، فدونكم وما تريدون، والله من ورائكم محيط.

وأصبح الصباح وصحبهم يوسف، وأخذوا طريقهم إلى الجب، وما أن وصلوا إليه حتى تكشفت نياتهم، وبرزت أحقادهم، وغلظت أكبادهم، وقست قلوبهم فجرّدوه من قميصه، وربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فصعد على صخرة فيه ووقف فوقها، وحسبوا أنهم بذلك شفوا غيظ صدورهم، أو أطفؤوا وقدة أحقادهم، وأن قلب أبيهم سيخلوا لحبّهم، ونفسه تخلص لهم، وظنوا أن الأيام ستسليه، وحبّه لهم من بعده يلهيه، ولكنهم قدّروا والأقدار تضحك، ودبّروا وأمر الله غالب.

ورجعوا إلى أبيهم عشاء يلفقون القول، ويزورون الحديث واصطنعوا البكاء ظناً منهم أن هذا سينهض بحجتهم، وجاؤوا على قميصه بدم كذب حسباناً منهم أنه يقوم برهاناً على صدق دعواهم.

وقالوا: يا أبانا لقد وقع ما كنت تحذره وحلّ ما كنت تخشاه، لقد تركنا يوسف عند متاعنا، وذهبنا نجري متسابقين، وما ظننا أن الذئب يقصد يوسف ويترقب به الأذى، ولكنه وجده وحيداً، فهجم عليه وأكله، وخلّف لنا هذا الحزن الذي يكاد يفتك بصدورنا، وتلك العبرات التي تفيض بها عيوننا، وذلك قميصه مضرَّج بدمه، وما نظنك تؤمن بصدق قولنا، ولو كنا صادقين!

قال يعقوب وقد فطن إلى ما كادوا ونفذ ببصيرته إلى ما دبروا، وعلم أن لله شأناً في الغلام هو لا بد بالغه: قد سوّلت لكم أنفسكم نكراً، وأملى عليكم الحسد أمراً، ولكنني سأصبر صبراً جميلاً، حتى يُكشف أمركم، وتظهر عاقبة كيدكم، والله

المستعان على ما تصفون.

(٢)

يوسف الآن في الجب يحتويه ظلامه، ويشتمله سكونه، محنة يمتحن بها هذا الفتى الكريم، والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب، ويفتنهم بضروب الآلام، ليكونوا أقدر احتمالاً على ما يلقى عليهم من مهمات الأمور وعظيماتها.

ولم تكن محنة أنكى في الداء، وأبلغ في الألم وأبعث على الجزع من هذه المحنة التي ابتلى بها يوسف وربما كانت أخف احتمالاً لو أن يوسف كان قد اقترف خطيئة أو ارتكب إثماً، إذن كان خليقاً بهذه المحنة، جديراً بهذا العذاب، ولكنه كان مبرّأ من العيب، بعيداً عن التهمة، قصيّاً عن مواطن الريب، ولو أن رمية يوسف كانت من غير إخوته، ومحنته جاءته من غير آصرته[1] لاحتملها قلبه، واتسعت لها جوانب صدره، ولم يتشعب فيها همه وأسفه ولكنه سهم إخوته، ورمية بني أبية!

هو الآن يجول بعينيه في نواحي الجب، ويتلفت أمامه فلا يجد إلا ماءً راكداً يرى فيه خياله الكاشف، وظله الحزين، ويتلفت فوقه فلا يلمح إلا ظلاماً متكاثفاً لا يميز فيه شيئاً، ما عسى كانت وساوسه! وما خطرات نفسه! لعله تذكر أباه، فأعادت إليه الذكرى ابتسامته التي كانت تطالعه في الصباح، وحديثه الذي كان يتساقط إلى أذنيه في المساء، وتعلقه بشخصه، وما حاله الآن بعده؟ وأي حزن يشتمل عليه!

لكن رحمة الله قد اقتربت منه، فهو قد امتحنه بهذه البلوى، وهو الذي سيربط قلبه، وسيجمع ما تفرق من نفسه، ها قد أوحى إليه: أن تجمّل بالصبر، واعتصم بالعزاء، فإني جاعل لك من ضيقك مخرجاً ومن همك فرجاً، وإني مظهرك على إخوتك ولكن بعد حين. عند ذلك ذهبت همومه، ورجعت نفسه إليه، وانتظر يرقب أمر الله.

ها هو يسمع من بعيد صدى حركة مبهمة، وأصوات مختلطة، لقد أرهف سمعه، وودّ لو أن كل جارحة من جوارحه استحالت آذاناً، وها هي ذي الأصوات أخذت تقترب رويداً رويداً وتتضح شيئاً فشيئاً، أصوات أسفرت عن وقع أقدام، وخفق

---

(١) آصرته: من لهم به صلة.

نِعال، ونباح كلاب... هي قافلة، وأمل يبتسم، وزهر الرجاء بدأ يتفتح ، وساعة الخلاص آن أوانها.

ألقت السيّارة[1] عصاها بجانب الجب، وهتف رئيس القافلة بصوت سمعه يوسف: ألق دلوك يا هذا في الجب وأخرج لنا ماءً نطفئ به ظمأنا، ونسد حاجتنا، ونسقي دوابنا بعد أن أجهدنا السير، وأصابنا بعد الشقة، وأخذ منا الكلال. فألقى الرجل دلوه، ورأى يوسف الدلو فتعلق به. وما راع الرجل إلا غلام متعلق بالحبل وجهه كأنه فلقة قمر! فصاح: يا بشرى، هذا غلام! فاجتمع القوم، وأخذهم الدهش، ثم أجمعوا رأيهم على أن يتخذوه غلاماً يبيعونه بمصر! واستأنفت القافلة السير، حتى ألقت عصاها بمصر، وهناك عرضوه للبيع في سوق، وهو الحرّ الأبيّ، والرسول الكريم، وباعوه بيع السماح بثمن قليل ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] خشية أن يفتضح أمرهم، أو يهتك سرهم، ولو أنهم باعوه بملء الأرض ذهباً لما كان ذلك عدلاً لهذه النفس العظيمة، وكفاء لهذا الغلام الكريم.

اشتراه عزيز مصر ووزيرها الأكبر، فتوسم فيه معدناً كريماً وعرقاً طيباً فقال لامرأته: هذا غلام يخيل إليّ من معارفه وهدوء طبعه أنه نبيل الفطرة، رفيع الأخلاق، كريم المنبت، فأكرمي مثواه ومأواه، وحاشاك أن تزجريه زجر الخدم، أو تضربيه ضرب العبيد، فإنني لأرجو إذا اكتمل عوده، ونضجت سنه أن ينفعنا، أو نتخذه ولداً، وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز، في جد وأمانة، ولقي فيهم أهلا بأهل وجيراناً بجيران.

(٣)

لم يكد يوسف يخلص من محنة الجب، ويخلد إلى حياة هادئة في منزل العزيز، حتى ابتدأت الأيام تخيط له محنة أخرى، والأقدار قد جاءته في محنته هذه من ناحية حُسنه وجماله، ودخلت إليه من طريق فتوته وغضارة شبابه، فشقي بهذا الحسن زمناً، وجر عليه بلاءً طويلاً.

(١) السيارة: القافلة. وألقت عصاها: استقرت.

ابتدأ يوسف عمله في بيت سيده، وهيأت له الملابسات إظهار مكنون حزمه وعقله، وأمانته ونزاهته، فازدادت به ثقة العزيز، وأدخله فيما بين نفسه وأهله، وبوّأه مكان الأشراف الأحرار، ووضعه من قلبه موضع الأبناء الأبرار.

وتقدمت به الأيام وأظله ربيع العمر، وعلته زهرة الشباب، وإذا امرأة العزيز يشغلها أمر هذا الغلام فأخذت ترقبه في غدوه ورواحه، وتلحظه في قيامه وقعوده وحركته وسكونه، وبدت لها محاسنه الخفية، وحيويته القوية، وشعرت أن حبه ينبت في قلبها، وينبض في عروقها، ويجري مع أنفاسها، فوسوست به في خلوتها، وتمنته ولكن كيف السبيل إليه، وهي امرأة العزيز في القصر مقامها، ومكانة زوجها وفي مصر مكانتها! ولكنها كلما رأته مال إليه قلبها، وبُعث الحب قوياً في صدرها، ولما ضاق صدرها، رأت أن تجيب داعي الهوى، وتجاذبه ثوب الغرام، ولكن على ألا تذل نفسها، أو تهبط عن عرشها، فنصبت له حبائل الفتنة، وأطلعته من نفسها على ما عساه أن يصبي نفسه، ويثير داعيه هواه.

لكنه أعرض عن تلويحها وتلميحها، وغض بصره عن محاسنها ورونق جمالها، وما كان ليوسف وهو الكريم ابن الكريم أن يميل قلبه إلى محرم، أو تجنح به نفسه إلى معصية.

ولكن الإعراض ضاعف هواها، والمنع أثار كامن غرامها، فرأت أن تصل بالتصريح إلى ما لم تنله بالتلويح، وأن تكون أجرأ على ما تطلب، وأشجع فيما تريد، فما بقي في قوس الصبر منزع، وما عادت بعد اليوم تطيق صده وإعراضه، واجتمعت الرأي وهيأت نفسها لما تريد، بعد أن ألقت صولجان الملك، ولبست شعار المتصابية العاشقة، ودعته لمخدعها فاستجاب لأمرها جرياً على عادته في طاعتها، ثم اسدلت الستور، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك[1] ولكن يوسف أجابها: معاذ الله أن أجيبك إلى ما تريدين أو أذعن إلى ما تطلبين وحاشاي أن أخون مولاي العزيز، وهو الذي أحسن مثواي، وأكرم مأواي وما أنا بمنكر للنعمة، ولا بجاحد للجميل، إن كنتِ قد غلقت الأبواب، وأسدلت الحجب، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وحاشاي أن تطاوعني نفسي لمعصيته، أو أن

---

(١) هيت لك: تهيأت لك.

يستجيب قلبي إلى ما فيه غضبه، إنه لا يفلح الظالمون.

فاستطار غضبها، وهاج هائجها، فهمت به بطشاً، وأرادت به سوءاً، انتقاماً لعزتها المضاعة، ولكنه أحس بإشراق النبوة في نفسه، ورأى برهان الله في قلبه، وأوحي إليه: أن الفرار خير من القتال، والمسالمة خير من المواثبة، فاستجاب لوحي ربه، وهمّ إلى الباب جرياً وهمّت وراءه عدواً، حتى أمسكته من قميصه، وجذبته من ثوبه، وما انتهى إلى الباب حتى رآه العزيز واقفاً وقميصه ممزقاً.

كان موقفاً يبعث على الريبة، ويثير الاتهام، رجعت فيه المرأة إلى كيدها جريئة في الكذب، جريئة في البهتان فقال: هي التي راودتني عن نفسي، وجذبتني ثوبي العفيف، وهذا قميصي شاهد على صدق دعواي.

وفيما هو في أمره معها إذ دخل ابن عمها، وكان فطناً ذكياً أريباً[1] فسمع القضية من أطرافها وفطن لما وراء قصتها، فقال: إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قُدّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر، وجلت الرغوة عن الصريح، ووضح الحق لذي عينين، وظهرت براءة يوسف، والتفت العزيز إلى امرأته، وقال: إن هذا من كيد النساء ومكرهن، فاستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين، وأنت يا يوسف: اربط لسانك عن الخوض في الحديث، خشية أن تشيع القالة وينتشر الحديث بين الناس.

(٤)

وشاع في المدينة على ألسنة النسوة، وبين جنبات القصور، أن امرأة العزيز قد افتتنت بغلامها الفتي، ووقعت في غرامه، واستهامت بجماله، وأنها لما امتحنت به من حبه، واصطلت بنار عشقه، قد نزلت عن عرشها، ودعته لنفسها وسددت إليه سهام فتنتها وسحرها ولكنه عزف عنها[2] وزهد فيها، ولم يفتنه حسنها ولا دلالها، ولم يستهوه روعتها ولا جمالها، فهي لهذا مسلوبة الفؤاد مضرمة الأنفاس، تخفي أمرها، فيفضحها الدمع، وتستر وجدها فينم عليه السقم.

---

(١) الأريب: صاحب العقل البصير في الأمور.

(٢) عزف عنها: انصرف عنها.

وأخذت تلك القالة تشيع وتتشعب، وتتخذ لها ألواناً وأشكالاً، حتى انتهت إلى امرأة العزيز، وسقط في سمعها كل ما تحدث نسوة المدينة، وما تَزَيَّدنَ فيه، وما نلنه منها بحصائد ألسنتهن، فلم تر بداً أن تدحض هذا القول، وتفل ذلك السلاح، وتقابل مكرهن بمكر، وكيدهن بكيد.

فدعتهن في يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها، وهيأت لهن متكآت وثيرة وأرائك مريحة، وخلعت عليهن أردية الحفاوة، وأحاطتهن بهالة من النعيم، وقدمت لهن الفاكهة، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وقالت: ليوسف اخرج عليهن، وامش بين صفوفهن، فخرج من مخدعه وقد صبغ الحياء غلالة وجهه، وملأه الحسن من أخمصه إلى مفرقه، فشاهدن فتىً لا كالفتيان، وشاباً لا كالشبان، أبلج الغرة، وضي الطلعة، سمع المعارف، حلو الملامح، ملء أردانه(١) قوة وشباب وحشو درعه مهابة وجلال وشاهدن من وراء هذه القسامة(٢) نفساً جميلة كريمة فذهلن عما كنّ فيه، وخولطن في عقولهم، فإذا السكاكين تقع على أيديهن فتقطعها، فقلن: حاش لله وتبارك خلقه! ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فصفقت امرأة العزيز بيديها وكأنه قد سُرِّي عنها، وقالت: هذا يوسف الذي لمتنني فيه، وخضتن في حديثي معه، وهذا شأنكن فيه وقد رأيتنه عفواً، وشاهدتنه لمحاً، فما بالكن تلمنني فيه، وقد ترعرع في داري، وبلغ أشده أمامي، واستوى بين سمعي وبصري، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه، ومنامه وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وأخلو به في ليلي ونهاري، وأتراءى له في زينتي، وأعرض على نظره ما ظهر من محاسني، فيعرض عني استعصاماً، ولا يرفع إليّ طرفاً، ولا يميل نحوي عطفاً، بل يتجلى فيه الروح الملائكي بأظهر مجاليه، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها.

لا أخفي عليكن أنني قد راودته عن نفسه، وجذبته من قلبه فأبى واستعصم، وانصرف عني وأعرض، ولا أخفي عليكن أيضاً أنني لا أطيق على إعراضه صبراً، ولا أستطيع أن أملك لقلبي معه زماماً، فهو قد ملك أعِنّة قلبي، واسترق فؤادي.

---

(١) الأردان: جمع ردن، وهو أصل الكُم (طرف الكم الواسع).

(٢) القسامة: الحسن.

وأطال ليلي، وسلب هواه الكرى[١] من أجفاني، ولكنني وقد أذللت نفسي، وافتضح أمام الناس أمري، لئن لم يفعل ما آمره لأدفعن به إلى غيابات السجن، يعاني ظلامه، يبلي فيه رداء شبابه، أو لأذيقنه هوان نفسه، وإيذاء جسمه، فهما أمران له أن يختار أهونهما عليه.

أما يوسف، فإنه توجه إلى الله، وتضرع إليه أن يصرف عنه السوء، ويصد عنه كيد النساء، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وكل تلك المحن التي ابتلى بها يوسف، والحبائل التي نصبت له، والأقاويل التي نسجت حوله، خرج منها عفيف النفس، طاهر الذيل.

ظهرت هذه العلامات دالة على براءته، شاهدة على نزاهته وأمانته، وعلمها العزيز واستيقنتها نفسه، لكن امرأته – وقد عيل[٢] صبرها، وانقطع من يوسف رجاؤها – فَزعتْ إليه، وكان مطواعاً لها، وجملاً ذلولاً في يدها، وقالت له: إن يوسف قد فضحني في أمري، وافترى عليّ الزور في شرفي، وما أرى إلا أن تسجنه، فتأخذ لشرفي، وتشفي من غيظي.

فانقاد لقولها، وصدع بأمرها، ودفع بيوسف إلى السجن، بريئاً من ذنبه، كما كان الذئب بريئاً من دمه، فاستقبل فيه محنة جديدة، تلقاها بقلب الصابرين، وعزم المؤمنين.

(٥)

دخل يوسف السجن - لا كما يدخل مجرم قتل نفساً، أو لص سرق متاعاً - بل دخول مظلوم لم تنصفه كلمة القضاء، فأسلم نفسه يرجو عدل السماء، دخله مرتاح الضمير، رضي النفس، منقوع الفؤاد[٣] وما ضر يوسف أن يسجن أو يمنع العدو أو الروح أليس هو واجداً في السجن قوماً جفاة ظالمين، أو عتاةً مجرمين، لخير له يقوم

(١) الكرى: النوم.

(٢) عيل صبرها: نفد.

(٣) منقوع الفؤاد: مطمئن.

بينهم معلماً راشداً وناصحاً أميناً، فلعله يكسر من شوكة الظلم فيهم، أو ينزع نوازي الشر من صدورهم، فيكون قد طهر الإنسانية من بعض أدرانها، وخفف عن كاهلها ما تنوء به من عبء مجرميها!

وامتدت أيام سجنه، ومكث فيه دهراً، يعود المرضى ويواسي الضعفاء، وينصح الأشقياء، وينشر عليهم مع كل صبح فيضاً من علمه، وقبساً من فضله، حتى أحبه المسجونون، وكلِفُوا به، واطمأنت نفوسهم إليه.

دخل فيمن دخل معه السجن فتيان من حاشية الملك: ساقيه وخازن طعامه، ذاقا معه آلام السجن، واحتملا ذُل الأسر والقيد، حتى أصبحا يوماً على رؤيا أزعجتهما، فأسرعا إلى يوسف يستنبئانه عن رؤيتهما، ويستفتيانه في أمرهما.

قال الساقي: لقد رأيت كأني في بستان كرم معروش زاهٍ مُخضرّ، وكأن بيدي كأس الملك، أعصر من عناقيد فيها. قال الخازن: وأما أنا فقد رأيت كأني أحمل سلالاً فيها أصناف الخبز والطعام، وكأن سرباً من الطير يتهاوى إليها ويتخطفها، ويذهب بها إلى مكان سحيق، فهل لك أن تنبئنا بتأويل ما رأينا، بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير؟

وكان يوسف قبل أن يلجأ إليه الفتيان قد أكرمه الله برسالته، وآتاه ما وعده، وأمره أن يضطلع بما اضطلع به أبوه من قبل من الدعوة إلى التوحيد، وإشعال قبس الإيمان. وجدير به أن تكون دعوته مؤكدة النجاح، مقرونة بالفلاح، فهو في قوم فقراء قد طهر نفوسهم الفقر، ومظلومين يستشرفون إلى الإيمان، وهؤلاء وأولئك أقرب الناس لفهم الدعوة، وأكثرهم استعداداً لما يلقى عليهم من هدي وإرشاد.

فقال: أما أحدكما فسيخرج من سجنه ويعود إلى سابق عهده، ساقياً للملك، قائماً بينه وبين ندمائه، وأما الآخر فسيصلب وستأكل الطير من رأسه، عرفت هذا عن وحي غيب، لا بكهانة أو تنجيم، أو ما يشبههما من صنعة أو تعليم، ذلك مما علمني ربي، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون.

ويوسف كان عالماً بصدق تأويله، وبوقوع نبوءته فقال للساقي، وقد علم نجاته، وتوقع صدور العفو عنه: يا هذا، إذا ما فارقت سجنك، ورجعت في قصر الملك إلى

مكانك، فاذكر له أن مظلوماً يحويه السجن، ومتهماً بغير جريرة[1] يعاني الأسر والأغلال.

وصح تأويل يوسف، ونجا رجل وصُلِب آخر، وما ابتدأ الساقي يعود إلى مليكه، حتى اضطرب فيما يضطرب فيه الناس، وأنساه الشيطان أن يذكر يوسف لربه، فلبث في السجن بضع سنين.

(٦)

أصبح الملك على رؤيا أهمته وأفزعته، فدعا إليه علماء دولته، وأشراف قومه، وقص عليهم ما رأى. قال: إني أرى سبع بقرات سِمَان، يأكلهن سبع عجاف، مهازيل، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ثم طلب إليهم تعبير هذه الرؤيا، وتفسير ذلك الحلم، فكلهم عجز عن التأويل وعيّ عن التفسير، وقالوا: خيالات وأوهام، وأضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين، لكن هذه الرؤيا ذكرت ساقي الملك ونبهته وما كاد يسمع هذه الرؤيا، ويحس رغبة الملك في التأويل، حتى تذكر يوسف السجين، ذلك الذي أول له الرؤيا فصدق في التأويل، وهو الآن يمرح في أثواب النعمة، وينقلب في أعطاف النعيم.

قال: أيها الملك إن في السجن فتى كريماً، صائب الفكر، ملهم الرأي، يكشف ودائع الغيوب بنور عقله، تعرض عليه الرؤيا فيُخمِّرها ويجيلها ويجيد الفكرة فيها ويطيلها، ثم يخرج بعد ذلك بالرأي الوثيق، والتأويل الصادق، ولو أرسلتني إليه لجئتك بالخبر اليقين.

وانطلق الساقي إلى يوسف في سجنه، ومهبط آلامه، فوجده كما تركه صابراً محتسباً، مؤمناً قانتاً، قال له: يوسف أيها الصديق، جئتك فيما أرجو أن يكون لك فيه فرج من ضيقك، عافية من محنتك، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف مهازيل، وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات، فلعلك بعلمك تروي نفوساً للتأويل ظامئة، وتجيب على أسئلة في الصدور مختلجة، ثم أرجو أن يعرف بعدها القوم فضلك الواسع، وعلمك الفيّاض.

---

(١) جريرة: ذنب.

ويوسف عليه السلام لم يكن عالماً يؤول الرؤيا فحسب بل كان رسولاً مصلحاً أرسله الله هادياً للناس في دنياهم وآخرتهم، ومعاشهم ومعادهم، فما كان يرى فيه فرصة يتنفس بها برسالته إلا انتهزها، ولا نهزة[١] صالحة للدعوة إلا علق بها. فمن سنين مضت سأله الفتيان رؤياهما، فوجدها فرصة لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزئ بها، واليوم يسأله الملك فيعرف التأويل، فلا يقصر حديثه عليه، بل يمزج بالتأويل رأيه، ويسدي إلى الشعب نصحه.

قال: إنكم تستقبلون سبع سنوات ليّنةً رخاءً، تكونون في أخصب تربة وأمرع جناب[٢] تزهر حقولكم ، وتزكو[٣] غلاتكم، ويصفو لكم العيش، وتطيب الحياة. ثم تأتي في أعقابها سبع شداد يظلكم فيها الأمل، وتكشف لكم الأيام عن سحاب لا مطر فيه، وبرق خادع، ينكص النيل فلا يفي بوعده، ولا يمدكم برفده، ويتجهم وجه الأرض، فلا تبثكم مكنون خيرها، ثم لا تجدون قائماً يحصد، ولا حصيداً يخزن، وتصابون من دهركم بالداهية الجلى، والنائبة العظمى.

ثم بعد ذلك تصالحكم الأيام، ويقبل عليكم الزمان، ويظلكم عام خصيب، تغاثون فيه من شدتكم، وتصلحون ما فسد من أموركم، تجودكم الأرض بالحنطة والشعير فتأكلون وتعصرون. ذلك تأويل الرؤيا. وذلك ما أشرقت به نفسي، وما تلقيته بالوحي عن ربي.

وإذا كان ما أخبرت واقعاً لا محالة، فما حصدتم في سني الرخاء فاخزنوه في مخازنكم، ودوركم، واتركوه في سنبله، حتى يظل سليماً نقياً، إلا ما تحتاجون إليه ما يقيم أَوَدَكم، ويحفظ حياتكم، لتتقوا السبع الشداد، والسنين العجاف.

ولما وصل إلى الملك هذا التفسير، وفطن لذلك النصح والتدبير، أدرك أن وراء هذا عقلاً حصيفاً، وفكراً ملهماً، فدعاه إليه ليختبره، ويدرك به غايته، ويفيد من رأيه وعلمه.

حضر إليه الرسول وناداه: يا يوسف، إن الملك يدعوك إلى حضرته، ويطلبك إلى

---

(١) النهزة: الفرصة.

(٢) أمرع الوادي: أخصب.

(٣) تزكو: تزيد.

مجلسه، فقد رأى في تعبيرك علماً غزيراً، ولمح من نصحك رأياً حصيفاً ليوشك أن يرتفع مقدارك، ويطلع نهارك.

ولكن يوسف كان رسولاً كريماً، وعلّمه ربه كيف يكون صبوراً حليماً، فما استجاب للكلمة الأولى وهو أحوج ما يكون إلى الانطلاق من الأسر ومفارقة السجن، فقد طال عهده بوحشته وظلامه، وأحزانه وآلامه. وقد مرت عليه سنوات طويلة لم ير الشمس الطالعة، ولا البدور المتألقة، ولا الزروع الناضرة، بل لعله أمضى أيام سجنه لم يذق إلا طعاماً يابساً، وماءً كدراً. ولعل رجليه لم تحرما يوماً من قيد غليظ، ويديه لم تسلما من غلّ ثقيل، ولعله أيضاً آذته ليال افترش فيها التراب، وتوسد الحجر، ونام على الألم، وهو مع تلك الآلام التي شاهد، والمصائب التي لاقى، لم يكن إلا مظلوماً مغلوباً على أمره، يلقى العذاب ثمناً لما ادّرع به من عصمة وإيمان، ونزاهة وطهارة ثياب.

فما أحب أن يخرج من سجنه ممنوناً عليه بعفو، أو متفضلاً عليه بشيء، بل قال للرسول: ارجع إلى الملك وسله أن يتعرف أمر هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وأُخِذتُ ظلماً بجريرتهن ليظهر أمري قبل أن أغادر السجن، وتُعرف قضيتي قبل أن يفصل فيها العفو.

فأهم الملك أمر يوسف وشغل باله ذكر النسوة، وتشعبت أمامه وجوه القضية وفيما كان يظن الأمر لا يعدو أن يكون ذلك السجين فتىً لا يؤبه له، وهو اليوم يدعوه إليه لما ظهر من فضله، وعرف من علمه وخبره، ولكن ها هي ذي أمور ظهرت لديه كانت خافية، واتضحت أشياء كانت غامضة.

فأحضر النسوة بين يديه، وسألهن: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه! فما وجد الإنكار سبيلاً إلى قلوبهن، وما استطاع الكذب أن يسبق إلى ألسنتهن، بل صرّحن بمحض الحق، فقلن: حاش الله! ما علمنا عليه من سوء، وما خبرنا فيه إلا فتى عفيفاً كريماً نزيهاً، أميناً، غير متهم في رأي، ولا ظنين[1] في عفه.

وقالت امرأة العزيز وقد نالت منها الأيام والسنون الآن حصحص[2] الحق، أنا

---

(١) الظنين: المتهم.

(٢) حصحص: بان وظهر.

راودته عن نفسه، وجذبته للغرام، فقد كان فتىً وسيماً، جميلاً وضيئاً، وقد كان مني قريباً دانياً، وشخصه أمام عيني أبداً ماثلاً، فعلقه قلبي، ولم استطع له دفعاً، فدعوته فتأبى، وطلبته فامتنع، وكان لربه حافظاً، ولزوجي وفياً. وإني أخبركم الآن أنه أعف من رأيت نفساً، وأزكى من شهدت قلباً، وأنه احتمل ما احتمل من آلام السجن بريئاً مظلوماً.

أنا قذفت به إلى السجن، وأنا ألقيت به في هذا العذاب. ذلك الذي اعترف به الآن في وضح النهار، وضوء الشمس، بين سمع الملك وبصره، وبين حاشيته وبطانته، ليعلم يوسف - وهو الآن في سجنه - أني لم أصمه بعيب[1] أو أرمه بريب، من يوم سجنه إلى هذه الساعة التي يفصل فيها أمره. ولقد صرّحت لهؤلاء النسوة من قبل، بأني راودته عن نفسه فاستعصم. والآن اعترف بأني دعوته لنفسي فأبى، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

(٧)

جاءت شهادة امرأة العزيز مبرّئة ليوسف من الذنوب، منزّهة له عن الأغراض والعيوب وأيّد هذه الشهادة ما رواه الساقي من سيرته في السجن، وما شهد به عليه من صبر يجمله الحلم، وعلم يزينه التواضع، وما خبره عنه الملك من حسن التأويل، وإحكام التدبير وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سجنه، فأبى إلا أن يخرج بريئاً.

هاتيك الأخلاق الكريمة، والشيم الحميدة، أثارت عند الملك رغبة صادقة في أن يقرّبه إليه، ليكون في حاشيته، زعيماً في بطانته والملك سوق يجلب إليه ما نفق عنده. ومَثُل بين يديه وحادثه فألفاه حصيفاً[2] أريبا[3] وعاقلاً رشيداً، طابق الخبر الخبر، والسمع والبصر، قال: يا يوسف، إن ما تجملت به من هذا الخلق راجح، وعقل حصيف، كل ذلك رفع عندي مقدارك، وأعلى مقامك، وإنك منذ اليوم أمين على

---

(١) وصمه: عابه.

(٢) حصف عقله: استحكم.

(٣) الأريب: صاحب العقل والبصير في الأمر.

هذه الدولة تعمل لخيرها، وتقوم على إصلاحها، مكين[١] فيما تصنع، مفوض فيما تريد.

ولكن يوسف كان يعلم أن الأمة مقبلة على أيام يُسرٍ وأيام بلاء، وأن النيل سيمدهم بالماء، وينفحهم بالخير أعواماً، ثم يكف عنهم الرفد ويخلف عنهم الوعد أعواماً، وأنه لا بد لمن يلي أمورهم ويدير شؤونهم أن يكون بيده زمام المال، وعنده مفاتيح الخزائن، إن المال عصب الأمة وقوامها، فأراد أن يمتلك الزمام الذي يستطيع أن يقود به الأمة إلى خيرها، وأن يمسك بالدّفة التي يستطيع أن يسير بها سفينتها، فقال للملك: إن أردت أن أكون مسؤولاً عن هذه الأمة، محاسباً عن تدبير شؤونها، فاجعلني أميناً على خزائنها، ووزيراً لأموالها، وستجد الأمة إن شاء الله ما ترجو من صلاح الأعمال، واطراد الأحوال، العسر واليسر، والرخاء والبلاء.

ومكّن الله ليوسف في الأرض، فأضحى بين عشية وضحاها وزيراً مطلق اليد، مسموع الكلمة، نافذ السلطان، وحضرته مطلع الجود، ومهوى الوفود، وقد كان بالأمس سجيناً أسيراً، ومن قبل غلاماً يباع ويشرى، ويسلب و يُعطى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وَلِيَ يوسف الأمر في مصر سبع سنوات، جاد فيها النيل وأغلت الأرض، فأسهل عيشهم، وامتد خيرهم، وتفيؤوا في ظلال الراحة والنعيم دهراً، وكان يوسف نعم الحاكم اليقظ، والمولى الفطن الأريب، أعد المخازن، وملأها بالغلات الوافرة والخيرات الكثيرة، حتى إذا ما أقبلت السبع الشداد استقبلها القوم آمنين، فلما تغيّر القحط إلى ما جاور مصر من البلدان، ومسّ ما حولها من الأقطار حتى وصل إلى كنعان، حيث يقيم نبي الله يعقوب وأبناؤه الأسباط.

وسطع ذكر يوسف في مصر، وامتدّ نوره إلى الأصقاع، وشاع بين الناس أن بمصرَ وزيراً حكيماً، يحمل بين جنبيه نفساً كريمة، فقد أعدّ عدّته للجوع والقحط، والجدب، فهو يوزع الحنطة بين الناس بميزان عادل، ويقضي حوائجهم بقسطاس، لا يفرق بين شعب وشعب، وقطر وقطر.

قال يعقوب لبنيه: يا بنيّ، إن الجدب عمّنا، والقحط يكاد يأتي علينا، فهلم شدّوا

---

(١) مكين: متمكن، وله منزلة عند السلطان.

ركائبكم، واقصدوا هذا العزيز الذي حملت إلينا الركبان أخباره، وتناقل الناس أحاديثه، وطبق اسمه السهل والجبل، ولكن اتركوا عندي أخاكم بنيامين أتعزى به عن فراقكم، وأسكن إليه حتى يعود جمعكم، ويلتئم شملكم، والله كالئكم[١] وراعيكم، وهاديكم.

(٨)

واستأذن الحاجب على يوسف، فقال: إن بالباب عشرة رجال تتشابه معارفهم، ويلتمع نور الصلاح في وجوههم، وكأنهم غرباء عن هذه الديار، أو ضيوف على هذه الأقطار، عرفت هذا من لغتهم ولهجتهم، وحيرتهم وترددهم، وإنهم اليوم ببابك يستأذنون في الدخول عليك، والمثول بين يديك.

وأذن لهم يوسف، ودخلوا عليه، فإذا هم اخوته وبنو أبيه، لم تغير ملامحهم السنون، لم تخف معالمهم الأيام، هم إخوته الذين تآمروا على قتله، وتظاهروا على إيذائه، وهم الذين فرقوا بينه وبين أبيه، وأذاقوه بعده جفنا[٢] مؤرقاً، وكبداً مجروحاً، وها هم أولاء يلقاهم اليوم في حضرته من غير سابق تدبير، بل بإحكام من اللطيف الخبير، عرفهم وما عرفوه، وتبينهم وأنكروه، وأين يوسف الذي خلفوه في الجب ولا يدرون: اغتالته المنية، أم أكله سبع، أم بيع في سوق الرقيق، من هذا المليك المتوج النافذ السلطان، ذي الحشم والأعوان!

ولكن يوسف كان حازماً حكيماً، رزين العقل، بعيد الأناة، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه، والإفصاح عن أمره، بل حاول أن يصل إلى ما في نفوسهم، ويعرف مكامن أسرارهم، وما خفي عليه من أخبارهم، واحتجب من أحوالهم، بأسلوب الحكيم، ومنطق الحاذق الحصيف، فآواهم وأكرم وفادتهم، وأحسن ضيافتهم، ثم دعاهم يوماً إلى حضرته وقال لهم: لقد أكرمتكم ومن حقي أن أسألكم وأتعرف على أحوالكم، فمن أنتم؟ وما شأنكم؟ إني لأنكر عددكم وقد بدأت أشك في أمركم، وأخشى أن تكونوا عيوناً علينا من مليككم فهل لواحد منكم أن يفضي إليّ

(١) كالئكم: حافظكم.

(٢) الجفن غطاء العين، المؤرق: الممتنع عليه النوم.

بحقيقة حالكم، فلعله يمزق قناع الشك، ويبدد سحائب الريب؟

قالوا: أيها العزيز، نحن اثنا عشر أخاً، سلالة نبي كريم، ورسول عظيم، عشرة منهم هم رسله الآن بين يديك، وآمالهم منتهية إليك، وأما الحادي عشر فقد خلفناه عند أبيه يقوم على أمره ويسهر على رعايته، وأما الثاني عشر فقد فقدناه، ولا ندري أختاره الله لجواره، أم هو يضرب في الأرض الواسعة سهلها وحزنها(١) وغورها ونجدها! ذلك هو أمرنا ظاهره وباطنه، جملته وتفصيله، قال يوسف: قد يكون حقاً ما تقولون، ولكن لا وزن لقول لم يعزز ببينه أو يدعم بشاهد، فأقيموا عندي البينة أو ائتوا بالشاهد حتى اطمئن لحقيقة حالكم، وأسكن لصحة أقوالكم، قالوا: أيها العزيز، إنا في غربة عن بلادنا، وعزلة عن أصدقائنا وأهلينا، وإنك تكلفنا محالاً أن نأتي لك من هنا بمن يعرفنا، أو يشهد بصحة أقوالنا، ولكن التمس لنا غير هذا المخرج، وشيئاً غير هذا السبيل، قال: إني سأجهزكم، وأثقل بالطعام ركائبكم، على أن تعودوا معكم أخوكم الذي خلفتموه عند أبيكم، ليكون شهيداً عليكم، مصدقاً لأقوالكم، وسأضاعف إكرامكم، وأزيدكم حمل بعير في غلاتكم، وهذا هو شرطي، وذلك هو عهدي. فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون، قالوا: أيها العزيز ما نظن أن أبانا يأذن بسفره، أو يصبر على فراقه، ولكننا سنراوده عنه ونتلطف إليه، وإنا لفاعلون.

أمر يوسف غلمانه أن يوفوا لهم الكيل، وأن يدسوا لهم في رحالهم البضاعة التي حملوها، والفضة التي جاؤوا يبتاعون بها، وليكون ذلك أدعى لرجوعهم، وأمكن لعودتهم.

ورحلوا عن مصر، وساروا إلى بلادهم، يحملون عن هذا العزيز أطيب الذكريات وأزكاها، وأعذبها وأحلاها. وتلقاهم يعقوب، وأخذ يستوضح أخبارهم، ويستقصي أنباءهم قالوا: يا أبانا، إنا لقينا رجلاً عظيماً، ووزيراً كريماً عرف فضلنا، وأكرم وفادتنا، ووفى لنا الكيل، وأنزلنا خير منزل، ولكنه أخذ علينا شرطاً ألا يكيل لنا من بعد حتى نأتيه بأخينا، يخبره بحقيقة حالنا، إذ أنه شك في أمرنا، وداخله الريب في رحلتنا وغداً ستفرغ الميرة ونحتاج إلى غيرها، فأرسله معنا ليكون معيناً لنا

---

(١) الحزن: ما غلظ من الأرض.

مساعداً لنا في الرفد[١] قال يعقوب: لن آذن له بالسفر معكم، ولن أستريح لفراقه. وهل تروني آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه من قبل! فاصرفوا عني كيدكم، واكفوني شركم.

وفتحوا متاعهم وفتشوا في رحالهم، فإذا بضاعتهم قد ردت إليهم، وفضتهم قد عادت معهم، فخفوا إلى أبيهم مسرعين، وتحدثوا إليه مسرورين، و قالوا: يا أبانا، ما كذبناك حين زعمنا أننا لقينا عزيزاً وافر الفضل، جم المروءة وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذن لنا بأخينا، فهذه بضاعتنا قد ردت إلينا، شاهدة على كرم العزيز ومروءته، فأرسل معنا أخانا، وسنفديه بأرواحنا ونرف عليه بأجنحتنا.

ورأى يعقوب أن حاجتهم إلى الميرة (الطعام) ماسة، ورغبتهم في الرحلة أكيدة، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهداً فلن ينقضوه، وأن العزيز قد شرط لعودتهم أن يحضروا له أخاهم فلن يخلفوه، فأذن لهم ببنيامين على أن يأخذ عليهم عهداً أكيداً، وشرطاً وثيقاً: أن يأتوه به سليماً معافى إلا أن يحاط بهم قدر لم يك في الحسبان، أو يفاجئهم مكروه من الحدثان، وأخذوا على أنفسهم الميثاق، ووكدوا الإيمان، وقالوا: والله على ما نقول وكيل.

وساروا يخفضهم وهد ويرفعهم نجد، حتى ألقوا عصاهم بساحة يوسف، ورأى يوسف أخاه فحنا عليه ورق له، ولكنه أخفى عواطفه، وستر ما في نفسه، ودعاهم إلى طعامه، وأجلسهم مثنى مثنى. وبقي بنيامين وحيداً فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيننا وهذا لا ثاني له فيكون معي.

فبات عنده، قال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف وقام إله وعانقه، وقال: إني أنا أخوك الذي تنشده وتهتف باسمه، وتتلهف لرؤيته، قد تقلبت بي صروف[٢] ورمتني صروف[٣]، ولقيت من كيد إخوتك ألواناً، وتحملت من غدرهم أحزاناً،

---

(١) الرفد: العطاء.

(٢) الصروف: الأمور الصارفة.

(٣) صروف الدهر: نوائبه وحدثانه.

وأسقاماً، وابتليت بعدهم بمحنة، واصبت بفتنة، ولكني صبرت وجاهدت حتى أبدلني الله - كما ترى - نعيماً ببؤس وغنى بفقر وعزاً بذل، فاكتم عن إخوانك هذا الخبر، واحجب عنهم هذا السر. وقرت نفس بنيامين، وسكنت أحزانه وذهب همه وارتد إليه عازب حلمه، وغدا يتقلب في نعيم أخيه وعزه، وينعم بكرمه وعطفه.

وانقضت أيام الضيافة، وأجمع الركب الرحيل، فأراد يوسف أن يصنع لهم مكراً، ويحدث بهم أمراً فأمر غلمانه أن يجهزوهم بجهازهم، وأن يدسوا وعاء الكيل في رحل بنيامين وبينما هم خارجون مودعين إذا بمناد جهير الصوت يناديهم: أيها الركب المزمع سفراً، المجمع رحيلاً، أنيخوا ركائبكم وأنزلوا متاعكم، فما أنتم إلا سارقون! فدهشوا وذهلوا وأقبلوا على المنادي يقولون: ما هذا الهجر الذي تنطق به، والفرية التي ترمينا بها وما خطبك! وما الذي فقد منك؟! قال: لقد فقدنا صواع الملك، وإنا لنشك أن تكونوا قد سرقتموه وأخفيتموه، فارجعوا عما عزمتم عليه، وأنا زعيم لكم بهذا الشرط، كفيل بهذ الحمل قال إخوة يوسف: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين! قال المنادي: إننا لا نتجنى عليكم، ولا ننصب الشراك لكم، ولكن ما حكمكم لو وجدنا الصواع معكم؟ قالوا: إن لنا شرعاً وديناً، وذمة وعهداً، فمن وجدتموه في رحله فخذوه أسيراً عندكم، عبداً لكم، ذلك هو شرعنا وهذا هو عهدنا، وإنا على يقين من براءة ذمتنا، وطهارة أعراقنا.

وطابت نفس يوسف لهذا العهد، واستروح لهذا الرأي، إذا كان شرع الملك في مصر يجيز له أن يحجز السارق، أو يتحكم فيه، ولكن الله مكّن له فيما أراد عن طواعية من إخوته واختيار فبدأ يفتش أوعيتهم وعاءً وعاءً حتى انتهى إلى وعاء بنيامين، فوجد الصواع مستقرة بين طياته، فاستخرجها منه، وأشهرها في وجوههم، فوجموا وذهلوا، وأطرقوا حياء وخجلاً[1] قال لهم يوسف: عليكم بالشرط، والشرط أملك! فدعوا هذا الذي وجدنا عنده الصواع، نتحكم فيه، ونأخذ حقنا منه.

قالوا: أيها العزيز، إن له اباً شيخاً كبيراً قد ناهز العمرين[2] وأنه ليتعلق بشخصه،

---

(١) لما استخرج الصواع من أمتعة بنيامين قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، تنصلاً من التشبه به زاعمين أن أخاه يوسف سرق من قبل صنماً لجده وكسره فقال يوسف في سره: أنتم شر مكاناً.

(٢) يقال: فلان ناهز العمرين إذا قارب الثمانين.

وقد أخذ علينا عهداً ن نحافظ عليه ونرده إليه، وها نحن أولاء عشرة بين يديك! ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]. قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

ولما استحكم فيهم اليأس من قبول العزيز لشفاعتهم، ونفضوا الأكف من رواج اقتراحهم، خلصوا إلى أنفسهم يتناجون ويتشاورون قال يهوذا: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً، واستحلفكم أيماناً أن تأتوه بأخيكم، وأن تبروا له بأيمانكم فما نقول اليوم! وها نحن أولاء قد فقدنا الأخ، وحنثنا(١) في اليمين.

إنّ جُرح يوسف في كبد أبيكم لم تندمل(٢) وإن دموعه من عينيه لم تنقطع، ونحن قد جنينا في الأولى، وها نحن أولاء نجني في الثانية ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٠- ٨٢].

وذهب التسعة، وخلفوا كبيرهم يهوذا، وتفقد يعقوب بنيامين فلم يجده فيهم فكأن طائراً طار من قلبه، أو كأن قطعة انفصلت عن كبده، ثم قال بصوت حزين: ما صنعتم بأخيكم، وما فعلتم بأيمانكم؟ فقصوا قصصهم، وحدثوه بدخيلة أمرهم، فتولى عنهم، وقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

لقد فقدت يوسف من قبل، واليوم أفقد بنيامين، وأفقد يهوذا: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

(٩)

وتساورت يعقوب الهموم وتشعبته الأحزان، وأقضّت مضجعه الكروب، ولم

(١) حنث في يمينه: لم يف بها.

(٢) لم يندمل: لم يبرأ

يعد يجد متنفساً لهمه، أو سلوة من ألمه، إلا ساعتين: ساعة يفزع فيها إلى ربه ويصلي ويسجد ويتهجد، مستلهماً منه الصبر، مستنجداً بالإيمان واليقين، وساعة يخلص فيها إلى نفسه، ويقضي حق الذكرى لوالديه، ثم يستنجد بالدمع ويستروح(١) بالبكاء، فتسح جفونه، وتفيض شؤونه(٢) فمن الصلاة والذكر يستلهم صبراً وإيماناً، ومن سخين الدمع كان يلقى راحة واطمئناناً.

وما زال به واكف(٣) الدمع حتى ابيضت عيناه وضوى جسمه وتضمر وجهه، حتى كان يوم أطل عليه أحد أبنائه وهو في مخدعه، فوجده قد انصرف من صلاته، وانتهى من دعواته، ثم أخذ يتوجع، ويبكي ولديه، ويقول يا أسفا على يوسف! بصوت وجيع، وهمّ جميع! فهاله ما رأى، ودعا إخوته ليروا معه كيف يتلوى يعقوب في شقائه، وكيف يتألم لبلائه.

قال واحدٌ منهم: أي أبانا، أنت رسول عظيم، ونبي كريم، عليك يهبط الوحي، ومنك نتلقى الهدى والإيمان فما هذا الذي تهلك به نفسك ألم تكف هذه الدموع التي ذرفتها وحتى غارت مقلتاك، وابيضت عيناك! ﴿ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥].

قال يعقوب: إن عذلكم يبعث شقائي، ويثير كامن دائي، وما دون رؤية يوسف أن تسكن لوعتي، وترقأ دمعتي(٤) ويوسف وإن كان قد أكله الذئب في زعمكم، وأخذته المنية في رأيكم حي يتنفس الهواء، وتظله الخضراء(٥) وعلمته إحساساً كميناً في نفسي، وشعوراً ينبعث في قلبي، وفيضاً من الله على علمي، ولكنني لا أدري أي واد سلك، وأي مذهب ذهب، ذلك الذي يثير حزني، ويبعث أشجاني، وما أحراكم لو أردتم - أن تزيلوا عني شعار الهم، وتزيحوا عني غواشي الأسى - أن تضربوا في

---

(١) استروح: وجد الراحة.

(٢) الشؤون: مجاري الدمع.

(٣) واكف: منهمر.

(٤) رقأ الدمع: جف.

(٥) الخضراء: السماء.

الأرض متحسسين عن يوسف وأخيه، معتصمين بالدأب والصبر، غير يائسين من روح الله ورحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وإخوة يوسف يظاهرون أقوال أبيهم في أعماق نفوسهم، ويوافقونه فيما بينهم وبين سرائرهم، فهم ألقوه في الجب، وهم خلّفوه في الفلاة، وما يمنع أن يكون قد خرج من جبه، ونجا من فلاته؟ ولكن أين هو، وأي مكان يشتمله؟ وأي واد يضمه؟ أرض الله واسعة فأين يبحثون؟ وبلاده عريضة فأين يتحسسون! أنتم من يوسف على شفا اليأس، وخيبة الرجاء، ولكن هذا بنيامين يعرفون مكانه، ويعلمون مراحه ومغداه، فليذهبوا إلى العزيز، وليتلطفوا عنده ويتوسلوا إليه، فلعلهم يرجعون به إلى أبيهم فتخف بعض اللوعة، ويجد في لقائه بعض العزاء.

وهبطوا مصر وآمالهم بين الخيبة والرجاء، ووقفوا بين يدي العزيز، ترهقهم ذلة، ويحيطهم انكسار، ذلة العزيز، وانكسار الكريم. قالوا: أيها العزيز، ها قد رجعتنا الأيام إليك، وأرادتنا أن نقف موقف الاستكانة بين يديك؟ وللأيام تقلبات، وللدهر نكبات! وقد جئناك ببضاعة مزجاة(١) إذ الحال رقيق، والعيش نكد، والدهر غير موات، فإن شئت تصدقت بها يقيم الأود، وإن أحسنت إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا، فإنك بذلك تكون قد أرقأت له دمعاً، وخففت عن أبيه لواعج(٢) وأشجانا!

* * *

وإذا كان الله قد بلغ بقصة يوسف ويعقوب أسمى ما يطمح إليه المثل الأعلى من الإيمان بالقضاء، والصبر على الشدة، فقد أذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه، ويكشف لهم عن حاله، وأن يصفح بكرمه عن زلتهم، ويسمو عن إساءتهم ليضم إلى الرؤية فصلاً في الصفح والكرم والعفو والغفران.

قال: ألا تذكرون يوماً في ميعة الحداثة(٣) وغرارة الصبا، زين لكم الهوى، ووسوس الشيطان أن تكيدوا ليوسف وأخيه، فتلقوا بيوسف في الجب، وتصنعوا

---

(١) بضاعة مزجاة: قليلة.

(٢) اللواعج: جمع لاعج، وهو الهوى المحرق.

(٣) ميعة الحداثة: أولها.

مع أخيه صنوف الكيد والإيذاء؟ ثم ألا تذكرون يوم أخذ واحدكم بيده القوية يوسف، وجذبه وهو ضعيف من ثيابه، وأنه قد توسل واستشفع، وبكى وتوجع، فلم تقبلوا منه شفاعة، ولم تأخذكم فيه رحمة، بل ألقيتموه في الجب وحيداً ضعيفاً تعمل فيه الأقدار.

فتخالجهم الشك في أمره، وداخلهم الريب في حقيقة حاله، إنه ليذكر أشياء وقعت، من أعلمه بها؟ ويحدث عن تاريخ، من قصه عليه؟ أيكون بنيامين؟ ولكن بنيامين وكل الناس في أمر يوسف سواء، إنه لا يعرف شيئاً عن حقيقة أمره، ولا حادث إلقائه في الجب! ورجعوا بعد الحدس والتخمين إلى يوسف يتوسمون علاماته، ويتذكرون ما كانوا يعرفونه عن ملامحه وشاراته، وما غابوا في هذا طويلاً حتى صاح واحد منهم يقول: والله إنك لأنت يوسف!

وما كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار إلى بنيامين: نعم.

فامتقعت(١) ألوانهم، واضطربت مشاعرهم وتلجلج الحديث بين أشداقهم، وتمنوا لو انشق نفق في الأرض فابتلعهم، أو هبط عليهم كوكب فصعقهم... ويوسف كان أكرم نفساً من أن يطيل خوفهم وأوسع صدراً من أن يكافئهم بزلتهم، فهم ما برحوا إخوته وبني أبيه، وإن تظاهروا(٢) على قتله، والفتك به وإن توافروا على الكيد له ولأخيه.

فقال لهم: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢- ٩٣].

ونعود إلى يعقوب عليه السلام، وقد امتحن حقبة من الدهر فتحمل، وابتلي بما تعجز عن حمله الجبال فصبر، وأن الله لهذا كتبه في صحيفة الأنبياء أولي العزم الأخيار، الطاهرين المحتسبين الأبرار، وأعدّ له الجنة جزاءً وفاقاً، ومكرمة وثواباً، وأراد أن يكافئه في الدنيا، إطماعاً لمن يصبر من خلقه، وعزاء لمن يبتلى من عباده.

---

(١) امتقعت ألوانهم: تغيرت.

(٢) تظاهروا: تعاونوا.

ذهب إلى مصلاه يوماً، فصلى وذكر الله، ثم بكى ما شاء الله أن يبكي، وفجأة هدأت ضلوعه، وجفت دموعه، ودخل روح على قلبه. ما هذا الشعور الغريب والإحساس الوافد! إنه ليشعر بانشراح في أعماق نفسه، وابتهاج في قرارة وجدانه، ونشوة نبتت في أيامه الماضية، وعهوده الذاهبة، حينما كان يخطر(١) يوسف بين يديه ويرى ابتسامة الحياة بين شفتيه! أحسَّ هذا يعقوب، فصاح بملء قلبه وجوارحه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] انعكس هذا الريح هزة في أعطافي، وتغريداً في خواطري، وروحاً وريحاناً في قلبي.

وما كان يعقوب خاطئاً في وهمه، ولا بعيداً في استرواحه، فقد فصلت(٢) العير عن مصر تحمل القميص، قميص يوسف الذي يحمل البشرى، ويرد على يعقوب نعمة البصر والحياة، وقطعت العير طريقها، وجاء البشير، فألقى القميص على يعقوب فإذا بصره قد عاد، ورشده قد ثاب(٣)

وقصوا عليه قصتهم، وحدثوه بما كان من أمرهم، ثم طلبوا إليه المغفرة والرضوان.

قال يعقوب: لست أملك من أمركم شيأً، أو أستطيع لكم من عذاب الله دفعاً، ولكني استغفر لكم ربي، وهو الغفور الرحيم. زموا إبلكم، وأجمعوا إرادتكم، وهيا بنا إلى ساحة العزيز.

ورأى يوسف أبويه في ساحته، وحولهما أحد عشر من إخوته، والجميع يسجدون له معظمين، ويقفون بين يديه خاشعين، فرفع يديه إلى السماء - شاكراً أنعمه -، ذاكراً فضله وهو يقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

[جاد المولى وآخرون، قصص القرآن: ٧٢- ١٠٩]

☆☆☆

(١) يخطر: يمشي بدلال.

(٢) فصلت: رحلت

(٣) ثاب: عاد، ورجع.

الباب الحادي عشر
بين الراعي والرعية

المعاصي تذهب بالبركة

حدث بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شيئاً في ذلك العام ولا ثمرة واحدة، وقال شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرادب وستين وبيه وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل وبيه بدينار(١).

وحكى أيضاً - رحمه الله تعالى - قال: شهدت في الإسكندرية والصيد مطلق للرعية، والسمك يطفو على الماء لكثرته، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالي ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن أمرأة لها حديقة فيها القصب الحلو، وأن كل قصبة منها تعصر قدحاً، فعزم السلطان على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم ثم أنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟ فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها. فتاب السلطان وأخلص النية لله أن لا يأخذها أبداً ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

[صيد القلم: المستطرف: ١/ ٢٣١]

---

(١) الويبة: كيلتان، والأردب ست ويبات.

أضمرَ المِلكُ لنا شراً

خرج كسرى في بعض أيامه للصيد ومعه أصحابه، فعنّ له صيد فتبعه حتى انقطع عن أصحابه، وأظلته سحابة فأمطرت مطراً حال بين أصحابه وبين اللحوق به، فمضى لا يدري أين يقصد، فرفع له كوخ فقصده، فإذا عجوز بباب الكوخ، وأدخل فرسه وأقبل الليل فإذا ابنة العجوز قد جاءت معها بقرة قد رعتها بالنهار، فأدخلتها الكوخ وكسرى ينظر، فقامت العجوز إلى البقرة ومعها آنية فاحتلبت البقرة لبناً صالحاً وكسرى ينظر، فقال في نفسه: ينبغي أن يُجعل على كل بقرة إتاوة (ضريبة) فهذه أحلاب كثيرة وأقام بمكانه، فلما مضى أكثر الليل، قالت العجوز: يا فلانة قومي إلى البقرة فاحلبيها فقامت إلى البقرة فوجدتها حائلاً لا لبن فيها، فنادت أمها:

يا أماه والله قد أضمر لنا الملك شرا، فقالت: وما ذاك يا بنية؟ قالت: هذه البقرة حائل ما تبس[1] بقطرة، فقالت لها أمها: أمكثي عليها قليلاً، فقال كسرى في نفسه: من أين علمت ما أضمرت في نفسي؟ أما إني لا أفعل ذلك، فمكث ثم نادتها: يا بنية قومي إلى البقرة، فقامت إليها فوجدتها جافلاً (فيها لبن كثير)، فنادت أمها: يا أماه! لقد ذهب ما في نفس الملك من الشر، فهذه البقرة جافل فاحتلبتها، وأقبل الصبح وتتبع الرجال أثر كسرى حتى أتوه، فركب وأمر بحمل العجوز وابنتها إليه فحملتها فأحسن إليهما، وقال: كيف علمت أن الملك قد أضمر شراً، وأن الشر الذي أضمره قد عدل عنه، قالت العجوز: أنا بهذا المكان من كذا وكذا سنة ما عُمِل فينا بعدل إلا خصب بلدنا واتسع عيشنا، وما عُمِلَ فيها بجَوْر إلا ضاق عيشنا وانقطعت مواد النفع منّا.

[الجليس الصالح: ٢/ ٤٣٦]

عُمر بن الخطاب ينصحُ للوالي الجديد

وقف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ذات يوم يودع أحد ولاته قبل سفره إلى إقليمه الذي سيحكمه، وسأله: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ فأجابه

---

(١) تبس: تقطر، تنزل، تسيل.

الوالي: أقطع يده.

فقال عمر: إذاً فإن جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك. ثم تابع عمر حديثه فقال: إن الله استخلفنا على عباده لسد جوعتهم ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم. فإذاً لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

[صيد القلم: ٥٩٥]

هشام وفتى صغير
(من عُرِف بالفصاحةِ لاحظتْهُ العيونُ بالوَقار)

قحطت البادية في أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم، فدخلوا عليه، وكان فيهم فتىً يبلغ سنّهُ ست عشرة سنة يدعى درواس بن حبيب، وكان في رأسه ذؤابة، وعليه عباءة، وفي يده منسأة[1]. فنظر إليه هشام، والتفت لحاجبه وقال له: ما شاء امرؤ أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فوثب الفتى بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، إن دخولي عليك لم يحط بقدرك، ولكنه شرّفني، وإن هؤلاء الوفود قد ائتمنوني وأتمّوا بي، وقَدِموا في أمر فهابوك دونه، وإن للكلام نشراً وطَيّاً، وإنه لا يعرف ما في طيِّه إلا بنشره. فإن أذن أمير المؤمنين أن أنشره نشرته.

فأعجبه كلامه وقال: أنشره لله درك. فقال: يا أمير المؤمنين، أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم. وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين. فقال هشام: ما ترك لنا في واحدة في الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمئة ألف دينار، وله بمئة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ تذكرها لنفسك قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو سيد القوم.

[لباب الآداب: ٣٥٢]

---

(١) المنسأة: العصا.

عُمرُ بن الخطاب وأمُّ الرَّضيع

قدمت إلى المدينة المنورة قافلة من التجار وفيها النساء والأطفال. فقال عمر رضي الله عنه لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم هذه الليلة؟ فباتا يحرسانهم ويصلِّيان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء طفل فأفزعه البكاء، فتوجه نحوه وقال لأمه: يا أم الصغير اتقي الله وأحسني إلى طفلك، وعاد إلى مكانه، ثم مرّت ساعة وعاد ولم يسكت الطفل، فقام لأم الطفل: ويحك لا أراك إلا أم سوء! مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ فقالت له: يا أخا العرب لقد آذيتني إني أريغه(١) على الفطام فيأبى (أي أكرهه على الفطام كُرهاً فيأبى) قال: ولم؟ قالت: لأن عمر بن الخطاب لا يفرض إلا للفطيم (أي لا يعطي للآباء عن أولادهم إلا إذا فطموا) قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهر. قال: ويحك لا تعجليه فذهب عمر رضي الله عنه ليصلي الفجر فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: والله ما استطعت أن أتبين قراءة القرآن من بكائه في الصلاة، ولما فرغ من الصلاة قلب كفيه حزناً وقال: لك الله يا عمر كم قتلت مَن أطفال المسلمين وما أن طلعت الشمس حتى أمَر منادياً، فنادى في المسلمين أن لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب في ذلك إلى الآفاق.

[من روائع حضارتنا: ٤٩]

أعطِهِ قميصي لذلك اليوم

قدم رجل من الأعراب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه صبية له وزوجته فقال يخاطب عمر:

يـا عمـرَ الخـيرِ جُزيـتَ الجنّـة ... أكـسُ بنيـاتي وأمهنّـه

ومـن لنـا في ذا الزمـان جُنّـة(٢) ... أقسـمت بـالله لتفعلنـه

---

(١) أريغه: أرغِمُه وأجبره.

(٢) جُنة: ستر ووقاية.

فقال عمر: فإن لم أفعل يكون ماذا؟

قال: إذاً أبا حفص لأذهبنّه.

قال: فإذا ذهبت يكون ماذا؟ قال: يكون عن حالي لتسألنه.

قال عمر: ومتى؟

قال:

يـــومَ تكـــونَ الأعطيـــاتُ مِنّـــه(١) والواقـــف المســـؤول بينهنّـــه

إمّــا إلــى نــار وإمّــا جــنّه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته، ثم قال لغلامه: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره.

[أخبار عمر: ٣٤٩]

مَنْ عَفَا سادَ ومن حَلُم عَظُم
(بين معاوية وعبد الله بن الزبير)

كان لعبد الله بن الزبير أرض، وكان له عمال يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عمال يعملون، فدخل عمال معاوية في أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول فيه: أما بعد يا معاوية فإن عمالك دخلوا أرضي فانْهَهم عن ذلك وإلا لكان لي ولك شأن، والسلام.

فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه، دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني، ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك فيأتوك برأسه. فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني. ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه: «أما بعد، فقد وقفت على كتاب ابن الزبير وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي، أضفها إلى أرضك بما فيها من المال والعمال، والسلام».

فلما وقف عبد الله بن الزبير على كتاب معاوية كتب إليه: «قد وقفت على كتاب

(١) المنة: الإحسان.

أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام».

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر، فقال له: يا بني من عفا ساد ومن حلم عظم، وما تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء.

[جمهرة رسائل العرب: ٢/ ٥٤]

الأعرابي والحجاج

قال صعصعة بن صوحان: خرجنا مع الحجاج حاجاً إلى بيت الله الحرام، فبينما نحن في بعض الطريق إذا نحن بصوت أعرابي يلبي بين الغيضة(١). فلما فرغ من التلبية قال: «كلامك اللهم لك، والجاريات في الفلك على مجاري من سلك، فقد اتبعنا رسلك، ما خاب عبد أمّلك، أنت له حيث سلك». فقال الحجاج تلبية موحد ورب الكعبة. لا يفوتنكم الرجل، فأسرع ما كان حتى أتى بأعرابي على ناقة برحاء بلحاء(٢). فقال الحجاج: من أين أقبلت يا أخا العرب، وإلى أين تريد؟ قال: جئت من الفج العميق، قال: ومن أي الفجاج أنت؟ قال: من العراق وأرضها. قال: من أي العراق أنت؟ قال: من مدينة الحجاج بن يوسف، قال فما سيرَتُه فيكم؟ قال: سيرة فرعون في بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، قال: فهل خلفته ظاعناً أو مقيماً! قال بل ظاعناً، قال: إلى أين؟ قال إلى الحج ولن يتقبل الله منه. قال: وهل خلف أحداً بعده؟ قال: نعم أخاه محمد. قال فما سيرته فيكم؟ قال: ظلوم غشوم، واسع البلعوم، عاص مشؤوم، قال له الحجاج هل عرفتني؟! قال الأعرابي: اللهم لا قال الحجاج: أنا الحجاج بن يوسف. قال الأعرابي: أشر والله ممن أظلت الخضراء، وأقلت الغبراء، ويشرب منه الماء، بغيض مبغوض. لعين ملعون. في الدنيا والآخرة. قال الحجاج: والله يا أعرابي لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك. قال الأعرابي: « إن لي رباً يخلصني وينجيني منك».

---

(١) الغيضة: الأجمة، والموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٢) برحاء: شديدة، وبلحاء: كبيرة السن، ناضجة.

قال: يا أعرابي إني سائلك؟ ما تقول في محمد رسول الله ﷺ ؟ قال: وما عسى أن أقول في محمد ﷺ صاحب القضيب والناقة والحوض والشفاعة وزمزم والسقاية ومن قرن الله اسمه باسمه، يدعى في كل يوم وليلة عشر مرات في الأذان والإقامة. قال فما تقول في أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: وما عسى أن أقول في صديق في السماء وصديق في الأرض وصاحبه في الغار، وأسلم وهو يملك ثمانين ألف دينار أنفقها في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ. ومع ذلك يا حجاج يوم قرأ النبي: «يا أيها الذين آمنوا جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله»، وقال عليه السلام: «سمعتم ما قال ربكم تبارك وتعالى ألا من كان عنده شيء فليأتني بها أمكنه، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأتى بجميع ما عنده. وقام عمر رضي الله عنه وأتى بثلث ما عنده. وقام عثمان رضي الله عنه وأتى بثلث ما عنده. فقالوا: خذ يا رسول الله... والله عندنا المزيد».

قال: الحجاج فما تقول في عمر بن الخطاب؟ قال: وما عسى أن أقول في فاروق السماء وفاروق الأرض. وفرق بين الحق والباطل على لسانه. وإذا كان يوم القيامة يأتي الحق والإسلام ويتعلقان فيه فيجزع عمر رضي الله عنه منهما فيقولان له: لاتجزع فنحن الحق والإسلام اللذان كنت تقوم بنا في الدنيا. ومن ذلك يا حجاج أن رسول الله ﷺ كان عند حفصة فدخلت عليه صفية فقال لها: لا تخبري عائشة. فخرجت وأخبرت أم سلمة. فأخبرت أم سلمة عائشة رضي الله عنها. فتظاهر عليه أزواجه فجاءهنّ عمر مغضباً فقال لهن: لم تتظاهرن على رسول الله ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا ﴾ [التحريم: ٥]... فنزلت الآية كذلك موافقة لقول عمر رضي الله عنه..

قال الحجاج: فما تقول في عثمان بن عفان؟ فقال الأعرابي: وما عسى أن أقول في حافر بئر رومة، ومجهز جيش العسرة، ومن سبّح في كفه الحصى واستحيت منه ملائكة السماء. ومن ذلك يا حجاج يوم دخل على رسول الله ﷺ وكان جالساً على الأيسر وركبته مكشوفة. فدخل أبو بكر والنبي عليه الصلاة والسلام على حاله، فدخل عمر رضي الله عنه والنبي ﷺ على حاله، فلما استؤذن لعثمان بادر له وغطى ركبته، فنظر أبو بكر إلى عمر وعمر إلى أبي بكر. فقالا: يا رسول الله تغطيت من عثمان، وعثمان صهرك ونحن أصهارك فقال النبي ﷺ: ألا أستحي ممن تستحي منه

الملائكة؟

فقال الحجاج: ما تقول في حق علي بن أبي طالب؟ فقال الأعرابي: وما عسى أن أقول في ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته البتول.. فقال الحجاج: فما تقول في الحسن والحسين؟ قال الأعرابي: وما عسى أن أقول فيمن ولدتها البتول، ورباهما الرسول، فهل لهما مثل وعديل؟ فقال الحجاج: فما تقول في معاوية؟ قال: وما عسى أن أقول في خال المؤمنين وكاتب وحي رسول رب العالمين ورديف رسول الله ﷺ على بغلته دلدل... فقال له النبي: ما يليني منك يا معاوية؟ فقال: بطني يا رسول. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ملأه الله علماً وحلماً، فقال الحجاج: ما تقول في يزيد بن معاوية؟ قال الأعرابي: كما قال من هو خير مني لمن هو شر منك وشر مني؟ موسى عليه السلام خير مني وفرعون شر منك.

قال الحجاج: فما قال فرعون لموسى؟ قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١- ٥٢] فقال الحجاج: فما تقول في عبد الملك ابن مروان؟ فقال الأعرابي ذلك والله أخطأ خطيئة ملأت بين السماء والأرض فقال الحجاج: وكيف ذلك؟ قال الأعرابي: ولاّك على أمور المسلمين تحكم في أموالهم ودمائهم بجور وظلم.

[تروى هذه القصة بروايات مختلفة، انظر: صور من حياة التابعين: ٢٢٤]

عمر يشتري مظلمة العجوز

عن أسلم قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرّة واقم[1] حتى إذا كان بصرار إذا نار تشتعل فقال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركاباً قصّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة عندها صبيان، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار، فقالت: وعليكم السلام. فقال: أأدنو؟ فقالت: أُدن بخير أو دع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟ فقالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع. قال: وأيّ شيء في هذا القدر؟ قالت: ماء

(١) حرة واقم وصرار منطقتان تبعدان عن المدينة حوالي ثلاثة أميال.

أسكتهم به حتى يناموا. والله بيننا وبين عمر. فقال: أي رحمك الله، وما يدري بكم عمر. قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنّا.

فأقبل عليَّ، فبكى عمر وقال: واعمراه كل الناس أفقه منك يا عمر، انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، وقال: احمله عليّ، قلت: أحمله عنك يا أمير المؤمنين. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أمّ لك! فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذرّي عليّ أنا أحرّ لك(١). وجعل ينفخ تحت القدر فرايت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم. ثم أنزلها، وقال: أبغيني شيئاً. فأتته بصفيحة فأفرغها فيها، فجعل يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم(٢). فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، والله إنك لأحق بالخلافة من عمر. فقال عمر: يا خالة إذا كان من الغد فأت إلى عمر فسأكون هناك وسوف أكلمه في شأنك، وانصرف وجلس وراء صخرة ينظر إلى الصبيان، فقلت: يا أمير المؤمنين البرد شديد، فقال: والله لا أبرح مكاني حتى يضحكوا كما أتيتهم وهم يبكون، ثم تنحى ناحية عنها، ثم اسقبلها فربض مربضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلم يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدؤوا. فقام يحمد الله ثم أقبل عليّ وقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

ولما كان من الغد ذهبت العجوز إلى دار الخلافة، فوجدت الرجل الذي جاء بالدقيق ليلة البارحة يجلس بين علي وابن مسعود رضي الله عنهما، وكلاهما يقول له: يا أمير المؤمنين، فلما رأته وعلمت أنه عمر أصابتها رعدة، فوضعت يدها على رأسها وقالت: واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين في وجهه! فقال لها عمر رضي الله عنه: لا بأس عليك يا خالة يرحمك الله، بكم تبيعيني مظلمتك؟ فقالت: المعذرة يا أمير المؤمنين. قال: لا والله لن تغادري هذا المكان حتى تبيعيني مظلمتك، وما زال بها حتى اشترى منها مظلمتها بخمسة وعشرين ديناراً من ماله الخاص. ثم طلب رقعة

---

(١) أي أتخذ لك حريرة وهي حساء من دقيق ودسم.

(٢) أي أبسطه حتى يبرد.

يكتب فيها فلم يجد، فقطع قطعة من مرقعته(١) وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً، فما تدعي عند وفاته ووقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه بريء، شهد على ذلك عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما، ثم دفع الكتاب إلى ولده وقال: إذا متّ فاجعله في كفني ألقى به ربي.

[بتصرف عن أخبار عمر: ٣٤٤، ونوادر الأدباء: ٥٠]

عمر بن الخطاب وزوجته
يخدمان امرأة نفساء

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ليلة من الليال يطوف ويتفقد أحوال المسلمين، فرأى بيتاً من الشعر مضروباً، لم يكن قد رآه من قبل، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعداً، فدنا منه وقال له: من الرجل؟ قال: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق، قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا فانطلق عمر إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب وبنت فاطمة الزهراء رضي الله عنهم: هل لك من أجر قد ساقه الله تعالى إليك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد، قالت: إن شئت يا أمير المؤمنين، قال: فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وأتني بقدر وشحم وحبوب، فجاءته به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى أتى البيت الذي فيه المرأة، فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي ناراً، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها، وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام فلما سمعها تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يطلع على صغير أمورهم وكبيرها، فإنه عنها مسؤول،

(١) مرقعته: من لباس الصوفية، لما فيها من الرقع.

ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضي الله عنه وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، فأخذتها أم كلثوم، وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله عنه للرجل: قم إلى بيتك وكل ما في البرمة(١)، وفي غدٍ ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

[أخبار عمر: ٣٤٦]

حُسْنُ السِّيَاسَةِ

روي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قد أتاه يوماً أمير إحدى القبائل الضاربة شمال سوريا، والتي لم تكن قد بايعته بعد، فقال له الأمير وكان في حضرة معاوية ابنه يزيد:

«يا معاوية إن إبلك قد شردت وارتعت العشب في أرضي ولعلك رمت النقص من شرفي، وإني والله لا أسمح لإبل أمثالك أن تدخل أرضي، فإذا دخلت ثانية ذبحتها ونلت من كرامتك». وخرج الأمير وعلى ثغر معاوية ابتسامة أغضب ولده يزيدَ، فوقف يزيد وقال لأبيه: «مالك يا أبت؟ يتوعدك هذا الرجل وينال من شرفك وأنت تبتسم؟» فلم يحر الخليفة جواباً!

وحدث أن شردت ناقة من نياق معاوية ودخلت أرض هذا الأمير، وبعد أيام جاء الأمير إلى معاوية وقال له: «إنك تجاوزت الحد في إهانتي، ودخلت ناقة لك في أرضي، فذبحتها وأكلتها أنا وأهلي، وإنني جئت لأعلمك بما فعلت».

فابتسم معاوية وقال: «إني قد بعثت بها عمداً إليك كي تذبحها، فهي هدية مني إليك».

فاحمرّ وجه الأمير خجلاً واعتذر من الخليفة وقبّل الأرض بين يديه وبايعه هو وقبيلته بالخلافة، عندئذ أرسل معاوية في طلب ابنه يزيد وأخبره بما فعل الأمير، وقال له:

«أتعرف الآن يا بني، أن الابتسامة خير من استعمال القوة؟ فقد نلت مأربي منه دون اللجوء إلى السيف، ولو فعلت لما نلته كاملاً كما نلته الآن».

[مجلة الأمة/ قطر، ع ١٤ سنة ١٤٠٢ هـ ص١٦]

---

(١) البرمة: القِدر من الحجارة.

الله أقوى من السلطان

رووا أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إليه المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟

فقال: بل اضرب المثل، فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه لا يعرف غيرها، وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان.

وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه!!

تسامح الإسلام

روى الإمام أبو يوسف في كتابه (الخراج): أن عمر – رضي الله عنه – مر بباب قوم وعليه سائل يسأل، كان شيخاً ضريراً، يبدو عليه أنه ذمي، فضرب عمر بعضده، وقال:

من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

فقال: ما ألجأك إلى ما أرى؟

قال: الجزية والحاجة والسن.

فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه شيئاً مما عنده، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا وضرباءه[1]، فوالله ما أنصفنا الرجل أن أكلنا شبيبته، ثم

---

(١) ضرباءه: أمثاله ومن هم على شاكلته.

نخذله عند الهرم: (إنما الصدقت للفقراء والمساكين) وهذا من مساكين من أهل. الكتاب. ثم رد عنه الجزية وعن أمثاله.

[الخراج، لأبي يوسف: ص ١٢٦]

☆ ☆ ☆

الباب الثاني عشر
مع الأذكياء

ذكاء كاتب
(ما يظنه الوالي مدحاً وفيه عزله عن منصبه)

حكي: أن المأمون ولّى عاملاً على بلد من بلدان الخلافة، وكان يُعرفُ منه الجَوْر(١) في حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليتعرف أحواله، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه آخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى في أقضيته، أغنى قاصداً وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمّر منهم المساجد الدائرة(٢)، وأفرغهم من عمل الدنيا، وأشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام.

فكان معنى قوله: آخذاً بالعزم، أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى بين أقضيته، أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير، وقوله: عمّر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وأشغلهم بعمل الآخرة، ويعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئاً من الدنيا،

---

(١) الجور: الظلم.

(٢) الدائرة: البالية المتهدمة.

ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولى عليهم غيره.

[المستطرف: ١/ ١٠٢]

شُربة الماءِ بخَمْسةِ دَراهم

حدث يحيى بن جعفر قال: سمعت أبا حنيفة يقول: احتجت إلى ماء في البادية، فجاءني أعرابي ومعه قربة من ماء، فأبى أن يبيعنيها إلا بخمسة دراهم، فدفعت إليه خمسة دراهم وقبضت القربة، ثم قلت له: يا أعرابي؛ ما رأيك في السويق[1] فقال: هات. فأعطيته سويقاً ملتوتاً بالزيت، فجعل يأكل حتى امتلأ، ثم عطش، فقال: شربة قلت: بخمسة دراهم، فلم أنقصه من خمسة دراهم على قدح من ماء، فاستردت الخمسة دراهم وبقي معي الماء.

[كتاب الأذكياء: ٧٨]

الديون تمنع من السفر

حدث ابن الوليد قال: كان في جوار أبي حنيفة فتى يعتني مجلس أبي حنيفة ويكثر الجلوس عنده، فقال يوماً لأبي حنيفة: إني أريد التزويج إلى فلان من أهل الكوفة، وقد خطبت إليهم، وقد طلبوا مني من المهر فوق وسعي وطاقتي، وقد تعلقت نفسي بالتزويج، فقال: أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما يطلبونه منك، فأجابهم إلى ما طلبوه، فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه، جاء إلى أبي حنيفة، فقال له: إني قد سألتهم أن يأخذوا مني البعض وليس في وسعي الكل، وقد أبوا أن يحملوها إليّ إلا بعد وفاء الدين كله، فماذا ترى؟ قال: احتل واقترض حتى تدخل بأهلك، فإن الأمر يكون أسهل عليك من تشدد هؤلاء القوم، ففعل ذلك وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه، فلما دخل بأهله وحُملت إليه قال أبو حنيفة: ما عليك أن تظهر أنك تريد الخروج عن هذا البلد إلى موضع بعيد، وأنك تريد أن تسافر بأهلك معك، فاكترى[2] الرجل

(١) السويق: طعام يتخذ من دقيق الحنطة والشعير.

(٢) اكترى: استأجر.

جملين وجاء بهما وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش، وأنه يريد حمل أهله معه، فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤوا إلى أبي حنيفة ليسألوه ويستعينوه في ذلك، فقال لهم أبو حنيفة: له أن يخرجها إلى حيث شاء. قالوا له: ما يمكننا أن ندعها تخرج. فقال لهم أبو حنيفة: فأرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه، فأجابوه إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى: إن القوم قد سمحوا أن يردوا عليك ما أخذوه منك من المهر ويبرئوك منه، فقال له الفتى: وأنا أريد منهم شيئاً آخر فوق ذلك، فقال أبو حنيفة: أيما أحب إليك أن ترضي بهذا الذي بذلوه لك، وإلا أقرت المرأة بدَيْن لرجل لا يمكنك أن تحملها ولا تسافر بها حتى تقضي ما عليها من الدَّين، فقال الرجل: الله الله لا يسمعوا بهذا، فلا آخذ منهم شيئاً، فأجابه إلى الجلوس وأخذ ما بذلوه من المهر.

[كتاب الأذكياء: ٨٧]

فطنة وإخلاص
(القاضي الفاضل ينجي صديقه من الموت)

حكي: أن للقاضي الفاضل صديقاً خصيصاً به، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين(١) وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر، فغضب عليه، وهم بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يُعرِّف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل: اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عنه، واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه، فتحير الفاضل بين الإثنين: صديقه الذي يعز عليه، والملك الذي لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمد لله والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إنّ شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدد (إنّ) هذه، وكان قصد الفاضل: إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً فلما أراد أن ينهي

---

(١) في بعض المراجع «محمود بن صالح صاحب حلب». وليس الناصر صلاح الدين، والله أعلم بالصواب.

الكتاب، ويكتب إنا شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً وأراد بذلك (إنّا لن ندخلها ما داموا فيها)، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه، ففرح بذلك. ونجا صديقه.

[المثل السائر: ٣/ ٩٣]

حيلة طريفة في تخليص المال
(قبل أن يعلموا بإسلامي)

حكي أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون، جاءه الحجّاج بن علاط السلمي، وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال: يا رسول الله: إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة ولي مال متفرق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف أن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني محتاج إلى أن أقول(١)، فقال له رسول الله ﷺ قل، وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى الثنية، ثنية البيضاء، وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع (يعنون محمداً ﷺ) قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخير ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون إيه يا حجاج؟ قال: فقلت هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأُسِرَ محمدٌ وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهركم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنظرون أن يُقْدَم به عليكم، فَيُقْتل بين أظهركم قال: قلت أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليّ حتى وقف إلى جانبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ فقلت: وهل عندك حفظ لما

---

(١) يريد أن يخدعهم بالكلام

أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله، قلت: استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فاكتم على ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت قال: لك عليّ ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم، يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت: أي والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلماً لآخذ مالي خوفاً من أن أغلب فيه فإذا مضت ثلاثة، فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب، قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحَتْ له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم، قالوا: تفلت عدو الله بذلك. فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

[السيرة النبوية: ٣/ ٣٥٩]

الإقرارُ أولى مِنَ الإنكار
(التاجرُ والوالي)

كان امرؤ من التجار يستحم في نهر، وقد وضع صرةً مملوءة لآلئ وأموالاً كانت معه على شاطئ ذلك النهر، فجاءت حدأة والتقطت الصرة وطارت، فجرى وراءها لينتشل منها ما اختلسته حتى أعيا؛ لبطء حركته وسرعة طيرانها، فكاد يطير عقله، وقصد إلى والي البلدة وانبأه بذلك مؤملاً منه أن يجد له صرته.

فسأله الوالي: إلى أي الأنحاء كان اتجاه الحدأة؟ فأومأ[١] إلى بعض القرى، فقال له الوالي: اذهب وأتني بعد أيام. فائتمر بأمره.

(١) أومأ: أشار إلى ناحية.

ثم أنفذ الوالي إلى رئيس تلك القرية، أن أنبئني بمن أثرى في قريتك الآن بعد أن كان في بؤس. فأنهى: إن فلاناً كان ضئيل الحال فأصبح ذا وفرة ونعمة كأولي الغنى، فأمر بإحضاره. فلما انتهى إليه قال له: أين صرة اللآلئ والأموال التي وقعت عندك يوم كذا؟ فقال الرجل في نفسه: علام أنكر والوالي عالم بالمسألة؟

فأقر بها وقال: هي عندي برمتها لم آخذ منها غير بعض دريهمات صرفتها في إصلاح شؤوني، لئن شئت سامحتني بها، فأبرأ ذمته منها وكافأه على صدقه وقال: لو أتيتني بالصرة من غير سؤال مني لأجزلت لك المكافأة. ثم ردها إلى صاحبها، وعوض له ما فقد منها.

[المفرد العلم: ١٣٠]

أقر الله عين الأمير
(اللبيب تكفيه الإشارة)

دخلت امرأة على هارون الرشيد، وهو بين فئة من أصحابه فقالت: يا أمير المؤمنين أقرَّ الله عينك وفرحك بما أعطاك، وأتمّ سعدك، لقد حكمت فقسطت. فقال: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم(١). فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم قدر الله، وأما المال فمردود إليك. ثم توجه إلى أصحابه وقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما فهمتم غرضها، أما قولها: أقر الله عينك- تريد أسكنها عن الحركة- وإذا سكنت عميت، وأما قولها: وفرحك بما أعطاك، تشير به إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وأما قولها: حكمت فقسطت، تشير به إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ(٢) فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، وأما قولها: وأتم سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

---

(١) النوال: النصيب والعطاء.

(٢) القاسطون: الجائرون، الظالمون.

إذا تـــــمَّ أمـــــرٌ بـــــدا نقصُــــــه توقـــع زوالاً إذا قيـــل قـــد تـــمّ

فتعجب الحاضرون من عبقرية الرشيد وسرعة خاطره.

[صيد القلم: ٢٦١]

الرشيد والخارجي
(قوة الحجة قد تكون من أسباب النجاة)

ظفر الرشيد برجل من الخارجين عليه، فقال له: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: الذي تريد أن يصنعه بك الإله إذا وقفت بين يديه، ولا أجد أذل مني بين يديك. فأطرق الرشيد ثم قال: أذهب حيث شئت، فأغراه جلساؤه به، وحذروه منه. فأمر بردّه، فلما حضر قال: يا إمام الأئمة لا تطعهم فيّ، فلو أطاع الله فيك خلقه ما استخلفك عليهم. فعجب من قوله، وكمال فطنته، وخلى سبيله، لقوة حجته، وتمام ذكائه، فخرج آمناً مطمئناً.

[المفرد العلم: ٧٤]

نحن من ماء

جاء في السيرة النبوية لابن هشام: أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى «بدر» مرّ حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن «محمد» وعن «قريش» وما بلغه من خبر الفريقين، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممن أنتم، فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، فقال الشيخ: خُبِّرت أن محمداً خرج من المدينة وقت كذا، فإن كان الذي خبرني صدق فهو اليوم بمكان كذا، للموضع الذي فيه رسول الله ﷺ وخبرّت أن قريشاً خرجت من مكة وقت كذا، فإن كان الذي خبرني صدق، فهي اليوم بمكان كذا – للموضع الذي فيه قريش، ثم قال من أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ «نحن من ماء» ثم انصرف.

فجعل الشيخ يفكر ويقول: من ماء! من ماء العراق، أو ماء كذا أو ماء كذا..؟ يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ في قوله، فإن الله عز وجل قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥– ٦].

وكما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: هو رجل يهديني السبيل، وقد صدق فيما قال رضي الله عنه، فقد هداه الله وهدانا السبيل، لا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام.

وكما حكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشافعي: إياي تعني، قال: نعم. قال: مخلوق، فرضي خصمه منه بذلك، ولم يرد الشافعي إلا نفسه.

وكما حكي عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته، وهم فريقان قوم سنة وقوم شيعة، فقيل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم علي رضي الله عنهما، فقال: أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته، فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه؛ لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر، وهي عائشة رضي الله عنها، وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى الرسول ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها، وكانت تحت علي رضي الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وَسِنةِ، والله أعلم.

ويروى كذلك عن ابن حنبل أنه عندما سئل عن القرآن مخلوق هو أم غير ذلك، فأشار إلى أصابعه وقال: القرآن والإنجيل والتوراة والزبور هؤلاء مخلوقون، ولم يرد إلا أصابعه رضي الله عنه.

[انظر: السيرة النبوية: ٢/ ٢٦٨، وكذلك عيون الأخبار: ٢/ ١٩٤]

السِّرُّ في الخِروع

حدث أن بعض التجار قدم من خراسان ليحج فتأهب للحج وبقي معه من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها، فقال: إن حملتها خاطرت بها، وأن أودعتها خفت جحد المودّع، فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرة خروع، فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد، ثم خرج إلى الحج وعاد، فحفر في المكان الذي وضع فيه المال فلم يجد شيئاً، فجعل يبكي ويلطم وجهه، فإذا سئل عن حاله قال: الأرض سرقت مالي، فلما كثر ذلك منه قيل له: لو قصدت عضد الدولة، فإن له فطنة وذكاء، فقال: أو يعلم الغيب؟ فقيل له لا بأس بقصده. فأخبره بقصته، فجمع الأطباء فقال لهم: هل داويتم هذه السنة

أحداً بعروق الخروع؟ فقال أحدهم: أنا داويت فلاناً وهو من خواصك. فقال: عليّ به فجاء، فقال له: هل تداويت في هذه السنة بعروق الخروع؟ قال: نعم. قال من جاءك به؟ قال: فلان الفراش. قال عليّ به، فلما جاء قال: من أين أخذت عروق الخروع؟ فقال: من المكان الفلاني، فقال: أذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه. فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة، وقال: من هذه الشجرة، فقال الرجل: ههنا والله تركت مالي، فرجع إلى عضد الدولة فأخبره، فقال للفراش: هلمّ بالمال، فتلكأ، فتهدده، فأحضر المال وأعطاه لصاحبه.

[كتاب الأذكياء: ٦٢]

السُّم في الدَّسم

ذكر محمد بن عبد الملك الهمداني في «تاريخه» أنه بلغ إلى عضد الدولة خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شاقة، فلا يقدر عليهم، فاستدعى أحد التجار ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى قد شيبت بالسم، وأكثر طيبها، وترك في الظروف الفاخرة وأعطاه دنانير، وأمره أن يسير مع القافلة، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة، فنزل القوم وأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به مع جماعتهم إلى الجبل، وبقي المسافرون عراة، فلما فتح الصندوقين وجد الحلوى يضوع طيبها[1]، ويدهش منظرها ويعجب ريحها، وعلم أنه لا يمكنه الاستبداد بها، فدعا أصحابه، فرأوا ما لم يروه أبداً قبل ذلك، فأمعنوا في الأكل عقيب مجاعة، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجار إلى أخذ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم، واستردوا المأخوذ عن آخره. فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدة، محت أثر العاتين وحصدت شوكة المفسدين.

[كتاب الأذكياء: ٦٢]

☆ ☆ ☆

(١) يضوع طيبها: يفوح.

الباب الثالث عشر
مع القضاة

كعب بن سوار يقضي بحضرة عمر

روى الزبير بن بكّار: أن امرأة أتت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه، وهو يعمل بطاعة الله. فقال لها: نعم الزوج زوجك. فجعلت تكرر عليه القول، وهو يكرر عليها الجواب. فقال له كعب بن سوار الأسدي: يا أمير المؤمنين، هذه امرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه، فقال له عمر رضي الله عنه: كما فهمت كلامها فاقض بينهما. فقال كعب: عليّ بزوجها، فأتي به، فقال: إن امرأتك تشكوك، فقال: أفي طعام أم شراب؟ قال: لا في واحد منهما، فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيمُ رُشْدُهُ ... ألهى خليلي عن فِراشِي مَسجِدُهُ
زَهَّدَهُ في مَضْجعي تَعبُّدُهُ ... نهارُهُ وليلهُ ما يَرْقَدُه
فلستُ في أمْرِ النِساء أحمدُه ... فاقضِ القَضَاء يا كعبُ ولا تردُّه

فقال الزوج:

زهّدني في فَرشِها وفي الحَجَل[1] ... أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول ... وفي كتاب الله تخويف جَلَل

فقال كعب:

مكتبة الرمحي أحمد

(١) الحجل: جمع حجلة وهي بيت العروس وفراش الزوجية.

إن لها حقاً عليك يا رجل نصيبها في أربعٍ لمن عَقَل
فأعطها ذاكَ ودع عنك العِلل

ثم قال له: إن الله قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك، ولها يوم وليلة.

فقال عمر لكعب رضي الله عنهما: والله ما أدري من أيِّ أمرَيْك أعجب، أمن فهمك أمرهما أم من حكمك بينهما! اذهب فقد وليتك القضاء بالبصرة.

[أخبار القضاة: ١/ ٢٧٥]

ذكاء القاضي إياس

قيل أن إياس بن معاوية[١] القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلاً إراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل، وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقص عليه القصة، فقال القاضي: هل أخبرت أحداً غيري؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إليّ؟ قال: لا. قال: انصرف واكتم أمرك، ثم عد إليّ بعد غد. فانصرف. ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع وقال له: قد تحصلت عندي أموالٌ كثيرة لأيتام وغيرهم، وودائع للناس وإني مسافر سفراً بعيداً، ورأيت أن أودعها عندك لما بلغني من تحصين منزلك، فقال: حباً وكرامةً. قال: فاذهب وهيئ لها موضعاً حصيناً. فمضى الرجل، وجاء صاحب الوديعة بعد ذهاب التاجر، فقال له القاضي إياس: امض إلى خصمك وقل له ادفع إلي مالي وإلا شكوتك إلى القاضي إياس، فلما جاء إليه وطلب وديعته دفعها إليه دون تردد واعتذر إليه، فأخذها الرجل وعاد إلى القاضي وأخبره بذلك.

---

(١) هو إياس بن معاوية بن قرة المزني (٤٦- ١٢٢هـ = ٦٦٦- ٧٤٠م) قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء يضرب به المثل بذكائه، كان صادق الحدس، عجيب الفراسة، ملهماً، وجيهاً عند الخلفاء، توفي بواسط في العراق.

ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً في تسلم المال الذي وعده القاضي به، فقال له القاضي: بدا لي ترك السفر، امض لشأنك لا أكثر الله من أمثالك. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

[كتاب الأذكياء: ٧٦]

النبي سُليمان يقضي بين امرأتين

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: خرجت امرأتان ومعهما صَبيّان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصمتا في الصبي الثاني إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف، فقالت الصغرى: أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبي فيه لها، فقال : خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها.

[كتاب الأذكياء: ٢١]

الأرغفة الثمانية

عن زر بن حبيش(١) قال: جلس رجلان يتغديان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مرّ بهما رجل فسلّم فقالا: اجلس وتغدّ فجلس، وأكل معهما، واستووا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل فطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذاها عوضاً عما أكلت لكما، ونلته من طعامكما. فتنازعا، فقال صاحب الأرغفة الخمسة: لي خمسة دراهم، ولك ثلاث. وقال صاحب الأرغفة الثلاث: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين.

فارتفعا إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقصا عليه قصتهما. فقال لصاحب الأرغفة الثلاثة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بالثلاثة. فقال: والله لا رضيت إلا بمرّ الحق. فقال علي: ليس لك في مرّ الحق

---

(١) زر بن حبيش بن حباشة بن أوس الأسدي: تابعي، أدرك الجاهلية والإسلام، ولم ير النبي٪ كان عالماً بالقرآن، فاضلاً، سكن الكوفة ومات بوقعة دير الجماجم سنة ٧٠٢م.

إلا درهم واحد. وله سبعة دراهم. فقال الرجل: سبحان الله. قال: هو ذاك. قال: فعرّفني الوجه في مرّ الحق حتى أقبله. فقال علي: أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون ثلثاً أكلتموها أنتم الثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً ولا الأقلّ؟ فتُحملون في أكلكم على السواء، فأكلت أنت ثمانية أثلاث، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث، وله خمسة عشر ثلثاً، أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة. أكلها صاحب الدراهم، وأكل لك واحداً من تسعة، فلك واحد بواحد، وله سبعة. فقال الرجل: رضيت الآن.

[تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٧٩]

اللص قوي القلب

أُتِيَ لبعض الولاة برجلين قد أتُّهِمَا بالسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دَعى بشربة ماء، فجيء له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهدده فأقر.

فسئل عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

[المستطرف: ٢/ ٢٠٠]

كان الاتفاق تحت الشجرة

أخبر أبو محمد القرشي قال: استودع رجلٌ رجلاً آخر مالاً، ثم طلبه فجحده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية، فقال الطالب: إني دفعت المال إليه، قال: ومن حضر يومئذ؟ قال: دفعته في مكان كذا وكذا ولم يحضرنا أحد. قال: فأي شيء في ذلك الموضع؟ قال: شجرة قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يتبين به حقك، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت، فتتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى الرجل، قال إياس للمطلوب: اجلس حتى يرجع خصمك، فجلس وإياس يقضي وينظر إليه ساعة ثم قال له: يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر؟ قال: لا. قال: يا عدو الله تعرف الشجرة إذن؟! إنك

لخائن. قال: أقلني(١) أقالك الله، فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل، فقال له إياس: قد أقر لك بحقك فخذه.

[كتاب الأذكياء: ٧٨]

ذكاء قاضٍ

أخبر يزيد بن هارون قال: تقلّد القضاء في واسط بالعراق رجل ثقة كثير الحديث، فجاء رجل فاستودع بعض الشهود كيساً مختوماً ما ذكر أن فيه ألف دينار، فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة الرجل ظن أنه قد هلك، فهمّ بإنفاق المال، ثم دبر وفتق الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم، وأعاد الخياطة كما كانت. وقُدِّر أن الرجل وافى صاحبه بعد مدة وطالبه بوديعته، فأعطاه الكيس بختمه، فلما صار في منزله فضّ ختمه فصادف في الكيس دراهم، فرجع إلى الشاهد، وقال له: عافاك الله، أردد عليّ مالي فاني استودعتك دنانير والذي وجدته دراهم مكانها، فأنكره واستعدى عليه القاضي، فأمر القاضي بإحضار الشاهد مع خصمه، فلما حضر سأل الحاكم: منذ كم أودعته هذا الكيس؟ قال: منذ خمس عشرة سنة، فأخذ القاضي وقرأ تاريخ سكها، فإذا هي دراهم منها ما قد ضرب منذ سنتين وثلاث ونحوها، فأمر أن يدفع الدنانير إليه، فدفعها إليه وأسقطه وقال له: يا خائن. ونادى مناديه: ألا إن فلان بن فلان القاضي قد أسقط فلان بن فلان الشاهد، فاعلموا ذلك ولا يغترن به أحد بعد اليوم، فباع الشاهد أملاكه في واسط وخرج منها هارباً فلا يعلم عنه خبر، ولا أحس منه أثر.

[كتاب الأذكياء: ٧٧]

☆ ☆ ☆

---

(١) أقلني: اصفح عني وتجاوز.

الباب الرابع عشر
في العقيدة واليقين

اليدُ العُليا خيرٌ من السُّفلى
(شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم(١))

يروي الصوفية أن شقيقاً البلخي ، ذهب في رحلة تجارية يضرب في الأرض، ويبتغي من فضل الله، وقبل سفره ودع صديقه الزاهد المعروف إبراهيم بن أدهم. حيث يتوقع أن يمكث في رحلته مدة طويلة، ولكن لم تمض إلا أيام قليلة حتى عاد شقيق، ورآه إبراهيم في المسجد. فقال له متعجباً: ما الذي عجل بعودتك؟

قال شقيق: رأيت في سفري عجباً، فعدلت عن الرحلة.

قال إبراهيم: خيراً، ماذا رأيت؟

قال شقيق: أويت إلى مكان خرب لأستريح فيه، فوجدت به طائراً كسيحاً أعمى، وعجبت وقلت في نفسي: كيف يعيش هذا الطائر في هذا المكان النائي، وهو

(١) شقيق البلخي: هو شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي زاهد صوفي من مشاهير المشايخ في خراسان، وكان من كبار المجاهدين، استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر) سنة ١٩٤هـ، ٨١٠م نسب إلى بلخ وهي مدينة مشهورة بخراسان. أما إبراهيم بن أدهم: فهو إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي، زاهد مشهور. كان أبوه من أزهد أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد وجال في العراق والشام والحجاز، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين، ويشترك في الغزاة في قتال الروم. أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ووفاته، ولعل الراجح أنه مات ودفن في (سوفنن) حصن في بلاد الروم. وبلخ مدينة كبيرة تقع شرقي إقليم خراسان وجنوبي نهر جيحون وهي ملتقى الحضارة الهندية بغيرها. استولى عليها المسلمون عام ٦٥٣هـ، ودمرها جنكيز خان بعد ذلك.

لا يبصر ولا يتحرك؟ ولم ألبث قليلاً حتى أقبل طائر آخر يحمل له الطعام في اليوم مرات حتى يكتفي، فقلت: إن الذي رزق هذا الطير في هذا المكان قادر على أن يرزقني، وعدت من ساعتي.

فقال إبراهيم: عجباً لك يا شقيق، ولماذا رضيت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى الكسيح، الذي يعيش على معونة غيره، ولم ترض لها أن تكون الطائر الآخر الذي يسعى على نفسه، وعلى غيره من العميان والمقعدين؟ أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى؟!

فقام شقيق إلى إبراهيم وقبل يده وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق!! وعاد إلى تجارته.

تعليق:

استدل بعضهم بحديث النبي ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً» والحديث نفسه يرد عليهم، فإنه لم يضمن لها الرواح ملء البطون إلا بعد غدوها، ومعنى الغدو هو الخروج في طلب الرزق، ففيه تنبيه على السعي واتخاذ الأسباب.

[مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام: ٤٠]

في سلامة اليقين
(فتح الموصلي والغلام)

قال فتح بن سعيد الموصلي: رأيت في البادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفتيه، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى بيت ربي عز وجل. فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال: أتلو كلام ربي. فقلت: إنه لم يجر عليك قلم التكليف بعد؟ قال: رأيت الموت يأخذ من هو دوني سناً فعرفت أنني لست بناج. فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة، فقال: إنما علي نقل الخطا وعلى الله البلاغ. فقلت: وأين الزاد والراحلة؟ قال: زادي يقيني وراحلتي رجلاي. فقلت: أسألك عن الخبز والماء؟ قال: يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك معك إلى منزله؟ قلت: لا قال: إن ربي دعا عباده إلى بيته وأذن لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم، وإني استقبحت ذلك فحفظت

الأدب معه، أفتراه يضيعني؟ فقلت: حاشا وكلا.

ثم غاب عن بصري فلم أره إلا بمكة، فلما رآني قال: أيها الشيخ أما زلت على ذلك الضعف من اليقين؟

[الأجوبة المسكتة: ٣/ ١٥٣]

سَدَّدَ اللهُ دَيْنَهُ

يروى أن رجلاً احتاج أن يقترض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك وقال له: تمهل عليّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي فيه مالاً آتيك به، وأوافيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا، فقال له: هذا غرر[1]، فأنا لا أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً إن لم تحضر ما طلبتهُ منه، فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك، فإن رضيت فافعل، فداخل الرجل خشية الله تعالى، وحمله التوكل على أن يدفع المال للرجل، فأخذه الرجل ومضى إلى البلد الذي ذكر.

فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهّز المال وقصد السفر في البحر فعسر عليه وجود مركب، ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً، فاغتم لذلك، وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمّر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذّر عليّ وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبه بصورة الحال، وطرحها في البحر وأقام في البلدة مدة بعد ذلك، إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال، فابتدأه وقال: أنت سيّرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: قد أوصلها الله تعالى إليّ، والله نعم الكفيل. فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك، فوقفت ذات يوم على الشط وإذا بالخشبة قد استندت إليّ ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطباً، فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرني بذلك، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل.

[انظر: صحيح البخاري: ٣/ ٨٠١]

---

(١) غرر: خداع، وعرضة للهلكة.

في حسن التوكل على الله
(حاتم الأصم وبنته الصغيرة)

حكي أن حاتماً الأصم[1] كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبةً واحدة من طعام، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: وأنت على هذا الحال لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحال؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك؟ دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزّاق، فذكرتهم ذلك، فقالوا: صَدَقت والله هذه الصغيرة، يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف هو على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكتِّ ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء. وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك، وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم. فبينما هم على هذه الحال إذ خرج أمير البلدة متصيداً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير ببابنا يستسقينا، ثم أنها أخذت كوزاً جديداً

---

(١) حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم، زاهد اشتهر بالورع والتقشف، من أهل بلخ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. وشهد بعض معارك الفتوح. ومما حدث به نفسه قال: لقينا الترك، ورماني أحدهم بوهق (حبل) فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته فقعد على صدري، وأخذ بلحيتي، وأخرج من خفه سكيناً ليذبحني بها فرماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت إليه، فأخذت السكين من يده فذبحته. مات بواشجرد سنة ٢٣٧هـ ٨٥١م.

وملأته ماءً، فلما خرجت إذا بأصحابه قد أدركوه، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: ياسيدي سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبِرْتُ أنهم البارحة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقّلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم أنصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسّع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً، فنظر إلينا مخلوق نظرةً واحدةً، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفه عين، اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجّع أمير الركب، فطلبوا له طبيباً، فلم يجدوا فقال: هل من عبد صالح؟ فَدُلّ على حاتم؟ فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أُخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقاه أولاده، فعانق الصبية الصغيرة و بكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته، والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

[المستطرف: ١/ ١٤٩]

أينما تكونوا يدرككم الموت

حكي أن شاباً من بني إسرائيل كان يجتمع بالنبي سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه، فبينما هو ذات يوم عند النبي سليمان في مجلسه إذ دخل ملك الموت وأخذ ينظر إلى الشاب، فلما رآه الشاب ينظر إليه أصفرّ لونه و ارتعدت فرائضه(١).

فجلس ملياً ثم خرج، فقال الشاب: يا نبي الله إني خفت منه، فأمر الريح أن تحملني إلى الهند، فأمر النبي سليمان الريح فذهبت به إلى هناك، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سيلمان وهو متعجب فقال له النبي سليمان: مم تعجب؟ قال: أعجب أني أمرت بقبض روح الشاب الذي كان عندك بأرض الهند، ودخلت عليك فوجدته عندك، فصرت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وقبضت روحه فهذا عجبي. فقال له النبي سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب مني أن آمر الريح فتحمله إلى الهند، فأمرتها فحملته.

وفي ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومُتعَبُ الروحِ مرتاحٌ إلى بلد والموتُ يطلبه في ذلك البلد

وقيل: إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فسيره إليها. وقال بعضهم:

إذا ما حِمَام(٢) المرء كان ببلدةٍ دَعتْه إليها حاجةٌ فيطير

[المجالس السنية: ٧٠]

بين الحجاج والأعرابي الصائم

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر (دخل الصحراء)، وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدى معي. فطلبوا فإذا أعرابي في شملة(٣)، فأتي به، فقال: السلام عليكم. قال:

---

(١) الفرائض: (العضلات الصدرية) اللحم بين الكتف والصدر يرتعد عند الفزع.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) شملة: كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به.

وعليك السلام هلم إلى الطعام أيها الأعرابي. قال: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته، قال: ومن هو؟ قال: دعاني الله ربي إلى الصوم فأنا صائم! قال: وصوم في مثل هذا اليوم الحار! قال: صمت ليوم هو أحرّ منه، قال الحجاج: فأفطر اليوم وصم غداً. قال: أو يضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد؟ قال: ليس ذلك إليه! قال الأعرابي: فكيف يسألني عاجلاً بآجل ليس إليه؟ قال: إنه طعام طيّب، قال: ما طيّبه خبازك ولا طبّاخك! قال: فمن طيّبه؟ قال: طيبته العافية(١) قال الحجاج: تالله إن رأيت كاليوم! أخرجوه.

[العقد الفريد: ٣/ ٤٤٤]

إسلام باذان

بدأ الرسول ﷺ دعوته بعشيرته الأقربين، ثم أخذ يدعو القبائل المجاورة، ثم كتب إلى الملوك والزعماء في البلدان النائية يدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب إلى كسرى يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى كسرى عظيم الفرس، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم المجوس» فاغتاظ كسرى لهذه الرسالة، وكتب إلى باذان (باذام) عاملة في اليمن «بلغني أن رجلاً من قريش يزعم أنه نبي، فسر إليه فإن تاب وإلا ابعث برأسه» فأرسل باذان رجلين إلى المدينة ليُحْضرا محمداً في الحال، ولما وصلا إلى المدينة وجداه يصلي، فلما فرغ من صلاته التفت إليهما وإذا بهما ذوا شوارب طويلة وأذقان حليقة فاستقبح منظر الشوارب الطويلة والذقون الحليقة، فقال: من أمركما بهذا؟ قالا: ربنا. يعنيان سيدهما. فقال: لكن ربي أمرني أن أحف هذا، يعني شاربه، وأعفي هذا، يعني لحيته. ثم قال: ماذا تريدان؟

قالا: نريدك إلى باذان حياً أو ميتاً.

قال: أخبرا باذان أن ربي قتل ربه البارحة(٢)

---

(١) العافية: النار، ويعني أن النار التي يصوم لله فرقاً منها هي التي تطيب الطعام في الدنيا.

(٢)كان مقتل كسرى بن برويز أنو شروان ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى في السنة السابعة للهجرة، فقد سلط الله عليه ابنه شيرويه فقتله.

فذهل الرجلان وعادا متعجبين لما سمعا، وتساءلا: كيف تصله الأخبار بهذه السرعة، وبلاد فارس تبعد عنه آلاف الأميال؟! إن هذا الأمر لعجيب حقاً، وإن هذا الرجل لذو شأن. فلما وصلا إلى باذان وأخبراه الخبر، قال: سننظر في الأخبار التي تأتينا من فارس، فإن صدق فهو نبي حقاً وعلينا اتباعه، وإن كذب أرسلنا إليه من يقتله ويريحنا منه. فلما وصل أول قادم من فارس سألوه: ما الأخبار؟ قال: قُتل كسرى وتولى ابنه العرش مكانه

فقال باذان: صدق والله محمد إذن، فإن معرفته قبلنا هذه الأخبار لدليل على أنه يأتيه خبر السماء. فهو نبي حقاً. فأسلم باذان وأسلم أهل اليمن كلهم. ولذلك قالوا: أسلم أهل اليمن برسالة.

[البداية والنهاية – باختصار: ٤/ ٢٤٤]

التأمين الشامل

يحكى أن امرأة أتت ساحراً وطلبت إليه أن يصنع لها سحراً يؤثِّر به في شاب وسيم متدين تريده عريساً لبنتها، ودفعت إليه مبلغاً كبيراً من المال، فطلب منها الساحر أن تعود إليه بعد ثلاثة أيام، يكون السحر قد حقق النتيجة المطلوبة، فعادت بعد ثلاثة أيام، ففوجئت بأن الساحر يطلب منها أن تعود إليه بعد ثلاثة أيام أخرى، ثم ثلاثة أيام مرة ثالثة... وهكذا، حتى سئمت وعود الساحر، وأيقنت أنه يكذب عليها، وأنه لا يستطيع تحقيق رغبتها، فلما أظهرت له استياءها من مواعيده، أعاد لها المبلغ الذي أخذه منها، وأخبرها أنه عاجز عن تحقيق ما طلبت، فسألته: لماذا تعجز وأنت الساحر المشهور الذي لا يعجزه أمر كهذا؟ فقال: إن هذا الشاب الذي تريدين أن أصنع له سحراً يميل به قلبه إلى ابنتك لا نستطيع الاقتراب منه أو التأثير فيه، وقد حاول الشياطين الذين كلفتهم بذلك فعجزوا؛ ذلك أنه لا يغفل عن ذكر الله، فإذا حاولوا الاقتراب منه عند دخوله البيت ذكر الله فتراجعوا، وإذا تناول طعامه ذكر الله، وإذا أوى إلى فراشه ذكر الله، وإذا خرج من بيته ذكر الله.. وهكذا. فهو مؤمن تأميناً شاملاً، لذلك ابحثي عن غيره يكون غافلاً عن ذكر الله أو لا يعرف الله أصلاً، فمثل هذا سهل اصطياد وقياده، أما ذلك الشاب المتدين وأمثاله فلا.

نار الشك وبرد اليقين

يقول (سيرا. س. بودلي): في عام ١٩١٨ ولَّيتُ ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويَمّمْتُ[١] شطر أفريقيا الشمالية الغريبة حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت ارتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى أنني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه «الرسول» وقد كانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحَّل من أمتع سني حياتي وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق. فهم بوصفهم مسلمين، يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً. فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن[٢] الهم قلقاً على أمر، يؤمنون بأن (ما قُدِّر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له). وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا!

ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه: هبَت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي (الرون) في فرنسا وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً. فقد هزّوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة (قضاءٌ مكتوب).

لكنهم ما مرت العاصفة، حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يؤدي القيظ بحياتها. ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: (لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا

---

(١) يممت: اتجهت.

(٢) براثن: مخالب السباع أو الطيور الجارحة.

من جديد).

وثمة حادثة أخرى. فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي إحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب (ماذا عسى أن نفعل؟) فذكروني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن الوقود قد نفد. وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام، وهم يترنمون بالغناء... [وكأنهم يقولون لي: يا هذا أنت تتقلى بنار الشك، ونحن ننعمُ ببرد اليقين].

لقد أقنعتني الأعوام السبعة، التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرُّحَّل، أن الملتائين، ومرضى النفوس، والسكيرين، الذين تحفل بهم أمريكيا وأروبا. ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها.

إنني لم أعان شيئاً من القلق قط، وأنا أعيش في الصحراء بل هنالك في جنة الله، وجدت السكينة، والقناعة، والرضا، وكثيرون من الناس يهزؤون بالمعتقدات التي يؤمن بها الأعراب ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر. ولكن من يدري؟ فلعل الأعراب أصابوا كبد الحقيقة، فإني إذا أعود بذاكرتي إلى الوراء... واستعرض حياتي أرى جلياً أنها كانت تتشكل في فترات متباعدة تبعاً لحوادث تطرأ عليها، ولم تكن قط في الحسبان، أو مما أستطيع له دفعا، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم (قدر) أو (قسمة) أو (قضاء الله)، وسمه أنت ما شئت.

وخلاصة القول أني بعد سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء، ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير..

إنه الإيمان ينبوع السعادة... ومن يؤمن بالله يهد قبله، ومن يؤمن بالله قد هدي إلى صراط مستقيم.

[أجوبة حاسمة: ٦٣]

رزقي يأتيني

قيل أنه وفد عروة بن أذينة[1] الشاعر على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته[2]، فقال له هشام: ألست القائل:

لقد علمتُ وخيرُ القولِ أصدَقَه ... بأن رزقي وإنْ لم آتِ يأتيني
أسعى إليه فيُعَنّيني تَطلّبُه ... ولو قعدتُ أتاني لا يعَنّيني[3]

وأراك جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق. فقال له أمير المؤمنين: زادك الله بسطة في العلم والجسم، ولا رد وافدك خائباً، والله لقد وعظت فأبلغت، وذكرتني ما أنسانيه الدهر. ثم خرج عروة من فوره إلى راحلته فركبها وتوجه راجعاً إلى الحجاز.

فلما كان في الليل ذكره هشام وهو في فراشه، فقال في نفسه: رجل من قريش وفد عليّ وقال حكمة، فجبهته ورددته خائباً، وهو مع ذلك شاعر لا آمن ما يقول، فلما أصبح سأل عنه فأخبروه بانصرافه، فقال: لا جرم ليعلم أن الرزق سيأتيه، ثم دعا مولى له وأعطاه ألفي دينار وقال الحق بهذا ابن أذينة وأعطه إياها. قال:فلم أدركه إلا وقد دخل بيته، فقرعت عليه الباب فخرج إلي فأعطيته المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له: كيف رأيت قولي؟ سعيت، فأكديت[4]، فرجعت، فأتاني رزقي إليّ في منزلي.

ويضارع هذه الحكاية ما حكي عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال: حضرت مائدة المأمون، فلما رفعت المائدة جعلت التقط ما في الأرض، فنظر إلي أمير المأمون فقال: أما شبعت يا شيخ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حدثني حماد بن سلمة

---

(١) هو عروة بن يحيى ولقبه أذينة ابن مالك بن الحارث الليثي، شاعر غزل من أهل المدينة، وهو معدود من الفقهاء، لكن الشعر غلب عليه.

(٢) الخلة: الحاجة والفقر.

(٣) يعنيني: يتعبني.

(٤) أكديت: يعني أجهدني السعي.

عن ثابت بن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر، فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه، فما شعرت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار فناولني إياه، فقلت: يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك.

[ثمرات الأوراق: ١٨]

الحسنة بعشر أمثالها

أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما اشتد بهم الأمر جاؤوا إلى أبي بكر وقالوا: يا خليفة رسول الله، أن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما نصنع؟ فقال لهم:انصرفوا واصبروا، فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم.

فلما كان في آخر النهار ورد الخبر بأن عيرا لعثمان بن عفان جاءت من الشام، فلما وصلت خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسقة برا وزيتا وزبيبا، فأناخت بباب عثمان بن عفان، فلما جعلها في داره جاء التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد! بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه. قال: حبا وكرامة، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال أعطيت زيادة على هذا. قالوا: أربعة. قال: أعطيت زيادة على هذا. قالوا:خمسة. قال: أعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا «أبا عمر»، ما بقي في المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا إليك أحد، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا لا قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين.

[قصص العرب: ١/ ١٨٩]

بين التجربة واليقين

قال عبد الله بن وهب المصري: كان حيوة بن شريح ياخذ عطاءه في كل سنة ستين دينارا. وكان إذا أخذه لم يطلع إلى منزله حتى يتصدق به، ثم يجيء إلى منزله، فيجدها تحت فراشه.

قال: وكان له ابن عم، فلما بلغه ذلك أخذ عطاءه فتصدق به، ثم جاء يطلبه تحت

فراشه، فلم يجد شيئاً. فشكاه إلى حيوة.

فقال حيوة: أنا أعطيت ربي بيقين، وأنت أعطيته تجربه.

[وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣/ ٣٧]

☆ ☆ ☆

الباب الخامس عشر
مع القرآن الكريم

العلم يهدي للإيمان (١)

تحدثت أستاذة طبيبة في جامعة السوربون بفرنسا ذات يوم في محاضرة لها عن دم الحيض، وكانت هذه الأستاذة الفرنسية نصرانية من طائفة الكاثوليك، حيث قالت: إن أوروبا كانت تزعم أن نزول دم الحيض على النساء يعدُّ عملاً من أعمال السحر، ولكن العلم اكتشف أنه دم تفرزه بعض الغدد الأنثوية. ثمّ شرعت في الكلام عن الأضرار التي تترتب على جماع الرجل بالمرأة الحائض وقالت: إن الرجل إذا ما اقترب من المرأة الحائض في حالة جنسية فإن ذلك ممّا يصيبه بأمراض جلدية وتناسلية عديدة. فوقف طالب مسلم سعودي الجنسية فاستأذنها في الكلام، فأذنت له، فقال: إن القرآن الكريم قد سبق العلم في هذا الأمر بقرون عديدة، وعلى الفور عاجلته قائلة: كيف؟ وماذا قال القرآن؟ فقرأ الطالب عليها قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. حينئذ بهتت الأستاذة وقالت في دهشة عجيبة: أهذا في القرآن؟ فرد الطالب المسلم: نعم.

فقالت له: أريد أن أبحث الأمر في هذه القضية مع أهل العلم عندكم، فدعاها إلى جامعة الرياض في السعودية حيث التقت بالعلماء هناك، فحاورتهم وحاوروها، حتى أوضحوا لها الأمر بدقة تامة. فما كان منها إلا أن طلبت قلماً وورقة فكتبت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وأسلمت.

[مناظرات الأئمة: ٦١]

العلم يهدي للإيمان (٢)

وقف أستاذ علم الأجنة في جامعة لندن يقول: لقد اكتشفت حقيقة علمية عن الأجنة في بطون الأمهات، لقد كان علماء الأجنة يعتقدون أن الجنين في بطن أمه يمر بمرحلة رخوة، ولكن اكتشف في النصف الثاني من القرن العشرين أن الجنين يبدأ بمرحلة صلبة قبل مرحلة اللحوم. فقال له طالب مسلم من باكستان: أيها الأستاذ: إن القرآن الكريم قد سبقك بألف وأربعمائة سنة في هذا الأمر. فقال الأستاذ في ذهول: فماذا أنت قائل؟ فقال الطالب المسلم: يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

فقال الأستاذ: بيني وبينك لقاء حتى أتأكد من وجود هذه الآية في القرآن. ثم التقى الأستاذ بالطالب المسلم، وفتح الطالب القرآن الكريم، وقرأ في سورة (المؤمنون) قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤]

حينئذ ما كان من الأستاذ البريطاني إلاّ أن هبّ واقفاً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم.

[مناظرات الأئمة: ٥٩]

امتحان الأديان

ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن، وكان خطاطاً فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقّص وعدّل وبدّل، ثم عرض التوارة على علماء اليهود فقبلوها وأكرموه بالمال. ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسيس فاشتراه بثمن كبير وأكرمه، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه، فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به وضربوه، ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله، فلما أرادوا قتله أشهر

إسلامه وأخبرهم بقصته، وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين الحق.

[صفوة التفاسير: ٢/ ١١]

من إعجاز القرآن (١)

قال الأصمعي: قرأت يوماً هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. ولكني أخطأت فقلت والله غفور رحيم، وكان إلى جانبي أعرابي فقال: كلام من هذا؟ قلت كلام الله. قال: ليس هذا بكلام الله، أعده علي، فأعدت وتنبهت فقلت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: نعم الآن أصبح كلام الله. فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت. فمن أين علمت إني أخطأت؟ قال: يا هذا، عزّ فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع.

والسر في تقديم السارق على السارقة هنا، وتقديم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ ...﴾ لأن الرجل على السرقة أجرأ من المرأة، والزنى من المرأة أقبح وأشنع منه من الرجل فتناسب ذكر منهما المقام.

[صفوة التفاسير: ٢/ ٣٤٢]

من إعجاز القرآن (٢)

حكى العلاّمة القرطبي عن الأصمعي أنه قال: سمعت جارية أعرابية تنشد:

استغفر الله لذنبي كلَه قتلت إنساناً بغير حله

مثل الغزال ناعماً في دله انتصفَ الليلَ ولم أصلّه

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك؟! فقالت: ويحك أَوَيُعَدُّ هذا فصاحة مع قول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فقد جمع الله في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. أما الأمران: أرضعيه وألقيه في اليم، وأما النهيان: لا تخافي ولا تحزني، وأما الخبران: أوحينا، فإذا خفت، وأما البشارتان: إنّا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين.

[صفوة التفاسير: ٢/ ٤٢٩]

بلاغة أبي خليفة الجمحي

روى المسعودي، أن أبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحي المتوفى سنة ٣٠٥هـ كان فصيحاً معرباً لا يتكلف الإعراب، بل صار كالطبع لدوام استعماله إياه من عنفوان حداثته، خرج مع بعض أصحابه متفكهين[١] إلى نهر من أنهار البصرة وقد غيروا ظواهر زيّهم كيلا يعرفهم الناس، وكان ذلك أيام المبادئ وهي الأيام التي يثمر فيها التمر والرطب فيكبسونه في القواصر (أوعية التمر) تمراً وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يعمل في التمر من الأكَرَة (الزّراع) وغيرهم، فلما أكلو قال بعضهم لأبي خليفة غير مكنّ له خوفاً أن يعرفه من حضر من العمال في النخيل: أخبرني (أطال الله بقاءك) عن قول الله عز وجل: (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) هذه الواو ما موقعها من الإعراب؟ قال أبو خليفة: موقعها رفع، وفعل (قوا) هو أمر للجماعة من الرجال. قال له: كيف تقول للواحد من الرجال وللإثنين؟ قال: يقال للواحد من الرجال: (قِ)، وللإثنين (قيا)، وللجماعة (قوا). قال: كيف تقول للواحدة من النساء، وللإثنتين وللجماعة منهن؟ قال أبو خليفة: يقال للواحدة (قي)، وللاثنتين (قيا)، ، وللجماعة (قين). قال: فأسألك أن تجعل بالعجلة: كيف يقال للواحد من الرجال والإثنين والجماعة وللواحدة من النساء والإثنتين والجماعة منهن؟ قال أبو خليفة: (وهو ينطق) عجلان: قِ، قيا، قوا. قي، قيا، قين.

وكان بالقرب منهم جماعة من الأكرة[٢]، فلما سمعوا ذلك استعظموه، وقالوا: يا زنادقة، أنتم تقرؤون القرآن بحرف الدجاج...؟ وغدوا عليهم فصفعوهم فما تخلص أبو خليفة والقوم الذين كانوا معه من أيديهم إلا بعد كدّ طويل.

[مروج الذهب: ٢/ ٦٠٣]

---

(١) متفكهين: يضحكون ويمزحون.

(٢) الأكرة: المزارعون الذين يزرعون الأرض على نصيب معلوم.

الإسلام دينُ الحلول
(الشيخ الشعراوي يحل مشكلة مشفى الولادة الأميركي)

دخلت امرأتان أحد المشافي الأمريكية تتمخضان للولادة، فأنجبت إحداهما ولداً وأنجبت الأخرى بنتاً، ولما نُقِل الأولاد إلى غرفة ما بعد الولادة التي تعج بالمواليد، اختلط الأمر على الممرضات في تمييز أم الولد من أم البنت، لتشابه الطفلين والوالدتين، ولم يميّز الأطباء كذلك بين الطفلين، ولم يستطيعوا تحديد أم الذكر أو أم الأنثى، ولم تستطع الأمهات كذلك تمييز أولادهن، ففحصوا دم الأمهات ودم الطفلين فوجدوه من فصيلة واحدة في الأمهات والأولاد، وطلبوا من الأمهات إرضاع الأطفال فقبلا الرضاعة من المرأتين، فاحتاروا في ذلك! واستشاروا كبار الأطباء هناك، فلم يفلحوا في تحديد أو نسبة أي من الولدين لأي من المرأتين، وأبقوهم في المستشفى إلى أن أرسلوا رسالة إلى الشيخ الشعراوي طالبين الحل وقد كتبوا فيها: "بما أنكم تزعمون أن في الإسلام حلولاً للمعضلات مهما كانت، فإننا نريد حلاً لهذه المعضلة التي حارت فيها أمريكا.

فكتب الشيخ الشعراوي: بأن هذه المسألة بسيطة جداً، والحل بإذن الله سهل وميسور، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦] ذلك أن الله تعالى قد فرض للذكر حظين في الميراث لما يتحمله من مسؤولية الإنفاق على أولاده وزوجته، فإنه كذلك قد منحه حظين في نسبة الدسم من حليب الأم لما ينتظره من مشاق الحياة والكدح في سبيل الرزق وإطعام أولاده وزوجته ومن يعول من غيرهم، وهذا الأمر ليس مطلوباً من الأنثى كما هو مطلوب من الذكر، وعليه فافحصوا حليب الأمهات فإن نسبة الدسم في حليب أم الذكر مضاعفة عن نسبته في حليب أم الأنثى.

ولما تم فحص الحليب الخارج من ثديي المرأتين، وجدوا أن نسبة الدسم في حليب إحداهما مضاعفة عن نسبته في حليب الأخرى، فقالوا لها: إذن أنت أم الذكر وللأخرى أنت أم البنت، وحُلت المشكلة، فأسلم على إثر هذه الواقعة أربعون طبيباً وطبيبة. والله أعلم.

الواو ليست فصلاً في كل الأحوال

حدث في مصر أن الشافعي طالب الفقهاء والحكام والقضاة بإتقان اللغة العربية لكي يفهموا النصوص حق الفهم، ففيها نزل القرآن تبياناً لكل شيء، فمن لا يتقن العربية غير جدير بالنظر في الشريعة، ولقد حضر رجل من خراسان حلقة الشافعي في جامع عمرو فسأله: ما الإيمان؟ فرد: فما تقول أنت فيه؟

فقال الرجل: الإيمان قول.

قال الشافعي: من أين قلت بذلك؟

قال الرجل: من قوله تعالى: (إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات) فصارت الواو فصلاً بين الإيمان والعمل. فسأله الشافعي. فعندك الواو فصل. قال: نعم قال الشافعي: فإذا كنت تعبد إلهين: إلهاً في المشرق وإلهاً في المغرب لأن الله تعالى يقول: (رب المشرقين ورب المغربين).

قال الرجل: سبحان الله. أجعلتني وثنياً؟

قال الشافعي: بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل.

[حلية الأولياء: ٩/ ١١٠]

الوليد بن المغيرة والرد على القرآن

روي أن الوليد بن المغيرة[١] مر بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً عجباً، ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، ولتصبأن

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عمر بن مخزوم [٩٥ ق هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢م] من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش ومن زنادقتها، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية. أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فقاومه وقاوم دعوته. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر.

قريش كلها. فبلغ ذلك أبا جهل فقال أنا أكفيكموه، فأتاه فجلس إلى جانبه حزيناً، فقال الوليد: مالي آراك حزيناً يا ابن أخي؟! فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك أتيت محمداً لتتعرض لما يقوله وصبأت لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله. فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً؟! وهل شبع محمداً وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟! قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، قال: والله لا يرضى قومك جتى تقول فيه، قال: فدعني أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره.

ثم جمعوا له الناس ليسمعوا ما يقول في القرآن وكيف يرد عليه أو يأتي بقرآن مثله. وأستحضر عدو الله سورة الكوثر ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ[1] هُوَ ٱلْأَبْتَرُ[2]﴾ فقال راداً على هذه السورة: (أنا أعطيناك العقعق، فصل لربك وانعق، إن شانئك هو الغراب الأبلق) فقيل له: يا لك من أحمق! فصعق الوليد وعاد إلى بيته خائباً خاسئاً. ثم أنزل الله تعالى فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ⑯ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ⑰ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١– ٢٥].

وبعد ذلك بقرون ادعى رجل النبوة، وكان ذلك في زمن خالد القسري[3]، وحاول

---

(١) شانئك: مبغضك.

(٢) الأبتر: المقطوع الأثر.

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري، من بجيلة، أمير العراقيين، وأحد خطباء العرب وأجودهم، يماني الأصل، من أهل دمشق، ولي مكة سنة ٨٩هـ ثم العراقيين (الكوفة والبصرة) قتل أيام الوليد سنة ١٢٦هـ ٧٤٣م.

معارضة القرآن الكريم، فأتى به خالد فقال له: ما تقول؟ فقال عارضت القرآن ما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ فقلت أنا ما هو أحسن من هذا: (إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر) فأمر به خالد فضرب عنقه، وصلب على خشبة، فمر به خلف بن خليفة الشاعر وقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، وأنا ضامن أن لا تعود.

[إعجاز القرآن: ٢٧١]

حكاية المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك – رحمه الله تعالى-: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين؟ قالت: ﴿هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة: ٦] فقلت لها: إن معي طعاماً، فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٨٧] فقلت: ليس هذا شهر رمضان، وقد أبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]. فقلت: فمن أي القبائل أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ

عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، قالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف: ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] قال: فأنخت ناقتي، قالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣].

قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: ٢٠] فقلت: لقد أوتيت خيراً كثيراً، فقالت: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] فسكتّ، ولم أكلمها حتى أدركت القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ وقالت: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢] فناديت: يا إبراهيم يا موسى يا يحيى، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف: ١٩]

فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان الله القادر على من يشاء، فقلت: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[صفوة الصفوة: ٤/ ٣٣١]

☆ ☆ ☆

الباب السادس عشر
في المناظرات

بين أبي حنيفة وجاحد

سأل رجل جاحد الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قائلاً: هل رأيت ربك؟ فقال الإمام أبو حنيفة: سبحان ربي لا تدركه الأبصار. فقال له: هل لمسته؟ أو شممته؟ أو سمعته؟ أو ذقته؟

فقال الإمام أبو حنيفة: سبحان ربي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

فقال الجاحد: فإذا لم تكن رأيته ولا لمسته ولا شممته ولا أحسسته فمن أين تثبت أنه موجود؟

فقال أبو حنيفة: يا هذا، هل رأيت عقلك؟ قال: لا قال أبو حنيفة: هل سمعت عقلك؟ قال: لا، قال: هل شممت عقلك؟ قال: لا، قال: هل أحسست عقلك؟ قال الجاحد: لا. قال له الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: أعاقل أنت أم مجنون؟

قال الجاحد: أنا عاقل.

قال له أبو حنيفة: فأين عقلك؟

قال الجاحد: موجود.

قال أبو حنيفة: كذلك الله جل جلاله ؟!.

[مناظرات الأئمة: ٣٠]

أبو حنيفة والملحدين

حدث أيام تلمذة أبي حنيفة إذ كان يأخذ عن شيخه الأستاذ حماد، وبينما كان أبو حنيفة نائماً إذ رأى في منامه رؤيا مبهمة: رأى خنزيراً ينحب من ساق شجرة فمال

غصن صغير وضرب الخنزير ضربة موجعة فابتعد صارخاً، ثم انقلب في الرؤيا إنساناً جلس في ظل تلك الشجرة يعبد الله، فذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى شيخه ليفسرها له، فوجده مغتماً فسأله عن سبب غمه فقال: جاء أشخاص ملحدون (يعتقدون أن الكون مخلوق بالطبيعة وليس له رب) إلى ملك هذه البلاد، وقالوا له: أرسل أحد علماء الإسلام ليوضح لنا أن للكون إلهاً، فأحضرني الملك إليهم واتفقنا على مكان وزمن نجتمع فيه لذلك، ونحن يا بني سنجادل في إثبات ذات لا تراها العيون ولا تلمسها الأيدي؛ لهذا أخشى الفتنة على الناس، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: الآن عرفت تفسير رؤياي، فالخنزير رأس الملحدين يريد أن ينحت ساق شجرة العلم وهو أنت، فمال غصن صغير (تلميذك) وضرب الخنزير بحجته فأسلم وتتلمذ عليك فدعني أنا أجادلهم، فإن غلبتهم فما بالك بالأستاذ؟ وإن غلبوني فأنا التلميذ الصغير ولو جادلهم الشيخ لغلبهم، فقال: على بركة الله، فذهب التلميذ أبو حنيفة رضي الله عنه وقال للناس: إن الشيخ أكبر من يأتي لمثل هذه المسائل الواضحة، ولهذا اختار أصغر تلامذته وهو أنا لمجادلتكم وستجدون بعون الله إجابة أسئلتكم واضحة، فوجهوا إليه عديداً من الأسئلة، منها الآتي:

- قالوا: في أي سنة ولد ربك؟

- قال: الله لم يولد وإلا كان له أبوان، وكتاب الله يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

- قالوا: في أي سنة وجد ربك؟

- قال: الله موجود قبل الأزمنة والدهور (لا أول لوجوده).

- قالوا: أوضح وأفصح. قال: ماذا قبل الثلاثة في أرقام الحساب؟ قالوا: اثنان. قال: وماذا قبل الاثنين؟ قالوا: واحد. قال: وماذا قبل الواحد؟ قالوا: لا شيء قبله.

- فقال لهم: إذا كان الواحد الحسابي لا شيء قبله، فما بالكم بالواحد الحقيقي وهو الله تعالى (إنه قديم لا أول لوجوده).

- قالوا: في أي جهة يتجه وجه ربك؟

- قال: لو أتيتم بمصباح مضيء في مكان مظلم، ففي أي جهة يتجه نوره؟

- قالوا: في جميع الجهات.

- قال: إذا كان هذا حال النور الصناعي فما بالكم بنور السماوات والأرض.

- قالوا: عرّفنا شيئاً عن ذات ربك أهي صلبية كالحديد أم سائلة كالماء أم غازية كالدخان والبخار؟

- قال: هل جلستم بجوار مريض مشرف على النزع الأخير (الموت)؟

- قالوا: نعم!

- قال: كان يكلمكم فصار بعد الموت ساكناً، وكان يتحرك فصار ساكناً فما الذي غير حاله؟

- قالوا: خروج روحه.

- قال: أخرجت وأنتم موجودون معه؟

- قالوا: نعم.

- قال: صفوا لي هذه الروح أهي صلبة كالحديد؟ أم سائلة كالماء؟ أم غازية كالدخان والبخار؟

- قالوا: لا نعرف شيئاً عنها.

- قال: إن الروح - وهي مخلوقة - لا يمكنكم الوصول إلى كنهها أفتريدون مني أن أصف لكم الذات الإلهية إن ذاك لعجيب!

- قالوا: في أي مكان ربك موجود؟

- قال: لو أحضرتم كوب لبن محلوباً الآن، فهل في هذا للبن من سمن؟

- قالوا: نعم. قال: وأين يوجد السمن في اللبن؟ قالوا: ليس له مكان خاص بل هو شائع في كل أجزاء اللبن.

- قال: إذا كان الشيء المخلوق وهو السمن ليس له مكان خاص أفتطلبون أن يكون للذات الإلهية مكان دون مكان؟ إن ذاك لعجيب؟

- قالوا: إذا كانت كل الأمور مقدرة من قبل أن يخلق الكون فما صناعة ربك الآن؟

- قال: أمور يبديها - يظهرها - ولا يبتديها: يرفع أقواماً ويخفض آخرين.

- قالوا: إذا كان لدخول الجنة أول فكيف لا يكون لها آخر ونهاية؟

- قال: الأرقام الحسابية لها أول وليس لها نهاية. بل إن أهلها خالدون فيها.

- قالوا: كيف تزعمون أننا نأكل في الجنة ولا نتبول فيها ولا نتغوط؟

- قال: أنا وأنتم وكل مخلوق مكث في بطن أمه تسعة أشهر يتغذى من دم أمه لا يتبول ولا يتغوط، فمن حيوان منوي لا يُرى، إلى شخص يملأ يد القابلة (الداية) أو الطبيبة.

- قالوا: كيف يتأتى أن تزداد خيرات الجنة بالإنفاق منها ولا يمكن أن تنفد؟

- قال: خلق الله شيئاً في الدنيا يزداد بالنفقة منه وهو العلم، فكلما أنفقت منه زاد ولم ينقص.

- قالوا: أجبنا على ثلاث مسائل: أرنا ربك إن كان موجوداً وإذا كان الشيطان مخلوقاً من النار، وسيعذب يوم القيامة بالنار، فكيف تعذبُ النار بالنار؟ والشر والخير مقدّران على الإنسان، فلم الثواب ولم العقاب؟

- قال: إن الإجابة على أسئلتكم الثلاثة تحتاج إلى وسائل إيضاح.

- فقالوا: هات ما عندك. فمال وأحضر طوبة من الأرض وهوى بها على رأس زعيمهم بضربة مؤلمة فاستغاث. فأمسكوا به ليعاقبوه، فقال: مهلا، إن ضربه كان وسيلة الإجابة على أسئلتة، فقالوا: ما هكذا يكون التوضيح! فسأل الملحد: هل آلمتك الضربة؟ فقال: نعم، فقال: وأين يوجد الألم؟ قال: في الجرح فقال أبو حنيفة: أظهر لي الألم الموجود في الجرح فأظهر لك الرب الموجود في الكون، والطوبة من طين وأنت مخلوق من طين فكيف يعذب الطين بالطين؟ وضربك مقدر فلم استغثت بهم؟

عند ذلك أسلم رئيس الملحدين وأحجم[1] زملاؤه، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه شعراً:

فيالكَ من آياتِ حقٍ لو اهتدى ... بِهُنَّ من يرد الحقَ كن هواديا

ولكن على تلك القلوب أكنةً[2] ... فليست وإن أصغت تجيب المَنادِيا

[أنظر الأشباه والنظائر: ٤٢٧]

أجوبة ذكية

حكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس

(١) أحجم: امتنع وأعرض، كف.

(٢) أكنة: أستار.

الجنة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن[1] ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر.

فقيل لمعاوية لست هناك، ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل. فأجابه، أما الشيء فالماء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وأما لا شيء فإنها الدنيا تبيد وتفنى، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له، فآدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل، وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى مناد: إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم، فأخذوا التوارة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأما الشجرة التي تنبت من غير ماء، فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بدون روح، فالصبح. قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] وأما اليوم، فعمل، وأمس فمثل، وأما الرعد،

---

(١) الظاعن: المرتحل، المسافر.

فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته و زجره، وأما المحو الذي في القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

[إيقاظ أولي الهمم: ٣٣٨]

ثلاثة يناظرون عالماً

(كل ما خطر ببالك فهالك، والله بخلاف ذلك)

كان أحد العلماء عاكفاً في بستان له، لا يخالط أحداً من الناس، فسمع به ثلاثة من الذين يسخرون من أمثاله، فقال قائل منهم: هلموا بنا لنناظره. فلما ذهبوا وأجمعوا أن يسألوه، أشار إليهم أن ادنوا وتكلموا، فتقدم الأول وقال: أنتم معشر العلماء تقولون أن الله موجود، وإذا كان الله موجوداً فأني أطلب أن أراه. فأشار إليه أن نعم، وتقدم الثاني وقال: أنتم تقولون أن العذاب يوم القيامة بالنار، والجن خلقت من النار فكيف تُعَذّبُ النار بالنار؟ ثم تقدم الثالث فقال: أنتم تقولون كل شيء بالقضاء والقدر، فإن كان كما تقولون، فالإنسان غير مؤاخذ على أعماله، وأنا أرى أن المرء يخلق أعماله.

فما كان من هذا العالم المسؤول إلا أن أخذ حفنة من التراب وحثها في وجوههم وقال لهم: هذا جوابي لكم على ما سألتموني. فأجمعوا أمرهم لا بد من سياقه إلى المحاكمة، ومشوا به إلى الحاكم فسأله الحاكم: أصحيح ما يقولون، من رميك التراب في وجوههم؟ قال: نعم قال له: ولمَ؟ قال: لأن الأول سألني أن أريه ربه، حيث إنه موجود. فقل له يريني الألم الذي تألم به من حفنة التراب، وأنا أريه ما يريد. فسأله الحاكم: يمكنك أن تريه الألم؟ قال: لا قال العالم: قل إذاً، ليس كل موجود يرى.

وأما الثاني، فسألني عن كيفية عذاب الجن بالنار يوم القيامة، واستبعد إيلام الشيء بمادته، فقل له: لم هو تألم من التراب وهو مخلوق منه؟

وأما الثالث فسألني عن معنى القضاء والقدر، وطلب مني أن أسلم له بأن المرء مجبور على أعماله، ونسي ما للإنسان من الاختيار الكسبي، فإذا كنت أنا لا اختيار لي فيما فعلت به من حث التراب، فلم شكاني إلى القاضي؟

فنطق الحاكم وقال لهم: لا تروموا أن تحيطوا بالله خبره، فإنه أعظم من أن تدركه فطن المخلوقات إلا من آثاره.

[المفرد العلم: ٩٢]

الحق أحق أن يتبع

كان أحد أولياء الله الصالحين وهو أبو يزيد البسطامي(١) نائماً ذات ليلة وإذا به يسمع من ينادي في المنام: يا أبا اليزيد إن الليلة عيد النصارى فاذهب إليهم في ديرهم وبلغهم رسالة نبيك محمد، فقام أبو يزيد من نومه ليلبّي هذا الهاتف وذهب إلى دير النصارى ولما جلس بينهم ظن أنهم لن يعرفوه، وإذا بقسيسهم ينظر ويقول لن أتكلم حتى يخرج هذا الرجل المحمدي من بيننا، وأشار إلى أبي اليزيد، فقالوا له: ما أدراك أنه محمدي؟ قال القسيس لأتباعه: إن أصحاب محمد سيماهم في وجوههم من أثر السجود، فقالوا لأبي يزيد: أخرج من ديرنا، فقال أبو اليزيد: ما أنا بخارج حتى يحكم الله بيني وبينكم وهو خير الحاكمين، فقال له أبوهم القسيس: إني سائلك أسئلة إن أجبتنا عنها كلها آمنا بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله، وإذا عجزت عن الإجابة عن سؤال واحد منها فليس بيننا وبينك إلا ضرب عنقك.

فقال له أبو اليزيد: سل ما شئت فإن الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فوقف القسيس يسأل وجلس أبو يزيد يسمع، فقال القسيس: من هو الواحد الذي لا ثاني له؟ وما هما الاثنان اللذان لا ثالث لهما؟ وما هي الثلاثة التي لا رابع لها؟ وما هي الأربعة التي لا خامس لها؟ وما هي الخمسة التي لا سادس لها؟ وما هي الستة التي لا سابع لها؟ وما هي السبعة التي لا ثامن لها؟ ومن هم الثمانية الذين لا تاسع لهم؟ وماهي المعجزات التسعة؟ وما هي العشرة القابلة للزيادة؟ ومن هم الأحد عشر؟ وما هي المعجزة المكونة من اثني عشر شيئاً؟ وما هو القبر الذي سار بصاحبه؟ وما هو الشيء الذي تنفس ولا روح فيه؟ وما هو الشيء الذي خلقه الله ونكره؟ ومن هم الذين صدقوا ودخلوا النار؟ ومن هم الذين كذبوا ودخلوا الجنة؟ وما هي الأشياء التي خلقها الله ليس لها أب ولا أم؟ وما هي الشجرة التي لها ثلاثون ورقة في كل ورقة خمس ثمرات ثلاث

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي (١٨٨ - ٢٦١هـ = ٨٠٤ - ٨٧٥م) زاهد مشهور، له أخبار كثيرة، نسبته إلى بسطام (بلدة بين العراق وخراسان) أصله منها ووفاته فيها.

منها في الظل واثنتان منها في الشمس؟ وما هي الأشياء الأربعة التي أصلها واحد وطعمها ولونها مختلف؟ أجب على هذه الأسئلة يا أبا اليزيد.

فوقف أبو اليزيد البسطامي مستعيناً بالله تعالى وقال: أما الواحد الذي لا ثاني له فالله جل جلاله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. وأما الاثنان اللذان لا ثالث لهما فالليل والنهار. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الأسراء: ١٢]. وأما الثلاثة التي لا رابع لها فأعذار موسى مع الخضر وهي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. وأما الأربعة التي لا خامس لها فهي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم. وأما الخمسة التي لا سادس لها فهي خمس صلوات كتبهن الله تعالى على العباد في اليوم والليلة. وأما الستة التي لا سابع لها فهي الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

فقال القسيس: لماذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾؟ أي من تعب. فقال له أبو اليزيد: لأن اليهود زعمت أن الله تعالى لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم تعب، فاستراح يوم السبت، فقال لهم الله تعالى: وما مسنا من لغوب أي ما مسنا من تعب حتى نستريح، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وأما السبعة التي لا ثامن لها فالسماوات السبع ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]. وأما الثمانية التي لا تاسع لها فهم حملة عرش الرحمن يوم القيامة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وأما المعجزات التسع فهي معجزات موسى عليه الصلاة والسلام وهي اليد، والعصا، وانفلاق البحر والسنين، والطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات. وأما العشرة التي تقبل الزيادة، فالحسنات ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] وأما الأحد عشر فهم إخوة يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]. وأما المعجزة المكونة من اثني عشر أمراً فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] وأما الثلاثة عشر فهم إخوة يوسف وأبوه وأمه. اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ

كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]. وأما الشيء الذي تنفس ولا روح فيه فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي إذا أضاء. وأما القبر الذي سار بصاحبه فاقرأ قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣- ١٤٤]. وأما الشيء الذي خلقه الله وأنكره، فاقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] وأما الذين صدقوا ودخلوا النار فهم اليهود والنصارى. قال له: صدقوا في أي شيء؟ قال: اقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣] صدقوا في هذا وهم من أهل النار. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وأما الذين كذبوا ودخلوا الجنة فهم إخوة يوسف عليه السلام، فقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]. ولم يأكله الذئب، وبعد ذلك قال لهم يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] وقال لهم يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] وأما الأشياء التي خلقها الله وليس لها أب ولا أم فهي الملائكة، أجسام نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تنام ولا تتزوج ولا تتناسل، تسبيحهم بالليل والنهار كالتنفس عندنا. وآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وكبش إسماعيل عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام. وأما الشجرة المكونة من اثني عشر غصناً في كل غصن ثلاثون ورقة، في كل ورقة خمس ثمرات ثلاث منها في الظل واثنتان منها في الشمس، فهي السنة فيها اثنا عشر غصناً أي اثنا عشر شهراً، في كل غصن ثلاثون يوماً، في كل ورقة منها خمس ثمرات، في كل يوم خمس صلوات ثلاث منها في الظل المغرب والعشاء والفجر، واثنتان منها في الشمس الظهر والعصر.

وأما سؤالك عن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها والأصل واحد: فهي العينان والأنف والفم والأذنان، فماء العينين مالح، وماء الفم حلو، وماء الأنف حامض، وماء الأذن مرّ.

وعندئذ قال أبو اليزيد للقسيس: إني سائلك سؤالاً واحداً فأجبني عنه؟ قال القسيس: وما هو السؤال يا محمدي؟

قال أبو اليزيد: ما هو مفتاح الجنة؟

فوقف القسيس واجماً جامداً، فقال له أتباعه من النصارى: يا أبانا سألته كل هذه الأسئلة فأجابك عنها، ويسألك سؤالاً واحداً فتعجز عنه؟

فقال لهم: يا أبنائي إنني أعرف الإجابة ولكني أخاف أن أجيبه عن سؤاله فلا توافقوني، فقالوا: بلى نوافقك، فأنت كبيرنا ومهما قلت لنا سمعناه ووافقناك عليه، فوقف القسيس قائلاً بأعلى صوته: مفتاح الجنة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فقام الجميع وقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فأسلموا وحولوا الدير إلى مسجد يعبد فيه الله وحده. والله أعلم.

[الروض الفائق – باختصار: ٢١٠]

جوابٌ مفحم
في الدفاع عن الإسلام

ذكر الأستاذ سعد جمعة رئيس الوزارة الأردنية الأسبق في كتابه «الله أو الدمار» خبر المؤتمر الصحفي الذي دُعي إليه الملك فيصل بن عبد العزيز(١) – رحمه الله – في أثناء زيارته لأمريكا وكان مما جاء في الخبر:

(... قال لي صحفي أمريكي أن الملك فيصل – رحمه الله – في إحدى زيارته للولايات المتحدة قد دُعي إلى مؤتمر صحفي عالمي ليجيب على أسئلة كبار الكتاب والمفكرين والمعلقين السياسيين وفيهم الكثير من اليهود. فسأله أحد هؤلاء قاصداً

(١) هو الملك فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، الابن الثالث لوالده الملك عبد العزيز، ولد في مدينة الرياض، تولى الحكم في المملكة العربية السعودية عام ١٣٨٤هـ ١٩٦٤- توفي عام ١٩٧٥ متأثراً بجراحه التي خلفها حادث الاعتداء عليه.

إحراجه: «سمعنا يا صاحب الجلالة أنكم تعاقبون السارق بقطع يده، والزاني بالرجم، وتلك العقوبات بربرية همجية ترفضها مدنية القرن العشرين»

فأطرق الملك برهة ثم نظر إلى اليهودي وقال بهدوء: (أحب أن أؤكد لك أن تطبيق تلك العقوبة خلال السنة الماضية قد اقتصر على حادثتين اثنتين في بلاد شاسعة كالمملكة العربية السعودية، التي يزورها كل سنة ملايين الخلق لأداء مناسك الحج والعمرة، وقد حققت قسوة تلك العقوبة التي هي أمرُ الله ما نطمح إليه، فقد انقطع دابر السرقة أو كاد في بلادنا، ويستطيع أي زائر أو مواطن أن ينتقل بمفرده آلاف الأميال وهو آمن على نفسه وماله، ضامن أنه لن يعتدي عليه إنسان. ثم قل لي أنت. هل حققت قوانينكم الوضعية القضاء على السرقات، أم أنها شجعت الناس بالفعل على التفنن في السرقات؟..

لقد قرأت في صحفكم اليوم مئات الحوادث من السرقات المصحوبة بالعنف وبالأساليب العلمية التي يذهب ضحيتها كل سنة مئات الألوف من الأبرياء، واحصاءاتكم تؤكد أن أكثر حوادث القتل ناجمة عن السرقة. فدعني أسألك إذن هل تعتقد صادقاً أن قطع يد شخصين ثبتت عليهما جريمة السرقة دون مبرر من حاجة أو إملاق، فسلم المجتمع كله واستقر الأمن وشاعت الطمأنينة. هل هذا القانون أفضل، أم قانونكم الذي ترتكب في ظله أبشع جرائم القتل بدافع السرقة والاغتصاب؟

أما عن عقوبة الرجم للزاني والزانية فقد أحاطها الإسلام بالاحترازات الكثيرة التي تجعل إقامة الحد فيها متعذرة بالبينة، بل مستحيلة. ولم تطبق هذه الجريمة في حكم الإسلام كله إلا بالاعتراف.. أفهذا أفضل أم ما في مجتمعكم من مباذل أخلاقية استحي أن أشير إليها..؟)

فحنى اليهودي رأسه موافقاً وضجت القاعة بالتصفيق.

[الله أو الدمار: ٢٠٧]

لنا اختلافان

(مجادلة المأمون للخراساني المرتد)

لما دخل المرتد الخراساني على المأمون وكان قد حمله من خراسان حتى وافى به في العراق، قال له المأمون:

لأن استحييك[١] بحق أحب إليّ من أن أقتلك بحق، ولأن أقبلك بالبراءة أحب إليّ من أن أدفعك بالتهمة، قد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً، فاستوحشت مما كنت به آنساً، ثم لم تلبث أن رجعت عنّا نافراً، فخبّرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من إلْفِكَ القديم وأُنسِكَ الأول؟ فإن وجدت عندنا دواء دائك تَعالَجْتَ به، وإن أخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء، كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة، فإن قتلناك، قتلناك بحكم الشريعة، أو ترجع في نفسك إلى الاستبصار والثقة؟

قال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان، أحدهما: كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف، إنما هو تخيير وتوسعة، وتخفيف من المحنة[٢]، فمن أذّن مثنى وأقام مثنى[٣] لم يؤثم، ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم يحوّب (يأثم)، ولا يتعايرون ولا يتعايبون، وأنت ترى ذلك عياناً وتشهد عليه تبياناً. والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله، كما يكون متفقاً على تنزيله، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك أن لا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دُفِع إلينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا.

قال المرتد: أشهد أن الله واحد لا ند له ولا ولد، وأن المسيح عبده ورسوله، وأن

---

(١) أستحييك: أبقيك حياً.

(٢) في بعض المراجع: تخفيف من السنة وهو تصحيف.

(٣) المقصود بقوله مثنى هنا تكرار لفظ (الله أكبر) عند الأذان والإقامة.

محمداً صادق، وأنك أمير المؤمنين حقاً.

فأقبل المأمون على أصحابه فقال: فروا عليه عرضه[1]، ولا تبزّوه[2] في يومه ريثما يعتنق إسلامه كيلا يقول عدوه أنه أسلم رغبة، ولا تنسوا بعد نصيبكم من بره وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه[3].

[البيان والتبين: ٥٥٨]

بين الباقلاني والبطريق

يروى أن الإمام الباقلاني[4] ناظر ذات يوم كبير بطارقة النصارى، فكان هذا الحوار:

قال البطريق: هل انشق القمر لنبيكم حقاً؟

قال الباقلاني: نعم.

قال البطريق: فلماذا لم يره إلا أهل مكة؟!

قال الباقلاني: يا هذا، هل نزلت المائدة على المسيح حقاً؟

قال البطريق: نعم.

قال الباقلاني: فلماذا لم يره أحد منكم؟ ونحن قد آمنا بأن المائدة نزلت أيها البطريق، لأن الله تعالى أخبرنا بذلك في القرآن الكريم، فآمنا به كل من عند ربنا.

قال البطريق: أوما سمعت عن عائشة زوج نبيكم؟!

(أراد اللئيم أن يطعن في أم المؤمنين رضي الله عنها، على غرار ما أثاره رأس

---

(١) أي أكرموه وارعوا حرمته وبروه.

(٢) بزه: سلبه وغلبه.

(٣) العائدة: المعروف والصلة.

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر (ت٤٠٣هـ-١٠١٣م)، قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه: «إعجاز القرآن» و«الانصاف» و«مناقب الأئمة» و«دقائق الكلام» و«الملل والنحل».. إلخ.

المنافقين عبد الله بن أَبي سلول وأتباعه!!)

ورد الباقلاني في شموخ: أيها البطريق، هما امرأتان في التاريخ: امرأة لم تتزوج ومع ذلك ولدت، وامرأة تزوجت ولم تنجب.. فأيهما أولى بالاتهام؟! ونحن برّأنا التي لم تتزوج وأنجبت ولداً لأن الله برّأها وقال لها: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]. وأنتم اتهمتم أم المؤمنين التي تزوجت ولم تنجب، والله برأها من فوق سبع سماوات فقال: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [النور: ٢٦].

فسكت البطريق هنيهة، ثم عاد يقول: نبينا أطهر من نبيكم.. عيسى أطهر من محمد..

قال الباقلاني وهو متعجب مما سمع: ولِمَ؟

قال البطريق: لأن المسيح لم يتزوج، ومحمد تزوج!

فسأل الباقلاني البطريق: أمتزوج أنت أيها البطريق؟

قال البطريق: لا، لأن الزواج نجاسة!!

فقال له الإمام الباقلاني: كيف تقول أن الزواج نجاسة، ولم تتزوج أنت، ومع ذلك زعمتم أن الله تزوج بمريم؟! فهل أنت أطهر أم الله العلي القدير أيها البطريق..

وهنا ما كان من البطريق إلا أن صرخ قائلاً وهو يرتعش من هول الحقيقة البازغة: يا إمام والله لقد قلت حقاً ونطقت صدقاً، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

[المجلة العربية ع٢٦٨]

قصة أسير مسلم

سيق الأسرى المسلمون إلى قصر الأمير، وكانت وجوههم ساهمة، طبعها الحزن بمعالمه الكئيبة، و كيف لا يألمون لهذا المصير السيء وهم يخترقون بلاد الروم منكسرين لا منتصرين كما كانوا يأملون.

ونظروا إلى زميلهم «واصل» الشاب الفقيه الذي ترك دراسته في دمشق واكتتب في هذه الغزوة التي لم يكتب لهم فيها النصر. كان واصل يبدو غير مكترث بما حدث،

ولكنه كان مكتئباً لأمر واحد، فهو يعلم أن الأمير (بشير) الذي يساقون إلى قصره كان مسلماً ثم ارتد، وأن ثمن ردته الإمارة العريضة التي يتطاول فيها!

واستعرض بشير الأسرى وكانوا ثلاثين، سألهم عن دينهم، وجادلهم في بعض عقائده، فلما جاء دور «واصل» أبى أن يرد عليه بشيء، فقال له: ما لك لا تجبني؟! فقال: لست مجيبك اليوم بشيء فأمهلني إلى غد، فقال الأمير: إني سائلك غداً فأعد لي جواباً. وجاء الغد، وأدخل واصل على الأمير الذي بادره الحديث بعد حمد الله والثناء عليه قائلاً: عجباً لكم معشر المسلمين، تكفرون بألوهية المسيح وتقولون: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وما يستوي عبد ورب..!

ورأى واصل أن يستأمن لنفسه قبل أن يجيب، فاستوثق لحياته قدر ما يدافع عن عقيدته، فلما اطمأن قال لمحدثه: أما حمدك الله وثناؤك عليه فقد أحسنت الصفة، وهذا مبلغ علمك واستحكام رأيك، والله أعزّ وأجل مما وصفت، وأما ما ذكرت من صفة هذين الرجلين عيسى وآدم فقد أسأت وأخطأت! ألم يكونا يأكلان ويشربان، ويبولان ويتغوطان، وينامان ويستيقظان، ويفرحان ويحزنان؟!

قال بشير: بلى.

قال واصل: فلم فرقت بينهما؟

قال بشير: لأن لعيسى روحين اثنين، روح يبرئ بها الغيوب ويصنع بها المعجزات، وروح لما ذكرت من أحوال الناس!

قال واصل: روحان اثنان في جسد واحد؟!

قال بشير: قاتلك الله! تعلم أو لا تعلم.. ماذا تريد؟

قال واصل: أريد إن كانت تعلم، فلماذا لا تطرد عنها قاذورات الضعف البشري وآفاته؟! وإن كانت لا تعلم فكيف يطلع الغيب من يجهل مجاوره في جسد؟

فسكت بشير!

واستطرد واصل: برضا عيسى أم بسخطه قدستم الصليب؟!

قال بشير: هذه من تلك.. ماذا تريد؟ وأجاب واصل: إن كان بسخطه فما أنتم بعبيد يعطون ربهم ما سأل، وإلا بالله كيف تعبدون ما لا يدفع عن نفسه العدوان؟!

قال بشير: أراك رجلاً قد تعلمت الكلام فسآتيك بمن يخزيك الله على يديه. وأمر

برجل من كبار القساوسة ليجادله، فلما حضر القس قال له بشير: هذا العربي له رأي وعقل، وأصل في قومه، وأحب أن يدخل ديننا! فأقبل القس على واصل يحتفي به ويمتدحه، ثم قال: غدا أغمسك في المعمودية غمسة تخرج منها كيوم ولدتك أمك!!

قال واصل: فما هذه المعمودية؟!

- ماء مقدّس.
- مَنْ قدّسه؟!
- أنا والأساقفة من قبلي.
- فهل كانت لهم ذنوب وخطايا؟! أم أنت وهم مبرّؤون من النقص؟
- كلنا فعلنا الخطايا وليس هناك مبرّأ إلا يسوع.
- فكيف يقدّس الماء من لم يقدّس نفسه؟!

وهنا اضطرب القس وحار ثم استدرك: إنها سنّة عيسى ابن مريم غطسه يوحنا بالأردن، ثم مسح له برأسه ودعا له بالبركة!

فقال واصل: أو احتاج عيسى إلى تعميد يوحنا وأن يمسح له رأسه ويدعو له بالبركة؟! فاعبدوا إذن يوحنا هو خير لكم من عيسى!!.

فسكت القس واغتاظ بشير وصاح به: قم! دعوتك لِتنُصِّرهُ، فإذا أنت قد أسلمت..!

وانتشر خبر الأسير الفقيه، ومحاوراته الطريفة بسرعة فائقة حتى بلغ الملك وكبير بطارقته، فطلبه إليه وسأله: ما الذي بلغني عنك من انتقاصك لديني ووقيعتك فيه؟

قال واصل: إني لم أجد بدّاً من الدفاع عن ديني.

فتدخل كبير البطارقة محاولاً بوقاره وهيمنته الروحية أن ينهي هذا الأمر. ونظر واصل فرأى تحت أردية الكهنوت جسداً متين البناء، عارم القوة، فسأل الملك بغتة: هل للحبر الأعظم من زوجة وولد؟

وعرف الملك على الفور مثار التساؤل فقال له: صه.. هذا أزكى وأطهر من أن يتصل بامرأة! أو يستمتع بجسد! فقال واصل برباطة جأش ويقين فيّاض: تأخذكم الغيرة من نسبة المرأة إلى هذا، وتزعمون أن ربّ العالمين سكن جوف امرأة وعانى ضيق الرحم وظلمة البطن.. عجباً! تعبدون عيسى لأنه لا أب له، فلم لا تضمون إليه آدم فيكون لكم إلهان، أوعبدتموه لأنه أحيا الموتى؟ فعندكم في الإنجيل أن

(حزقيال) مر بميت فأحياه وتكلم معه، فضمّوه كذلك إلى شركة الآلهة! أم أنكم عبدتموه لأنه أراكم المعجزات؟ فهذا (يوشع) ردّ الشمس إلى فلكها إذ كادت تغرب. أو عبدتموه لأنه عرج في السماوات؟ فهؤلاء ملائكة الله مع كل شخص أعداد يتناوبون بالليل والنهار، أو أنكم..

فقاطعه البطريق: اخسأ يا شيطان.. هذا التجديف أحلّ بك القتل!

فقال واصل: إني أسير.. وثم ورائي من إذا بلغه خبري لم يمنعه مسلككم معي من أن يثأر لي.. أيها الملك: سل هؤلاء الأساقفة عن الأصنام التي في كنائسكم هل تجدون لها من الإنجيل مبرّرا؟ فإن كانت في الإنجيل فلا كلام لنا، وإلا فما أشبهكم بالوثنيين.

قال الملك وقد أخذته دهشة وانجلت عن بصره غشاوة: صدقت قد يعقل ما تقول!

وفي هذه الأثناء استشاط القس وامتلأ غضباً فقال في حالة هستيرية: هذا شيطان من شياطين العرب، أخرجوه من حيث جاء، ولا تقطروا من دمه قطرة في بلادنا فتفسد علينا ديننا!!

وعاد واصل ومن معه من الأسرى، وقد بدّلوا انكسارهم بانتصار.

[تأملات في الدين والحياة: ٢٣٠- ٢٣٣]

الحيدة(١)

قال عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني: اتصل بي وأنا بمكة ما قد أظهره بشر بن غياث المريسي(٢) ببغداد من القول بخلق

(١) هذه القصة هي ملخص لكتاب الحيدة للإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكناني المكي، بتحقيق: فضيلة الشيخ إسماعيل الأنصاري، بيد أن هذا التلخيص لا يغني عن الرجوع إلى الكتاب الأصلي، لذا ينصح بالرجوع إليه.

(٢) بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي، فقيه معتزلي، عارف بالفلسفة، يرمى بالزندقة، وقيل: كان أبوه يهودياً، عاش نحو (٧٠) عاماً وتوفي عام ٢١٨هـ = ٨٢٣م.

القرآن وغيره ودعابة الناس إلى موافقته على قوله ومذهبه، وتشبيهه على أمير المؤمنين المأمون وعامة أوليائه وما قد وقع في الناس من المحنة والأخذ في الدخول في الكفر والضلالة ورهبة الناس وتخويفهم من مناظرته، وإحجامهم عن الرد عليه بما يكسر به قوله وتدحض به حجته ويبطل به مذهبه، واستتار المؤمنين في بيوتهم وانقطاعهم عن الصلاة في الجماعات والجمعات، وهربهم من بلد إلى بلد خوفاً على أنفسهم ودينهم، وكثرة موافقة الجهال والرعاع من الناس على كفره وضلالته، ورغبة في الدنيا ورهبة من العقوبة التي كان يعاقب بها من خالفه على مذهبه.

قال عبد العزيز: فأزعجني قلقي وأسهر ليلي، وأدام فكري وأطال غمي وهمي، فخرجت من بلدي متوجهاً إلى ربي عز وجل، وأسأله سلامتي وتبليغي حتى قدمت بغداد فشاهدت من غلظ الأمر وامتداده أضعاف ما كان يصل إليّ، ففزعت إلى الله عزوجل أدعوه وأتضرع إليه راغباً وراهباً، أسأله إرشادي وتسديدي، وتوفيقي ومعونتي والأخذ بيدي، وأن يفتح لفهم كتابه قلبي، وان يطلق لشرح بيانه لساني وأخلصت لله نيتي، فعجل تبارك لساني، وشرح به صدري. فأجمع رأيي على إظهار نفسي وإشهار قولي ومذهبي على رؤوس الأشهاد، والقول بمخالفة أهل الكفر والضلال والرد عليهم، وأن يكون ذلك في المسجد الجامع في يوم الجمعة، وأيقنت أنهم لا يجعلون علي بقتل ولا عقوبة بعد إشهاري نفسي والنداء بمخالفته على رؤوس الخلائق إلا بعد مناظرتي والاستماع مني.

وكان الناس في ذلك الزمان في أمر عظيم، قد مُنع الفقهاء والمحدثون والمذكّرون من القعود في ذلك الجامع ببغداد وفي غيره من سائر المواضع إلا بشراً المريسي ومحمد بن الجهم، ومن كان موافقاً لهما على مذهبهما، فإنهم كانوا يقعدون يعلمون الناس الكفر والضلال، وكل من أظهر مخالفتهم وأبى أن يوافقهم على قولهم قتلوه سراً أو جهراً.

فلما كان يوم الجمعة التي عزمت فيها على إظهار أمري وإشهار قولي واعتقادي، صليت الجمعة في مسجد الرصافة حيال القبلة والمنبر في أول صفوف العامة، فلما سلّم الإمام من صلاة الجمعة، وثبت قائماً على رجلي ليراني الناس ويسمعوا كلامي ولا تخفى عليهم مقالتي، وناديت بأعلى صوتي مخاطباً لابني وكنت قد أقمته بحيالي عند الأسطوانة الأخرى.

وقلت: يا بنيّ ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله منزل غير مخلوق، فلما سمع الناس مقالتي وكلامي لابني وجوابه لي هربوا على وجوههم خارجين من المسجد إلا اليسير من الناس خوفاً على أنفسهم، وذلك أنهم سمعوا ما لم يكونوا يسمعونه من قبل، وظهر لهم ما كانوا يكتمونه، فلم يستتم من ابني الجواب حتى جاء أصحاب السلطان فاحتملوني وابني، فأوقفونا بين يدي عمرو بن مسعدة وكان جاء ليصلي الجمعة، فلما نظر إلى وجهي وكان قد سمع كلامي ومسألتي لابني إياي، فلم يحتج أن يسألني عن كلامي، فقال لي: أمجنون أنت؟ قلت: لا. فقال: فموسوس أنت؟ قلت: لا، قال: فمعتوه أنت؟، قلت: لا والحمد لله، وإني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة. قال: فمعتوه أنت؟ قلت: لا، فقال لأصحابه مروا بهما سحباً إلى منزلي.

قال عبد العزيز: فحملنا على أيدي الرجالة حتى أخرجنا من المسجد الجامع، ثم جعل الرجالة يتعادون بنا سحباً شديداً وأيدينا في أيديهم يمنة ويسره سحباً، وسائر أصحابه قدامنا وخلفنا حتى صرنا إلى منزل عمرو بن مسعدة من الجانب الغربي على تلك الحالة الغليظة، فأوقفنا على بابه حتى دخل فأمر بنا فأدخلنا عليه و هو جالس في صحن داره على كرسي من حديد، فلما صرنا بين يديه أقبل عليّ فقال: من أين أنت؟ فقلت: من أهل مكة، قال: ما حملك على ما صنعت بنفسك؟ قلت: طلب القربة إلى الله عز وجل ورجاء الزلفة لديه، قال: فهلا فعلت ذلك سراً من غير نداء ولا إظهار المخالفة لأمير المؤمنين، ولكن أردت الشهرة والرياء والسوء ولتأخذ أموال الناس، فقلت: ما أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لا غير ذلك، قال: أو تفعل ذلك؟ قلت: نعم. ولذلك قصدت وبلغت نفسي ما ترى وتغريري بنفسي وسلوكي البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من العلم والفهم في كتابه، وما أخذه علي وعلى العلماء من البيان، فقال: إن كنت إنما جعلت هذا سبباً لغيره إذا وصلت إلى أمير المؤمنين فقد حل دمك لمخالفتك أمير المؤمنين فقلت له: إن تكلمت في شيء غير هذا وجعلت هذا ذريعة إلى غيره فدمي حلال لأمير المؤمنين.

فقال: أخبرتُ أمير المؤمنين بخبرك وما فعلت، وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك للمناظرة بين يديه، وقد أمر – أطال الله بقاءه – بإجابتك على ما سألت،

وجمع المناظرين إلى مجلسه على أن يكون ذلك في يوم الإثنين الأدنى ويحضر معهم ليناظروا بين يديه ويكون هو الحاكم بينكم.

قال عبد العزيز: فلما صليت الغداة في يوم الإثنين في المسجد الذي على باب بيتي إذا خليفة عمرو بن مسعدة قد جاءني ومعه جمع كثير من الفرسان والرجالة، فحملني مكرماً على دابة حتى سار بي إلى دار أمير المؤمنين، فأوقفني هناك حتى جاء عمرو بن مسعدة، فقال: أنت مقيم على ما كنت عليه أم رجعت عنه؟ فقلت: بل مقيم على ما كنت عليه، وقد ازددت بتوفيق الله بصيرة ورشداً.

فقام عمرو بن مسعدة على رجليه وقال: قد حرصتُ على خلاصك جهدي وأنت حريص على سفك دمك وقتل نفسك.

فقلت معونة الله تبارك وتعالى أعظم وألطف من أن ينساني أو يكلني إلى نفسي، وعدل أمير المؤمنين أوسع من أن يقصر عني، وإنما أقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فقام عمرو بن مسعدة فدخل بي إلى الدهليز الأول ومعي جماعة موكلون بي، وكان قد أمر بني هاشم أن يركبوا، ووجه إلى القضاة والفقهاء الموافقين لهم على مذهبهم وسائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا، والقوّاد والأولياء، فركب القوم بالسلاح ليرهبوني بذلك ويرهبوا الرعية، فلما اجتمع الناس وتتاموا ولم يتخلف منهم أحد مما يعرفونه بالكلام والجدل أُذن لي بالدخول، فلما صرت على باب الإيوان وقفت فسمعت المأمون يقول أدخلوه، قربوه، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قال لي: اجلس فجلست.

وتبين لأمير المؤمنين ما أنا فيه من الجزع، وما قد نزل بي من الخوف فجعل ينظرني وأنا أرتعد وأنتفض، ولكنه أحب أن يؤنسني ويسكّن روعتي، فجعل يكثر كلام جلسائه ويكلم عمرو بن مسعدة ويتكلم بأشياء كثيرة مما لا يحتاج إليها، يريد بذلك كله إيناسي.

ثم أقبل عليّ فقال: ما الاسم؟ فقلت: عبد العزيز، قال: ابن من؟ قلت: ابن يحيى بن مسلم، قال ابن من؟ قلت: ابن ميمون الكناني، قال: أو أنت من كنانه؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين فتركني هنيهة لا يكلمني، فقال: من أين الرجل؟ قلت: من

الحجاز، قال: ومن أي الحجاز؟ قلت من مكة، قال: ومن تعرف من أهل مكة؟ قلت: يا أمير المؤمنين قلَّ من بها من أهلها إلا وأنا أعرفه إلا رجل ضوى إليها أو من جاور بها فإني لا أعرفه، قال: أتعرف فلاناً وفلاناً حتى عدد جماعة من بني هاشم كلهم أعرفهم حق المعرفة فجعلت أقول نعم، وإنما يريد إيناسي وبسطي للكلام وتسكين روعتي وجزعي، فذهب عني ما كنت فيه، وما لحقني من الجزع وجاءت المعونة من الله عز وجل، قَوِيَ بها ظهري واشتد بها قلبي واجتمع بها فهمي.

ثم أقبل عليّ المأمون وقال: يا عبد العزيز إنه قد اتصل بي ما كان منك وقيامك في المسجد الجامع وقولك أن القرآن كلام الله.. إلخ، بحضرة الخلق وعلى رؤوس الخلائق، وما كان من مسألتك بذلك من الجمع بينك وبين مخالفيك على القول لتناظرهم في حضرتي وفي مجلسي والاستماع منك ومنهم، وقد جمعت المخالفين لك لتناظرهم بين يدي وأكون أنا الحاكم بينكم، فإن تبين لك الحجة عليهم والحق معك اتبعناك، وإن تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك، وإن استقلت أقلناك(١).

فقلت: يا أمير المؤمنين كل متناظرين على غير أصل يكون بينهما يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع فهما كالسائر على غير طريق، وهو لا يعرف المحجة فيتبعها، ولا يعرف الموضع الذي يريد فيقصده، و هو لا يدري من أين جاء فيرجع فيطلب الطريق وهو على ضلال، ولكننا نؤصل بيننا أصلاً فإذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه إلى الأصل، فإن وجدناه فيه وإلا رمينا به ولم نلتفت إليه، قال المأمون: نِعْمَ ما قلت، فاذكر الأصل الذي تريد أن يكون بينكما قلت: يا أمير المؤمنين الأصل بيني وبينه ما أمرنا الله عز وجل واختاره لنا وعلمناه وأدبنا به في التنازع والاختلاف، ولم يكلنا إلى غيره ولا إلى أنفسنا واختيارنا فنعجز.

ثم أقبلت على بشر فقلت: يا بشر ما حجتك أن القرآن مخلوق؟ قال بشر: تقول يا عبد العزيز القرآن شيء أم غير شيء؟ فإن قلت شيء فقد أقررت أنه مخلوق، إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت أنه ليس بشيء فقد كفرت، لأنك تزعم أن حجة الله على خلقه ليس بشيء.

فقلت لبشر: سألت عن القرآن هو شيء أم غير شيء؟ فإن كنت تريد أنه شيء

---

(١) استقلت: طلبت الإقالة، أي الصفح والغفران.

إثباتاً للوجود ونفياً للعدم، فنعم هو شيء، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له وأنه كالأشياء فلا.

فقال بشر: ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمعه ولا بد من جواب يعقل ويفهم إنه شيء أم غير شيء، فقلت لبشر: صدقت لأنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول، ولقد وصفت نفسك بأقبح الصفات واخترت لها أذم الاختيارات، ولقد ذم الله عز وجل قوماً في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ قالوا مثل مقالتك وكانوا بمثل ما وصفت به نفسك، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

قال المأمون: دع عنك هذا يا عبد العزيز وارجع إلى ما كنت فيه وبين ما قلته واشرحه من ذكر الشيء، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته ومن صفاته، فلم يتسم بالشيء ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه شيء وأنه أكبر الأشياء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم وتكذيباً للزنادقة ومن تقدمهم ممن جحد معرفته وأنكر ربوبيته من سائر الأمم فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] فدل على نفسه أنه شيء كالأشياء، و أنزل في ذلك خبراً خاصاً مفرداً لعلمه السابق أن جهماً وبشراً ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه وصفاته ويشبهون على خلقه ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر تكذيباً لمن الحد في كتابه وافترى عليه وشبهه بخلقه، ثم عدد أسماءه في كتابه، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه قال ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» ثم عددها فلم نجده جعل الشيء اسماً، فقلت: كما قال الله وتأدبت بما أدبني الله، متبعاً غير مبتدع، ثم ذكر جل ذكره كلامه كما ذكر نفسه ودل عليه مثل ما دل على نفسه ليعلم الخلق أنه من ذاته، وأنه صفة من صفاته فقال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، فذم الله من

نفى أن يكون كلامه الذي أنزله على رسول شيئاً.

وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فدل بهذا الخبر أيضاً على أن الوحي شيء بالمعنى، وذم من جحد أن يكون كلامه شيئاً، فلما أظهر اسم كلامه لم يظهره باسم الشيء، ولكنه أظهره باسم الكتاب والنور والهدى، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]، فأظهره باسم الكتاب والنور والهدى، ولم يقل قل من أنزل الشيء الذي جاء به موسى، ويجعل الشيء اسماً لكلامه، فكانت أسماء ظاهرة يعرف بها، كما سمى نفسه بأسماء ظاهرة يعرف بها، فسمى كلامه نوراً، وهدى، وشفاء، ورحمة، وحقاً، وقرآناً وفرقاناً، لعلمه السابق في جهم وبشر ومن يقول بقولهما أنهم سيلحدون في كلامه ويدخلونه في الأشياء المخلوقة.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين قد أقر عبد العزيز أن القرآن شيء وادعى أنه ليس كالأشياء، وقلت انا إنه كالأشياء فليأت بنص التنزيل كما أخذ على نفسه أنه ليس كالأشياء، وإلا فقد بطل ما ادعاه وصح قولي أنه مخلوق إذ كنا جميعاً قد اجتمعنا على أنه شيء وقال الله عز وجل: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] بنص التنزيل.

فقال المأمون: هذا يلزمك يا عبد العزيز لما أخذت على نفسك، قلت: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فدل عز وجل بهذه الأخبار و أشباه لها في القرآن كثيرة على أن كلامه ليس كالأشياء، وإنه غير الأشياء وإنه خارج عن الأشياء وأنه يكوّن الأشياء، ثم أنزل الله عز وجل خبراً مفرداً ذكر فيه خلق الأشياء كلها فلم يدع منها شيئاً إلا ذكره وأدخله في خلقه، وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق، وفصله منها ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة وخارج عنها فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فجمع في قوله:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ جميع ما خلق فلم يدع شيئاً، ثم قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ يعني والأمر الذي كان به الخلق خلقاً، فرقاً بين خلقه وأمره، فجعل الخلق خلقاً والأمر أمراً، وجعل هذا غير هذا.

قال بشر: يا أمير المؤمنين قد ادعى أن الاشياء لا تكون إلا بقوله، ثم جاء بأشياء متباينات متفرقات، وزعم أن الله يخلق بها الأشياء فأكذب نفسه ونقض قوله ورجع عما ادعاه من حيث لا يدري، وأمير المؤمنين شاهد عليه وهو الحاكم بيننا.

فأقبل المأمون عليّ فقال يا عبد العزيز: قد قال بشر كلاماً قد قلته ويحتاج أن تصحح قولك ولا ينقض بعضه بعضاً. فقلت: يا بشر زعمت أني قد جئت بأشياء متباينات متفرقات وادعيت أن الله خلق الأشياء، وما قلت إلا ما قال الله عز وجل، ولا أقول إن الله خلق الأشياء بقوله وكلامه وأمره، وهذه أربعة أشياء، ولا أنه خلقها إلا بكلامه. قال بشر: يا أمير المؤمنين قد قال: إن الله قد خلق الأشياء بقوله وكلامه وأمره بالحق وهذه أربعة أشياء، قال المأمون: بل قلت هذا يا عبد العزيز فقلت: صدق أمير المؤمنين، وقد قلت هذا وهذه أربعة أشياء لشيء واحد، لأن كلام الله هو قوله وقول الله هو كلامه وأمر الله هو كلامه وكلام الله هو أمره وكلام الله هو الحق والحق هو كلام الله ، فهذه أسماء لكلام الله وقد قدمت ذكر هذا فقلت: إن الله سمى كلامه نوراً وهدى وشفاء ورحمةً وقرآناً وفرقاناً وبرهاناً وسماه الحق، وهذه أشياء شتى لشيء واحد وهو كلام الله، كما سمى نفسه بأسماء كثيرة وهو واحد فرد صمد، و إنما ينكر بشر هذا ويستعظمه لقلة معرفته بلغة العرب.

قال بشر: قد أصّل بيني وبينه كتاب الله، وزعم أنه لا يقبل إلا بنص التنزيل، فأين نص التنزيل، إن كلام الله هو قوله وهو أمره وإن كلامه هو الحق؟ فقال المأمون: هذا يلزمك يا عبد العزيز لما عقدت على نفسك من الشرط، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال الله عز وجل وقد ذكر كلامه في القرآن: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وإنما يسمعه من قارئه وإنما عنى القرآن لا خلاف بين أهل العلم واللغة في ذلك، وقال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] فقد أخبر عن القرآن أنه الحق، وقال: ﴿أَمْ

﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

فهذه أخبار الله كلها أن القرآن هو الحق، ثم ذكر عز وجل قوله فسماه الحق، فأخبر أن الحق قوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾، فأخبر أنه الحق وأن الحق قوله، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] فهذه أخبار الله أنه الحق وأن الحق قوله ثم ذكر أن كلامه الحق وأن الحق كلامه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، وقال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]، فهذه أخبار الله أن الحق كلامه وأخبر أن أمره هو القرآن وهو كلامه.

فقال بشر: قد أقر بين يديك أن القرآن شيء، فليكن عنده كيف شاء فقد اتفقنا جميعاً أنه شيء وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فهذه لفظة لم تدع شيئاً إلا أدخلته في الخلق، ولا يخرج عنها شيء ينسب إلى الشيء، لأنها لفظة قد استوعبت الأشياء كلها وأتت عليها مما ذكرها الله عز وجل ومما لم يذكره، فصار القرآن مخلوقاً بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير.

فقلت: يا أمير المؤمنين عليّ أن أكسر قوله وأكذبه فيما قال بنص التنزيل حتى يرجع عن قوله أو يقف أمير المؤمنين على كسر قوله وبطلان دعواه. فقال المأمون: قل ما عندك، قلت: قال الله في قصة عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] فهل أبقت الريح يا بشر شيئاً لم تدمره؟ قال: لا قد دمرت كل شيء كما أخبر الله عنها فلم يبق شيء إلا وقد دخل تحت هذه اللفظة، فقلت: قد أكذب الله عز وجل من قال هذا بقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فأخبر أن مساكنهم كانت باقية بعد تدميرهم، ومساكنهم أشياء كثيرة، وقد قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، وقد قال في قصة بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] فهل بقي يا بشر شيء لم تؤته بلقيس؟ قال: أنا أقول إن هذه اللفظة تجمع الأشياء كلها.

فقلت: قد أكذب الله عز وجل من قال هذا، لأن ملك سليمان كمثل ملك بلقيس مائة ألف مرة ولم تؤته.

وهذا كله مما يكسر قولك، ويبطل مذهبك، ويدحض حجتك، ومثل هذا في القرآن كثير، ولكن أبدأ بما هو أشنع وأظهر فضيحة لمذهبك وأدمغ لبدعتك، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]. أتقر يا بشر أن لله علماً كما أخبر، أو تخالف التنزيل؟

فحاد بشر عن جوابي وأبى أن يصرح بالكفر فيقول: ليس لله علم فيكون قد رد نص التنزيل فتبين ضلالته وكفره، وأبى أن يقر أن لله علماً فأسأله عن علم الله هل هو داخل في الأشياء المخلوقة أم لا، وعلم ما أريده وألزمه في ذلك من كسر قوله وإبطال مذهبه ودحض حجته، فاجتلب كلاماً لم أسأل عنه وقال: الله لا يجهل، وهذا معنى العلم. وقد حاد بشر يا أمير المؤمنين عن جوابي. ثم أقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا يكون الخبر عن المعنى، فليقر بشر أن لله علماً كما أخبرنا به في كتابه، فإني سائله ما معنى العلم، وقد حاد بشر يا أمير المؤمنين عن جوابي.

فأقبل عليّ المأمون وقال لي: يا عبد العزيز قد حاد بشر عن جوابك وقد أبى أن يقر أن لله علماً، ماذا تتكلم أنت عنه في الإقرار بذلك، قلت: نعم يا أمير المؤمنين إذا أقر أن لله علماً سألته عن علم الله هل هو داخل في الأشياء المخلوقة حيث احتج بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وزعم أنه لم يبق شيء إلا وقد أتى عليه هذا الخبر، فإن قال علم الله داخل في الأشياء المخلوقة فقد شبه الله بخلقه الذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وكل من تقدم وجوده قبل علمه فقد دخل عليه الجهل فيما بين وجوده إلى حدوث علمه، وهذه صفة المخلوقين، والله أعظم وأجل أن يوصف بذلك أو ينسب إليه، ومن قال ذلك فقد كفر وحل دمه، ووجب على المؤمنين قتله، وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء المخلوقة وغير ذلك داخل فيها، فقد رجع عن قوله وأكذب نفسه.

وقلت: أنا وكذلك كلامه خارج عن جملة الأشياء المخلوقة، غير داخل فيها.

فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز، وإنما فرّ بشر أن يجيبك في هذه المسألة لهذا، ثم أقبل عليّ وقال: يا عبد العزيز إن الله عالم؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فتقول

إن لله علماً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فتقول إن الله سميع بصير؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فتقول إن لله سمعاً وبصرا؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: فافرق بين ذلك.

فقلت: يا أمير المؤمنين وقد قدمت إليك فيما احتججت به أن على الناس جميعاً أن يثبتوا ما أثبت الله، وينفوا ما نفى الله، ويمسكوا عما أمسك الله عنه، فأخبرنا الله عزوجل أن له علماً، فقلت: إن له علماً كما أخبر، وأخبرنا أنه عالم بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فقلت: إنه عالم كما أخبر، وأخبرنا أنه سميع بصير، فقلت إنه سميع بصير كما أخبر في كتابه، ولم يخبر أن له سمعاً ولا بصراً فأمسكت عنه إمساكه، ولم أقل إن له سمعاً ولا بصراً.

فقال المأمون لبشر وأصحابه: ما هو بمشبه(١) فلا تكذبوا عليه.

قال بشر: دع عنك هذا الخطاب لا بد من جواب أي شيء هو علم الله بنص التنزيل، أو يقف أمير المؤمنين على أنك قد حدت عن الجواب فأكون أنا وأنت في الحيدة سواء.

فقلت: إنك تأمرني بما نهاني الله عنه، وحرم علي القول به، وتأمرني بما أمرني به الشيطان، ولست أعصي ربي وأرتكب نهيه، وأطيع الشيطان وأتبع أمره وأمرك إن كنتما قد أمرتماني بخلاف ما أمرني به ربي بل نهاني.

فاشتد تبسم أمير المؤمنين ثم قال: يا عبد العزيز أمَرَكَ بشر بما نهاك الله عنه وحرم عليك القول به، وأمَرَكَ به الشيطان؟ فأين ذلك من كتاب الله عز وجل أو من سنة نبيه عليه السلام؟ قلت: بل من كتاب الله ينص التنزيل، قال الله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأمرهم الشيطان بضد ذلك فقال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم

---

(١) المشبه: الذي يقول إن الله يشبه خلقه، وله سمع وبصر ويد ورجل.. إلخ وهو قول المشبهة.

بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩]، فأخبر الله عز وجل أن الشيطان يأمر الناس بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فنهاهم عن اتباعه وقبول قوله.

فهذا تحريم الله ونهيه لنا يا أمير المؤمنين أن نقول عليه ما لا نعلم، وهذا أمر الشيطان لنا أن نقول على الله ما لا نعلم، وقد اتبع بشر يا أمير المؤمنين سبيل الشيطان التي نهاه الله عن اتباعه ووافقه على قوله، وأمرني بمثل ما أمرني به الشيطان أن أقول على الله ما لا أعلم.

فكثر تبسم المأمون حتى غطى بيده على فيه وأطرق ينكت بيده على السرير.

فقال بشر واحدة بواحدة يا أمير المؤمنين، سألني عبد العزيز أن أقر أن الله علماً فلم أجبه، وسألته عما هو علم الله فلم يجبني، فقد استوينا في الحيدة ونخرج من هذه المسألة إلى غيرها، وندعها من غير حجة تثبت لأحدنا على الآخر.

فقلت: يا أمير المؤمنين إن بشراً قد أُفحِمْ وانقطع عن الجواب، ودحضت حجته وبانت فضيحته، وبقي بلا حجة يقيمها لمذهبه الذي هو عليه، ويدعو إليه، فلجأ يسألني مسألة محال يحج بها مني ليقول سألني عبد العزيز عن مسألة فلم أجبه، وسألته عن مسألة فلم يجبني فيها وقد قال ذلك الساعة، وأنا وبشر يا أمير المؤمنين على غير السواء في مسألتنا لأني سألته عما أخبرنا الله في كتابه في مواضع كثيرة، وسألني بشر عن مسألة ستر الله علمها عن ملائكته وأنبيائه وعن سائر الخلق. فقال المأمون: أنتما في مسألتكما على غير السواء، وقد صح قولك في هذه المسألة وبان ووضح يا عبد العزيز، وظهرت حجتك على بشر فيها.

قال عبد العزيز: ورأيت بشراً قد حاد وانقطع، وصحّ في يدي واستبان الحق ووضح لأمير المؤمنين ولسائر من بحضرته وشهد لي أمير المؤمنين بذلك، فقلت: يا أمير المؤمنين لست أدع بشراً حتى أكسر قوله، وأدحض حجته من كل جهة، وأرجع إلى أول المسألة وأدع ذكر العلم واحتج بما يبطل دعواه، ويفضح مذهبه، فقلت: يا بشر تزعم أن قول الله ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] لا يخرج عنها شيء، لأن تلك كلمة تجمع الأشياء كلها فلا تدع شيئاً يخرج عنها وكل ذلك داخل فيها؟ قال بشر: نعم، هكذا قلت وهكذا أقول، ولست أرجع عن قولي، فقلت: يا أمير المؤمنين، شاهد عليه بهذا؟ قال المأمون: أنا شاهد عليه بهذا، فتكلم بما تريد.

فقلت: يا بشر قال الله عز وجل: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فقد أخبرنا الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه أن له نفساً فتقر يا بشر إن لله نفساً كما أخبرنا عنها؟ قال: نعم، فقلت: يا أمير المؤمنين اشهد عليه أنه أقرَّ أن لله نفساً، قال: نعم قد سمعت قوله وشهدت عليه، فقلت: قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فتقول يا بشر إن نفس الله عز وجل داخلة في هذه النفوس التي تذوق الموت؟ فصاح بأعلى صوته - وكان جهوري الصوت- معاذ الله، معاذ الله.

قال عبد العزيز فرفعت صوتي وقلت: إذاً معاذ الله أن يكون كلام الله داخلاً في الأشياء المخلوقة، كما أن نفسه ليست بداخلة في الأشياء الميتة.

قد كسرت قوله في هذه المسألة بالقول الأول، والقول الثاني في باب العلم، وكسرت قوله ببعضه، ودحضت حجته بمذهبه، وبطل ما كان يدعو إليه من بدعته، وبان لأمير المؤمنين قبح مذهبه وفحش قوله.

فأقبل عليّ المأمون وقال: يا عبد العزيز قد وضحت حجتك وبان قولك، وانكسر قول بشر في هذه المسألة، ونحتاج أن تشرح لنا هذه الأخبار في القرآن ومعانيها وما أراد الله عز وجل.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل أنزل القرآن على أربعة أخبار خاصة وعامة (فمنها) خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص، وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، وقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، والناس اسم يجمع آدم وعيسى وما بينهما، وما بعدهما، فعقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعن آدم وعيسى، لأنه قدم خبر خلقهما.

(ومنها) خبر مخرجه مخرج العموم، ومعناه معنى الخصوص وهو قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فعقل عن الله أنه لم يعن إبليس

فيمن تسعه الرحمة لما تقدم فيه من الخبر الخاص قبل ذلك وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فصار معنى ذلك الخبر العام خاصاً لخروج إبليس ومن تبعه من سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء.

(ومنها) خبر مخرجه الخصوص ومعناه معنى العموم وهو قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، فكان مخرجه خاصاً ومعناه عاماً.

(ومنها) خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه العموم.

فهذه الأربعة الأخبار خص الله العرب بفهمها، ومعرفة معانيها وألفاظها وخصوصها وعمومها والخطاب بها، ثم لم يدعها اشتباهاً على خلقه، وفيها ببيان ظاهر لا يخفى على من تدبره من غير العرب ممن يعرف الخاص والعام.

فلما قدم إلينا عز وجل في نفسه خبراً خاصاً أنه حي لا يموت بقوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ثم أنزل خبراً مخرجه مخرج العموم ومعناه الخصوص فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فعقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعن نفسه مع هذه النفوس لما قدم إليهم من الخبر الخاص.

وكذلك قدم إلينا في كتابه خبراً خاصاً ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فدل على قوله باسم مفرد فقال: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾، ولم يقل إذا أردناهما، ففرق بين القول والشيء المخلوق الذي يكون بالقول مخلوقاً ثم قال عز وجل: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فعقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعن كلامه وقوله في الأشياء المخلوقة لما قدم من الخبر الخاص.

فقال المأمون: أحسنت فاخرجوا منها إلى غيرها.

فقال بشر: قد خطبت وتكلمت وهذيت، وتركتك تفرح بما ادعيت علي من إبطال خلق القرآن بنص التنزيل، وههنا آية من كتاب الله لا يتهيأ لك معارضتها ودفعها ولا التشبيه فيها كما فعلت في غيرها بنص القرآن، وإنما أخرتها ليكون انقضاء المجلس بها، وفيها سفك دمك.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر هاتها وأنا أشهد أمير المؤمنين على نفسي أني أول من

يتبعك عليها، ويقول بها، ويرجع عن قوله.

قال بشر: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] فهل في الخلق أحد يشك في هذا أو يخالف عليه، إن معنى ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ خلقناه.

فقلت: يا أمير المؤمنين ذهب نص التنزيل الذي ادعاه أن يأتي به، ورجعنا إلى معناه وتأويله، قال بشر: ما هذا إلا نص التنزيل، وما هذا بتأويل ولا بتفسير.

فأقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين إن القرآن نزل بلسانك ولسان قومك، وأنت أعلم أهل الأرض بلغة قومك ولغة العرب كلها، ومعاني كلامها، وبشر رجل من أبناء العجم يتأول كتاب الله تعالى على غير ما أنزل وغير ما عناه الله عز وجل، ويحرفه عن مواضعه، ويبدل معانيه، ويقول ما تنكره العرب وكلامها ولغاتها، وإنما يكفِّر بشر الناس، ويستبيح دماءهم بتأويل لا بتنزيل.

فأقبلت على بشر فقلت: يا بشر أخبرني عن (جعل)، هذا الحرف لحكم لا يحتمل غير الخلق؟ قال: لا، وما بين جعل وخلق عندي فرق، ولا عند أحد غيري من سائر الناس من العرب ولا من العجم، ولا يتعارف الناس إلا هذا.

فقلت أخبرني يا بشر إجماع العرب والعجم بزعمك أن (جعل وخلق) واحد لا فرق بينهما في هذا الحرف وحده، أم في سائر ما في القرآن من (جعل)؟ قال بشر: بل ما في سائر القرآن من جعل وسائر ما في الكلام والأخبار والأشعار.

فقلت لبشر: زعمت أن معنى جعلنا خلقناه قرآناً عربياً؟ قال: نعم هكذا قلت وهكذا أقول أبداً، فقلت له: أخبرني تفرد الله بخلق القرآن أم شاركه في خلقه أحد غيره؟ فقال: بل والله تفرد في خلقه ولم يشاركه في خلقه أحد غيره، فقلت له: أخبرني عمن قال أن بعض ولد آدم خلق القرآن من دون الله أمؤمن هو أم كافر؟ قال بشر: كافر حلال الدم، فقلت: صدقت إنه كافر حلال الدم.

قلت: فأخبرني عمن قال التوراة خلقتها اليهود من دون الله عز وجل أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر حلال الدم. قلت: صدقت أنه كافر حلال الدم بإجماع الأمة. قلت فأخبرني عمن قال إن بني آدم خلقوا الله، وأن الله تعالى أخبر بذلك في كتابه أمؤمن هو أم كافر، قال بشر: بل كافر حلال الدم، فقلت: يا بشر الله خلق الخلق كلهم، قال: بلى، قلت: فهل شاركه في خلقهم أحد من خلقه، قال: لا، قلت: صدقت، فأخبرني عمن قال إن بني آدم شاركوه في خلقه أمؤمن هو أم كافر، قال: بل

كافر حلال الدم، قلت: صدقت وهكذا أقول أنا أيضاً.

ثم قلت: قال الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩٠]، خلقتم الله عليكم كفيلا، لا معنى له عند بشر غير ذلك، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، فزعم بشر أن معنى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ﴾ ولا تخلقوا الله. وقال الله عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [النحل: ٥٧]، فزعم بشر أن معنى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ يخلقون لله البنات، لا معنى لذلك عنده غير هذا، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة.

فقال المأمون: ما أقبح هذه المقالة وأعظمها وأشنعها، فحسبك يا عبد العزيز فقد صح قولك، وأقر بشر بما حكيت عنه، وكفر نفسه من حيث لم يدر. والآن تكلم يا عبد العزيز في بيان هذا، في ذكر (جعل وخلق) الذي في القرآن، وفرق ما بين جعل وخلق، واشرح ذلك ليقف عليه من يحضرنا ويعرفه.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين إن (جعل) في كتاب الله يحتمل عند العرب معنين، معنى خلق، ومعنى صيّر، فلما كان خلق خلقاً محكماً لا يحتمل غير المخلوقين، فكان من صنعة الخالق لم يتعبد الله به العباد فيقول: اخلقوا ولا تخلقوا إذا كان الخلق ليس من صناعة المخلوقين وإنما هو من فعل الخالق.

ولما كان جعل يحتمل معنين، معنى خلق ومعنى صيّر، لم يدع الله في ذلك اشتباهاً على خلقه فليحد الملحدون ويشبّه المشبهون على خلقه، كما فعل بشر وأصحابه حتى جعل عز وجل على كل من الكلمتين علماً ودليلاً فرّق به بين جعل الذي بمعنى خلق، وجعل الذي بمعنى صيّر.

فأما جعل الذي هو على معنى خلق، فإن الله عز وجل جعله من القول المفصل، فأنزل القرآن به مفصلاً وهو بيّن لقوم يفقهون، والقول المفصل يستغني السامع إذا أخبر به عن أن توصل له الكلمة بغيرها من الكلام، إذ كانت قائمة بذاتها على معناها فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فسواء عند العرب قال جعل أو قال خلق، لأنها قد

علمت أنه أراد بها خلق لأنه أنزله من القول المفصل وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، فقالت العرب: إن معنى هذا: وخلق لكم، إذا كان قولاً مفصلاً، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فعقلت العرب عنه أنه عنى خلق لكم إذ كان من القول المفصل فسواء قال خلق أم جعل.

وأما جعل الذي هو على معنى التصيير لا معنى الخلق، فإن الله تعالى أنزله من القول الموصل الذي لا يدري المخاطب به حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها فيعلم ما أراد بها، وإن تركها مفصولة لم يصلها بغيرها من الكلام لم يفهم السامع لها ما يعني بها، و لم يقف على ما أراد بها: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، فلو قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾، ولم يصلها بخليفة في الأرض، لم يعقل داود ما خاطبه به الله تعالى، لأنه خاطبه وهو مخلوق، فلما وصلها بخليفة، عقل داود ما أراد بخطابه.

وكذلك حين قال لأم موسى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٢٦] فلو لم يصل ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾ بـ ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لم تعقل أم موسى ما عنى الله تعالى بقوله (جاعلوه) إذ كان خلق موسى متقدماً لرده إليها، فلما وصل ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾ بالمرسلين عقلت أم موسى ما أراد الله تعالى بخطابها.

ومثل هذا كثير في القرآن يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم، وانصرفت من مجلسه على أحسن حال وأجملها، قد أعز الله دينه وأعز أهله، وأذل أهل الكفر والضلال، فلله الحمد على تسديده وتوفيقه كما هو أهله ومستحقه.

فسُرّ المسلمون جميعاً بما وهبه الله لهم من إظهار الحق وقمع الباطل، وانكشف عن قلوبهم ما كان اكتنفها من الغم والحزن، وجعل الناس يجيئون إليّ أفواجاً حتى أغلقت بابي، واحتجبت عنهم خوفاً على نفسي وعليهم من مكروه يلحقنا، فقالوا: لا بد أن تملي علينا ما جرى لنعرفه ونتعلمه، فَهِبْتُ ذلك، وتخوفت سوء عاقبته، فلما ألحّوا عليّ، قلت أنا أذكر لكم بعض ما جرى مما لا يجوز عليّ فيه شيء ولا ضير في

ذكره، فرضوا بذلك مني فأمليت عليهم أوراقاً مقدار عشر أوراق ونحوها مختصرة لأقطعهم بها عن نفسي وعن ملازمة بابي، ولم يتهيأ لي أن أشرح هذا كله مما تخوفت على نفسي مما قد يلحقني بعد هذا المجلس ما جرى بسبب الأوراق على الناس، وكتبوها عني في كتاب غير هذا – وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

☆ ☆ ☆

الباب السابع عشر
في الوفاء

وفاء و فداء

حكي عن العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآني قال لي: عباس، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به، وبكّر به إليّ في غد، واحترز عليه كل الإحتراز. قال العباس: فدعوت جماعة، فحملوه ولم يقدر أن يتحرك، فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فأمرتهم، فتركوه في مجلس لي في داري، ثم أخذت أسأله عن قضيته، وعن حاله، ومن أين هو، فقال: أنا من دمشق، فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية. فقال: ما كنت بالذي أعرّفك خبره حتى تعرّفني قضيتك معه، فقلت: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل (قفّة كبيرة) من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم.

وبينما أنا هارب في بعض الدروب، إذا بجماعة يَعْدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فِتُّهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله، قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة، فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك، فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق إلا تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: هو ههنا، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرتجف ما تحملني

رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: إجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدّعة إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يحوجني إلى شيء، ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي بالخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر، فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني، فلم أرَ لهم أثراً، فرجعت إليه، وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبني إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا قد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت عليّ هذه المدة، ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود، وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر، فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كدّ وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر، وقال لي: يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع، وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري (أستأجر) به مركوباً، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة[1] من أفخر الملابس وخُفَّيْن جديدين وآلة السفر، ثم جاءني بسيف، ومنطقه (نطاق) فشدها في وسطي، ثم قدم بغلاً، فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش، ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم إليّ الفرس الذي كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام يخدمك ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري، وركب معي يشيعني، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين، فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء، ومكافأته على

---

(١) القجه: وعاء لحفظ الدراهم (عامية).

فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك، ولا مؤنة(١) تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه غيّر عليك حالي، وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى اثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي صيَّرك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت أيامك، فنسبت إليّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وأُخِذْتُ أنا وضُربت إلى أن أشرفت على الموت، وقُيّدتُ وبُعِثَ بي إلى أمير المؤمنين، وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك، فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك. قال العباس: قلت يصنع الله خيراً.

ثم أحضر حدّاداً في الليل فك قيوده وأنزل ما كان فيه من الأشكال (القيود) وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سيّر من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس ثانية، وقال: عليّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني والبغل الفلاني، والبلغة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا، قال ذلك الرجل: وأحضر لي عشرة آلاف درهم، وكيساً فيه خمسة آلاف دينار.

وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيّعه(٢) إلى حد الأنبار(٣). فقلت له: إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم. وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلَّ من على بابه فأُرَدُّ وأُقتل. فقال لي: أنج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سَلِمْت من غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت، فقد وقيته بنفسي كما

---

(١) مؤنة: قوت، طعام.

(٢) شيَّعَهُ: صحبه مودعاً.

(٣) الأنبار: إقليم في العراق غربي بغداد يمتد حتى تخوم الشام.

وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به، وتفرغ العباس لنفسه، وتحنّط وجهزّ له كفناً، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا. فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليّ عهد لئن ذكرت إنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين إما أن يصفح عني، فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأفديه بنفسي. وقد تحنطت وها كفني يا أمير المؤمنين، فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غير، هلا عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولى، اذهب الآن إليه، فطيّب نفسه وسكّن رعه و ائتني به حتى أتولى مكافأته.

قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت. فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه، ثم قام، فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه، وحدثه حتى حضر الغداء، وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

[المستطرف: ١/ ٨٠٥]

وفاء أحمد اليتيم

روي أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته[١] طفلاً مطروحاً، فالتقطه وربّاه وسمّاه «أحمد» وشهّره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زياً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده (أبا الجيش خمارويه) به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء أنه لا يخونني، فعاهده ثم حكمه في أمواله و قدمه في أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام، حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه مستمة بالنجح ركن إليه، واعتمد في أمور بيوته عليه، فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر، فائتني بها، فمضى أحمد، فلما دخل الغرفة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع أحد الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليّ وأخذ العهد عليّ، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه، وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة وخرج من الحجرة أن يذكرها للأمير، فاقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها.

ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان قبل ذلك مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة، فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية الجديدة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه عن ملاعبة أترابها[٢]، وشغلته بعذوبة رضابها عن أرتشاف رضاب[٣] أضرابها[١]،

---

(١) السقاية: موضع الماء، وما يُبنى لجمع الماء.

(٢) أترابها: جمع ترب و هو المماثل في السن.

(٣) الرضاب: الريق، لعاب الفم.

وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكَبُرَ عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي. فلما سمع الامير ذلك استشاط غيظاً وغضباً، وهمّ بالحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادماً يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكاً، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في ذلك الطبق، وأحضره مغطى، ثم أن الأمير أبا الجيش جلس لشربه، وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير، فقال يا أحمد: خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكاً، فأخذه أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز في طريقه المغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا له: أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وأدخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكاً.

فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به، فتناوله أحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال أيها الأمير: إن الذي تم عليه جزاء له بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى أخره، لما أرسله لإحضار السبحة الجوهر،

---

(١) أضرابها: أمثالها وأترابها.

فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل مقاليد جميع ما يتعلق به بيديه.

[المستطرف: ١/ ٤٤٠]

سُعدَي الجَميْلة

جلس معاوية بن أبي سفيان في مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتَّح الجوانب يدخل منه النسيم، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات في يوم شديد الحر، وقد اشتد نفح الهجير(١)، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه وهو يتلظى بالنار من حر التراب، ويحجل في مشيته حافياً، فتأمله معاوية وقال لجلسائه: هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة هذه الساعة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فقال: والله لئن كان قاصدي سائلاً لأعطينه، أو مستجيراً لأجيرنه، أو مظلوماً لأنصرنه... يا غلام قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه الدخول عليّ.

فخرج الغلام فوافى الأعرابي، وقال له: ما تريد؟ قال: أريد أمير المؤمنين. قال: ادخل، فدخل وسلّم على معاوية، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من تميم، قال: ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟ قال: جئتك مشتكياً وبك مستجيراً. قال: ممن؟ قال: من مروان بن الحكم(٢)، عاملك على المدينة، ثم أنشد هذه الأبيات:

معاوي، يا ذا الفضلِ والحلمِ والعقلِ ... وذا البرِّ والإحسان والجود والبذل
أتيتكَ لما ضاقَ في الأرض مذهبي ... وأنكرت مما قد أصبتُ به عقلي
ففرّج - كلاك الله - عنّي فإنني ... لقيتُ الذي لم يلقهُ أحد قبلي

مكتبة الرمحي أحمد

---

(١) الهجير: منتصف النهار عند اشتداد الحر.

(٢) في بعض المراجع ابن أم الحكم، وليس مروان بن الحكم، وكان ابن أم الحكم هذا واسمه عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عقيل الثقفي هو ابن أخت معاوية ابن أبي سفيان، ولاّه خاله معاوية «الكوفة» بعد موت زياد سنة ٥٧ هـ فلم تُحمد سيرته، فأخرجه أهل الكوفة وعاد إلى الشام، فولاه معاوية مصر.. توفي في خلافة عبد الملك سنة ٦٦هـ ٦٨٥م.

وخذ لي -هداك الله- حقي من الذي رماني بسهم كان أيسرُه قتلي!
وكنتُ أرجّى عدله إن أتيته فأكثر تردادي مع الحبسِ والكبلِ
سباني سُعدى وانبرى لخصومتي وجارَ ولم يعدل وغاصبني أهلي
فطلقتها من جَهدِ ما قد أصابني فهذا، أمير المؤمنين، من العدلِ؟

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقد من فيه قال: مهلاً يا أخا العرب، اذكر قصتك وأفصح عن أمرك. قال: يا أمير المؤمنين، كانت لي زوجة، وهي ابنة عمي، وكنت لها محباً وبها كلفاً، وكنت بها قرير العين، طيب العيش، وكانت لي إبل أستعين بها على قيام حالي وإصلاح أَوَدي[1]، فأصابتنا سنة ذات قحط شديد، أذهبت الخفّ والظلف، وبقيت لا أملك شيئاً، فلما قل ما بيدي وذهب حالي ومالي، بقيت مهاناً ثقيلاً على وجه الأرض، قد أبعدني من كان يشتهي القرب مني، وأزورّ عني[2] من كان يرغب في زيارتي!

فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال وشر المآل أخذها مني، وسألني الفراق وجحدني وطردني، وأغلظ عليّ، فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مستصرخاً، وبه راجياً لينصرني، فأحضر أباها وسأله عن حالي، فقال: ما أعرفه قبل اليوم، فقلت أصلح الله الأمير! إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل.

فبعث إليها مروان وأحضرها مجلسه، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً وعليّ منكراً وانتهرني وأظهر لي الغضب وبعث بي إلى السجن، فبقيت كأنما خررت من السماء في مكان سحيق!

ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار، وعشرة آلاف درهم لك؟ وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي. فرغب أبوها في البذل وأجابه لذلك!

فلما كان من الغد بعث إليّ وأخرجني من السجن، وأوقفني بين يديه، ونظر إليّ كالأسد الغضبان وقال: يا أعرابي، طلق سُعدى فقلت: لا أقدر على هذا، فسلط علي جماعة من غلمانه، فأخذوا يعذبونني بأنواع العذاب، فلم أجد بداً من ذلك ففعلت،

---

(١) الأود: العوج.

(٢) ازورَّ عنه: مال وانحرف.

ثم عادوا بي إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدّتها، فتزوجها ودخل بها. وقد أتيتك مستجيراً وإليك ملتجئاً ثم أنشد:

في القلب مني نارٌ والنارُ فيها استعار
والجسمُ مني سقيمٌ واللونَ فيه اصفرار
وفي فؤادي جمرٌ والجمرُ فيهِ شرار
والعين تبكي بشجوٍ فدمعها مِدرار
والحبَّ داءٌ عسير فيه الطبيب يَحار
حُمِّلت منه عظيماً فما عليه اصطبار
فليس ليلي ليلَ ولا نهاري نهار

ثم اضطرب وخرّ مغشياً عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة: فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال: تعدى فظلم مروان بن الحكم في حدود الدين، واجترأ على حرم المسلمين، ثم قال: والله يا أعرابي، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قط، ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان بن الحكم: قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك، وانتهكت حرمة من حُرم المسلمين وتعديت حدود الدين، وينبغي لمن كان والياً أن يغضّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذاته، وكتب في آخره:

ركبت أمراً عظيماً لست أعرفه أستغفر الله من جور امرئ زاني
قد كنت تشبه صوفيّاً له كتب من الفرائض أو آيات فرقان
حتى أتاني الفتى العذري منتحباً يشكو إليّ بحق غير بهتان
أعطي الإله عهوداً لا أخيس بها أو لا فبرئت من دين وإيمان
إن أنت راجعتني فيما كتبت به لأجعلنّك لحماً بين عقبان
طلق سعاد، وعجلها مجهزة مع الكميت ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بُلّغت من عجب ولا فعالك حقاً فعل إنسان

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه، واستدعى الكُميت ونصر بن ذبيان – وكان يستنهضهما في قضاء الحوائج لأمانتهما – فأخذاه وسارا به حتى قدما المدينة ودخلا على مروان وسلّما إليه الكتاب، ففضه وقرأه، فارتعدت فرائصه، وطلّقها في الحال

وبعث بها إلى أمير المؤمنين، وكتب إلى معاوية كتاباً فيه:

حَوراء يقصرُ عنها الوصف إن أقولَ ذلك في سرٍّ وإعلان

فلما قرأه قال: لقد أحسن في الطاعة وأطنب في حسن الجارية. ولما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم ير مثلها في الحسن والقد والجمال، وخاطبها فوجدها أفصح النساء بعذوبة منطق، ثم قال: عليّ بالأعرابي فأتى إليه وهو على غاية من سوء الحال، فقال: يا أعرابي هل لك عنها من سلوة، وأعوضك ثلاث جوار مع كل جارية ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويعينك على صحبتهن؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات، ولما أفاق قال له: ما بالك؟ فقال: شر بال، وأسوأ حال استجرت بعدلك من جور ابن الحكم، فيمن أستجير من جورك، ثم قال: يا أمير المؤمنين لو أعطيتني ما حوته الخلافة ما رغبتُ به دون سعدى.

فقال معاوية: يا أعرابي إنك مقرّ أنك طلقتها، ومروان مقرّ أنه طلقها، ونحن نخيرها، فإن اختارت سواك زوجناه بها، وإن اختارتك رجعنا بها إليك. قال: افعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فدعاها معاوية وقال لها: ما تقولين يا سعدى؟ أي أحب إليك؟ أمير المؤمنين في عزه وشرفه وسلطانه وقصوره وما تصيرين إليه عنده، أو مروان بن الحكم في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابي مع جوعه وفقره وسوء حاله؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

هذا وإن كان في فقرٍ وإضرارِ أعزّ عندي من قومي ومن جاري

وصاحبُ التاجِ أو مروان عامله وكل ذي درهمٍ عندي ودينارِ

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا غدرات الأيام، وإن لي معه صحبة قديمة لا تنسى، ومحبة لا تبلى، وأنا أحق من صبر معه على الضراء، كما تنعمت معه في السراء. فتعجب معاوية من عقلها ووفائها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردها بعقد جديد، فأخذها الأعرابي وانصرف يقول:

خلوا عن الطريق للأعرابي ألم ترقوا ويحكم، مما بي!

[قصص العرب: ٤/ ٢٨٥]

☆ ☆ ☆

الباب الثامن عشر
طرائف ومواقف

الحَجَّاج وحظر التجول

لما تولى الحجاج شؤون العراق أمر مرؤوسه أن يطوف بالليل، فمن وجده بعد العِشاء ضرب عنقه، فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان فأحاط بهم وسألهم: من أنتم، حتى خالفتم أوامر الوالي؟

فقال الأول:

أنا ابنُ الذي هانت الرقاب له ... ما بين مخزومِها وهاشِمها
تأتي إليه الرقاب صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عن قتله، وقال: لعله من أقارب الأمير.

وقال الثاني:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قِدْره ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقعود

فتأخر عن قتله، وقال: لعله من أشراف العرب.

وقال الثالث:

أنا ابن الذي خاض الصفوف بعزمه ... وقومّها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لا تنفكّ رجلاه عنهما ... إذا الخيل في يوم الكريهة ولّت

فترك قتله، وقال: لعله من شجعان العرب.

فلما أصبح رفع أمرهم إلى الحجاج، فأحضرهم وكشف عن حالهم فإذا الأول ابن حجام (حلاق)، والثاني ابن فوال (طاه)، والثالث ابن حائك.

فتعجب الحجاج من فصاحتهم، وقال لجلسائه: علموا أولادكم الأدب، فلولا

فصاحتهم لضربت أعناقهم، ثم أطلقهم وأنشد:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

في وصف العصا

لقى الحجاج أعرابياً فقال له: من أين أقبلت؟ قال: من البادية. قال: وما بيدك؟ قال: عصا أركزها لصلاتي وأعدها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها على مشيي ليتسع بها خطوي، وأبث بها النهر فتؤمنني، وألقي عليها كسائي فيسترني من الحر ويقيني من القر، وتدني ما بعد مني. وهي محمل سفرتي وعلاقة أدواتي ومشجب ثيابي، وأعتمد بها عند الضراب، وأقرع بها على الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب. تنوب عن الرمح في الطعان وعن الحراب عند منازلة الأقران. ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تحصى.

فصاحة غلام

لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود مهنئة، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر عمر إلى صبي صغير السن منهم، وقد أراد أن يتكلم، فقال: ليتكلم من هو أسن منك يا غلام، فإنه أحق منك بالكلام، فقال الصبي: أيد الله الأمير، إن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإن أعطى الله المرء قلباً حافظاً ولساناً لافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر بالسن يا مولاي لكان في الأمة من هو أحق منك بمجسلك هذا، فقال عمر: صدقت، قل ما بدا لك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا قدمنا عليك من بلد تحمد الله الذي منّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمنّا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنّا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام.

فقال له عمر رضي الله عنه: عظني يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ

﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشدهم عمر رضي الله عنه تعالى عنه:

تعلَّم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علمٍ كمن هو جاهلَ
فإن كبير القومِ لا علمَ عنده ... صغيرٌ إذا التفّت عليه المحافلَ

[زهرة الآداب: ١/ ٤٠]

عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً مهيباً، وكان ذات يوم يسير في طرقات المدينة وإذا بصِبْيَة يلعبون، فلما رأوه مقبلاً هربوا جميعاً ولم يبق إلا صبيٌ واحد، فاقترب منه عمر رضي الله عنه وسأله: لِمَ لم تهرب مثل أقرانك؟ فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، لست مذنباً فأهرب، وليست الطريق ضيقة فأوسّع لك. وكان هذا الغلام هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

[تربية الأولاد في الإسلام/ لمحمد عقلة: ٢٥٣]

الزور للزائر

حدّث إبراهيم بن المنذر الخزامي قال: قدم أعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحضر: فأنزله وكان عنده دجاج كثير، وله امرأة وابنان وابنتان منها، قال: فقلت لامرأتي: أشوي دجاجة وقدميها لنا نتغدى بها، فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتي وابناي وبنتاي والأعرابي، فدفعنا إليه الدجاجة، فقلنا: اقسمها بيننا؛ نريد بذلك أن نضحك منه قال: لا أحسن القسمة، فإن رضيتم بقسمتي قسمت بينكم، قلنا: فإننا نرضى فأخذ رأس الدجاجة، فقطعه، ثم ناولني إياه، وقال: الرأس للرئيس، ثم قطع الجناحين وقال: والجناحان للابنين، ثم قطع الساقين فقال: والساقان للابنتين، ثم قطع الزمكى(١) وقال العجز للعجوز، وآثر نفسه بباقي الدجاجة ثم قال:

---

(١) الزمك: منبت ذيل الطائر.

والزور للزائر، فأخذ الدجاجة بأسرها.

فلما كان من الغد قلت لامرأتي: أشوي لنا خمس دجاجات، فلما حضر الغداء قلنا: اقسم بيننا قال: أظنكم وجدتم من قسمتي[٢] أمس. قلنا: لا لم نجد، فاقسم بيننا، فقال: شفعاً أم وتراً، قلنا: وتراً قال: نعم. أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ورمى إلينا بدجاجة، ثم قال: وابناك دجاجة ثلاثة ورمى الثانية، ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة، فأخذ الدجاجتين، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما لكم تنظرون لعلكم كرهتم قسمتي؟ الوتر ما تجيء إلا هكذا. قلنا: فاقسمها شفعاً. فقبضهن إليه ثم قال: أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمى إليه بدجاجة، والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة، ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال: وأنا وثلاث دجاجة أربعة، وضم إليه ثلاث دجاجات، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله أنت فهمتنيها. والله لا أحيد عن هذه القسمة.

[الأذكياء: ١٠٣]

أبو الأسود الدؤلي وامرأته

تنازع أبو الأسود الدؤلي وامرأته إلى زياد في ابنهما، وأراد أبو الأسود أخذه منها فأبت، وقالت: المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءه، وحجري فِناءه، وثديي سقاءه، أكلؤه[٣] إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، فلما استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوعكت أوصاله[٤]،وأملت نفعه، ورجوت عطفه، أراد أن يأخذه مني كرهاً، فآذني أيها الأمير فقد أراد قهري، وحاول قسري.

فقال أبو الأسود: أيها الأمير، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في تقويم أَوَده[٥]، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي

---

(٢) وجدتم في قسمتي، لم ترضوا بها (والوجد: الحزن والغضب).

(٣) أكلؤه: أحفظه وأرعاه.

(٤) استوعكت اوصاله: نمت اعضاؤه وكملت.

(٥) تقويم أوده: إصلاح عوجه.

حتى يكمل عقله، ويستكمل فتله[٦].

فقالت المرأة: صدق أصلحك الله حَمَله خفّا، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً. فقال زياد: أردد على المرأة ولدها فهي أحقّ به منك، ودعني من سجعك.

[زهرة الآداب: ٤/ ١١١٤]

في التورية والصناعات اللفظية

(عد فتحصن)

يروى أن بعض الملوك عزم على قصد عدو له، فشخَّص إليه جاسوساً يتجسس أخباره، فلما صار إلى أرض العدو، شعروا به فقبضوا عليه وأمروه أن يكتب بخط يده كتاباً يذكر له أنه وجد القوم ضعفاء ويطمِّعه فيهم ويزيّن له غزوهم، فكتب: (أما بعد: فقد أحطت علماً بالقوم، وأصبحت مستريحاً من السعي في تعرف أحوالهم، وإني قد استضعفتهم بالنسبة إليكم، وقد كنت أعهد من أخلاق الملك المهلة في الأمور والنظر في العاقبة، ولكن ليس هذا وقت النظر في العاقبة، فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله، وقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك: نصحت فدع ريبك ودع مهلك، والسلام).

فلما انتهى الكتاب إلى الملك قرأه على رجاله فقويت قلوبهم وصحّت عزائمهم على الخروج، ثم أن الملك خلا بخاصته من الكبراء وأهل الرأي وقال: أريد أن تتأملوا هذا الكتاب، فأني شعرت منه بأمر، وأني غير سائر حتى انظر في أمري. فقال بعضهم: ما الذي لحظ الملك في الكتاب؟

قال: إن فلاناً من الرجال ذوي الحصافة والرأي، وقد أنكرت ظاهر لفظه فتأملت فحواه فوجدت في باطنه خلاف ما يوهم الظاهر، وذلك في قوله: (أصبحت مستريحاً من السعي) فيريد إنه محبوس، وقوله: (إنكم الفئة الغالبة بإذن الله) يشير إلى قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: رأيت من أحوال القوم ما يطيب به (قلب) الملك، فإني تأملت ما بعده

---

(٦) يستكمل فتله: يشتد عصب ذراعة (قوته).

فوجدت إنه يريد بالقلب: العكس، لأن الجملة الآتية مما يوهم ذلك، فقلبت الجملة وهي قوله: (نصحت فدع ريبك ودع مهلك) فاذا مقلوبها (كلهم عدو كبير عد فتحصن).

ومثل ذلك الانعكاس كثير في لغة العرب ولكنه انعكاس في اللفظ وليس فيه تغيير في المعنى، وأبلغ ما جاء من هذا النوع في الشعر قول القاضي الأرجاني.

مَوَدّته تَدومُ لكلَ هولٍ وهل كل مودّتِهِ تَدوم

ومن المستملح قول العماد الكاتب وقد مرّ على القاضي الفاضل راكباً: (سر فلا كبا بك الفرس) فأجابه الفاضل على الفور وقد فطن لقصده: (دام علا العماد).

وطبيعة اللغة قابلة لهذا النوع ولكن بمقدار، فإنك تجد في مفرداتها منه شيئاً، كلفظ: باب وسلس وتحت، وأمثالها. ثم تراه بتألف غير مقصود إليه، كقولك: أرض خضراء، وهزم حمزه، ويلعب علي، وحمار رامح، وقد ورد منه في القرآن الكريم (كل في فلك) و(ربك فكبر).. إلخ.

[تاريخ آداب العرب: ٣/ ٣٩٥، ٤٠١]

كم مضى لك من السنين

قال رجل لهشام بن عمرو القوطبي: كم تعد؟ قال: من واحد إلى ألف ألف وأكثر. قال: لم أرد هذا؟ قال: فما أردت؟ قال: كم تعد من السن؟ قال: اثنان وثلاثون سنّاً، ستة عشر من أعلى وستة عشر من أسفل. قال: لم أرد هذا؟ قال: فما أردت؟ قال: كم لك من السنين؟ قال: ما لي منها شيء كلها لله عزوجل. قال: فما سنك؟ قال: عظم. قال: فابن كم أنت؟ قال: ابن اثنين طبعا أب وأم قال: فكم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيء لقتلني. قال: أقصد كم عمرك؟ قال: الأعمار بيد الله. قال: فكيف أقول؟ قال: قل كم مضى من عمرك.

[كتاب الأذكياء: ١٤٣]

حروف المعجم في بدن الإنسان

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه، فقام سويد بن غفلة فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين. «أنف، بطن، ترقوة، ثغر، جمجمة، ظهر، عي، غبب، فم، قفا، كف، لسان، منخر، نغنوغ، هامة، وجه، يد» وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين، فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمرة تينة، ثغر ثنايا ثدي، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ دراديرِ، ذقن ذكر ذراع، رقبة رأس ركبة، زند زردمة (ذكر الرجل، ولا يكنى)...، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه – ساق سره سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدغ صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، طحال طره طرف، ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غبب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغنوغ ناب نن، هامة هيئة هيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ، ثم نهض مسرعاً، فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين. قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

[المستطرف: ١/ ١١٥]

شهادة زور

سئل رجل شهد على رجل بالكفر عند جعفر بن سليمان فقال: إنه خارجي، معتزلي، ناصبي، حروري، جبري، رافضي، يشتم علي بن الخطاب، وعمر بن أبي قحافة، وعثمان بن أبي طالب، وأبا بكر بن عفان، كما يشتم الحجاج الذي هدم الكوفة على أبي سفيان.

فقال جعفر: والله ما أدري على أي شيء أحسدك، أعلى علمك بالأنساب؟ أم على معرفتك بالأديان والمذاهب؟

[مجلة العربي، ع١٩٢ص ٦٢]

المسألة الزنبورية

اجتمع عند الرشيد يوماً سيبويه والكسائي وكبار أئمة اللغة والأدب، فزعم الكسائي أن العرب تقول: كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها (أي مثلها) فقال سيبويه: بل الصحيح: فإذا هو هي، فتشاجرا طويلاً واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر، وكان الرشيد شديد الحب والعناية بالكسائي، إذ كان يعلمه قبل أن يلي الخلافة، فاستدعى عربياً وسأله، فنطق بالجملة كما نطق سيبويه، فقال له: نريد أن تنطقها كما نطق بها الكسائي، فأجابه: إن لساني لا يطاوعني على ذلك، وأخيراً رضي معهم إنهم إذا سألوه في المسألة فالصواب مع من فيهما، فيقول الصواب مع الكسائي، وتم ذلك في محضر حافل، فعلم سيبويه إنهم تعصبوا عليه للكسائي، وخرج من بغداد حزيناً، ولم تطل به الحياة بعد ذلك كثيراً حتى مات كمداً.

[من روائع حضارتنا: ١٥٧]

إذا كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً
(أبو علقمة النحوي وغلامه)

مما تقصه علينا كتب الأدب من أن هناك شخصاً اسمه أبو علقمة النحوي.. وكان يكثر التقعر (التشدق) في اللغة، ويتكلم بالألفاظ الغريبة، فمن الذي أدبه حتى ينزل إلى مستويات الناس في التفاهم؟. أدبه خادم له، أتعبه تقعر (أبي علقمة)، وكان لا يفهم عنه كثيراً من الألفاظ، فماذا كان منه؟ كان منه أن أبا علقمة استيقظ ليلة ثم نادى الغلام فقال: يا غلام، أصقعت العتاريف؟ فلم يفهم الخادم مراد أبي علقمة، ولكنه أراد أن يلقن أبا علقمة درساً يمنعه من هذا التقعر، ولا سيما بالنسبة لخادم لا يعرف شيئاً، فلما قال: أبو علقمة: أصقعت العتاريف؟ قال الخادم: زقفيلم.. فتعجب أبو علقمة.. ولأول مرة يتعجب أبو علقمة من لفظ لغوي!!

فقال له يا غلام.. وما زقفيلم؟ فسُرَّ الغلام لإنه أعجز أبا علقمة.. فقال له: ما صقعت العتاريف؟ قال له: أنا أردت يا بني أصاحت الديكة؟ قال: وأنا أردت لم تصح.

كان هذا ابتلاء أدبياً لأبي علقمة، ولكن شخصاً آخر أراد أن يبتليه ابتلاء أهم من ذلك، فقد دخل على طبيب يقا له (أعين).. والطبيب محدود الثقافة اللغوية، فقال له: ما بك يا أبا علقمة؟ قال أبو علقمة: لقد أكلت من لحوم هذه الجوازيء، فقسأة منها قسأة أصابني منها وجع، من الوابلة إلى داية العنق، ولم يزل ينما حتى خالط الخلب وألمت منه الشراسيف... وقف الطبيب متعجباً، فقال له: أعِد فأعاد، فماذا فعل الطبيب؟ لقد قابله بألفاظ لا مدلولات لها في اللغة ليكيد فيها أبا علقمة، لإنه لو استعمل لفظ في اللغة لعرفه أبو علقمة، فقال: (هذا لا يريد إلا اختراع ألفاظ ليس لها مدلول) قال له: خذ القلم واكتب الوصفة.. (خذ حرقفا وشرقفا وزهرقة ورقرقة واغسله بماء روس واشربه بماء الماء..) قال أبو علقمة: أعد عليّ، فوالله ما فهمت شيئاً. قال: لعن الله أقلنا إفهاماً لصاحبه.

[الإسلام وحركة الحياة: ٢٠]

طحالب الصبايا

بابلو بيكاسو زعيم الرسّامين المعاصرين السرياليين، خطرت له يوماً فكرة عابثة ساخرة، ثم نفذها عمليا. ذلك إنه جاء بقطعة قماش بيضاء، وقرّبها من ذنب حمار مربوط، بعد أن صبغ الذنب بألوان مختلفات، وأغرى الحمار بتحريك ذنبه يميناً ويساراً، صعوداً وهبوطاً وبيكاسو ممسك بقطعة القماش بحيث يتحرك الذنب المصبوغ عليها... وما هي إلا دقائق حتى ارتسمت على القماشة خطوط... طبيعي أن لا معنى لها.

ثم بدا للرسام الساخر أن يكمل لعبته، فجعل لهذه القماشة إطاراً جميلاً، ووقّع في أحد أطرافها، وأراد أن يختار لها اسماً، ودارت في ذهنه تسميات كثيرة، وتحيّر في أيها أدعى للإثارة واهتمام الناس والنقاد وإعجابهم.. وكان من تلك الاسماء: الفارس المهزوم، وأصيل البحر، وعنكبوت الفكر، ودمعة العاشقة، وأغنية الفراشة، لكنه رفضها جميعا واختار عنوان (طحالب الصبايا) لإنه لا معنى لهذا العنوان.

وفي اليوم التالي عرض بيكاسو طحالب الصبايا في أحد المعارض، وتقدم نقّاد الفن نحوها، يدرسونها، ويحللونها، ويستنبطون منها روائع الابداع للفنان العظيم.. فهذا يصفها ببديعة القرن العشرين، وذاك يقول عنها إنها معجزة ليس لها في التاريخ مثيل، وآخر ينعتها برائعة الفن المعاصر.. وناقد عجز عن إيجاد الكلمات المناسبة المعبرة عن إعجابه وافتتانه، ولم ينس كلّ من هؤلاء النقاد أن يتحدث مطوّلاً عما تحويه من معان وإيحاءات. وتناقلت الصحف والمجلات حديث النقاد، ونقلته من لغة إلى لغة، ولم يبق إنسان محبّ للفن الأصيل إلا وسمع أو قرأ شيئاً ما عن طحالب الصبايا. وأخيراً، بيعت اللوحة بثلاثمائة وخمسين ألف جنيه انكليزي، دفعها عاشق للفن الجميل.

[مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: ٧]

هنا يباع السمك

كتب بائع السمك بخط عريض جميل على باب محله عبارة: (هنا يباع السمك). فجاءه أحد أصدقائه فرأى العبارة مكتوبة على باب المتجر، وقال العبارة جميلة والخط كذلك، ولكن لماذا كتبت كلمة (هنا)؟ أرى أنه لا ضرورة لها، سيما وأنك تبيع السمك هنا وليس هناك. فقام صاحب المحل وحذف كلمة (هنا) وبقيت العبارة هكذا (.. يباع السمك).

في اليوم التالي زاره صديق ثان فقرأ: (يباع السمك)، فأثنى على العبارة والخط الجميل، ولكنه اقترح حف كلمة (يباع) فالمحل معروف لبيع السمك. فقام صاحب المحل وحف كلمة (يباع).

وفي اليوم الثالث زاره صديق آخر، فاستنكر كلمة (السمك) مكتوبة هكذا لوحدها، وقال لصاحبه: إن رائحة السمك تملأ الشارع من أوله إلى آخره، فلا مبرر لهذه الكلمة على باب المحل.

فما كان من التاجر إلا أن عمد إلى محو الكلمة، وبقيت اللافتة بيضاء بلا كتابة.

وبعد يومين أو ثلاثة زاره صديق رابع، وقال: لم لا تكتب على هذه اللوحة عبارة (هنا يباع السمك)؟!

وهكذا فإن رضا الناس غاية لاتدرك.

حجام يعلم أبا حنيفة

حكي عن وكيع، قال:

قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت – رحمه الله تعالى –: أخطأت في خمسة أبواب في المناسك بمكة، فعلمنيها حجام، وذلك أني أردت أن أحلق رأسي، فقال لي: أعربي أنت؟ قلت: نعم، وكنت قد قلت له: بكم تحلق رأسي؟ فقال لي: النسك لا يشارط فيه، اجلس. فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ لي باستقبال القبلة. وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال: أدر شقك الأيمن من رأسك. فأدرته، وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت، فقال لي: كبر. فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب، فقال: أين تريد؟ قلت: رحلي. فقال: صل ركعتين، ثم امض. فقلت: ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا ومعه علم. فقلت: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا.

[وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣/ ٢٦٢]

الباقلاني وملك الروم

عن أبي القاسم علي بن الحسين بن علي أبي عثمان الدقاق وغيره:

إن الملك الملقب بعضد الدولة كان قد بعث القاضي أبا بكر بن الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره، وبين له محله من العلم وموضعه. ففكر الملك في أمره وعلم أنه لا يكفر له إذا دخل عليه، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يدي الملوك، ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف لا يمكن أحداً أن يدخل منه إلا راكعاً، ليدخل القاضي منه على تلك الحال فيكون عوضاً عن تفكيره بين يديه. فلما وضع سريره في ذلك الموضع أمر بإدخال القاضي من الباب، فسار حتى وصل إلى المكان، فلما رآه تفكر فيه ثم فطن بالقصة، فأدار ظهره وحنا رأسه راكعاً، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه ونصب ظهره، وأدار حينئذ إلى الملك! فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة في نفسه)

[تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ٥/ ٣٧٩]

☆ ☆ ☆

الباب التاسع عشر
مع الشعراء

ليس في الإمكان أبدع مما كان
أبو العلاء المعري وغلام عربي

لقي غلام من العرب أبا العلاء المعري الشاعر المشهور، فقال له: من أنت أيها الشيخ؟ قال: أنا أبو العلاء المعري شاعركم المعروف، فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفحل، أنت القائل في شعرك:

وإني وإن كنتُ الأخير زمانُه ... لآتٍ بما لم تستَطَعهُ الأوائلَ

قال أبو العلاء: أنا الذي قلت هذا، ولماذا تسأل؟ فقال الغلام: قولٌ طيبٌ، وثقةٌ بالنفس، وإعلام بالكفاءة والقدرة، ولكن الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً للهجاء، فهل لك أن تزيد عليها حرفاً واحداً؟ فسكت أبو العلاء، وقال: والله ما عهدت لي سكوتاً كهذا السكوت.

[نوادر الأدباء: ١٢١]

الشعراء يقولون ما لا يفعلون
أبو نواس وهارون الرشيد

غضب هارون الرشيد يوماً على أبي نواس فطلب إحضاره إلى ديوانه وأمر بقتله. فلما حضر ورأى الديوان مكتظاً بالعلماء والأعيان وسمع بحكم الرشيد عليه بالقتل، قال: يا أمير المؤمنين شهوة لقتلي؟ قال: لا، بل باستحقاق، فقال أبو نواس: إن الله يحاسب ثم يعفو، أو يعاقب، ففيم استحققت القتل؟ قال بقولك:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ

قال: يا أمير المؤمنين، أعلمت أنه سقاني؟ قال: أظن ذلك. قال: أتقتلني بالظن، وبعض الظن إثم؟ فقال: قلت أيضاً ما تستحق به القتل، وهو قولك في التعطيل:

ما جاءنا أحدٌ يخبر إنه ... في جنةٍ مذ مات أو في نار

قال: أفجاءنا أحد؟ قال: لا. قال: فتقتلني على الصدق؟! قال: أو لست القائل:

يا أحمدُ المَرتجى في كلِّ نائبةٍ ... قم سيدي نعصِ جَبّارَ السماوات

قال: يا أمير المؤمنين أو صار القول فعلاً؟ قال: لا أعلم. قال: أتقتلني على ما لا تعلم؟ قال: دع هذا كله فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بما يوجب القتل، وذلك كالزنا والفجور.

فقال أبو نواس: قد علم الله هذا من قبل علم أمير المؤمنين، وأخبر أني أقول ما لا أفعل. قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٦].

فقال الرشيد: دعوه يذهب وشأنه، قطع الله لسانه.

[المفرد العلم: ٨٠]

الحسنة بعشرة أمثالها
شاعر بين يدي الخليفة

استدعى أحد خلفاء مصر علماء مملكته في يوم عيد لزيارته، فصادفهم شاعر في طريقهم على كتفه جرة ذاهباً إلى النيل ليملأها، فتبعهم حتى مثلوا بين يدي الأمير، فبالغ في تعظيمهم، ثم نظر إلى ذلك الرجل، والجرة على كتفه، وقال: ما حاجتك يا هذا؟

فأنشد قائلاً:

ولما رأيتُ القومَ شدوا رحالهم ... إلى بحركَ الطامي أتيتُ بجرتي

فقال: املؤوا جرته ذهباً، فملئت فخرج بها الرجل وفرقها على الفقراء، فبلغ ذلك الخليفة فاستحضره، وعاتبه على فعله، فأنشد ثانياً.

يجودُ علينا الخيرونَ بمالهم ... ونحنُ بمالِ الخيرينَ نجود

فأعجب الخليفة بجوابه، وأمر أن تملأ له عشر مرات، فقال الشاعر: الحمد لله، الحسنة بعشر أمثالها.

[نوادر الأدباء: ٦٦]

زر غباً تزدد حباً
الثقيل و الظرف

تردد ثقيل على ظريف و أطال ترداده عليه حتى سئم منه، فقال له الثقيل: من تراه أشعر الشعراء؟ فأجابه الظريف: هو ابن الوردي بقوله:

إذا حققت من خِلّ وداداً فزره ولا تخف منه ملالا
وكن كالشمس تطلع كلّ يوم ولا تَكُ في زيارته هلالا

فأجاب الظريف: إن الحريري أشعر منه بقوله:

ولا تزر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه

وإن لم تصدقني فقد وهبتك الدار بما فيها، وخرج وهو يقول:

إذا حَلّ الثقيل بأرض قوم فما للساكنين سوى الرحيل

فخجل الثقيل وذهب في سبيله.

[المفرد العلم: ٨٣]

الخليل بن أحمد وابنه

كان الخليل بن أحمد يقطّع في علم العروض، فدخل عليه ولده في تلك الحالة التي لم يسبق له بها مثيل، فخرج إلى الناس وقال: إن أبي قد جُن، فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض الذي اخترعه من بنات فكره (وهو يقول: متفاعلن متفاعلن مستفعلن) وأخبروه بما قال ابنه، فقال له يا بني:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنتَ تعلمُ ما تقول عذلتكا
لكن جَهِلتَ مقالتي فعذلتَني وعلمت أنك جاهل فعذرتُكا

إن من البيان لسحراً المعتصم وتميم السدوسي

خرج تميم بن جميل السدوسي على المعتصم فظفر به وأحضر له السيف والنطع[١]. وكان تميم وسيماً جميلاً. فأحب المعتصم أن يعرف أين لسانه من منظره؟ فقال له: تكلم. فقال: أما إذا أذنت يا أمير المؤمنين فأنا أقول:

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين. يا أمير المؤمنين: جبر الله بك صَدْعَ الدين ولمَّ بك شَعَثَ[٢] المسلمين، وأوضح بك سُبل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل. إن الذنوب تخرس الألسن الفصيحة، وتعيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك. وأرجو أن يكون أقربهما مني وأسرعهما إليّ أشبههما بك وأولاهما بكرمك، ثم قال:

أرى الموتَ بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما اتلفتُ
وأكبر ظني أنّكَ اليومَ قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلتُ
وأي امرئ يأتي بعذرٍ وحجة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مصلتُ[٣]
وما جزعي من أن أموتَ وإنني ... لأعلم أن الموتَ شيءٌ موقتُ
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتتُ
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردّى عنهم وإن متّ موّتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يسر ويشمتُ

فتبسم المعتصم وقال: يا جميل، قد وهبتك للصّبية، وغفرت لك الصّبوة، ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه وعقد له على شاطئ الفرات.

[زهرة الآداب: ٣/ ٨٣٩]

---

(١) النطع: بساط من الجلد يوضع تحت المحكوم عليه، بالقتل لامتصاص دمه.

(٢) الشعث: ما تفرق من الأمور.

(٣) مصلت: مجرد من غمده.

رب إشارة أبلغ من عبارة
علي بن أبي طالب وأعرابي

يروى أنه بينما كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيام خلافته جالساً في ضواحي المدينة، إذ وفد عليه أعرابي يسأله حاجته والحياء يمنعه أن يذكرها له، فخط بعصاه على الرمل هذين البيتين:

لم يبقَ عندي ما يباع بدرهمٍ ... تنبيك حالة منظري عن مخبري
إلا بقية ماء وجه صنته ... عن أن يباعَ وقد أبحتُكَ فاشترِ

فلما قرأهما حتى وافاه يخبره أن نصيب أمير المؤمنين في الغنيمة من الفضة محمول على أربعة جمال بباب المدينة. فقال: هي هبة لهذا الأعرابي وقال:

وافيتنا فأتاكَ عاجلَ بِرِّنا ... فاهنأ ولو أمهلتنا لم نقتر(١)
فخذ القليل وكن كأنكَ لم تبع ... ماء الحياء وكأننا لم نشتر

[طرائف الأدباء: ١١]

ثلاثة شعراء في مجلس عبد الملك

اجتمع جرير والفرزدق والأخطل: وهم ثلاثة من فحول الشعراء، في مجلس عبد الملك بن مروان، فأحضر لهم رهاناً من المال وقال: ليقل كل امرئ منكم بيتاً في مدح نفسه، فأيكم غلب وظفر فله هذا الرهان، فبادر الفرزدق وقال:

أنا القطران والشعراء جربى ... وفي القطران للجربى شفاءُ

وقام الأخطل:

فإن تكَ زق زاملةٍ(٢) فإني ... أنا الطاعون ليس له دواءُ

ونشط جرير وقال:

أنا الموت الذي آتى عليكم ... فليس لهارب مني نجاءُ

---

(١) نقتر: نبخل.

(٢) زق زاملة: الزق وعاء من الجلد للشراب وغيره، والزاملة ما يحمل عليه من الإبل وغيرها.

فقال: له عبد الملك: لك الرهان فقد غلبت خصميك، فلعمري إن الموت يأتي على كل شي.

[المفرد العلم: ٣٦]

سرعة الخاطر وفصاحة اللسان

أبو تمام والكندي

دخل أبو تمام الطائي على أحمد بن الخليفة العباسي المعتصم، وأنشده القصيدة السينية المشهورة، فلما بلغ قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال الكندي وكان حاضراً المجلس: الأمير فوق من وصفت يا أبا تمام، وما زدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب.

فأطرق أبو تمام ملياً ثم قال مرتجلاً:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضربَ الأقلّ لنوره ... مثلاً من المشكاةِ[1] والنبراسِ[2]

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥].

ولم يكن هذان البيتان في القصيدة. وعمر الذي عناه الشاعر هو عمر بن معدي كرب المشهور بشجاعته، أما حاتم فهو حاتم الطائي المشهور بكرمه وجوده، أما أحنف فهو الأحنف بن قيس المشهور بحلمه، وأما إياس بن معاوية فقد اشتهر بالذكاء، وكان من قضاة عمر بن عبد العزيز.

[البداية والنهاية: ١٠/ ٢٩٥]

مكتبة الرمحي أحمد

(١) المشكاة: كوة في الحائط غير نافذة يوضع فيها السراج.

(٢) النبراس: المصباح.

ضاع الدر على خالصة

كان لأحد خلفاء بني العباس جارية حسناء يهيم بها حباً ويشغف بها غراماً وعلى هذا الحب الذي أحبها به كانت سمراء اللون خفيفة الروح جذابة الملامح وكان اسمها «خالصة»، ومن شدة غرام الخليفة بها صار لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً، وقد وهبها الجواهر الغالية والأحجار الكريمة وقلدها بالعقود النادرة.

وفي يوم من الأيام دخل أبو نواس على الخليفة وهو جالس عند « خالصة» فامتدحه بقصيدته النونية العصماء، فلم يلتفت إليه الخليفة، ولم يعره التفاتة تشجعه على إتمام القصيدة، بل ظل مشغولاً بمداعبة جاريته خالصة.. فاشتد الغيظ بأبي نواس، وتشاجرت الوساوس في صدره، حتى جعلته لا يدري ماذا يفعل.. وانصرف من حضرة الخليفة وهو حانق على خالصة.. ولما انتهى إلى باب الحريم كتب على الباب يقول:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع درٌّ على خالصة

ثم انصرف وهو كالمحموم من شدة الغيظ.

وفي الصباح مر بعض الخدم فقرأ على باب خالصة ما كتبه أبو نواس، فذهب إليها وأخبرها به، فذهبت من فورها إلى الباب وقرأت بيت الشعر الذي كُتب عليه، فتهيجت بالغضب وقالت: والله ما كتب هذا الشعر غير أبي نواس..

ولما جاء إليها الخليفة وجدها تبكي وهي في قهر شديد، فسألها عن السبب فأشارت إلى الشعر وقالت: لا يجرؤ أحد على كتابة هذا الشعر غير أبي نواس.. فقال الخليفة: نعم، فالخطُّ خطّه، ولا بد من عقابه، ثم أمر بإحضاره.

وعندما علم أبو نواس بذلك جاء حتى مر بالباب حيث كتب الشعر، فمحا تجويف العين في الموضعين من كلمة «ضاع» فصار أول العين مثل الهمزة، وصار البيت يقرأ هكذا.

لقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء درٌّ على خالصة

ودخل على أمير المؤمنين، فلما رآه استشاط غضباً وصاح به: ويحك يا أبا نواس، ما هذا الذي كتبته على باب خالصة؟

فقال أبو نواس: ما هذا الذي تقول عنه يا مولاي؟

أجاب الخليفة: الشعر الذي هجوتها به.

فقال أبو نواس في خبث ودهاء: حاشا لله يا أمير المؤمنين أن يحصل مني ما تقول.. إنني يا مولاي مدحت وما هجوت وهيا لنرى ما كتبت.

فقام الخليفة وهو يقول: تالله لئن لم يكن ما تقول فأنت مقتول. ثم سار الخليفة وأبو نواس خلفه، فلما وصل إلى الباب قرأ الشعر كما غيره أبو نواس.

لقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء درٌّ على خالصة

فأعجب الخليفة بدهاء أبي نواس ومنحه مكافأة.. فقال بعض من كان حاضراً: إنه يا مولاي قد قلب العين همزة!

فقال الخليفة عرفت هذا ولأجله كافأته. فرد الخادم: لله در هذا البيت، قلعت عيناه فأبصر!!

[أخبار ونودار الظرفاء: ٤٨]

من غرائب الشعر

قال أحد شعراء العصر المملوكي:

لقلبي، حبيبٌ، مليحٌ، ظريفٌ بديعٌ، جميلٌ، رشيقٌ، لطيفٌ

وبطريقة تبادل مفردات هذا البيت، وتقديمها، وتأخيرها ما يمكن صنع أربعين ألفاً وثلاثمائة وعشرين بيتاً من هذا الذي ذكر.

وشاعر آخر من العصر العثماني نظم أبياتاً يؤرخ فيها عرساً جرى بمدينة حلب، فجعل مجموع الحروف[1] المهملة في البيت الأخير موافقة لتاريخ العرس، وهو سنة (١١٣٠هـ)، كما جعل مجموع الحروف المعجمة في البيت الأخير ذاته توافق التاريخ

---

(١) يشار بذلك إلى حساب الجُمَّل، فالعرب قديماً لم تكن تعرف الحساب بالأرقام الحالية المعروفة وإنما كانوا يستخدمون الحروف والجمل في الحساب، وقد وضعوا مقابل كل حرف رقماً للدلالة عليه، وذلك كما يلي: (أ) يُقابل الرقم (١) والباء تقابل (٢)، والجيم (٣)، الدال (٤) والهاء (٥)، والواو (٦)، والزاي (٧)، والحاء (٨)، والطاء (٩)، والياء (١٠)، والكاف (٢٠)، واللام (٣٠)، والميم (٤٠)، والنون (٥٠)، والسين (٦٠)، والعين (٧٠)، والفاء (٨٠) والصاد (٩٠)، والقاف (١٠٠) والراء (٢٠٠) والشين (٣٠٠)، والتاء (٤٠٠) والثاء (٥٠٠)، والخاء (٦٠٠)، والذال (٧٠٠)، والضاد (٨٠٠)، والظاء (٩٠٠)، والغين (١٠٠٠).

نفسه، وأضاف إلى هذه اللعبة ذكر التاريخ صراحة. وهذه هي الأبيات.

أيها الكامل يا من أخبرت ... عن علاه فئة بعد فئة
خذ تواريخاً ثلاثاً جمعت ... لك في مفرد بيت منبئة
بصريح، وحروف أعجمت ... وحروف أهملت مختبئة
عم حول وسرور العرس.. ... وثلاثون وألف ومئة

ومثل ذلك كثير، حتى لنجد قصائد تقرأ أفقياً فتكون مديحاً، وتقرأ عمودياً فتكون هجاءً.. أو تقرأ قراءة عادية فتحمل لوناً من المعنى، فإذا قرئت معكوسة من آخرها إلى أولها، فإذا معناها مضاد للشكل السابق.

[مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: ٦]

جرير في مجلس عبد الملك

حضر أعرابي مجلس عبد الملك، وكان فيه جرير الشاعر، فقال عبد الملك للأعرابي: هل لك علم بالشعر؟ فقال الأعرابي: سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين، قال: أي بيت قالته العرب أمدح؟ فأجاب الأعرابي: هو قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا(١) ... وأندى العالمين بطون راح؟

فرفع جرير رأسه وتطاول، ثم قال عبد الملك: فأي بيت قالته العرب أفخر؟ فقال الأعرابي: هو قول جرير.

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبتَ الناسَ كلّهم غضابا

فتحرك جرير واهتز طرباً. ثم قال عبد الملك: فأي بيت أهجى؟ قال قول جرير:

فغض الطرف إنك من نميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فاستشرق جرير لذلك، ثم قال عبد الملك: فأي بيت أغزل؟ قال الأعرابي: هو قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب. ثم قال عبد الملك: فأي بيت أحسن تشبيهاً؟ قال الأعرابي:

---

(١) المطايا: الخيول، وكل ما يركب.

هو قول جرير:

سرى نحوهم ليلَ كأنه نجومه قناديلَ فيهنّ الذبالَ المفتلَ

فقال جرير وقد بلغ به الزهو والطرب مبلغه: جائزتي هي لهذا الأعرابي يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: وله مثلها، ولك يا جرير جائزتك لا تنقص منها شيئاً، فخرج الأعرابي وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم، وفي اليسرى رزمة ثياب.

[من روائع حضارتنا: ١٥٦]

المأمون والأعرابي

جاء أعرابي المأمون وأنشد قائلاً:

إني رأيتك في منامي سيدي يا ابن الكرامِ على الجوادِ السابقِ

فكسوتني حللاً لطائفُ حسنها يزهو على حسن الكميت اللاحقِ

فقال المأمون: أعطوه حللاً وفرساً، فقال:

وأجَزتَني بخريطةٍ مملوءةٍ ذهباً وأخرى باللجين الفائق

وحَبَوتَني بركوبةٍ نجديةٍ سوداءَ تنهضُ بالغلام الآبق

فأمر له بناقة نجدية سوداء وغلام وأربعمائة دينار، ثم قال له: إياك أيها الأعرابي أن ترى مثل هذا المنام مرة أخرى، فإنك لن تجد من يفسره لك.

[المفرد العلم: ١٢٧]

الشعر بالشعر حرام

أتى شاعرٌ المأمون فقال:

حيَّاكَ ربَّ النّاسِ حيَّاكَ إذ بجمال الوجهِ رقّاك

بغدادُ من نورِك قد أشرَقت وأورقَ العودُ بجدواكَ

فقال المأمون:

حيَّاك ربَّ النّاس حيَّاكَ إن الذي أملت أخطاكا

أتيــتَ شخصــاً قــد خــلا كيســه ولـــو حـــوى شـــيئاً لأعطاكـــا

فقال الشاعر: يا أمير المؤمنين، الشعر بالشعر حرام، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب، فضحك المأمون وأمر له بجائزة جزيلة.

[المفرد العلم: ٨٤]

الأصمعي والمنصور

عُرف عن الخليفة المنصور أنه كان لا يعطي الشعراء على شعرهم إلا إذا كانت القصائد من إبداعهم وليست من منقولهم، وكان يحتال على الشعراء بذكائه، فهو يستطيع حفظ القصيدة عندما يسمعها لأول مرة (من أول إلقاء)، وعنده عبد يحفظ القصيدة إذا سمعها مرتين، وكذلك عنده جارية تحفظ القصيدة من ثالث إلقاء.

فإذا جاء الشاعر وألقى على مسمعه قصيدة كان قد نظمها من بنات أفكاره، يقول له المنصور: إنها ليست لك، وإنني أحفظها منذ زمن، ويُسْمِعُه إيّاها، ويكون قد اتفق مع العبد والجارية أن يختبئا خلف الستار، فيقول: ولستُ وحدي الذي يحفظها، فهناك غيري يحفظها كذلك. أحضروا فلاناً العبد، وعندما يحضر يقول له المنصور: أتحفظ القصيدة الفلانية، فيقول: نعم يا مولاي، فيقول له: أسمعنا إياها. فيسمعهم، ثم يقول: وهناك غيرنا يحفظ القصيدة كذلك. أحضروا فلانة، فيحضرونها، أتحفظين القصيدة الفلانية؟ فتقول: نعم، وترددها على أسماعهم، فيستغرب الشاعر ويعود خائباً مذهولاً.

وهكذا يصنع مع جميع الشعراء. بيد أن الأصمعي أدرك الحيلة، فنظم قصيدة صعبة الحفظ، اختار ألفاظها من الحوشي والغريب، وتنكر بزي أعرابي وقاد ناقته خلفه ودخل قصر الخليفة حافياً وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

- وعليك السلام يا أعرابي.
- أنا شاعر فحل من أعراب الموصل.
- أتعرف الشروط؟
- نعم، إن كانت من قولي أعطيتني وزن الذي كتبته عليها ذهباً، وإن كانت من منقولي لم تعطني شيئاً.
- قال صدقت، قل.

فقال:

صــــوتُ صــــفيرُ البلبـــل ... هـــيّج قلـــبِ الثمـــلِ

المـــاءُ والزهـــرُ معـــاً ... مـــع زهـــرِ لحـــظِ المَقـــلِ

وأنـــتَ يـــا ســـيدلي ... وســـيدي ومولـــلِ

فكـــم فكـــم تَـــيمّلي ... غُزيِّـــل عُقيقـــل

قطّفتَـــه مـــنْ وَجنَـــةٍ ... مـــن لـــثم ورد الخجـــلِ

وقلـــت لا لا لـــلا ... وقـــد غـــدا مهـــرولِ

والخـــوذ مالـــتْ طربـــاً ... مـــن فعـــلِ هـــذا الرجـــلِ

وولولـــت وولولـــتْ ... وَلِيْ ولِيْ يـــا وَيلَـــلي

فقلـــت لا تولـــولي ... وبينـــي اللؤلـــؤلي

قالـــت لـــه حـــين كـــذا ... إنهـــض وَجُـــد بالنقـــلِ

وفتيـــةً ســـقونني ... قهيـــوةً كالعســـلَلَ

شـــممتها في أنفـــي ... أزكـــى مـــن القرنفـــل

في وســـط بســـتان حُـــلي ... بـــالزهـــرِ والسرولـــلِ

والعـــودُ دنـــدن دنـــلي ... والطبـــلَ طبطـــب طـــبلي

والســـقف سقسقســـقلي ... والـــرقص قـــد طـــاب إلي

شَـــو.. شـــوو.. وشاهشـــوا ... في ورق ســـــفرجل

وغـــردَ القمـــري يصـــيح ... مـــن ملـــلٍ في ملـــلِ

فلـــو تـــراني راكبـــاً ... عـــلى حمـــار أهـــزلِ

يمـــشي علـــى ثلاثـــةٍ ... كمشـــية العرنجـــل

والنـــاس تـــرجمُ جَمَـــلي ... في الســـوق بالقَلْقَلَـــلِ

والكـــل كـــع كـــع كعِكـــع ... خلفـــي ومـــن حـــويللِي

لكـــن مشـــيت هاربـــاً ... مـــن خشـــية العقنقـــلِ

إلى لقـــــاءِ ملـــــك معظَـــــم مبجّـــــلِ
يـــــأمر لي بخلعَـــــة حمـــــراءَ كالدَمَـــــدملي
أجـــــرُّ فيهـــــا ماشـــــياً مبغـــــدداً للـــــذيلي
أنـــــا الأديـــــب الألمعـــــي مـــــن حـــــي أرض الموصـــــلِ
نَظَمـــــتُ قِطَعـــــاً زُخرفـــــتْ يَعجـــــزُ عنهـــــا الأدبـــــلي
أقـــــول في مطلعهـــــا صـــــوتُ صـــــفير البلبـــــلِ

ولم يستطع الخليفة حفظها لصعوبتها ولوعورة ألفاظها، فطلب العبد، فعجز، ثم الجارية فقالت: والله لم أسمع بها من قبل يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: إذن يا أعرابي هات الوُرَيقَة التي كتبت عليها قصيدتك. فقال: معذرة يا أمير المؤمنين لقد كتبتها على عمود رخام ورثته عن أبي، وهو معي على ظهر الناقة، ويحتاج إلى أربعة رجال ليحملوه، فانهار الخليفة، فلما أحضروه وجيء بالعمود والناس تنظر ووضع في الميزان، فأخذ كل ما في الخزنة، ولما هم بالخروج قال وزير الخليفة: أوقفه يا أمير المؤمنين. والله ما أظنه إلا الأصمعي. فأوقفوه، فقال: أمط اللثام عن وجهك يا أعرابي، فلما أماط اللثام وإذا به الأصمعي. قال له: أتفعل هذا مع أمير المؤمنين يا أصمعي؟

قال: نعم، إنك بذكائك يا أمير المؤمنين قد قطعت أرزاق الشعراء. قال: أعد الخزنة. قال: بشرط أن تعطي الشعراء على قولهم أو منقولهم، فوافق على ذلك. ففرج الله عن الشعراء.

[نوادر الأدباء]

طرائف في اللغة والأدب

* ذهب نحوي يزور صديقه المريض، فطرق بابه، فطلع عليه ابنه الصغير فقال النحوي: كيف تجد أباك اليوم يا بني؟

فقال الغلام: والله يا عم لقد ورمت رجليه.

قال النحوي: لا تلحن، قل رجلاه. ثم ماذا؟

قال الغلام: ثم وصل الورم إلى ركبتاه.

قال النحوي: لا تلحن، قل ركبتيه ثم ماذا؟

قال الغلام: ثم علم أنك ستزوره وتزعجه بالنحو والبلاغة فمات غمّاً.

* قال رجل لأبي العيناء: أتأمر بشيئاً، فقال: نعم، بتقوى الله وحذف الألف من شيئاً.

* قصد رجل يدعى أبو هشام الحجاج فأنشده: «أبا هشام ببابك قد شم ريح كبابك» فقال: ويحك لم نصبت «أبا هشام»؟ قال: الكنية كنيتي إن شئتُ رفعتُها وإن شئتُ نصبتُها.

* دخل الخليل بن أحمد الفراهيدي على مريض نحوي وعنده أخ له، فقال للمريض: افتح عيناك وحرك شفتاك إن أبو محمد جالساً.

فقال الخليل: أرى أن أكثر عِلّة أخيك من كلامك.

قال رجل لآخر: ما الذي اشتريت؟ قال عسل، فقال: هل زدت في عسلك «ألف»؟ فقال: وأنت هلا زدت في ألفك ألفاً.

* سأل نحوي صديقه: ماذا فعل أبوك بحمارِهِ؟

قال: باعِهِ.

قال: ولم جررت (باعه)؟

قال: كما جررت أنت (بحماره).

قال: أنا جررته بالباء الزائدة (بِ حماره).

قال: سبحان الله باؤك تجر، وبائي لا تجر؟!

(يظن أن الباء في باعه زائدة).

* كان النحوي عمر بن عيسى ماراً في أحد شوارع بغداد فهاج به المرض، فسقط عن دابته مغشياً عليه، فتجمع عليه بعض الناس يرشَون عليه الماء محاولين إيقاظه من غشيته.. فلما أفاق برُم بهم، وقال: مالكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عني.

فقال بعضهم: دعوه فإن جنيته تتكلم الهندية.

☆ ☆ ☆

الباب العشرون
قصص متفرقة

ربَّ همَّة أحْيَتْ أمَّة
درس في الانتماء (قصة من اليابان)

لقد وقفت اليابان من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا منها موقف الزبون، إنها استوردت منها الأفكار بوجه خاص، ونحن استوردنا منها الأشياء بوجه خاص. ومع ما في هذا التشبيه من دقة في القول، فإن اليابان استوردت من الأفكار ما يتلاءم مع تربتها الاجتماعية، وبخاصة الأفكار التي تثري التقنية، أي: أنها جرَّدت الأفكار من أي مضمون اجتماعي أو ثقافي، واستخلصت منها ما يتلاءم مع تطورها وتقنياتها، فلم تجرِ وراء نماذج تطبقها، ولم تستورد خبراء من الخارج، ليتفاعل أبناؤها مع الحضارة الغربية، ولينهلوا من العلوم الحديثة، وهم في ذلك في شغل شاغل للإجابة عن سؤال مهم هو:

ما سبب تقدم تلك البلدان علينا؟

لقد تبنت اليابان أكبر حركة للترجمة، شملت جميع المعارف والعلوم، فكانت النتيجة انصهار الأفكار مع إمكانات الإنسان الياباني، بتقاليده، وتراثه وقيمه في بوتقة واحدة، نقلت المجتمع الياباني إلى الصف الأول وبدون خسائر تذكر. واليابان دولة فقيرة في مواردها الطبيعية، ولكنها غنية بالإنسان الياباني الملتزم، المشغول دائماً بقضية وطنه.

وقد يكون أعظم اكتشافات اليابان هو الإنسان ذاته، إذ بهذا الإنسان وعلى أرضها وقفت اليابان بإباء وشموخ، حتى بعد أن تعرضت لنكبة التدمير بالقنبلة النووية في «هيروشيما»، وتخطت العقبة، ولم تتوقف، وبدأت مرة أخرى تدرب شعبها، وتطوره، وتعلمه.

أما قصة المواطن الياباني، الذي استطاع أن يسهم إسهاماً عظيماً في نهضة بلده اليابان، التي كانت حتى نهاية القرن التاسع عشر أمة حائرة، تتلمس طريقها، حتى أنهم أرسلوا بعثة إلى مصر، في عهد الخديوي إسماعيل يبحثون عن أسباب تقدم مصر عليهم، ونجد الإجابة في قصة هذا الياباني، الذي يمثل ظاهرة العمل، التي قفزت باليابان من دول العالم الثالث إلى دولة صناعية كبرى، ولله في خلقه شؤون.

ورجل القصة اسمه «تاكيوا أوساهيرا»، وندعه هو يحكي قصته كما رواها وليام هارت، ونقلها عنه الأستاذ حسين مؤنس، في مقالة له نشرتها مجلة «أكتوبر» المصرية، بالعدد رقم (٢٣٤) وتاريخ ١٤ حزيران (يونيه) ١٩٨١م.

يقول أوساهيرا، وكان في هذا الوقت مبعوثاً من قبل حكومته للدراسة في جامعة هامبورج بألمانيا، لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني، الذي ذهبت لأدرس عليه في جامعة هامبورج، لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركاً صغيراً؟ كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى «موديل»، هو أساس الصناعة. وبدلاً من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل أو مركز تدريب عملي، أخذوا يعطونني كتباً لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك، أياً كانت قوته، وكأنني أقف أمام لغز لا يحل، وفي ذات يوم، قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي، وجدت في المعرض محركاً قوة حصانين، ثمنه يعادل راتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك، وكان ثقيلاً جداً، وذهبت به إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة، وجعلت أنظر إليه، كأنني أنظر إلى تاج من الجواهر. وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركاً كهذا، لغيرت اتجاه تاريخ اليابان.

وطاف بذهني خاطر يقول: إن المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى، مغناطيس كحذوة حصان، وأسلاك، وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس، وما إلى ذلك، لو أنني أستطعت أن أفكك قطع هذا المحرك، وأعيد تركيبها، بالطريقة نفسها التي ركبوها بها، ثم شغلته فاشتغل، أكون قد خطوت خطوة نحو سر الصناعة الأوروبية.

وبحثت في رفوف الكتب التي عندي، حتى عثرت على الرسوم الخاصة

بالمحركات، وأخذت ورقاً كثيراً، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل: رسمت منظر المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمي أجزاءه، ثم جعلت أفككه قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة، رسمتها على الورق بغاية الدقة، وأعطيتها رقما، وشيئاً فشيئاً فككته كله، ثم أعدت تركيبه وشغلته فاشتغل، فكاد قلبي يقف من الفرح. استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل، وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسناً ما فعلت، الآن لا بد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه، وتكتشف موضع الخطأ وتصلحه، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل. وكلفتني هذه العملية عشرة أيام. عرفت في أثنائها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاثاً من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعتها بالمطرقة والمبرد.

بعد ذلك قال رئيس البعثة وكان بمثابة الكاهن يتولى قيادتي روحياً قال: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها محركاً، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك، التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألمنيوم، بدلاً من أن أعد رسالة دكتوراة كما أراد مني أساتذتي الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء، وأقف صاغراً إلى عامل صهر ألماني، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة (ساموراي)، ولكنني كنت أخدم اليابان، وفي سبيل اليابان يهون كل شيء.

قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل، كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

وعلم «الميكادو»(١) بأمري، فأرسل لي من ماله الخاص، خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب، اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات. وعندما أردت شحنها إلى اليابان، كانت النقود قد فرغت فوضعت راتبي وكل ما ادخرته، وعندما

---

(١) الميكادو: لقب امبراطور اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، معناه الحرفي (الباب الممجد) وفي ذلك إشارة إلى القصر الإمبراطوري، وإنما أطلق اليابانيون هذا اللقب على إمبراطورهم لأنهم كانوا نادراً ما يذكرونه بالإسم توقيراً منهم له وتقديساً.

وصلنا إلى «نجازاكي» قيل لي: أن الميكادو يريد أن يراك قلت: لن استحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً.

استغرق ذلك تسع سنوات. وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات صنعت في اليابان قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ووضعناها في قاعة خاصة بنوها لنا قريباً منه، وأدرناها، ودخل «الميكادو» وانحنينا نحييه، فابتسم، وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة.

هكذا ملكنا «الموديل»، وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب، ثم ذهبنا وصلينا في المعبد، وبعد ذلك نمت عشر ساعات كاملة لأول مرة في حياتي منذ خمس عشرة سنة.

انتهت قصة «تاكيو أوساهيرا» قصة مدهشة حقاً، أعظم ما فيها هو هذا الانتماء الكامل للوطن، والاستسلام المدهش لحاجته الحقيقية، والعشق الواضح للعمل المنتج. لقد كانت حاجة الوطن إلى «محرك» أهم وأعظم من شهادة دكتوراه، يعود بها ليتبارى ويتفاخر، وانظر كذلك إلى أمره، يعتذر عن مقابلة «الميكادو»، قبل أن ينجز لأمته شيئاً؛ لأنه اعتبر تلك المقابلة شرفاً عظيماً لا يستحقه من لا يقدم لأمته عملاً منتجاً، ومجهوداً واضحاً.

تلك هي الروح الحقيقية لبداية انطلاق اليابان، لم تشغل أبناءها المسميات أو المناصب، وإنما شغلتهم أهداف سامية للنهوض باليابان. ثم أن الشعب الياباني كله قد حمل هذه الروح الإبداعية الابتكارية مع الجد في العمل والإخلاص فيه والرغبة الصادقة في نقل بلدهم إلى مصاف الدول المتقدمة. ومن المأثور عنهم: أنهم يقولون: إذا كان العامل في أي دولة من دول العالم يعمل ثماني ساعات في اليوم، فإن الياباني يعمل تسع ساعات، ويقول ثماني ساعات منها لي ولوالدي، والساعة التاسعة هبة مني للوطن من أجل رفعته وتقدمه، حتى صارت اليابان بالفعل في قمة الدول الصناعية المتطورة. فدفعهم هذا الإيثار إلى حمل شعار: «العالم يلهو واليابان تعمل» وبذلك أصبحوا جديرين بالتوقيع الحضاري (صنع في اليابان) فأصبح هذا التوقيع محل ثقة الجميع في أركان الأرض الأربع، وصارت اليابان ملء السمع والبصر، بينما تخلف الذين بدؤوا معها في النمو والتنمية.

[دراسة في البناء الحضاري: ٨٧ – ٩١]

هند بنت النعمان والحجاج

حكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن زمانها، فوصِفَ للحجاج حسنها، فأرسل إليها من يخطبها، وبذل لها مالاً جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هند إلا مهرة عربية ... سليلةَ أفراس تحلّلها بغل
فإن ولدتْ مهراً فلله درها ... وإن ولدت بغلاً فمن ذلك البغل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مئتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنتِ فبنتِ (أي طالق)، وهذه المئتا ألف درهم التي كانت لك عليه، فقالت: اعلم يا ابن طاهر: أنّا والله كنّا فما حمدنا، وبنّا فما ندمنا، وهذه المئتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف. ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب، فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي هو فيها وإلا فلا، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأرسل إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهيز، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها، فجعلت هند تتواغد[1] عليه وتضحك منه الهيفاء

(١) تتواغد: تلعب وتمزح.

دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي سجف المحمل[١]، فكشفته. فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة ... تركتك فيها كالقباء المفرج[٢]

فأجابته هند تقول:

وما نُبالي إذا أرواحنا سَلِمَت ... بما فقدناه من مالٍ ومن نَشَب

فالمالَ مكتسبٌ والعزّ مرتجعٌ ... إذا النفوس وقاها الله من عطبِ

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمّال إنه سقط منّا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم، قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً... ولكنه أحس بالطعنة توجَّه إلى صدره موجعة أليمة، وشعر بالإهانة ولكنه ظل صامتاً، وأسرّها في نفسه، ومضى يجر زمام الناقة مكملاً طريقه إلى قصر الخليفة في دمشق. ودخل القصر مسلماً على عبد الملك، مؤدياً الأمانة، متمّماً المهمة التي كُلِّف بها، ولكن الذي حدث أن عبد الملك طلب شراباً والحجاج لا يزال في حضرته، فأُحضِرَ له قدح فيه شراب، أخذه عبد الملك وشرب ما فيه إلا بقية قدّمها للحجاج.

وكان الحجاج ماكراً شديد المكر، حقوداً لا ينسى الإهانة، فوجدها فرصة مناسبة للانتقام من هند وعبد الملك سوية، فقال: والله يا مولاي ما شربت قط في إناء شرب منه غيري قبلي. وكان عبد الملك سريع الفهم، يدرك مرامي الكلام ومقاصده، فوجد في كلام الحجاج ما يشير إلى طلبه الزواج من هند، وهي التي تزوجها غيره قبله، فأسرع قائلاً: «أعيدو هنداً إلى أهلها في العراق فلم تعد لي بها حاجة».

وكان هذا انتقاماً شديداً تشفى به الحجاج من هند التي أعديت إلى العراق حزينة خائبة.

[نساء من التاريخ العربي والإسلامي/ ٨]

---

(١) سجف المحمل: الستر..

(٢) القباء المفرج: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق به.

إدارة عموم الزير

يروى أن حاكماً عادلاً كان عائداً من جولة في بلاده في يوم قائظ ومعه وزيره وبعض حاشيته، وبينما هم يستريحون في ظلال صفصافة وارفة استرعى نظره سيل متصل من الناس، يذهبون إلى ضفة النهر يردون الماء ثم يصدرون. ولاحظ أنهم يعانون في ذلك مشقة كبيرة، فأمر بوضع زير ماء كبير بحمالة وغطاء وبضعة أكواز تحت شجرة قريبة، ودفع عشرة دنانير لأحد رجاله لشراء الزير على أن يتعاون مع آخر في ملء الزير مرة بعد مرة إلى أن يشرب منه الناس.

ومضى الحاكم في طريقه ومرت الأيام والشهور والأعوام، وذات أصيل(١) رأى الحاكم في حديقة سكنه زيراً صغيراً تحت شجرة فتذكر أمر الزير الأول، فسأل وزيره عن الزير، فأخبره هذا أن الفكرة قد طُورت وعُدّلت وصارت شيئاً مهولاً يساير متطلبات الزمن، فقد بدأ الأمر عادياً إلى أن انكسر الزير ذات مرة نتيجة تزاحم الناس على الشرب منه، فأمر الوزير بإقامة بناء صغير يحمي هذا المرفق الشعبي. ثم تطلب الأمر بناء غرفتين يستريح فيهما العاملان وتزويدهما بآثاث بسيط.. ولما كانت القواعد المالية واجبة المراعاة تم إنشاء جهاز إداري للزير، لأن هناك بعض المباني والأثاث والعهدة.. واحتاج ذلك إلى رئيس قلم، وكاتبين: واحد للشؤون المالية والثاني للعهدة.. وزوِّدوا بخزانة للنقود وسلفة مالية فقد ينكسر الزير أو يتلف الغطاء أو يضيع الكوز وهذا كله – كما يروي الوزير – ضروري للخروج من نطاق الأمم النامية إلى عالم الأمم التي تم نموها فعلاً!

ولما ازداد إقبال الناس على الشرب، وصار الزير ينكسر كثيراً بسبب كثرة الاستعمال وتزاحم الناس حُوِّلت (المأمورية) إلى (إدارة) لها أربع إدارات فرعية: إدارة الفخار، (مختصة بشوؤن الزير) وإدارة الصفيح (مختصة بالكوز)، وإدارة الحديد (مختصة بالحمالة) وإدارة الخشب (مختصة بالغطاء) وهناك نية لإنشاء إدارة للماء.. ولما ضاق مبنى إدارة الزير، وُسِّع بزيادة طابقين كلّفا حوالي مئة ألف دينار، بالإضافة إلى أربعين ألف دينار لإدارة عموم الزير.

كما أضيفت آلات (هيدروديناموا إليكترونية) لرفع الماء وتنقيته ودفعه إلى الزير في

(١) الأصيل: الوقت حين تصفّر الشمس لمغربها.

أنابيب خاصة، وأوجبت حركة العمارة شراء سيارة خاصة للمدير العام، واثنتين للتنقل السريع، وواحدة لنقل الماء حين تتعطل آلات الضخ وصار للإدارة اتصالات مع دواوين الدولة، ودعي مدير الإدارة إلى مؤتمرات عالمية لشرح هذه التجربة الرائدة، وتطور الأمر إلى استعمال أحدث أساليب الإحصاء فاستحدثت استمارات أربع (استمارة بيضاء يملؤها الذين يمرون بالزير يشربون كل يوم مرة واحدة بانتظام، واستمارة صفراء لمن يعتمدون على الزير في شربهم طول النهار، وثالثة حمراء لمن يمرون بالزير أسبوعياً. وتحمل هذه البطاقات صورهم، أما الاستمارة الرابعة الزرقاء فتحرر وترسل إلى الحاسب الإليكتروني).

بعد هذا الوصف الذي قدمه الوزير لتطور الفكرة والمشروع، قرر الحاكم معاينة هذه الإدارة بنفسه، وعندما وصل إلى مكان المشروع وجد مبنى شاهقاً ضخماً وحركة دائبة، وحين استدعى المدير العام لم يجده فهو في مؤتمر في بودابست، وفي إدارة الخشب وجد غرفة مدير إدارة الخشب، وخبير الأخشاب، ولاحظ كثرة المكاتب والموظفين والفراشين والأوراق والمراسلات بين الإدارات الكثيرة.. ثم طرح سؤاله المفاجئ: أين الزير؟ فقيل له: أنه في قاعته الخاصة في الدور الأرضي، وعندما وصل إلى هناك دخل إلى قاعة واسعة مترية على بابها (موظف ينطق مظهره بالتعاسة، يجلس إلى منضدة عرجاء) وأمامه أربع مجموعات من الاستمارات، وسجل ضخم ولا ناس هناك.. أعاد الحاكم السؤال: أين الزير؟ فقالوا له: أرسل إلى الورشة من أربعة أو خمسة أشهر بقرار من لجنة الخبراء.

(إذن.. هذا كله.. ولا زير)! ردد الحاكم عبارته هذه، فإذا بالخادم «صابر» الذي طلب إليه أول مرة شراء الزير، يتقدم منه مسكيناً هزيلاً يعلن: الزير ليس هنا منذ سنتين. وأنني لا أتقاضى راتباً منذ سنتين ونصف يا سيدنا... إنني أموت جوعاً، فكان جواب المسؤولين عن أسباب وضع صابر هذا هو إن إشكالات إدارية مالية، ولوائح وقواعد تتعلق بحالته ما تزال تدرس بين الدواوين الحكومية تحول دون صرف راتبه، كما يحول دون ذلك أن صابراً لا يحمل مؤهلات تساعد في تحديد الأساس الذي يصرف له الراتب بناء عليه.

طلب الحاكم إلى صابر أن يبدأ من جديد أن يشتري زيراً ويضعه تحت الشجرة التي وضع الزير الأول تحتها، وحين تلفت لم يجدها واخبروه أنها قطعت لأغراض

إقامة البناء وحين حاول زميل صابر منعهم ضربوه وفصلوه فمات غماً.

ما بقي من القصة يصف إجراءات الحاكم، ومن بينها الإصرار على شراء الزير الجديد وإلزام الوزير بدفع تكاليف هذه الأخطاء وتكاليف جهاز الإدارة البيروقراطي، على أن يتحمل معه ذلك قريبه المدير العام، وأقاربه الذين استفادوا من المشروع، ثم تحويل المبنى كله، لأمر آخر نافع في مصالح العباد.

[حسين مؤنس: إدارة عموم الزير]

اليمامتان

جاء في تاريخ الواقدي «أن (المقوقس) عظيم القبط في مصر، زوّج بنته (أرمانوسة) من (قسطنطين هرقل) وجهزها بأموالها حشماً لتسير إليه، حتى يبني عليها في مدينة قيسارية[1] فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها... وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً، وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقي إلى المقوقس وأُخِذَت أرمانوسة وجميع ما لها، وأُخِذ كل ما كان للقبط في بلبيس، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرمة في جميع مالها، (مع قيس بن أبي العاص السهمي)، فسُرّ بقدومها...».

هذا ما أثبته الواقدي في روايته، ولم يكن معنياً إلا بأخبار المغازي والفتوح، فكان يقتصر عليها في الرواية أما ما أغفله فهو ما يقصه الرافعي في «وحي القلم» فيقول:

كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة[2] تسمى (مارية)، ذات جمال يوناني أتمته مصر ومسحته بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصرياً، ونقص الجمال اليوناني أن يكونه، فهو أجمل منه، ولمصر طبيعة خاصة في الحسن، فهي قد تهمل شيئاً في جمال نسائها أو تشعث منه، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة، ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبي أفرغت فيه سحرها إفراغاً وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها في المقابلة بينه في طابعه المصري، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنة ما

---

(١) بلدة بفلسطين. وبلبيس هي المدينة المعروفة بمحافظة الشرقية بمصر.

(٢) المولّدة: المولودة في غير قومها، والمولد المحدث من كل شيء، ومن الرجال: العربي غير المحض، ومن ولد عند العرب ونشأ مع أولادهم وهم من أبناء المسلمين من كتابيات.

كانت تغار على سحرها أن لا يكون إلا الأعلى.

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته، وهو كان والياً وبطريركاً على مصر من قِبَلِ هرقل. ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس، جزعت مارية جزعاً شديداً إذ كان الروم قد أرجفوا[١] أن هؤلاء العرب قوم جياع ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الأعين في الريح العاصف؛ وأنهم جراد إنساني لا يغزو إلا لبطنه؛ وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها[٢] وإن النساء عندهم كالدواب يرتبطن على خسف[٣] وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثقلت مطامعهم وخفت أماناتهم، وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزاراً في الجاهلية، فما تدعه روح الجزار ولا طبيعته، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشُذَّاذِهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش! وتوهمت مارية أوهامها، وكانت شاعرة قد درست هي وأرمانوسة أدب اليونان وفلسفتهم وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر مما هي، ويضاعف الأشياء في نفسها، وينزع إلى طبيعته المؤنثة، فيبالغ في تهويل الحزن خاصة، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم...

ومن ذلك استُطير قلب مارية وأفزعتها الوساوس، فجعلت تندب نفسها، وصنعت في ذلك شعراً هذه ترجمته:

جاءك أربعة آلاف جزّار أيتها الشاة المسكينة!
ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحي..!
جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة!
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت!
قوِّني يا إلهي، لأغمد في صدري سكيناً يردُّ عني الجزارين!
يا إلهي، قوِّ هذه العذراء، لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربي...!

وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة في صوت يتوجع فضحكت هذه وقالت:

---

(١) أرجفوا: أشاعوا.

(٢) يمتطونها: يركبونها.

(٣) الخسف: الجوع والذل.

أنت واهمة يا مارية[1]، أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيهم بنت (أنصنا)[2]، فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب؟ لقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي، وأنها أنفذت إليه دسيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيهم أطهر من السحابة في سمائها، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتها، وإذا سلوا السيف سلوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبي، فإنهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامي في الرجل منهم - يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته.

وقال أبي: إنهم لا يغيرون على الأمم، ولا يحاربونها حرب الملك، وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة، تتقدم في الدنيا حاملة السلاح الأخلاقي، قوية في ظاهرها وباطنها، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم، وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق!

وقال أبي: إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء؛ طبيعة تعمل في طبيعة، فليس يمضي غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي ظلالها، وهو بذلك فوق السياسات التي تشبه في عملها الظاهر الملفق ما يعدكطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر... شتان بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه لوناً.

فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة...، وقالت: فلا ضير إذن علينا إذا فتحوا البلد، ولا يكون ما نستضرُّ به؟

قالت أرمانوسة: لا ضير يا مارية، ولا يكون إلا ما نحب لأنفسنا فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه، والحاجة إلى حلاله وحرامه، فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم، ولكنهم يفهمون متاع

---

(١) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي ﷺ، وكانت في «أنصنا» بالوجه القبلي في مصر.

(٢) بلدة في مصر.

الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتمييز بين حلاله وحرامه، فهم الإنسانيون الرحماء المتعففون.

قالت مارية: وأبيك يا أرمانوسة، إن هذا لعجيب! فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها... فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الإنسانية، فضلاً عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين، فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أمياً؟ أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير، فتدعهم يعملون عبثاً أو كالعبث، ثم تستسلم للرجل الأمي الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم؟

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس، وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها في الحياة إيجاد الأفكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم، وقد درست المسيح وعمله وزمنه، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مصغرة في نفسه وحوارييه، وكان عمله كالبدء في تحقيق الشيء العسير حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه.

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأمي هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها وبرهانها القاطع، أنها بذلك في مظهرها الإلهي. والعجب يا مارية، أن هذا النبي قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان في ذلك كالمسيح غير أن المسيح انتهى عند ذلك، أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع لا يرتد ولا يتغير، وهاجر من بلده، فكان ذلك أول خطى الحقيقة التي أعلنت أنها ستمشي في الدنيا، وقد أخذت من يومئذ تمشي. ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لهاجرت به كذلك، فهذا فرق آخر بينهما. والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هي عبادة القلب، أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضاً: إحداها للأعضاء، والثانية للقلب، والثالثة للنفس، فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط، وعبادة القلب طهارته وحبه الخير، وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل الإنسانية. وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدينا فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما.

قالت مارية: إن هذا والله لسر إلهي يدل على نفسه، فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت إلا في أحوال قليلة، تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء: كالغضب الأعمى، والحب الأعمى، والتكبر الأعمى، فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية كما قلت منبعثة هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشعور بسمو ذاتيتها العالية - فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الإنسان بسمو ذاتيته، وهذه هي نهاية النهايات في الفلسفة والحكمة. قالت أرمانوسة: وما بعد ذلك دليل على أنك تتهيئين أن تكوني مسلمة يا مارية!

فاستضحكتا معاً وقالت مارية: إنما ألقيتِ كلاماً جارَيْتُك فيه بحسبِهِ، فأنا وأنت فكرتان لا مسلمتان.

ولما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة إلى أبيها، انتهى ذلك إلى مارية قالت لها: لا يَجْمُلُ بمن كانت مثلَكِ في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة، تتوجه حيث يُسار بها، والرأي أن تبدئي هذا القائد قبل أن يبدأك، فأرسلي إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، وسليه أن يُصْحِبَك بعض رجاله فتكوني الآمرة حتى في الأسر، وتصنعي صنع بنات الملوك! قالت أرمانوسة: فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانك ودهائك فاذهبي إليه من قبلي، وسيصحبك الراهب (شطا)، وخذي معك كوكبة من فرساننا.

* * *

قالت مارية وهي تقص على سيدتها: لقد أديت إليه رسالتك فقال: كيف ظنها بنا؟ قلت: ظنها بفعل رجل كريم يأمره إثنان: كرمه، ودينه. فقال: أبلغيها أن نبينا ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة». وأعلميها أننا لسنا على غارة تغيرها، بل على نفوس تغيرها.

قالت: فصفيه لي يا مارية.

قالت: كان آتيا في جماعة في فرسانه على خيولهم العِراب[1]، كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر؛ فلما صار بحيث أتبينه أدنا إليه الترجمان - وهو (وردان)

---

(١) العراب: خيل عراب خلاف البراذين (البغال). الواحد عربي.

مولاه – فنظرت، فإذا هو على فرس كُمَيْت أحم[1] لم يخلص للأسود ولا للأحمر، طويل العنق مشرف له ذؤابه أعلى ناصيته كطرة المرأة[2]، ذيال يتبختر بفارسه ويحمحم كأنه يريد أن يتكلم، مُطهَّم.

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت: ما سألتك صفة جواده....

قالت مارية: أما سلاحه...

قالت: ولا سلاحه، صفيه كيف رأيته (هو)!

قالت: رأيته قصير القامة علامة قوة وصلابة، وافر الهامة علامة عقل وإرادة، أدعج العينين...

فضحكت أرمانوسة وقالت: علامة ماذا؟

أبلج يشرق وجهه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء، أَيِّداً[3] اجتمعت فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً... داهية كتب دهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنى يأخذ من يراه، وكلما حاولت أن أتفرس في وجهه رأيت وجهه لا يُفسِّره إلا تكرار النظر إليه...

وتضرجت وجنتاها[4]، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عيني أرمانوسة...

وقالت هذه: كذلك كل لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها...

فغضت مارية من طرفها وقالت: هو والله ما وصفت، وإني ملأت عيني منه، وقد كدت أنكر أنه إنسان لما اعتراني من هيبته.. قالت أرمانوسة: من هيبته أم عينيه الدعجاوين..؟

* * *

ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس)، فلما كانوا في الطريق وَجَبَت الظهر، فنزل قيس يصلي بمن معه والفتاتان تنظران، فلما صاحوا: «الله أكبر...!» أرتعش قلب مارية، وسألت الراهب (شطا): ماذا يقولون؟ قال: إن هذه كلمة

---

(١) أحم: الكميت الأحم: هو الأحمر الضارب للسواد، لا يخلص لأحد اللونين.

(٢) الطرة: طرف الشيء أو حرفه، ما تطره المرأة في الشعر الموفي على جبهتها وتصففه.

(٣) الأيد: القوي الشديد.

(٤) تضرجت وجنتاها: احمر خداها.

يدخلون بها صلاتهم، كأنما يخاطبون بها الزمن، إنهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم، كأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود، فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت فذلك هو دخولهم في الصلاة، كأنهم يمحون الدنيا عن النفس ساعة أو بعض ساعة، ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها، انظري، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحراً فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء، وقد شملتهم السكينة، ورجعوا غير من كانوا، وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة في تأملهم؟

قالت مارية: ما أجمل هذه الفطرة الفلسفية! لقد تعبت الكتب لتجعل أهل الدنيا يستقرون ساعة في سكينة الله عليهم فما أفلحت، وجاءت الكنيسة فهولت على المصلين بالزخارف، والصور والتماثيل والألوان، لتوحي إلى أنفسهم ضرباً على الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الديني، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوهم إلى جوها، فكانت كساقي الخمر، إن لم يعطك الخمر عجز عن إعطائك النشوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يحمل معه كنيسة على جواد أو حمار؟

قالت أرمانوسة: نعم إن الكنيسة كالحديقة، هي حديقة في مكانها، وقلما توحي شيئاً إلا في موضعها، فالكنيسة هي الجدران الأربعة، أما هؤلاء فمعبدهم بين جهات الأرض الأربع.

قال الراهب شطا: ولكن هؤلاء المسلمين متى فتحت عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها – فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ.

قالت مارية: وهل تفتح عليهم الدنيا، وهل لهم قواد كثيرون كعمرو...؟

قال: وكيف لا تفتح الدنيا على – قوم لا يحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المد المرتفع، ليس في داخلها إلا أنفس مندفعة إلى الخارج عنها، ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس في الداخل منها إلا النفوس المستعدة أن تهرب إلى الداخل...!

قالت مارية: والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمرو...

* * *

وفتحت مصر صلحاً بين عمرو والقبط، وولى الروم مصعدين إلى الإسكندرية، وكانت مارية في ذلك تستقرئ أخبار الفاتح تطوف منها على أطلال من شخص

بعيد، وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حبه أن يأخذها، وجعلت تذوي وشحب لونها وبدأت تنظر النظرة التائهة: وبان عليها أثر الروح الظمأى، وحاطها اليأس بجوِّه الذي يحرق الدم، وبدت مجروحة المعاني إذ كان يتقاتل في نفسها الشعوران العدوان: شعور أنها عاشقة، وشعور أنها يائسة!

ورقت لها أرمانوسة، وكانت هي أيضاً تتعلق فتى رومانياً، فسهرتا ليلة تديران الرأي في رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمرو كي تصل إليه، فإذا وصلت بلّغت بعينيها رسالة نفسها...

واستقر الأمر أن تكون المسألة عن مارية القبطية، وخبرها ونسلها وما يتعلق بها مما يطول الإخبار به إذا كان السؤال من امرأة عن امرأة. فلما أصبحتا وقع إليها أن عمراً قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه، فأخبروه فقال: «قد تحرمت في جوارنا، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها». فاقروه!

ولم يمض غير طويل حتى قضت مارية نحبها، وحفظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذي أسمته: نشيد اليمامة:

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
تركها الأمير تصنع الحياة، وذهب هو يصنع الموت!
هي كأسعد امرأة ترى وتلمس أحلامها.
إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض.

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
لوسئلت عن هذا البيض لقالت: هذا كنزي.
هي كأهنأ امرأة، ملكت ملكها من الحياة ولم تفتقر.
هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا كلفته رجلاً واحداً أحبه!

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
الشمس والقمر والنجوم، كلها أصغر في عينها من هذا البيض
هي كأرق امرأة، عرفت الرقة مرتين: في الحب، والولادة.

هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة!
على فسطاط الأمير يمامة جائمة تحضن بيضها.
تقول اليمامة: إن الوجود يحب أن يرى بلونين في عين الأنثى.
مرة حبيباً كبيراً في رَجُلِها، ومرة حبيباً صغيراً في أولادها.
كل شيء، خاضع لقانونه، والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها.

* * *

أيتها اليمامة، لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطة!
هكذا الحظ: عدل مضاعف في ناحية، وظلم مضاعف في ناحية أخرى.
احمدي الله أيتها اليمامة، أن ليس عندكم لغات وأديان،
عندكم فقط: الحب والطبيعة والحياة.

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جائمة تحضن بيضها.
يمامة سعيدة، ستكون في التاريخ كهدهد سليمان.
نسب الهدهد إلى سليمان، وستنسب اليمامة إلى عمرو.
واهاً لك يا عمرو! ما ضرّ لو عرفت (اليمامة الأخرى)...!

[وحي القلم: ١/ ١٨]

بنته الصغيرة

فرغ أبو يحيى مالك بن دينار، زاهد البصرة وعالمها، من كتابة المصحف وكان يكتب المصاحف للناس، ويعيش مما يأخذ من أجرة كتابته تعففاً أن يطعم إلا من كسب يده - خرج من داره وجهه المسجد فأتاه فصلى بالناس صلاة العصر.

وجلسوا ينتظرونه واستوى هو قائماً. فركع وسجد ما شاء الله حتى قضى نافلته، ثم انفتل من صلاته فقام إلى أسطوانته التي يستند إليها. وتحلق الناس حوله جموعاً خلف جموع، يذهب فيهم البصر مرة هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادهم حتى تغطى بهم المسجد على رحبه. ومد الإمام عينه فيهم ثم أطرق[1] إطراقه طويلة، والناس كأن عليهم الطير مما سكنوا لهيبته، ومما أعجبوا لخشوعه، ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندت

---

(١) أطرق: أمال رأسه إلى صدره وسكت.

عيناه فما نظر إليهم حتى كأنما اطّلع على أرواحهم فجرٌ رطبٌ من سحر ذلك الندى.

وبَدَرَ شابٌ حدثٌ فسأله: ما بكاء الشيخ؟ فكان قريباً يجلس من الإمام في سمت بصره[١] فتأمله الشيخ طويلاً يقلب فيه الطرف كالمتعجب، ولبث لا يجيبه كأنما عقد لسانه أو أخذته من نفسه حال، فما يُثْبِت شيئاً مما يرى.

وازداد الناس عجباً، فما جربوا على الشيخ من قبلها حصراً ولا عيّا[٢]، ولا قطعه سؤال قط، ولا تخلف عن جواب، وقالوا: إن له لشأناً، وما بد أن تكون من وراء حبسته شعاب في نفسه تهدر بسيلها وتعتلج[٣] فما أسرع ما يلتقي السيل فيجتمع، فيصوب إلى مجراه فيتقاذف.

وتبسم الإمام وقال: أما أني قد ذكرت ذكرى فبكيت لها، ورأيت رؤيا فتبسمت لها، أما الذكرى فهل تعلمون أن هذا المسجد الذي يفهق[٤] بهذا الحشد العظيم وتقع فيه المدينة لكل أذان وتطير – هل تعلمون أنه خلا قط من الناس وقد وجبت الفريضة؟ قالوا: ما نعلمه.

قال: فقد كان ذلك لعشرين سنة خلت في موت الحسن(٥) فقد مات عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره وحملناه بعد صلاة الجمعة فتبع أهل البصرة كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بهذا المسجد وما تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، ومثل الحسن لا تموت ساعة موته من عُمْر من شهدها، فذلك يوم عجيب قد لفّ نهاره البصرة كلها في كفن أبيض فما بقيت في نفس رجل ولا امرأة شهوة إلى الدنيا، وفرغ كل إنسان من باطلة. كما يفرغ من أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة، وظهر لهم الموت في حقيقة جديدة بالغة الرَّوْع لا يراها الأبناء في موت آبائهم وأمهاتهم، ولا الآباء والأمهات في موت من ولدوا، ولا المحب في

---

(١) أي أمامه في الخط الذي يمتد فيه البصر.

(٢) عيّ الرجل في الكلام: عجز عنه فلم يستطع بيان مراده منه.

(٣) تعتلج: تصطرع وتلتطم.

(٤) يفهق: يمتلئ.

(٥) هو الحسن البصري الإمام العظيم، ولد سنة ١٥ للهجرة، وتوفي سنة ١١٠، وقد توفي مالك ابن دينار شيخ هذه القصة في سنة ١٣١، فيكون تاريخ القصة في سنة ١٣٠هـ.

موت حبيبه، ولا الحميم في موت حميمه، فإن الجميع فقدوا الواحد الذي ليس غيره في الجميع، وكما يموت العزيز على أهل البيت فيكون الموت واحداً وتتعدد فيهم معانيه. كذلك كان موت الحسن موتاً بعدد أهل البصرة.

تلك هي الذكرى، وأما الرؤيا فقد طالعتني نفسي من وجه هذا الفتى، فأبصرتني حين كنت مثله يافعاً مترعرعاً داخلاً في عصر شبابي، فكأنما انتبهت عيني من هذه النفس على فاتك خبيث في جناياته في أغلاله في سجنه، ومات طويلاً ثم بُعِث.

إني مخبركم عني بما لم تحيطوا به، فارعوه أسماعكم، وأحضروه أفهامكم، واستجمعوا له، فإنه كان غيب شيخكم وأنا محدثكم به كيلا ييأس ضعيف ولا يقنط يائس، فإن رحمة الله قريب من المحسنين.

لقد كنت في صدر أيامي شرطياً، وكنت في آنفة الحداثة من قبلها أتفتى وأشتطر[1]، وكنت قوياً معصوباً في مثل جِبْلَةَ الجبل من غلظ وشدة، وكنت قاسياً كأن في أضلاعي جندلة[2] لا قلباً، فلا أتذمم ولا أتأثم وكنت مدمناً على الخمر لأنها روحانية من عجز أن تكون فيه الروحانية، وكأنها إلهية يُزَوِّرُها الشيطان – لعنه الله – فيخلق بها للنفس ما تحب مما تكره، ويثيبها ثواب الساعة ليست في الزمن بل في خيال شاربها. وكأن جهل العقل نفسه في بعض ساعات الحياة. هو – في علم الشيطان وتعليمه – معرفة العقل نفسه في الحياة.

فبينا أنا ذات يوم أجول في السوق، والناس يفورون في بيعهم وشرائهم وأنا أرقُبُ السارق، وأعد للجاني وأتهيأ للنزاع – إذ رأيت اثنين يتلاحيان[3] وقد لبب[4] أحدهما الآخر، فأخذت إليهما، فسمعت المظلوم يقول للظالم: لقد سلبتني فرح بناتي، فسيدعون الله عليك فلا تصيب من بعدها خيراً، فإني ما خرجت إلا اتباعاً لقول رسول ﷺ: «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً، فحمله إلى بيته، فخص به الإناث دون الذكور، نظر الله إليه».

---

(١) يتفتى: يسلك سلوك الفتيان والمراهقين، ويتشطر: من الشطر وهو ممارسة الأعمال الخبيثة والفجور.

(٢) جندلة: صخور صلبة تكون في مجرى النهر.

(٣) يتلاحيان: يتنازعان ويتخاصمان.

(٤) لبب: أخذه من تلابيبه أي مجامع ثوبه عند العنق في أثناء المشاجرة والعراك.

قال الشيخ: وكنت عزباً لا زوجة لي، ولكن الآدمية انتبهت فيّ، وطمعت في دعوة صالحة من البنيات المسكينات، إذا أنا فرحتهن، ودخلتني لهن رقة شديدة، فأخذت للرجل من غريمة حتى رضي، وأضعفت له من ذات يدي لأزيد في فرح بناته، وقلت له وهو ينصرف: عهد يحاسبك الله عليه، ويستوفيه لي منك أن تجعل بناتك يدعون لي إذا رأيت فرحهن بما تحمل إليهن، وقل لهن: مالك بن دينار.

وبت ليلتي أتقلّب مفكراً في قول رسول الله ﷺ ومعانيه الكثيرة، وحثه على إكرام البنات، وأن من أكرم بناته كَرُم على الله، وحِرصِه أن ينشأن كريمات فرحات، وحدثني هذا الحديث ليلتي تلك إلى الصبح، وفكرت حينئذ في الزواج، وعلمت أن الناس لا يزوجونني من طيباتهم ما دمت من الخبيثين، فلما أصبحت غدوت إلى سوق الجواري، فاشتريت جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع، وولدت لي بنتاً فَشُغِفتُ بها، وظهرت لي فيها الإنسانية الكبيرة التي ليست فيّ، فرأيت بُعدَ ما بيني وبين صورتي الأولى، ورأيتها سماوية لا تملك شيئاً وتملك أباها وأمها، وليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها وما أيسره، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تشب عليه أكثر ما تشب على الرضاع، فعلمت من ذلك أن الذي تكتنفه رحمة الله يملك بها دنيا نفسه، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره، وأن الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة، والذي لا يبالي الهم لا يبالي الهم به، وأن زينة الدنيا ومتاعها وغرورها وما تجلب من الهم — كل ذلك من صغر العقل في الإيمان حين يكبر العقل في العلم!

كانت البنية بدء حياة في بيتي وبدء حياة في نفسي، فلما دبت على الأرض ازددت لها حباً، وألِفَتْني وألِفتُها، فرُزِقَتْ روحي منها أطهر صداقة في صديق، تتجدد للقلب كل يوم، بل كل ساعة، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه، فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة، فلا تزيد الأشياء في المحبة ولا تنقص منها، على خلاف ما يكون في الأصدقاء بعضهم من بعض واختلافهم على المضرة والمنفعة.

قال الشيخ: وجهدت أن أترك الخمر فلم يأت لي ولم استطعه إذ كنت منهمكاً على شربها، ولكن حب ابنتي وضع في الخمر إثمها الذي وضعته فيها الشريعة، فكرهتها كرهاً شديداً وأصبحت كالمكره عليها، ولم تعد فيها نشوتها ولا رِيُّها، وكانت الصغيرة في تمزيق أخيلتها أبرع من الشيطان في هذه الأخيلة، وكأنما جرتني يدها جرا حتى أبعدتني عن المنزلة الخمرية التي كان الشيطان وضعني فيها، فانتقلت من

الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة إلى الندم والتحوب(١) والتأثم، وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر، وهممت به دبت ابنتي إلى مجلسي، فأنظر إليها وتنتشر عليها نفسي من رقة ورحمة، فأرقب ما تصنع، فتجيء فتجاذبني الكأس حتى تهرقها على ثوبي، وأراني لا أغضب، إذ كان هذا يسرها ويضحكها، فأسّر لها وأضحك.

ودام هذا مني ومنها، فأصبحت في المنزلة بين المنزلتين، أشرب مرة وأترك مراراً، وجعلت أستقيم على ذلك إذ كانت النشوة بابنتي أكبر من النشوة بالزجاجة، وإذ كنت كلما رجعت إلى نفسي وتدبرت أمري، أستعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يوماً فأكون قد نجست أيامها، ثم أتقدم إلى الله وعلي ذنوبها فوق ذنوبي ويترحم الناس على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء، فأكون قد وجدت في الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين.

ومضيت على ذلك وأنا بها أصلح شيئاً فشيئاً، وكلما كبرت كبرت فضيلتي فلما تم لها سنتان، ماتت!

قال الراوي: وسكت الشيخ، فعلقت به الأبصار، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم، وكأنما ماتت لحظات من الزمن لذكر موت الطفلة، وخامر المجلس مثل السكر بهذه الكأس المذهلة، ولكن الطفلة دبت من عالم الغيب كما كانت تصنع، وجذبت الكأس وأهرقتها، فانتبه الناس وصاحوا: ماتت فكان ماذا؟

قال الشيخ: فأكمدني الحزن عليها، ووهن جأشي(٢)، ولم يكن لي من قوة الروح والإيمان ما أتأسى به، فضاعف الجهل أحزاني، وجعل مصيبتي مصائب. ورجعت بجهلي إلى شر مما كنت فيه، وكانت أحزاني أفراح الشيطان وأراد — أخزاه الله — أن يفتنَّ في أساليب فرحه، فلما كنت ليلة النصف من شعبان — وكانت ليلة جمعة، وكانت كأول نور الفجر من أنوار رمضان — سوّل لي الشيطان أن أسكر سكرة ما مثلها، فبت كالميت مما ثملت، وقذفتني أحلام إلى أحلام، ثم رأيت القيامة والحشر، وقد ولدت القبور من فيها، وسيق الناس وأنا معهم، وليس وراء ما بي من الكرب غاية، وسمعت خلفي زفيراً كفحيح الأفعى، فالتفت فإذا بتنين عظيم ما يكون أعظم

---

(١) التحوب: الإثم.

(٢) وهن جأشي: ضعفت نفسي وخارت عزيمتي.

منه، طويل كالنخلة السحوق(١)، أسود أزرق، يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم، وفي فمه مثل الرماح من أنيابه، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض ما نبتت في الأرض خضراء، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمني. فمررت بين يديه هارباً فزعاً فإذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعفاً، فعذت به وقلت: أجرني وأغثني. فقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة. فوليت هارباً وأشرفت على النار وهي الهول الأكبر، فرجعت أشتد هرباً والتنين على أثري، ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى، فاستجرت به فبكى من الرحمة لي وقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن أهرب إلى هذا الجبل، فلعل الله يحدث أمراً.

فنظرت فإذا جبل كالدار العظيمة، له كوى(٢) عليها ستور، وهو يبرق كشعاع الجوهر، فأسرعت إليه والتنين من ورائي، فلما شارفت الجبل فتحت الكوى، ورفعت الستور، وأشرقت على وجوه أطفال كالأقمار، وقرب التنين مني، وصرت في هواء جوفه وهو يتضرّم عليّ، ولم يبق إلا أن يأخذني، فتصايح الأطفال جميعاً: يا فاطمة يا فاطمة هذا أبوك قد جاء.

قال الشيخ: فإذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت علي، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت. ثم وثبت كرمية السهم فجاءت بين يدي ومدت إلي شمالها فتعلقت بها، ومدت يمنيها إلى التنين فولى هارباً، وأجلستني وأنا كالميت من الخوف والفزع، وقعدت في حجري كما كانت تصنع في حياتها، وضربت بيدها في لحيتي وقالت: يا أبت... ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]

فبكيت وقلت: يا بنية، أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي، قالت: ذاك عملك السوء الخبيث، أنت قوَّيته حتى بلغ هذا الهول الهائل، والأعمال ترجع أجساماً كما رأيت. قلت: فذاك الشيخ الضعيف الذي استجرت به ولم يجرني؟ قالت: يا أبت ذاك عملك الصالح أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن له طاقة أن يغثيك من عملك السيء ولو لم أكن لك هنا، ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله ﷺ فيمن فرح

---

(١) النخلة السحوق: الطويلة.

(٢) كوى: جمع كوة وهي الخرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء.

بناته المسكينات الضعيفات - لما كانت لك هنا شمال تتعلق بها، ويمين تطرد عنك.

قال الشيخ: وانتبهت من نومي فزعاً ألعن ما أنا فيه، ولا أراني استقر، كأني طريدة عملي السيء، كلما هربت منه هربت به، وأين المهرب من الندم الذي كان نائماً في القلب واستيقظ للقلب؟

وأملت في رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر، وقلت في نفسي: إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمر ما ينبغي أن يستهان به، وصححت النية على التوبة لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف وأسمن عظامه، حتى إذا استجرت به أجارني ولم يقل: «أنا ضعيف كما ترى».

وسألت فدُلِلْتُ على أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري، سيد البقية من التابعين، وقيل لي: إنه جمعَ كل علم وفن إلى الزهد والورع والعبادة، وإن لسانه السحر، وإن شخصه المغناطيس، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره قرآناً يتنزل، وإن أمه كانت مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي، فترضعه أم سلمة تعلله بثديها فيدر عليه، فكانت بينه وبين بركة النبوة صلة.

وغدوت إلى المسجد والحسن في حلقته يقص ويتكلم، فجلست حيث انتهى بي المجلس، وما كان غير بعيد حتى عرتني نفضة كنفضة الحمى، إذ قرأ الشيخ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] فلو لفظتني الأرض من بطنها وانشق عني القبر بعد الموت ما رأيت الدنيا أعجب مما طالعتني في تلك الساعة، وأخذ الشيخ يفسر الآية، فصنع بي كلامه ما لو بعث نبي من أجلي خاصة لما صنع أكثر منه.

وكلام الحسن غير كلام الناس، وغير كلام العلماء، فإنه يتكلم من قلبه ومن روحه، ومن جهة لسانه، ناهيكم من رجل خاشع متصدع من خشية الله، لم يكن يُرى إلا وكأنه أسير أمروا بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده، رجل كان في الحياة لتتكلم الحياة بلسانه أصدق كلماتها.

قال الشيخ: ثم تبت على يد الحسن، وأخلصت في التوبة وصححتها، وعلمت من فعله وقوله أن حقيقة الدين هي كبرياء النفس على شرها وظلمها وشهواتها.

وحدثت الحسن يوماً حديث رؤياي، وما شُبِّه لي من عملي السيء، وعملي الصالح، فاستدمعت عيناه وقال: «إن البنت الطاهرة هي جهاد أبيها وأمها في هذه

الدنيا، كالجهاد في سبيل الله، وأنها فوز لهما في معركة الحياة، وحقها عليه أكبر من الحق في حرمتها وحرمة الإنسانية معاً، والأب الذي يكابد في إحسان تربيتها وتأديبها ورعايتها والصبر عليها، فإنما يقرض الله إحساناً وحناناً ورحمةً، فحقٌّ على الله أن يوفيه من مثله، وأن يُضْعِفَ له». وكما قال رسول الله ﷺ: «من كان له ابنةٌ فأدبها فأحسن تأديبها، وغذاها فأحسن غذاءها، وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه، كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة».

فهذه ثلاث لا بد منها معاً، ولا تجزئ واحدة عن واحدة في ثواب البنت: تربية عقلها تربية إحسان، وتربية جسمها تربية إحسان وإلطاف وتربية روحها تربية إحسان وإلطاف وإكرام.

قال الشيخ: والله أرحم أن تضيع عنده الرحمة، والله أكرم أن يضيع الإحسان عنده، والله أكرم...

وهنا صاح المؤذن: الله أكبر الله أكبر..

فتبسم الشيخ وقام إلى الصلاة.

[وحي القلم: ١/ ٢٢٩- ٢٤٥]

قصة زواج
وفلسفة مهر

قال رسول عبد الملك: ويحك (يا أبا محمد)(١) لكأن دمك والله من عدوك فهو يفور بك لتلج في العناد(٢) فتقتل، وكأني بك والله بين سَبْعَين قد فغرا عليك، هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ما تفر من حتف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخالبها.

ههنا هشام بن إسماعيل عامل أمير المؤمنين، إن دخلته الرحمة لك استوثق منك في الحديد، ورمى بك إلى دمشق، وهناك أمير المؤمنين، وما هو والله إلا أن يطعم

---

(١) هو سعيد بن المسيب بن أبي وهب المخزومي القرشي سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ ٧١٣م.

(٢) تلج في العناد: تلازمه وتأبى إن تنصرف عنه.

لحمك السيف يعض بك عض الحية في أنيابها السم، وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه، وبهذا الوجه مضرجاً بدمائه، وبهذه اللحية معفرة بترابها، وبهذا الرأس محتزاً في يد (أبي الزعيزعة) جلاد أمير المؤمنين، يلقيه من سيفه رمى الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه.

وأنت (يا سعيد) فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه: «لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسرّه، فالله يا أبا محمد، إني والله ما أغشك في النصيحة ولا أخدعك عن الرأي، ولا أنظر لك إلا خير ما أنظر لنفسي، وإن عبد الملك بن مروان من علمت، رجل قد عم الناس ترغيبه وترهيبه، فهو آخذك على ما تكره إن لم تأخذه أنت على ما يحب، وإنه والله يا أبا محمد، ما طلب إليك أمير المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك، رعاية لمنزلتك عنده، وإكباراً لحقك عليه، وما أرسلني أخطب إليك ابنتك لولي عهده إلا وهو يبتذل نفسه ابتذالاً ليصل بك رحمه ويوثق آصرته، وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبملكه ورعاً وزهادة فما أحوج أهل مدينة رسول الله أن ينتفعوا بك عنده، وأن يكونوا أصهار (الوليد) فيستدفعوا شراً ما بهم عنه غنى، ويجتلبوا خيراً ما بهم غنى عنه، ولست تدري ما يكون من مصادر الأمور ومواردها، وإنك والله إن نجحت في عنادك وأصررت أن تردني إليه خائباً، لتُهيجَنَّ قرم[1] سيوف الشام إلى هذه اللحوم، ولحمك يومئذ من أطيبها، ولأمير المؤمنين تارتان: لين وشدة، وأنا إليك رسول الأولى، فلا تجعلني رسول الثانية...

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأن الكلام لا يخلص إلى نفسه إلا بعد أن تساقط معانيه في الأرض، هيبة منه وفرقاً من إقدامها عليه، وقد لان رسول عبد الملك في دهائه حتى ظن عند نفسه أنه ساغ من الرجل مساغ الماء العذب في الحلق الظامئ، واشتد في وعيده حتى ما يشك أنه قد سقاه ماء حميماً فقطع أمعاءه، والرجل في كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض، وقلّب الرسول نظره في وجه الشيخ، فإذا هو ليس فيه معنى رغبة ولا رهبة، كأن لم يجعل له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالة، ولم يملأ الجو سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى، وأيقن أنه من الشيخ العظيم

---

(١) قرم السيف: شهوته إلى الضرب والقتال.

كالصبي الغر قد رأى الطائر في أعلى الشجرة فطمع فيه، فجاء من تحتها يناديه: أن انزل إليّ حتى آخذك وألعب بك...

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال: يا هذا، أما أنا فقد سمعت، وأما أنت فقد رأيت، وقد روينا أن هذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فانظر ما جئتني أنت به، وقسه إلى هذه الدنيا كلها، فكم - رحمك الله - تكون قد قسمت لي من جناح البعوضة..؟ ولقد دعيت من قبل إلى نيف وثلاثين ألفاً لآخذها، فقلت: لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان. حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم، وها أنذا اليوم أدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها، أفأقبض يدي عن جمرة ثم أمدها لأملاها جمراً؟ لا والله ما رغب عبد الملك لابنه في ابنتي، ولكنه رجل من سياسته إلصاق الحاجة بالناس ليجعلها مقادة لهم فيصْرِّفَهُم بها، وقد أعجزه أن أبايعه، لأن رسول الله ﷺ نهى عن بيعتين، وما عبد الملك عندنا إلا باطل كابن الزبير، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك، فانظر فإنك ما جئت لابنتي وابنه، ولكن جئت تخطبني أنا لبيعته. قال الرسول: أيها الشيخ، دع عنك البيعة وحديثها، ولكن من عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذي ساقه الله إليك؟ إنك لراع وإنها لرعية وستسأل عنها، وما كان الظن بك أن تسيء رعيتها وتبخس حقها، وأن تعضلها(١) وقد خطبها فارس بني مروان، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليد أبن أمير المؤمنين، وأدنى الثلاث أرفع الشرف فكيف بهن جميعاً، وهن جميعاً في الوليد؟

قال الشيخ: أما إني مسؤول عن ابنتي، فما رغبت عن صاحبك إلا لأني مسؤول عن ابنتي، وقد علمت أنت أن الله يسالني عنها في يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشها ودعارها(٢) وفجارها. يخرجون من حساب الفجرة إلى حساب القتلة، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغضب، إلى حساب أهل البغي، إلى حساب التفريط في حقوق المسلمين. ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها في زحام الحشر، ويمشي أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب

(١) تعضلها: تمنعها التزوج ظلماً.

(٢) الأوباش: الأخلاط من الناس والسفلة مفردها وبش، والداعر: الفاسد الخبيث.

وحقوق العباد.

فهذا ما نظرت في حسن الرعاية لابنتي، لو لم أضن بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقت(١). لا والله ما بيني وبينكم عمل، وقد فرغت مما على الأرض فلا يمر السيف مني في لحم حي.

* * *

ولما كان غداة غد جلس في حلقته في مسجد رسول الله (للحديث والتأويل). فسأل رجل من عرض المجلس، فقال: يا أبا محمد، إن رجلاً يلاحيني(٢) في صداق بنته ويكلفني ما لا أطيق. فما أكثر ما بلغ إليه صداق أزواج رسول الله ﷺ وصداق بناته؟

قال الشيخ روّينا أن عمر (رضي الله عنه) كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول: «ما تزوج رسول الله ﷺ، ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم»، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ.

وروينا عنه ﷺ أنه قال: خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً.

فصاح السائل: يرحمك الله يا أبا محمد، كيف يأتي أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر، وحسنها هو يغليها على الناس، تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها؟

قال الشيخ: انظر كيف قلت أهم يساومون في بهيمة لا تعقل وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بضاعة من مطامع مع صاحبها يغليها على مطامع الناس؟ إنما أراد رسول الله ﷺ أن خير النساء من كانت على جمال وجهها، في أخلاق كجمال وجهها، وكان عقلها جمالاً ثالثاً؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء، يسّرت عليه، ثم يسرت عليه، ثم يسرت عليه، إذ تعد نفسها إنساناً يريد إنساناً لا متاعاً يطلب شارياً، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها، أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها، أي لحمقها؟ وهي بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن.

ولقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان

---

(١) أوبقت: هلكت.

(٢) يلاحيني: ينازعني ويخاصمني.

الأثاث: رحى(١) يد، وجرة ماء، ووسادة من أدم حشوها ليف، وأولم على بعض نسائه بمدَّين من شعير، وعلى الأخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق(٢). وما كان به ﷺ الفقر، ولكنه يشرع بسنته ليعلم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفس لنفس، لا متاع لشاريه، والمتاع يقوم بما بذل فيه إن غالياً وإن رخيصاً، ولكن يقومُ عند المرأة بما يكون منه، فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تُحمل إلى داره ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره، مهرها معاملتها، تأخذ منه يوماً فيوماً، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجلها ما دامت في معاشرتها. أما ذلك الصداق من الذهب والفضة، فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس، أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى أفلا ترى هذه الغالية – إن لم تجد النفس في رجلها – قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟

فصاح رجل في المجلس أيها الشيخ أفي هذا من دليل أو أثر؟

قال الشيخ: نعم، أما من كتاب الله فقد قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]. فهي زوجة حين تجده هو لا حين تجد ماله، وهي زوجةٌ حين تتممه لا حين تنقصه، وحين تلائمه لا حين تختلف عليه، فمصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها، فيكونان كالنفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه يريد من جسمه الحياة لا غيرها.

وأما من كلام رسول الله ﷺ فقد رُوِّينا: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

فقد اشترط الدين، على أن يكون مَرْضِياً لا أيَّ الدين كان، ثم اشترط الأمانة، وهي مظهر الدين كله بجميع حسناته، وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً، وعلى حقوقها أميناً، وفي معاملتها أميناً، فلا يبخسها ولا يعنتها، ولا يسيء إليها، لأن كل

---

(١) الرحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب (محور).

(٢) السويق: طعام يتخذ في دقيق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق.

ذلك ثلم[1] في أمانته، فإن ردت المرأة من هذه حاله وصفته من أجل المهر – تقدم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته، فوقعت الفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هو بها، وفسد النسل بهما جميعاً، وهلاك الناس إنما يقضي بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعيوبهم وذنوبهم. فهذا هو الإنسان المدبر عن الله وعن نفسه وعن جنسه، لا يكون أبوه أبا في عطفه، ولا أمه أماً في محبتها، ولا ابنه ابنا في بره، ولا زوجته زوجة في وفائها، وإنما يكونون له مهاليك، كما روينا عن رسول الله ﷺ: يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك.

وصاح المؤذن، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة، ثم خرج إلى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره، قالت: يا أبت كنت أتلو الساعة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. فما حسنة الدنيا، قال: يا بنية، هي التي تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة، ولا للمرأة...

وطُرق الباب، فذهب الشيخ يفتح، فإذا الطارق (عبد الله بن أبي وداعة) وكان يجالسه ويأخذ عنه، ويلزم حلقته، ولكنه فقده أياماً، فدخل فجلس. قال الشيخ: «أين كنت»؟

قال: «توفيت أهلي فاشتغلت بها»

قال الشيخ: «هلا أخبرتنا فشهدناها». ثم أخذ يفيض في الكلام عن الدنيا والآخرة، وشعر ابن وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ، فأراد أن يقوم، فقال (سعيد):

«هل استحدثت امرأة غيرها»؟

قال: «يرحمك الله، أين نحن من الدنيا اليوم، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة»؟

قال الشيخ: «أنا»...

أنا، أنا، أنا... دوّى الجو بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير، فحسب كأن

(١) الثلم: الشق في الجدار أو في الإناء، والتعبير هنا مجازي.

الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح لله يطن لحنه: «أنا، أنا، أنا...»

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد، وكأنها كلمة زوّجَتْه إحدى الحور العين. فلما أفاق من غشية أذنه... قال: «وتفعل؟».

قال (سعيد): «نعم» وفسر (نعم) بأحسن تفسيرها وأبلغه، فقال: قم فادع لي نفراً من الأنصار فلما جاؤوا حمد الله وصلى على النبي ﷺ وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً).

ثلاثة دراهم مهر الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولي عهده بثقلها ذهباً لو شاءت. وغشى الفرح هذه المرة عيني الرجل وأذنيه، فإذا هو يسمع نشيد الملائكة يطن لحنه: «أنا، أنا، أنا...» ولم يشعر أنه على الأرض فقام يطير، وليس يدري من فرحه ما يصنع، وكأنه في يوم جاءه من غير هذه الدنيا، يتعرف إليها بهذا الصوت الذي لا يزال يطن في أذنه «أنا، أنا، أنا...».

وصار إلى منزله وجعل يفكر: ممن يأخذ، ممن يستدين؟ فظهرت له الأرض خلاء من الإنسان، وليس فيها إلا الرجل الواحد الذي يضطرب صوته في أذنيه: «أنا، أنا، أنا...».

وصلى المغرب وكان صائماً، ثم قام فأسرج، فإذا سراجه الخافت الضئيل يسطع لعينيه سطوع القمر، وكأن في نوره وجه عروس تقول له: «أنا، أنا، أنا....» وقدم عشاءه ليفطر، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا الباب يقرع قال: من هذا؟ قال الطارق: سعيد....

سعيد؟ سعيد؟ من سعيد؟ أهو أبو عثمان، أبو علي، أبو الحسن؟ فكر الرجل في كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، إلا الذي قال له: أنا،... لم يخالجه أن يكون هو الطارق، فإن هذا الإمام لم يطرق باب أحد قط، ولم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد.

ثم خرج إليه، فإذا به سعيد بن المسيب، فلم تأخذه عينه حتى رجع القبر فهبط فجأة بظلامه وأمواته في قلب المسكين. وظن أن الشيخ قد بدا له[1] فندم، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر، ويتعذر إصلاح الغلطة فقال: «يا أبا محمد، لو، لو، لو

(١) بدا له: جدّ له رأي جديد، أو تراجع عن رأيه.

أرسلت إلي لأتيتك».

قال الشيخ: «لأنت أحق أن تؤتى».

فلما صكت[1] الكلمة سمع المسكين حتى أبلس[2] الوجود في نظره، وغشى الدنيا صمت كصمت الموت، وأحس كأن القبر يتمدد في قلبه بعروق الأرض كلها ثم فاء لنفسه، وقدر أن ليس محل شيخه إلا أن يأمر، وليس محله هو إلا أن يطيع وأن من الرجولة ألا يكون معرة على الرجولة، ثم نكس وتنكس وقال بذلة ومسكنه: «ما تأمرني؟» تفتحت السماء مرة ثالثة، وقال الشيخ: «إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهتُ أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك» وانحرف شيئاً، فإذا العروس قائمة خلفة مستترة به ودفعها إلى الباب وسلّم وانصرف.

ودخلت العروس الباب وسقطت من الحياء، فتركها الرجل مكانها، واستوثق من بابه، خطا إلى القصعة[3] التي فيها الخبز والزيت، فوضعها في ظل السراج كي لا تراها، وأغمض السراج عينيه ونشر الظل...

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيران بحصيات، ليعلموا أن له شأناً اعتراه، وأن قد وجب حق الجار على الجار (وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس الهاتف اليوم) فجاؤوه على سطوحهم وقالوا: «ما شأنك؟» قال: «ويحكم زوجني سعيد ابن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة».

قالوا: «وسعيد زوّجك! أهو سعيد الذي زوّجك! أزوّجك سعيد؟».

قال: «نعم».

قالوا: «وهي في الدار»؟ أتقول إنها في الدار؟

قال: «نعم».

فانثال[4] النساء عليه من هنا وههنا حتى أمتلأت بهن الدار. وغشيت الرجل غشية أخرى، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان.

---

(١) صكت سمعه: اضطراب.

(٢) أبلس: سكت الحيرة أو انقطاع حجة.

(٣) القصعة: وعاء يؤكل فيه. وكان يتخذ من الخشب غالباً. جمعها قِصاع وقِصع وقصعات.

(٤) انثال: انصب وانهال، ويقال: انثال عليه الناس: اجتمعوه وأتوه من كل ناحية.

قال عبد الله بن أبي وداعة: «ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج. لقد كانت المسألة المعضلة تعي الفقهاء فأسالها عنها فأجد عندها منها علماً».

[وحي القلم: ١١٣- ١٢٣]

ولا تتبعوا خطوات الشيطان
(قصة برصيصا الراهب)

روى وهب بن منبه هذه القصة فقال: إن عابداً كان في بني إسرائيل يدعى برصيصا الراهب، وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة أخوة لهم أخت، وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها، فخرج البعث على ثلاثتهم، فلم يدروا عند من يتركون أختهم، ولا من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها، قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند برصيصا الراهب، وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده، فتكون في كنفه وجوراه إلى أن يرجعوا من غزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوذ بالله منهم ومن أختهم، فلم يزالوا به حتى أطاعهم، فقال: أنزلوها في بيت بجانب صومعتي. فأنزلوها في ذلك البيت. ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة، ثم يأمرها فتخرج من بيتها، فتأخذ الطعام، فتلطف له الشيطان، فلم يزل يرغبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيتَ أنتَ بالطعام حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً. فاستصوب الرأي وأخذ يمشي إليها بطعامها، ويضعه على باب بيتها ولم يكلمها، فلبث على هذه الحالة زماناً، ثم جاءه إبليس فرغّبه بالخير والأجر وحضه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه داخل بيتها كان أعظم لأجرك. فلم يزل به حتى صار يمشي إليها بالطعام ثم يضعه في بيتها. فلبث على ذلك زماناً. ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وحضه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك

وتحدثها، وتقعد هي على باب بيتها فتحدثها كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها. فلبثا زماناً يتحدثان. ثم جاءه إبليس، فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت معها فجعل يحدثها نهارها كله، فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب برصيصا على فخذها وقَبْلها. فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسوّل له حتى وقع عليها، فأحبلها فولدت له غلاماً، فجاءه إبليس فقال: أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة أخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل، فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعتَ بها وقتلتَ ابنها، خذها واذبحها وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها، وأطبق عليهما صخرة وسوى عليهما، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاؤوا فسألوه عنها، فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها، وقال: كانت خير امرأة، وهذا قبرها، فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر. فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً، ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم، جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان. وقال: لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم، وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطلقوا فادْخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً. وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل ذلك. فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيت الليلة عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى.

فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم، قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى أتو البيت

الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة، كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما. فاستَعْدَوا عليه ملكهم فأُنزل من صومعته وقُدِّم ليصلب، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان، فقال له: قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحت ابنها، فإن أنت أطعتني اليوم، وكفرت بالله الذي خلقك وصوّرك خلصتك مما أنت فيه، فكفر العابد، فلما كفر بالله تعالى، خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فقال إني بريء منك فصلبوه.

تذكر هذه القصة عادة عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]

[تلبيس إبليس: ٢٧- ٣٠]

بقرة بني إسرائيل

كان رجل من بني إسرائيل طاعناً في السن، وكان غنياً ولم يكن له ولد، وكان له قريب هو ابن أخيه، وكان وارثه الوحيد، فقتله ليرثه ثم ألقى جثته في بلد آخر واتهمهم بقتله، وأتى موسى عليه السلام فقال له: إن قريبي فلان قد قُتل، وإني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا نبي الله. فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده علم إلا بينه لنا، فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام فقال له: أنت نبي الله فسل لنا ربك يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] فعجبوا من ذلك فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] يعني: لا هرمة ولا صغيرة بل وسط بين البكر والهرمة. فزادوا في المماحكة(١) والعناد والمماطلة ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ

(١) المماحكة: التمادي في المساومة والمخاصمة.

﴿لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٦٩- ٧١] أي: لم يذللها العمل وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، ومسلمة أي خالية من العيوب، لا شية فيها: أي لا بياض فيها ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. أي كادوا أن لا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا ألا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

ولو أن القوم حين أُمروا بذبح بقرة استعرضوا أيّة بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت وكانت أوفى بالغرض، ولكنه التعنت والمماطلة في تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى فشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

وشاءت إرادة الله أن يتم ذلك لخدمة قضية إيمانية أخرى. فقد اتفق أنه كان في تلك الأيام شاب صالح من بني إسرائيل وليس له أحد من الأقارب إلا والدته، وقد توفي والده وهو صغير. ولما شب الغلام وصار في سن العمل، أخذ يحتطب ويجمع الحطب كل يوم ويجعله أكواماً ثلاثة، يبيع الكوم الأول ويتصدق بالكوم الثاني على الضعفاء والعجزة، ويستخدم الكوم الثالث للتدفئة والطهي. وفي الليل يخدم أمه العجوز في الثلث الأول منه، ويعبد ربه في الثلث الثاني، وينام في الثلث الثالث. وهكذا... فنهاره أثلاث وليله أثلاث.

ثمّ مرت سنين وضاقت به الحال. فقال لأمه يستشيرها: لقد ضاقت بنا الحال يا أمي فما العمل؟ قالت: يا بني ما زلت أذكر أن أباك كانت عنده بقرة جميلة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، فقال: يا أماه وأين أبي الآن وأين بقرته؟ فقالت: يا بني: إن أباك قبل أن يموت أخذ البقرة إلى الجبل الفلاني ولمّا صار بها على رأس الجبل، دعا ربه قائلاً: يا رب هذه البقرة وديعة عندك ريثما يكبر ولدي فلان، فيا بني: أبوك توكل على الله فأودع، وأنت توكل على الله فاسترد. فقال: وكيف أسترد يا أمي؟ قالت: أذهب إلى الجبل نفسه الذي أودع عنده أبوك البقرة وادعو بقلب خاشع وقل: اللهم رب إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ورب العرش العظيم، يا قيوم السماوات

والأرض، إن أبي قد استودع عندك بقرة، اللهم إني قد كبرت هذا أوان الحاجة إليها. اللهم رد عليّ وديعة والدي. ففعل كما أشارت عليه أمه فجاءته البقرة طائعة، بذات المواصفات التي ذكرتها والدته، ففرح بها أيما فرح وبلغ غاية السرور، وعاد بها إلى بيته، وأخذ يعتني بها ويطعمها ويسقيها ويحلبها.

ومرت أيام وإذا بالقوم يبحثون عن بقرة يكشفون بها سر القتيل. فرأوها مع الغلام فقالوا: هذه هي والله البقرة التي وصفها موسى. فاستاموها[1] من الغلام، ولكن الغلام استشار أمه في بيعها، فقالت: كم يدفعون؟ فقالوا: بقرة ببقرة، فأبت، فأعطوه ثنتين فأبت، فزادوه حتى بلغت عشراً وفي كل مرة يستشير أمه فتأبى وتطلب الزيادة، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبت. واستمرت المساومات وقتاً طويلاً والأم تطلب المزيد حتى اتفقوا على ملء جلدها ذهباً. فأمرهم موسى عليه السلام بذبح البقرة ثم استخلاص فقار ظهرها، ثم ضرب قبر الميت به فضربوه به فأحياه الله بإذنه وقام من قبره، فسأله موسى عن قاتله، فأشار إلى ابن أخيه، فأمسكوا به فقتلوه. فأنزل الله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧١- ٧٣]

[أنظر: المجالس السنية:]

بنت أوس بن حارثة الطائي

بين عبس وذبيان

قال سيد العرب الحارث بن عوف المرّي لمن حوله: أترونني أخطب إلى أحد فيردني؟ قيل: نعم. قال: ومن ذاك؟ فقيل له: أوس بن حارثة الطائي، فقال الحارث لغلامه: ارحل بنا إليه. فركبا ومعهما خارجة بن سنان حتى أتوا أوساً في بلاده فألفوه في منزله. فلما رأى الحارث قال: مرحبا بك يا حارث! قال: وبك. قال: وما جاء بك؟ قال: جئتك خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف الحارث ولم يكلمه. ودخل أوس على أمرأته مغضباً فقالت: من الرجل الذي وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه؟

(١) استاموها: من المساومة، أي فاوضوا صاحبها على الثمن.

مكتبة الرمحي أحمد

قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف المري. قالت: فما بالك لا تستنزله؟ قال: أنه استحمق، قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً. قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم. قالت: فإذا لم تزَّوج سيِّد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما قد كان منك. قال: بماذا؟ قالت: تلحقه فترده قال: وكيف وقد فرط ما فرط إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب إلا ما قد سمعت. فانصرف ولك عندي كل ما أحببت، فإنه سيفعل، فركب في أثرهما.

قال خارجة: فوالله لأسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته. فأقبلت على الحارث وما يكلمني غماً. فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا. قال: وما نصنع به؟ امض. فلما رآنا لا نقف عليه. قال: يا حارث اربع(١) عليّ ساعة! فوقفنا له، فكلمنا بذلك الكلام فرجع مسروراً. وزوج أوس بنته من الحارث بن عوف.

حتى إذا حملت العروس الجميلة إلى زوجها وبلغ بها حماه، كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، قد عصفت هو جاؤها بهم، واشتدت نارها فيهم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وهمّ من يليهم من العرب بأن يكتووا بضرامها، ويصطلوا بلظاها.

فلما بَصُرَت الزوجة به مرتدياً مطارف العرس(٢)، قالت: والله لقد ذُكرتَ من الشرف ما أراه فيك! وقال: وكيف؟ قالت: أَتَفْرُغُ للنساء والعرب يقتِّل بعضها بعضاً؟ قال: فيكون ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، فخرج لساعته إلى صاحبه خارجة بن سنان وقص عليه حديث امرأته. فقال خارجة: والله إني لأرى همة وعقلاً ولقد قالت قولاً. قال: فاخرج بنا إليهم. فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح واحتملا حمائل القوم وديات قتلاهم فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين..

[صيد القلم: ١٤٣]

---

(١) أربع: أقم، قف بالمكان الذي أنت فيه. تمكث وانتظر.

(٢) مطارف العرس: أثواب أو أردية من خز مربعة ذات أعلام.

حيلة وذكاء في الإصلاح بين الخليفة وزوجته

كان عبد الملك بن مروان من أشد الناس حباً لامرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز، فغضبت عليه – يعني على عبد الملك – وكان بينهما باب فحجبته وأغلقت ذلك الباب، فشق على عبد الملك فشكا إلى خاصته، فقال له عمر بن بلال الأسدي: مالي عندك إن رَضِيَتْ؟ قال: حكمك، قال: فأتى عمر بن بلال بابها باكياً، فخرجت إليه حاضنتها ومواليها وجواريها، فقلن: مالك؟ فقال: فزعت إلى عاتكة ورجوتها، فقد علمت مكاني من أمير المؤمنين معاوية ومن يزيد بعده، فقلن: مالك؟ قال: كان لي ابنان لم يكن لي غيرهما فقتل أحدهما صاحبه، فقال أمير المؤمنين: أنا قاتل الآخر، فقلت: أنا الولي وقد عفوت.

فقال: لا أُعَوِّدُ الناس هذه العادة. ورجوت الله تعالى أن يحيا ابني هذا، فدخلن عليها فذكرن لها ذلك، فقالت: فما أصنع من غضبي عليه، وما أظهرت له؟ فقلن: إذاً والله يقتل ابنه. فلم يزلن بها حتى دعت بثيابها فلبستها، ثم خرجت إليه من الباب، فأقبل خديج الخادم، فقال: يا أمير المؤمنين عاتكة قد أقبلت، فقال: ويلك ما تقول؟ قال: قد والله طلعت.

فأقبلت فسلمت فلم يرد، فقالت: أما – والله – لولا عمر بن بلال ما جئت قط، فلا بد أن تهب لي ابنه، فإنه الولي وقد عفا. قال: إني أكره أن أعوِّد الناس هذه العادة. فقالت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين. فقد عرفتَ مكانه من أمير المؤمنين ومن معاوية ومن يزيد.

فلم تزل به حتى أخذت رجله فقبلتها، فقال: هو لك، فلم يبرحا حتى اصطلحا.

ثم راح عمر بن بلال إلى عبد الملك، فقال له: رأينا ذلك الأمر، سل حاجتك؟ قال: مزرعة بعبيدها وما فيها، وألف دينار، وفرائض لولدي وأهل بيتي، وإلحاق عمالي.

قال: ذلك لك.

[عيون الأخبار: ٢/ ٢٣]

فتنة الدنيا

النبي عيسى وآكل الرغيف الثالث

روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب له في بعض سياحاته، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى عليه السلام لصاحبه: انطلق فاطلب

لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به. فذهب الرجل وقام عيسى عليه السلام يصلي فجاء بثلاثة أرغفة. فقعد ينتظر انصراف عيسى عليه السلام من الصلاة فأبطأ عليه، فأكل رغيفاً، وكان عيسى عليه السلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة الثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين، فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما. ثم مرا على وجهيهما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام واحداً منها. فجاءه فذكاه[1] وأكلا منه. فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. ثم مرا على وجهيهما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطلق له من يخبره عن حال هذه القرية. فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد. وصاحبه يتعجب مما رأى فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين. فمرا على وجهيهما حتى انتهيا إلى نهر عجاج. فأخذ عيسى عليه السلام بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوز النهر، فقال الرجل: سبحان الله. فقال عيسى عليه السلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين، فمرا على وجهيهما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها: كوني ذهباً بإذن الله. فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال فقال عيسى عليه السلام: نعم واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث، فقال عيسى عليه السلام: هي لك كلها، ثم فارقه عيسى وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه. فمر به ثلاثة نفر فقتلوه. فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام. فانطلق فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر: نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء، وقال أجعل لهما في الطعام سماً فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام، فماتا، فمر بهم عيسى عليه السلام وهم مصرعون حولها فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

[صيد القلم: ٤٥٠]

---

(١) ذكاه: ذبحه.

الأمان العفوي
(بين عمر بن الخطاب والهرمزان)

حدَّث محمد بن سعد قال: كان الهرمزان من أهل فارس، فلما انقضى أمر جلولاء(١) خرج يزد جرد من حلوان إلى أصبهان، ثم أتى أصطخر، ووجَّهَهُ الهرمزان إلى بلدة تستر، فضبطها وتحصن في القلعة، وحاصرهم أبو موسى، ثم نزل أهل القلعة على حكم عمر، فبعث أبو موسى بالهرمزان ومعه إثنا عشر أسيراً من العجم عليهم الديباج ومناطق(٢) الذهب وأسورة الذهب، فقدم بهم المدينة في زيهم ذلك، يجعل الناس يعجبون، فأتوا بهم منزل عمر، فلم يجدوه فجعلوا يطلبونه، فقال الهرمزان – بالفارسية -: قد ضل مِلككم، فقيل لهم: هو في المسجد، فدخلوا فوجوده نائماً متوسداً رداءه، فقال الهرمزان: أهذا ملككم؟ قالوا: هذا الخليفة. قال: أماله حاجب ولا حارس؟ قالوا: الله حارسه حتى يأتي عليه أجله. فقال الهرمزان: هذا والله الملك الهني، فقال عمر: الحمد لله الذي أذل هذا وشيعته بالإسلام، واستسقى الهرمزان، فقال عمر: لا نجمع عليك القتل والعطش، فدعا له بماء، فأمسك بيده واضطرب، فقال عمر: اشرب لا بأس عليك إني غير قاتلك حتى تشربه، فرمى بالإناء من يده، فأمر عمر بقتله، فقال: أولم تؤمنِّي؟ قال: وكيف؟ قال: قلت لي لا بأس عليك، فقال الزبير وأنس وأبو سعيد: صدق. فقال عمر: قاتله الله أخذ أماناً ولا أشعر، قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فقال له عمر: ويحك، أسلمت خير إسلام فما أخّرك؟ قال: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال: إن إسلامي إنما كان جزعاً من الموت، فقال عمر: إن لفارس حلوماً(٣) بها استحقت ما كانت فيه من الملك.

ثم كان عمر يشاوره بعد ذلك في خراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه.

[الطبقات الكبرى: ٥/ ٩٥]

---

(١) جلولاء: مدينة بالعراق شرقي بغداد، وقعت فيها معركة بين المسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب سنة ١٦هـ كتب الله فيها النصر للمسلمين وأسر من الفرس عدد كبير منهم الهرمزان.

(٢) المنطقة: الحزام العريض يجعل فيه النقود.

(٣) حلوماً: عقولاً.

أبدلك الله بها أربعين عاماً

صعد رجل إلى قمة جبل عال، يتأمل الطبيعة وما أبدعه الخالق سبحانه وتعالى، وبينما هو في تأمله غارق في أفكاره وخيالاته إذ جاءه ملك الموت، فارتاب منه واضطرب، وسأله عن سبب مجيئه إليه، ومتى يحين موعد أجله؟ فأجابه ملك الموت: ينتهي أجلك بعد شهرين فأقبض روحك وتغادر الدنيا إلى غير رجعة!! فخاف الرجل وازداد اضطرابه، ولكنه سأله: كيف ستكون نهايتي؟ فقال: تختصم أنت وأخوك على أرض تختلفان في قسمتها، ويطلب كل منكما بحصة أكبر من حصة أخيه، فيدور بينكما جدال حاد لا يلبث أن يتحول إلى عراك بالأيدي، فيخطف أخوك حجراً من الأرض ويضربك به فتموت، وأكون أنا حاضراً الموقف، فأستل روحك على الفور، وبذلك ينتهي أجلك.. وتركه وانطلق.

فعاد الرجل إلى بيته مهموماً حزيناً مضطرباً، فسألته زوجته عن سر حزنه وهمومه واضطرابه، فقص عليها قصته مع ملك الموت، وأوصاها وأوصى أولاده بالعمل الصالح وتقوى الله وعدم إيذاء الناس والجيران... وزوجته تهدئ من روعه وتقول له: أنت واهم يا زوجي العزيز، لا يعلم الأجل إلا الله، والذي رأيته على قمة الجبل ليس ملك الموت كما تتوهم، إنما هي خيالات يتخيلها كل من يتأمل وحده على رؤوس الجبال...

ولكن الرجل بقي يصارع همومه وأحزانه التي تزداد وتتضاعف كلما اقترب الموعد، وفي يوم من الأيام بعد انقضاء الشهرين جاءه أحد أبناء أخيه وقال له: يا عمي، إن أبي يدعوك لقسمة الأرض بينكما، وهو بانتظارك مع أخوتي الكبار في موقع الأرض، فانهارت قواه، وأيقن أن نهايته قد حانت، وأن بينه وبين الموت ساعة أو بعض ساعة، فودّع أهله حزيناً مهموماً قلقاً، ومشى متثاقلاً يخط برجليه على الأرض إلى حيث ينتظره أخوه الشرس صانع الموت. فلما وصل إلى حيث ينتظرون سلم عليهم ثم قال: ماذا يا أخي؟!

قال: نريد أن نقتسم الأرض بيننا، فالأولاد كبروا ولا بد أن يستغلوا الأرض ويستثمروها، وليس من المقبول أن تبقى الأرض مشاعاً بيننا ولا يعرف أحدنا حصته منها!!

قال: لا بأس يا أخي، هيا اقسم.

قال: لا، اقسم أنت.

قال: نعم، سأفعل، ثم سار خطوات حتى وقف في منتصف الأرض التي يملكانها، وقال: من هنا إلى هناك من جهة اليمين هذه حصتك أنت وأولادك، ومن هنا إلى هناك من جهة الشمال تلك حصة أولادي.

فصاح أخوه الشرس: لا، ما أنصفت، أولادي أكثر من أولادك، ولا بد أن تكون حصتنا أكبر من حصتك!!

فقال الرجل: هوِّن عليك يا أخي ولا تغضب سأزيد لك ولأولادك من حصتي أربعين متراً.

قال: أما الآن فنعم.

فقال: أتأمر بشيء آخر؟

قال: لا

وغادر الرجل وهو يلتفت خلفه لخشيته من أن يضربه أخوه بحجر من خلفه، ولكنه وصل بيته بسلام. وفي اليوم التالي صعد إلى الجبل الذي قابل عليه ملك الموت في المرة الأولى، فجاءة ملك الموت، فقال الرجل: أين ما تزعم؟ ها قد اقتسمنا الأرض أنا وأخي وتراضينا ولم نختلف أو نتعارك، ولم يضربني بحجر كما قلت ولم أمت، وها أناحي أكلمك؟ فقال ملك الموت: نعم. أنا كنت حاضراً، وانظر في تصرفك الحكيم المتعقل، وقد أعطيت أخاك أربعين متراً إضافية، فأبدلك الله بها أربعين عاماً زيادة في أجلك!

[هذه القصة من قصص الخيال، ولكنها تفيد الساعين في إصلاح ذات البين وتذكير الخصم العنيد بالحدث، وقصر الأجل فلعله يتواضع ويتنازل عن بعض شروطه في الصلح أو القسمة].

بين حضارتين
صورة أوروبا في القرون الوسطى

جاء في التاريخ العام للافيس ورامبوا ما يلي:

كانت إنجلترا الأنجلو سكسونية في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد القرن العاشر فقيرة في أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها، سمجة وحشية، تبني البيوت بحجر غير منحوت، وتشيدها من تراب مدقوق، وتجعلها في وطاء من الأرض، مساكن ضيقة المنافذ، غير محكمة الإغلاق، وإصطبلات وحظائر لا نوافذ لها،

تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي السائمة[1] وهي المورد الوحيد في البلاد، ولم يكن الناس أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات، يعيش رئيس القبيلة في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانون[2] ينبعث دخانه من ثقب فُتح في السقف فتحاً غليظاً، ويأكلون كلهم على خوان[3] واحد، يجلس السيد وقرينته في أحد أطراف المائدة، ولم تكن الشوكات معروفة، وللأقداح حروف من أسفلها، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه، أو يفرغه في فيه دفعة واحدة، وينتقل السيد إلى غرفته في المساء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب، ثم ترفع المنضدة والصقالات[4]، وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الأرض أو على دكك، واضعاً كل فرد سلاحه فوق رأسه، لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة..

وكانت أوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة، متأخرة في زراعتها، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن[5] روائح قتالة، تجتاح الناس وتحصدهم. وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب (كبيوت القرى عندنا منذ نصف قرن) ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفأة، وكانت البسط مجهولة عندهم، ولا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون النظافة، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم، فتتصاعد منها روائح مزعجة، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وكثيراً ماكانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف، يجعل مخدة أو وسادة، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح، ولم تكن أكبر مدينة في

---

(١) السائمة: التي ترعى في المراعي.

(٢) كانون: موقد يستخدم فيه الفحم للتدفئة في الشتاء.

(٣) الخوان: ما يؤكل عليه.

(٤) الصقالات: وتلفظ بالسين وهي ما يربطه المهندسون والبناؤون من الأخشاب والحبال ليتوصلوا به إلى الأماكن المرتفعة (إيطالية)

(٥) أرباض المدن: ما حولها.

أوروبا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفاً من السكان.

هكذا كان الغرب في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر فما بعده، باعتراف مؤرخيهم أنفسهم.

لهذا كتب الملك جورج الثاني ملك إنجلترا رسالة إلى الخليفة هشام الثالث قدم بها بعثة من الطالبات الإنجليزيات، وجعل ابنة أخيه الأميرة «دوبانت» أميرة عليها. وهذا نص الرسالة:

من جورج الثاني ملك إنجلترا، والغال «فرنسا» والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام:

بعد التعظيم والتوقير: فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بداية حسنة في اقتناء أثر منه لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وهن من لون اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الكريم، أرجو التفضل بقبولها مع التعظيم، والحب الخالص.

من خادمكم المطيع
جورج الثاني

وكان الردّ الذي بعث به الخليفة هشام إلى ملك إنجلترا كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين... وبعد: فإلى ملك إنجلترا وايفوسيا «واسكتدنافيه»، الأجلّ. لقد أطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم. وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي.

أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس[1] من السجاد الأندلسي، وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام.

خليفة رسول الله على ديار الأندلس/ هشام
[عبد الودود شلبي: أجوبة حاسمة]

الرفق بالحيوان
(بين حضارتنا ومدنياتهم)

إن أول ما تعلنه مبادئ حضارتنا في مجال الرفق بالحيوان، أن تقرر أن عالم الحيوان كعالم الإنسان له خصائصه وطبائعه وشعوره: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

فله حق الرفق والرحمة كحق الإنسان «الراحمون يرحمهم الرحمن»[2] «من أعطي الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة»[3] بل أن الرحمة بالحيوان قد تُدْخِلُ صاحبها الجنة: بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: «لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني». فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له، قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[4].

كما أن القسوة على الحيوان تُدْخِلُ النار «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[5].

وتمضي الشريعة الإسلامية في تشريع الرحمة بالحيوان، فتحرم المكث طويلاً على

---

(١) الطنافس: البسط مفردها طنفسة.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم.

(٣) رواه أحمد.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأحمد وأبو داود.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

ظهره وهو واقف، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي»[١]، وتحرم إجاعته وتعريضه للضعف والهزال، فقد مرّ عليه الصلاة والسلام ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال: «اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»[٢]

كما تحرم إرهاقه بالعمل فوق ما يتحمل، دخل رسول الله ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي حنّ وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله فمسح دموعه، ثم قال: «من صاحب هذا الجمل؟ فقال صاحبه: أنا يا رسول الله. فقال له عليه الصلاة والسلام: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه»[٣]، (أي تتعبه بكثرة استعماله). كما تحرم التلهي به في الصيد «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة»[٤]، واتخاذه هدفاً لتعليم الإصابة، فقد لعن رسول الله من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً[٥]، (أي هدفا)، وتنهى عن التحريش بين الحيوانات، ووسمها في وجوهها بالكي والنار، (أي كيها لِتُعلم من بين الحيوانات الأخرى)، فقد مر رسول الله ﷺ على حمار قد وُسِم وجهه فقال: لعن الله الذي وسمه[٦].

أما إذا كان الحيوان مما يؤكل، فإن الرحمة به أن تُحدّ الشفرة ويسقى الماء ويراح بعد الذبح قبل السلخ: إن الله قد كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحم فأحسنوا الذبحة، وليحدِّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته[٧]، بل إن إضجاع الحيوان للذبح قبل إحداد الشفرة قسوة لا تجوز. أضجع رجل شاة للذبح وهو يحدّ شفرته، فقال له عليه الصلاة والسلام: «أتريد أن تميتها موتات؟ هلا

---

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) رواه أبو داود وابن خزيمة.

(٣) رواه أحمد وأبو داود.

(٤) رواه النسائي وابن حبان.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) رواه الطبرني.

(٧) رواه مسلم وأبو داود ومالك والترمذي.

حددت شفرتك قبل أن تضجعها»[١].

وانظر ما أروع هذه الرحمة بالحيوان وأبلغ دلالتها على روح حضارتنا، قال عبد الله بن مسعود: «كنا مع رسول الله في سفر، فرأينا حمّرة (طير يشبه العصفور). معها فرخان لها، فأخذناهما فجاءت الحمّرة تعرش (ترفرف بجناحيها)، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها. ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: من أحرق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[٢].

وعلى ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر ببال، فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبه على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل، وقد ذهبوا إلى أبعد من هذا، فقال بعضهم: إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الانصراف، ومنعوا من تحميل الحيوان أكثر مما يطيق، ورتبوا على هذا نتائج حقوقية في حق من استأجرها حيواناً للحمل أو الركوب فحمّله أكثر مما يستطيع، فألزموه بضمان ثمنه لمالكه، وتعرضوا لمقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله، ومن الطريف أن بعض الفقهاء قدر لكل منهما مقداراً لم يرض فقيهاً آخر، فعقب على ذلك بقوله: لعمري إن هذا إنصاف للبغل وإجحاف كبير بالحمار. أما جناية الحيوان على غيره، فهي جبار، أي مهدرة، فالحيوان لا يعاقب بما جنى على غيره وإنما يعاقب صاحبه إذا فرط في حفظه وربطه.

هذه هي مبادئ الرفق بالحيوان في حضارتنا وتشريعنا، فكيف كان الواقع التطبيقي لها؟.

كان من وظيفة المحتسب (وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفة الشرطي في عصرنا الحاضر) أن يمنع من تحميل الدواب فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضربها في أثناء السير، فمن رآه يفعل ذلك أدبه وعاقبه: ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة، ولا يحملون الدواب أكثر من طاقتها، ولا يسوقونها سوقاً شديداً تحت الأحمال، ولا يضربونها ضرباً قوياً، ولا يوقفونها في العراص (الساحات

---

(١) رواه الطبراني والحاكم.

(٢) أخرجه أبو داود.

العامة) وعلى ظهورها أحمال، فإن هذا كله نهت الشريعة المطهرة عن فعله، وعليهم أن يراقبوا الله عز وجل في علف الدابة وعليقها، ويكون موفراً عليها بحيث يحصل به الشبع، ولا يكون مبخوساً ولا نزراً. *مكتبة الرمحي أحمد*

وأما المؤسسات الاجتماعية فقد كان للحيوان منها نصيب كبير، وحسبنا أن نجد في ثبت الأوقاف القديمة أوقافاً خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافاً لرعي الحيوانات المسنة العاجزة، ومنها أرض المرج الأخضر (التي يقام عليها الآن الملعب البلدي في دمشق) فإنها وقف للخيول العاجزة التي يأبى أصحابها أن ينفقوا عليها لعدم الانتفاع بها، فترعى في هذه الأرض حتى تموت، ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لا تتحرك إلا للرياضة والنزهة.

هذه حضارتنا وهذا ديننا، فماذا عند غيرنا؟

إن أول ما يلفت النظر أننا لا نجد في تعاليم الشعوب غير المسلمة ما يحمل على الرفق بالحيوان ووجوب الرحمة به، ومن ثم فلا نجد له حقوقاً على صاحبه من نفقه ورعاية، بل بالعكس كانت الحيوانات تؤخذ بجناية إذا جنت أو جنى صاحبها، وتعامل في المسؤولية كمعاملة الإنسان العاقل المفكر! وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ العصور القديمة والوسطى حتى القرن التاسع عشر، فقد كان الحيوان يحاكم فيها كما يحاكم الإنسان، ويحاكم عليه بالسجن والتشريد والموت كما يحكم على الإنسان الجاني تماماً.

ففي شرائع اليهود: «إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة وأفضى ذلك إلى موت النطيح وجب رجم الثور، وحرم أكل لحمه، ولا تَبِعَه على مالكه إذا لم يكن الثور معتاد النطح».

وعند الأمم الأوروبية كانت فرنسا - في العصور الوسطى - أول الأمم الأوروبية أخذت في القرن الثالث عشر بمبدأ مسؤولية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة بنفس الطرق القانونية التي يحاكم فيها الإنسان. ثم أخذت به سردينيا في أواخر القرن الرابع عشر. ثم بلجيكا في أواخر القرن الخامس عشر. وفي هولندا وألمانيا وإيطاليا والسويد في منتصف القرن السادس عشر. وظل العمل به قائماً عند

بعض شعوب الصقالبة حتى القرن التاسع عشر!

كانت محاكمة الحيوان عند الأوروبيين تقوم على ادعاء المجني عليه أو النيابة العامة، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم، وقد تقضي المحكمة بحبس الحيوان احتياطاً! ثم يصدر الحكم بعد ذلك وينفذ على ملأ من الجمهور كما كان ينفذ في الإنسان. وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجماً أو بقطع رأسه أو بحرقه، أو بقطع أعضائه قبل إعدامه، ولا يظن أحد أن هذه المحاكمة كانت هزلية للتسلية، بل كانت جدية تماماً، بدليل ما يرد للأسباب الموجبة للحكم على الحيوان من مثل قولهم: «يحكم بإعدام الحيوان تحقيقاً للعدالة» أو «يقضى عليه بالشنق جزاءً لما ارتكبه من جرم وحشي فظيع»!

ومن طريف ما يذكر هنا أن الأسباب التي كانت تحمل الأوروبيين على رفع القضايا على الحيوان تعدّيه على قوانين الطبيعة في نظرهم، فكان يتهم «بالسحر» وهي جريمة كان مرتكبوها يعاقبون بالإحراق بالنار، وكانوا يحتفلون احتفالاً كبيراً وسط الميادين، وتحضر القطط المحكوم عليها، كل هرة في قفص من حديد، وعندما يحين وقت تنفيذ العقوبة يحضر بعض القساوسة يصحبهم بعض الحكام، فيتقدم أحدهم وفي كلتا يديه شعلتان من نار لإشعال الحطب، ثم يأمر أحد الحكام بقذف القطط في النار حتى تصبح رماداً عقوبة على ممارستها السحر!

وجدير بنا أن نذكر بعض المحاكمات الشهيرة للحيوانات عند الأوروبيين في القرون الوسطى. فمن أطرف المحاكمات وأشهرها، محاكمة الفئران في بلدة (أوتون) بفرنسا في القرن الخامس عشر، فقد اتهمت الفئران في هذه القرية بالتجمهر بالشوارع بشكل مزعج مقلق للراحة. وتقدم للدفاع عنها (شاسانيه) المحامي الفرنسي، وطلب التأجيل لأن الفئران لم تتمكن من الحضور، حيث فيها الرضيع والمريض والعجوز، وهي تستطيع أن تستعد للمثول بين يدي المحكمة إذا منحت فرصة التأجيل، فوافقت المحكمة على التأجيل لوقت معين،ولما حان الوقت لم تحضر الفئران، فقال محامي الدفاع للمحكمة: إن الفئران تذعن لأوامركم الموقرة، وتود الحضور، ولكنها يا حضرة القضاة تخشى وقوع الأذى عليها من القطط إن هي جاءت إلى هنا فرد رئيس المحكمة قائلاً: إن من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم فطلب المحامي أن تأمر المحكمة بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران في

الشوارع لتكون مطمئنة على حياتها، فوافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته، وأصدرت أمراً بمنع القطط والكلاب من المرور في الشوارع تأميناً للفئران أثناء حضورها إلى المحكمة. ولكن أهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك فاضطرت المحكمة إلى أن تحكم ببراءة الفئران لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة!.. وقد نال المحامي بسبب هذه القضية شهرة ذائعة، ولا ندري إن كان قد أخذ أتعابه من الفئران أم لا، وبما كانت أتعابه أن تتعهد الفئران له بعدم قرض كتبه وأوراقه.

ومن أغرب قضايا محاكمات الحيوان في القرون الوسطى كذلك محاكمة الديك الذي باض. فقد رفعت دعوة على ديك في مدينة بال بسويسرا عام ١٤٧٤م لأنه باض، وذلك في عرف الأوروبيين يومئذ جريمة شنيعة، إذ كان من المعروف عندهم أن السحرة يبحثون عن بيضة الديك ليستخدموها في أغراضهم الشيطانية. وقُدِّم الديك للمحاكمة، ودافع عنه محاميه بقوله: كيف يكون الديك مسؤولاً عن واقعة لا حيلة له فيها؟ ولكن المحكمة لم تأخذ بنظرية محامي الدفاع، بل أصدرت حكمها بإعدام الديك، وعللت حكمها بقولها: ليكون في ذلك عبرة لغيره من الديكة؟!

[مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا: ٩٧- ١٠٥]

العِقد
(جناية الترف)

(لواسيل) إحدى الفتيات الفرنسيات الفاتنات اللواتي ساء حظهن في هذه الحياة فولدت لعائلة فقيرة، ولم يكن لها تطلعات مستقبلية أو طموحات سوى أن يحبها ويخطبها رجل ثري ومميز. لم يتقدم لخطبتها أحد من الأثرياء رغم جمالها الباهر، لذلك سمحت لنفسها أن تتزوج من كاتب صغير يعمل في وزارة التربية والتعليم.

كان زوجها بسيطاً، والأشياء التي يملكها كانت بسيطة كذلك؛ لأنه لم يكن قادراً على شراء الأشياء التي تحبها وتحلم بها، ولذلك فهي لم تكن سعيدة في حياتها لأنها ترى بأنها قد تزوجت من رجل أقل منها منزلة. وكانت كأي امرأة جميلة ترى بأن جمالها الذي هو ثروتها الوحيدة كان يجب أن يضعها في مستوى أرقى سيدة في المجتمع. لقد كانت تعاني بمرارة وبلا حدود لأنها كانت تعتقد بأنها ولدت للرفاهية وحياة البذخ والترف، ولكنها الآن تعاني من فقر بيتها ومن جدرانه الوضيعة

والكراسي الممزقة والستائر البشعة ومكانة زوجها الفقير.

كانت تعاني من هذه الأشياء التي لا تعيرها أي امرأة عادية أي اهتمام وتحس بأنها تهينها وتحرجها. لقد كانت تحلم بغرف النوم الهادئة المزخرفة والمزينة بالصور والألوان والأصباغ، والتحف المضاءة بالأنوار الخافتة، والكراسي الفخمة، والغرف الصغيرة المعطرة الفاتنة. وكانت ترى أنها خلقت للهو والرقص والحفلات الصغيرة التي يقيمها الأصدقاء المميزون والمشهورون الذين تثير بيوتهم اهتمام أي امرأة متعلقة بحياة الترف والنعومة والانطلاق مع الشهوات واللذات.

وعندما كانت تجلس للعشاء على الطاولة المستديرة المغطاة بشرشف قديم في مواجهة زوجها الذي يكشف غطاء إناء الشوربة ويرتشف منه معلقاً بسرور... شوربة اسكتلندية ولا ألذ!، كانت تتخيل الوجبات الشهية والأواني الفضية البرّاقة والطعام الذي يقدم بأطباق رائعة... وكانت تبتسم ابتسامة ساخرة تنم عن الرغبة الجامحة في الانتقال إلى حياة الرفاهية والتبرج والحفلات.

لم يكن لديها ملابس ثمينة ولا مجوهرات ولا شيء مما تحب، وكانت تعتقد أن هذه الأشياء التي أحبتها قد خلقت لها فقط؛ لأنها كانت ترغب وبشغف بأن تكون فاتنة مرغوباً بها وجذابةً جداً.

كان لدى (لواسيل) صديقة غنية، صديقة دراسة قديمة، وكانت تحجم عن زيارتها كي لا ترى الفارق الكبير بين بيتها وأثاثه المتواضع، وبين بيت صديقتها المزين المزخرف والمفروش بالحرير والمكتظ بالأثاث الفاخر؛ ولهذا كانت تبكي وتتألم عندما تقارن بين بيتها وبيت صديقتها الغنية.

وفي إحدى الأمسيات جاء زوجها إلى البيت مسروراً يحمل مغلفاً كبيراً في يده فناوله إياها وقال: هذه الرسالة لك يا عزيزتي... فتحت المغلف وسحبت بطاقة مطبوعاً عليها الكلمات التالية: (وزير التربية والتعليم وحرمه يطلبون وبسرور حضور السيد والسيدة لواسيل إلى حفلة الوزارة مساء يوم الاثنين الثامن عشر من آذار).

وبدلاً من أن تفرح بهذه الدعوة كما كان يأمل زوجها ألقت بالبطاقة بعصبية على الطاولة وتمتمت: ماذا تريدني أن أفعل؟ فقال زوجها: لماذا هذا الانفعال يا عزيزتي؟ كنت أعتقد بأنك ستكونين فرحة، وهذه مناسبة سعيدة وفرصة مواتية، لقد عانيت كثيراً للحصول عليها... كل واحد من زملائي كان يرغب ببطاقة مثلها.

والقليل منها خصص للكتبة، وأنك سوف تقابلين رجالاً كباراً حقيقيين. نظرت

إليه بعيون مفترسة وقالت – بدون ضير: وماذا ترى أنني سألبس في مثل هذا الاحتفال، وليس لدي ما يصلح لمثل هذه الحفلة؟!

لم يكن قد فكر بذلك، ولكنه ذكّرها بالفستان الذي تذهب به إلى المسرح، وأنه يبدو جميلاً بالنسبة له.

بيد أنه وقف مشدوهاً عندما رأى زوجته تبكي بمرارة. فسألها: لماذا هذا البكاء يا عزيزتي؟

وبعد جهد تغلبت على حزنها وأجابت بصوت هادئ وهي تمسح خدها: لا شي، إلا أنني لا أملك ثوباً مناسباً للحفلات، لذلك لا استطيع الذهاب إلى هذه الحفلة، أعط البطاقة لأي صديق لك زوجته لديها أفضل مما لدي!... انكسر خاطره وحار في جوابها، ثم سألها عن تكلفة فستان كهذا الذي يمكن رؤيته في مثل هذه المناسبات... وبعد لحظات أجابت بتردد بأنها لا تعرف بالضبط، ولكنه قد يكلف (٤٠٠) فرانك... وشحب لونه لأن هذا المبلغ يعادل المبلغ الذي كان قد وفّره لشراء بندقية صيدٍ... وبعد فترة صمت قال: لا بأس سوف أعطيك هذا المبلغ على أن تشتري فستاناً جميلاً...

الفستان أصبح جاهزاً الآن، ولكن كلما اقترب يوم الحفلة كلما ازدادت السيدة لواسيل حزناً...

وفي أحد الأيام سألها زوجها عن سبب حزنها على الرغم من أن الفستان جاهز والأمور تسّير كما يجب، أجابته بأنها حزينة جداً لأن النساء في مثل هذه الحفلات يتباهين بحليهن ومجوهراتهن، وهي لا تملك مجوهرات تلبسها لتبدو أجمل من غيرها أو مثلهن على أقل تقدير، ولذلك فلن تذهب إلى الحفلة بدون مجوهرات... أشار عليها زوجها بأن تلبس عقداً من الأزهار؛ لأن هذا الوقت من السنة يتناسب ولبس الزهور... رفضت ذلك قائلةً: كلا.. لا شيء يهين الإنسان أكثر من أن يبدو فقيراً في وسط عدد كبير من الأغنياء. قالت ذلك وبكت...

فأجابها زوجها بأنها غبية... وأشار عليها أن تذهب إلى صديقتها الغنية السيدة فورستير لتستعير منها بعض المجوهرات من أجل هذه الحفلة فقط.

وفي اليوم التالي ذهبت لواسيل إلى صديقتها السيدة فورستير وطلبت منها أن تعيرها عقداً تلبسه لحفلة الوزارة التي بات موعدها وشيكاً، فاستجابت لطلبها وعرضت عليها مجموعة من المجوهرات كانت موضوعة في صندوق وقالت لها: اختاري منها ما

شئت. جرّبت العديد من المجوهرات أمام المرآة وترددت كثيراً في اختيار العقد المناسب لكثرة العقود والمجوهرات واختلاف أشكالها الرائعة، وتابعت تسأل السيدة فورستير فيما إذا كان لديها أنواع أخرى من المجوهرات والعقود... أجابتها بنعم، ولكنها لا تعرف ما هي الأشكال التي تفضلها من المجوهرات. وفي نهاية الأمر اكتشفت ما تريد، عقداً من الألماس في حقيبة صغيرةٍ، خفق قلبها عندما رأته، وارتجفت يداها عندما رفعته... ثبتته حول عنقها ونظرت إلى ذاتها في المرآة طويلاً.. ثم طلبت بتردد من السيدة فورستير إعارتها هذا العقد. فوافقت السيدة فورستير على طلبها دون تردد.

وجاء يوم الحفل، فذهبت السيدة لواسيل برفقة زوجها إلى مكان الاحتفال بعد أن تعطرت وتزينت كما تتزين العروس ليلة زفافها، وكانت ترتدي ذلك الفستان الجميل الذي اشترته، وذلك العقد الذي استعارته، إلا أنها كانت ترتدي شالاً قديماً بعض الشيء بيد أنها قبل أن تدخل القاعة تخلصت من شالها عند المدخل. وعندما دخلت قاعة الاحتفال انبهر الجميع بجمالها الآخاذ، وبرشاقتها وأناقتها وألوانها الزاهية، وسُلطت عليها الأضواء، وحدَّقت بها العيون المعجبة، وطلب الجميع التعرف عليها، حتى أن الوزير نفسه أحب أن يتعرف عليها كذلك.

... بدأ الاحتفال، ورقصت بجنون، فأثارت رغبات الرجال، وتصرفت وكأنها تريد أن تعوض ما فاتها من هذه المتعة بهذه الساعات القليلة. ولكنها قبل أن تنتهي الحفلة بقليل خرجت مسرعة من مكان الاحتفال، خوفاً من أن تراها النساء الأخريات وهي ترتدي شالها القديم فينكشف أمرها.

في الطريق إلى البيت اكتشفت بأن العقد قد سقط منها، وأنها قد أضاعته وهي لا تدري، فاضطربت وثارت أعصابها، وحاولت مع زوجها البحث عنه في كل مكان، إلا أنها لم تجده. وضاع إلى الأبد. عاد زوجها وفتش الطريق التي سلكاها مرة أخرى فلم يجد، فذهب إلى مخفر الشرطة وإلى مكتب الجريدة معلناً عن جائزة لمن يجده.

ثم عاد إلى البيت، واقترح على زوجته أن تخبر صديقتها بأن شكّالة العقد قد كسرت وأنها ستعمل على إصلاحه، وبذلك يكون لديهما الوقت الكافي للبحث عنه، إلا أنها رفضت ذلك وأصرت على شراء عقد مماثل لتعيده إلى صديقتها....

وعلى مضض وافق الزوج وأحضر المبلغ الذي كان قد ورثه عن والده، واستدان مثله. وفي اليوم التالي ذهبا إلى محل مجوهرات فوجدا عقداً يشبه العقد المفقود تماماً، فأخبرهم صاحب المحل بأن ثمنه (٣٤٠٠٠) فرنك، فعادا مذهولين، وبقيا طوال

الطريق صامتين يفكران فيما هما فيه من الفقر وما يترتب عليهما دفعه ثمناً للعقد المفقود، ومستقبل ما هما صائران إليه.

ولما تجمع لديهما المبلغ المطلوب مما ورثه الزوج وما استقرضه من أصدقائه ومعارفه، ذهبا معاً إلى المحل نفسه واشتريا عقداً مماثلاً للعقد الذي فقداه، وأرسلاه إلى صاحبته السيدة فورستير.

وعادت الزوجة إلى معاناة أقسى وأمر من المعاناة السابقة، لقد صرفا خادمهم، وباعا البيت الذي يسكنان فيه، واتخذا بيتاً صغيراً في حي متواضع جداً، وبدأت السيدة لواسيل تقوم باعمال البيت بنفسها، واضطرت للعمل خارج البيت أيضاً... وهكذا عملت مع زوجها عشر سنوات متواصلة لكي يتمكنا من سداد المبلغ الذي ترتب عليهما جراء شراء العقد الثمين.

وبعد عشر سنوات التقت السيدة لواسيل بالسيدة فورستير (صديقتها القديمة) في إحدى الحدائق العامة وكان منظر السيدة لواسيل يثير الشفقة، وبدا وجهها شاحباً، وتميل بها السنون إلى الشيخوخة، وتبدو عليها آثار الفقر والحرمان. استغربت السيدة فورستير منظر صديقتها لأول وهلة، فلم تعرفها بادئ الأمر لولا أنها عرفتها بنفسها وذكرتها بها.

ما الذي غيرك إلى هذا الحال يا سيدة لواسيل؟

فأخبرتها بأن العقد الذي استعارته منها هو السبب في معاناتها، وأنه قد ضاع منها يوم الحفلة، فاضطرت لشراء عقد مماثل بدلاً منه. وبدهشة استغربت وأخبرتها بأن العقد الذي استعارته كان زائفاً (تقليدياً) ولم يكن حقيقياً، وأن ثمنه بالكاد يساوي ال(٥٠٠) فرانك على أعلى تقدير!!

فذهلت السيدة لواسيل، وطلبت من صديقتها رد العقد الذي اشترته لها.

فأخبرتها بأنها قد وهبته للخادمة السابقة قبل بضع سنوات..!.

[قصة مترجمة من الأدب الفرنسي عن روايةج. د. ماوباسانت..]

حديث الغار

التوسل بصالح الأعمال

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار

فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار. فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أُرِح[2] عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت – والقدح على يدي – انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون[3] عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرْج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللّهم كانت لي ابنة عمّ أحب الناس إليّ، وفي رواية: كنت أحبها أشد ما يحب الرجال النساء، فراودتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألـمّت بها سنة من السنين[4] فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها قالت: اتّق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحبّ الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إنّي أستأجرت أُجَرَاء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون. (متفق عليه).

[رياض الصالحين: ٨٠٧]

---

(١) أغبق: أشرب الحليب مساء، والغبوق حليب العشي.

(٢) أُرِح – بضم الهمزة وكسر الراء أي: أرجع.

(٣) يتضاغون: يصيحون من الجوع.

(٤) أي نزلت بها سنة من السنين المجدبة..

الغم يذيب الشحم

كان أحد ملوك الأرض قديماً سميناً كثير الشحم، لا ينتفع بنفسه، فجمع الحكماء وقال: احتالوا لي بحيلة يخف عني لحمي هذا قليلاً، فما قدروا على شيء، فجاءه رجل عاقل لبيب متطيب فقال له الملك: عالجني ولك الغنى، قال: أصلح الله الملك، أنا طبيب منجِّم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك(١) لأرى أي دواء يوافقه، فلما أصبح قال: أيها الملك، الأمان. فلما أمّنه قال: رأيت طالعك البارحة يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر واحد، فإن اخترت عالجتك، وإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخل عني وإلا فاقتص مني، قال: فحبسه، ثم رفع الملاهي واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتماً، فكلما انسلخ يوم ازداد هماً وغماً حتى هزل وخف لحمه، ومضى لذلك ثمان وعشرون يوماً، فبعث إليه وأخرجه فقال: ما ترى؟ قال: أعز الله الملك، أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب، والله إني لا أعلم عمري فكيف أعلم عمرك؟ ولكن لم يكن عندي دواء إلا الغمّ، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه الحيلة، فإن الغم يذيب الشحم فأجازه على ذلك وأحسن إليه غاية الإحسان، وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم(٢)

[كتاب الأذكياء: ١٩٥]

موقف محرج مع الألمانية

حدثنا شاب عربي قال: سافرت إلى ألمانيا برفقة اثنين من أصدقائي من أجل

---

(١) الطالع: الهلال، والفجر الكاذب، وما يتنبأ به المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معين.

(٢) سئل علي رضي الله عنه عن أشد جنود الله، فقال: «أشد جنود الله عشرة: الجبال الرواسي، والحديد يقطع الجبال، أي فهو أقوى. والنار تذيب الحديد، فهي أقوى. والماء يطفئ النار، فهو أقوى. والسحاب يحمل الماء، فهو أقوى. وابن آدم يغلب الريح فيتستر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته، والسكر يغلب ابن آدم – يفقده توازنه، والنوم يغلب السكر، والهم يغلب النوم فأشد جنود الله الهم». بيد أن الإيمان بالله يطرد الهم وأسبابه عن النفس، ثقة من النفس بأن الله الذي خلقها حكيم، فلا يجري عليها إلا ما فيه الخير، ولو لم يكن في الإيمان إلا أنه يدفع عن الإنسان هموم الحياة لكفى بذلك فائدة. ولذلك فقد كان رسول الله ﷺ يكثر في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

العمل، وهناك التقينا بصديق لنا كان قد سبقنا إلى ألمانيا بمدة طويلة، وهو يعمل في إحدى شركات النسيج، ومتزوج من سيدة ألمانية، ويسكن معها في بيت مستقل كان قد اشتراه قبل بضع سنين فرحب بنا وسألنا عن أحوالنا وأحوال الأهل، ودار الحديث طويلاً بيننا، ثم سألناه عن أحواله وعن طبيعة عمله، وداعبناه قليلاً، ثم سألناه: سمعنا أنك متزوج بفتاة ألمانية شقراء، فهل لنا أن نتعرف عليها؟ فأجاب بدهاء: بكل سرور، وهي ترحب بذلك، وتحب العرب كثيراً.

فحدثتنا أنفسنا بسوء، وقلنا: إن صاحبنا هذا قد تغيرت طباعه لطول معايشته للقوم هنا، وإن الغيرة قد ماتت في قلبه، وإن أعصابه باتت باردة كالثلج لا تتحرك لعِرض أو شرف.

فاتفقنا أن نوافيه في منزله مساء. فوصلنا بيته في الموعد المحدد، أي قبيل الغروب. فرحب بنا أجمل ترحيب، وأدخلنا إلى غرفة الجلوس، فأخذ كل منا مكانه على المقاعد الوثيرة. وأخذنا في الحديث ونحن ننتظر بفارغ الصبر قدوم الشقرء الجميلة، فاستبطأناها بعض الوقت حتى كدنا نطلب منه أن يناديها لولا بقية حياء فطري منعنا من ذلك.

... ثم جاءت!

دخلت علينا وهي في غاية الاحتشام والوقار، وعليها من مظاهر الإيمان والتقوى ما تحسد عليه، وتحمل بين يديها طبق الطعام. فلما رأيناها انقطع حديثنا، وغير كل منا وضع جلسته متأدباً، فسلّمت ووضعت الطعام على منضدة صغيرة كانت أمامنا، ثم جلست ورحبت بنا بلسان عربي ولكنة أعجمية، فأدركنا حينها خديعة صاحبنا وسر موافقته السريعة على طلبنا رؤية زوجته. ثم فاجأتني بسؤال لم أكن أتوقعه، قالت: كم جزءاً من القرآن تحفظ أنت؟ فسقط قلبي لشدة الخوف، وتغير لوني وتلعثمت لشدة ما داخلني من الحرج والارتباك، فأخذت أكذب وأذكر لها أسماء بعض ما علق بذهني من أيام المدرسة من سور القرآن، ولكني حمدت الله إذ لم تطلب مني أن أقرأ لها بعض ما ذكرت من السور التي لم أكن أحفظ منها إلا اسمها. ثم سألت صاحبي عن أحاديث صحيح البخاري، فصار به من الحرج أضعاف ما بي، وانتقلت إلى صاحبنا الثالث الذي تقطعت أنفاسه، وصار بالكاد يخرج الكلمة من فمه. وعشنا لحظات هي أصعب علينا من الموت. فلما أنهت حديثها معنا أستأذنت في الخروج إلى

غرفة الصلاة، فتنفسنا الصعداء. ولم نكن نعلم إلا ساعتئذ أننا في أيام رمضان وأن الطعام الذي بين أيدينا إنما هو طعام الإفطار. فأدركنا حينها كم نحن صغار، وكم نحن ضائعون فارغون بلا صلاة ولا صيام ولا إسلام، بل مجرد همل تسوقهم شهواتهم كالدواب سواء بسواء.

وكان زوجها الماكر ينظر إلينا بطرف خفي بين الحين والآخر، يكتم ابتسامته وبداخله ضحك كثير لما أوقعنا فيه من حرج، ولكنه تجلد وتظاهر بالجدية، ثم قال: لقد حان وقت الإفطار قبل قليل، ودعا بالدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ ثم قال: تفضلوا على ما قسم الله. فأكلنا أكل المجهد الخارج من المعركة، لقيمات لا نستطيع لها مضغاً وبالكاد نسيغها. ثم استأذنّاه بالخروج قبل أن تعود الألمانية فتسألنا عن الفقه ومذاهبه، أو الجهاد وميادينه، ونحن لا صلة بيننا وبين الفقه ولا بيننا وبين الجهاد. ولكنه طلب منا الانتظار قليلاً ريثما يُحضر العصير أو الشاي، وألحّ في ذلك. فلم يجد بداً- وقد وجد إصرارنا على الخروج – من أن يأذن لنا. فخرجنا مسرعين بخطى متعثرة. ولما انتهينا إلى خارج البيت عادت إلينا عافيتنا واسترخت أعصابنا بعد الجهد العظيم، وحمدنا الله على السلامة.

وبعد أيام التقيناه في أحد الأسواق التجارية، فسلم علينا، وقال مداعباً: زوجتي الألمانية سرت بلقائكم بالأمس، وهي تسلم عليكم، وتدعوكم لتكرار الزيارة لأنها بحاجة إلى دروس في التجويد وتخريج الأحاديث، فلعلها تستفيد من خبرتكم في هذا المجال. فقلنا له: سلم عليها وقل لها: لو كان عندنا علم بالتجويد أو تخريج الأحاديث ما رأتنا هنا في ألمانيا، ففاقد الشيء لا يعطيه، وما نحن بتأويل الأحاديث بعالمين.

[من حديث أحد الثلاثة بتاريخ ٩/ ٢/ ١٩٨٥]

إن مع العُسرِ يُسرا

قال مسلم بن الوليد(١): كنت جالساً عند خياط بإزاء منزلي، فمر بي رجل أعرفه، فقمت إليه وسلمت عليه، وجئت به إلى منزلي لأُضيّفه، وليس معي درهم واحد، بل

(١) هو أحد الشعراء المبدعين، اتصل بالرشيد، وعُدّ من شعرائه، مات سنة ٢٠٨ هـ بجرجان.

كان عندي خفان فأرسلتهما مع جاريتين إلى بعض معارفي، فباعهما لي بتسعة دراهم واشترى بثمنهما خبزاً ولحماً. فجلسنا نأكل، وإذا بالباب يُطْرَق، فنظرت من شق الباب، وإذا برجل يسأل: أهذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت إليه، فقال: أنت مسلم بن الوليد؟ قلت: نعم أنا هو، فأخرجَ إلي كتاباً، وقال: هذا من الأمير(١)، فإذا فيه:

(قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون لك في منزلك، وثلاثة آلاف درهم تتجمّل بها لقدومك إلينا).

فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام، واشتريت فاكهة، وجلسنا نأكل، ثم وهبت لضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله.

وتوجهنا إلى الأمير بالرقّة(٢) فوجدناه في الحمام، فلما خرج استُؤذن لي عليه، فدخلت فإذا هو جالس على كرسي، وبيده مشط يسرّح به لحيته، فسلمت عليه، فرد أحسن رد، وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد، وأنشدته قصيدة مدحته بها. قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري، فقال: كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه، فقال لي: يا يزيد، من القائل فيك:

سَلّ الخليفةَ سيفاً من بني مُضَرٍ ... يمضي فيخترقَ الأجسامَ والهاما

كالدّهر لا ينثني عما يَهمُّ به ... قد أوسع الناسَ إنعاماً وإرغاما

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين. فقال: سبحان الله! أَيُقالُ فيك مثلُ هذا ولا تدري من قاله؟ فسألت، فقيل لي: هو مسلم بن الوليد.

فأرسلت إليك، فانهض بنا إلى الرشيد. فسرنا إليه، واستُؤذن لنا، فدخلنا عليه، وسلمنا فرد علينا السلام، فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر لي بمئتي ألف درهم، وأمر لي يزيد بمئة وتسعين ألف درهم، وقال: ما ينبغي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء.

[قصص العرب: ٣/ ٢٨١]

مكتبة الرمحي أحمد

---

(١) هو الأمير يزيد بن مزيد الشيباني، أحد قواد الرشيد.

(٢) الرقة: بلدة على الفرات واسطة ديار ربيعة.

الجزاء العاجل

قال صديقنا محدثاً عن نفسه: كنت أسمع أن المسلم قد يجد آثار بعض المعاصي بعد ارتكابها مباشرة، ويجد آثار ما يقدمه من طاعات مباشرة كذلك، كما سمعت أن أحد السلف الصالح قال: إني لأعرف طاعتي أو معصيتي من خُلِقِ دابتي. أي يأتيه الثواب أو العقاب معجلاً في الساعة نفسها أو في اليوم نفسه، فأخذت أرقب نفسي وأتفحص أحوالي لأرى آثار ما أقدمه من طاعات أو ما اقترفه من معاصي وآثام على حياتي.

وفي أحد الأيام خرجت من المسجد بعد أن فرغنا من صلاة العصر وإذا بفقير على باب المسجد يمد يده للناس، فدفعت إليه بعض ما أحمله في جيبي من نقود، ثم عرجت إلى السوق فاشتريت بعض الفاكهة ودمية صغيرة وقدمتها هدية إلى شقيقتي الكبرى التي تسكن مع ابنتها الصغيرة في نهاية الشارع الذي يمرّ خلف المسجد، وفي طريقي إلى البيت رأيت صبيين يتشاجران فأسرعت إليهما وأصلحت بينهما، وقبل وصولي إلى البيت استوقفني جاري وطلب إلي أن أصلح بينه وبين زوجه، فيسر الله لي أمر الصلح بينهما خلال دقائق... وهكذا كان نهاري مليئاً بالطاعات وعمل الصالحات. وبعد أن داعبت صغاري في المساء وحدثتهم عن فضيلة الصدق، وقصّ علي الصغير قصة إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه التي سمعها من معلمه في المدرسة، أويت إلى فراشي، فنمت قرير العين هادئ البال.

في الصباح استيقظت زوجتي مبتسمة كأنها لم ترني منذ زمن، وإذا بأولادي يستيقظون مع أول نداء، وأصلحوا شؤونهم على أتم وجه، وكل قد كتب واجبه المدرسي، وجمع كتبه في حقيبته، فإذا أفطرت كان طعامي لذيذاً، وودعتني زوجتي بابتسامة ودعاء بالتوفيق وعودة بالسلامة، حتى إذا ركبت سيارتي وجدتها سلسة تشتغل مع أول إدارة للمفتاح، ووجدت الإشارة الضوئية خضراء كأنها تنتظرني، تفتح لي الطريق مرحبة بي، والسائق الذي أمامي يسير وفق قواعد المرور وأصول القيادة، بأدب وهدوء، حتى شرطي المرور يرفع لي يده بالتحية، فإذا دخلت مكتبي الوظيفي، وجدته نظيفاً مرتباً، وجاءني المراجعون وجلهم من أهل الرفق والأخلاق. فإذا رجعت لم أجد ألذ من طعام الإفطار إلا طعام الغداء. وهكذا كان سائر يومي. فأدركت أن كل ذلك إنما هو بفضل الله وبسبب ما قدمته من طاعات.

وذات صباح استيقظت بعد طلوع الشمس، وإذا زوجتي ذات عبوس وتأفف، ولا أدري سبباً لغضبها، ثم هي بعد قليل تولول، فخشيت كلامها كي لا أزيد في إثارتها، وجلست انتظر الطعام، فتأخَّرَتْ في إعداده على غير عادتها، ثم جاءت به فإذا هو ملح أجاج لا أكاد أسيغه، فأكلت بضع لقيمات وقمت دون أن أكمل فطوري ثم تجهزت للخروج، وبعد ذلك أمضيت نصف ساعة وأنا أفتش عن الفرد الضائع من حذاء ابني، فتأخر هو عن المدرسة، وتأخرت أنا عن دوامي. ثم خرجنا إلى السيارة، فعذبتني نصف ساعة أخرى حتى اشتغلت، كل ذلك وأنا أتنهد وأردد حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وانطلقت بنا السيارة بعد الجهد والعناء، فلم أكد أصل الإشارة الضوئية حتى أضاء اللون الأحمر ليزيد في تأخيرنا بضع دقائق إضافية. فلما تحركت السيارات وتجاوزت الإشارة الضوئية قليلاً استوقفني شرطي مرور دون سواي، كان قد تشاجر هو الآخر مع زوجته فأفرغ همومه وغضبه فيّ، وحرر لي مخالفة دونما ذنب اجترحته أو خطأ ارتكبته. وبينما أنا في مكتبي إذ ابتليت بمراجع ثقيل الدم ملحاح، عكر علي مزاجي فوق ما أصابه من تعكير وتنكيد، وشكاني إلى رئيس الدائرة الذي لم يتوان عن لومي وتأنيبي وبأسلوب لم أعهده فيه من قبل. وفي آخر الدوام عدت إلى البيت وقد أخذ مني الجوع كل مأخذ، فوجدت طعام الغداء دخاناً محضاً، كانت زوجتي قد نسيته على النار حتى احترق. فرقدت للقيلولة طاوياً منزعجاً، وبينما أنا في عزّ النوم إذ أيقظتني رنة الهاتف، وكان المتحدث جاراً ثقيلاً لا يقدر ظروف الناس ولا يراعي أوقات الراحة لديهم، وأخذ يضحك ويمزح ويريد أن يسمعني آخر نكتة سمعها اليوم، ثم سألني فيما إذا كان لدينا ماء، فأنبوب الماء مكسور ولم يصله الماء منذ يومين.

وفي المساء خلوت إلى نفسي ساهماً مفكراً أراجع تصرفاتي بالأمس وما عساني قد أذنبت حتى أصابني كل هذا العذاب، فتذكرت أمر السهرة التي قضيتها مع الأصدقاء في بيت أحدهم، حيث أخذنا في الحديث يمنياً وشمالاً، وتسربت في ثنايا الحديث غيبة بعض الأشخاص، واستمعنا لصديقنا المهذار الذي خاض في أعراض الناس وهو يضحك وينكت ويغمز ويلمز، وكنا نشاركه الضحك ولم ننصحه بالكف عن الغيبة والبهتان.

فقلت في نفسي هذا والله هو السبب فيما جرى لي طوال هذا اليوم، وهو العقوبة

التي عجلها الله لي بسبب ذلك.

[قصة مستوحاة من فكرة الأستاذ محمد أحمد الراشد في كتابه: صناعة الحياة]

لقاطة الحصا

(درس في الكتمان)

من قديم ما يحكى قصة لقاطة الحصا. فقد كان المغيرة بن شعبة - أحد دهاة العرب - والياً لعمر بن الخطاب على الكوفة، وبدا للفاروق - رضوان الله عليه - أن يعزله ويولي جبير بن مطعم مكانه، فأبلغ هذا القرار إلى جبير وطلب منه أن يتجهز للسفر ولكنه أوصاه بكتمان ذلك، فقد كان الفاروق في فن الحكم قمة عالية من التفوق والاقتدار ويدرك أهمية الكتمان في كثير من الظروف، ويبدو أن المغيرة ابن شعبة أحس بذلك فأراد أن يستوثق منه، وكان لأحد أصدقائه زوجة ذات شهرة كبيرة في لقط الأخبار إلى حد أنها سميت «لقاطة الحصا»، فطلب المغيرة بن شعبة من هذا الصديق أن يبعث بامرأته هذه لتتعرف حقيقة الخبر، فذهبت «لقاطة الحصا» إلى بيت جبير ووجدت زوجته تعد له متاع السفر فسألتها: إلى أين يخرج زوجك؟

فقالت زوجة جبير: إلى العمرة، فعمدت لقاطة الحصا إلى إثارتها وقالت لها: إنه يكتمك حقيقة أمره ولو كان يثق بك لأطلعك على الأمر كله، ولم تنتبه زوجة جبير لهذه الخديعة، فجلست في بيتها غاضبة تنتظر عودة زوجها لتسأله وتلح في سؤاله حتى أخبرها في النهاية بقرار عمر، فأسرعت وهي مزهوة فرحة تبلغ ذلك إلى لقاطة الحصا، وصل الخبر بذلك إلى المغيرة بن شعبة وهو الشخص الوحيد الذي أراد عمر أن يكتم الخبر عنه، وذهب المغيرة - في دهائه - إلى الفاروق ليعلن ترحيبه بهذا القرار وهو يقول له: بارك الله لأمير المؤمنين في رأيه وتوليته جبيراً والياً على الكوفة، وعرف الفاروق ما فعله المغيرة وعرف أيضاً ما فعله جبير، وساءه ألا يكتم جبير ما أمره بكتمانه، فعدل عن تعيينه والياً على الكوفة.

وهناك موقف آخر نجده في التاريخ السياسي الإنجليزي: وهو موقف الملك الإنجليزي شارل الأول الذي حكم في النصف الأول من القرن السابع عشر من سنة ١٦٢٥م إلى سنة ١٦٤٩م فقد دخل الملك في نزاع مع البرلمان، فاشترط عليه البرلمان لكي يوافق على مزيد من الضرائب أن يوافق هو - أي الملك - على الوثيقة

الدستورية المسماة (ملتمس الحقوق)، فقبل الملك ذلك، وصدر ملتمس الحقوق فعلاً عام ١٦٢٨ ومن أهم ما تضمنه: أن يكف الملك عن طلب الهبات والقروض الإجبارية، وألا يسجن شخص إلا بتهمة حقيقية محددة، وألا تعلن الأحكام العرفية وقت السلم. ولكن النزاع بين الملك والبرلمان ما لبث أن تجدد بعد ذلك، فقام الملك بفض البرلمان عام ١٦٢٩ واستمر يحكم حكماً دكتاتورياً طوال أحد عشر عاماً يعاونه في ذلك وزيراه بكنجهام واسترافود والأسقف لود. وتزايدت حاجة الملك إلى مزيد من الضرائب فاضطر إلى دعوة البرلمان للانعقاد عام ١٦٤٠ فأراد البرلمان أن ينتهز هذه الفرصة ليحد من سلطات الملك فقدم له بعض المطالب الدستورية التي تعين في ذلك، فأبى الملك قبولها وأصدر قراره بحل البرلمان، ولكن الظروف السياسية القائمة في ذلك الحين أجبرت الملك على دعوة البرلمان مرة أخرى في السنة نفسها، فلم يتردد البرلمان حينئذٍ في علاج الوضع الدستوري، فبدأ بمعاقبة أنصار الملك الذين أعانوه على الحكم المطلق، وفي مقدمتهم سترافورد والأسقف لود، فتم إعدام الأول وسجن الثاني، وقرر البرلمان بعد ذلك وجوب دعوته كل ثلاث سنين على الأقل، فإذا امتنع الملك عن ذلك كان للبرلمان أن يجتمع بغير دعوة. وحرص البرلمان على أن يكفل للقضاء استقلاله، فقرر أن يظل القضاة في وظائفهم ما داموا يؤدون واجبهم بإخلاص ودون أن يتوقف على ذلك رضاء الملك. ولقد تسببت هذه القرارات وسواها في غضب الملك واستيائه، فوضع خطة للقبض على زعماء البرلمان عله يصل بذلك على ما يتصور أنه تمرد من البرلمان، ولم يراع شارل الأول – وهو يضع خطته – هذا المبدأ في فن الحكم «الكتمان» فأطلع زوجته الفرنسية عليها، فعرفت كل عناصرها واستخفها الفرح وتخيلت أن انتصار زوجها على البرلمان أصبح وشيكاً، فذهبت في أوج سرورها تحكي كل ذلك إلى إحدى وصيفاتها وهي تعتقد فيها الإخلاص والحب، ولكن هذه الوصيفة كانت على صلة وثيقة بالمعسكر الآخر، فذهبت إلى رجال البرلمان محذرة وناصحة ونقلت إلى أسماعهم كل ما تعرف، وعندما ذهب الملك شارل الأول إلى البرلمان ليرى بنفسه القبض على زعمائه لم يجد منهم أحداً!! فقد هربوا جميعاً، فقال عبارته الشهيرة «إن الطيور قد طارت» وكان طبيعياً أن يَدفع ذلك بالأزمة إلى ذروتها، الأمر الذي أدى في النهاية إلى إعدام الملك نفسه عام ١٦٤٩

[فن الحكم في الإسلام: ٣٥٥]

هُدَى

(قصة من بلجيكا)

على مقربة من جامعة بروكسل، وفي حي فخم يجاور بحيرتي (أكسل) الرائعتين، يقع ذلك البناء الذي شاء القدر أن يكون مركز الدائرة في أحداث هذه القصة...

هذا البناء الأنيق ذو المدخل الواحد، يتألف من طابقين في الأعلى أعِدّا للأجرة، ثم طبقة أرضية استقلت بها الأسرة المالكة للبناء، وكانت أثناء ذلك تتكون من السيدة (نيلي) التي أوغلت في العقد السادس، وزوجها السيد (بلانشار) الموظف المتقاعد الذي لعله لا يسبقها بأكثر من خمس سنوات، وكان ظاهرهما يخدع الناظر عن حقيقة عمرهما: فلا يقدر لهما معاً أكثر من العقد الخامس، ومرد ذلك إلى تلك الحياة الهنيئة التي يعيشانها، بل يصنعانها بحسن تفاهمهما وتدبيرهما.. وإنها لحياة هادئة لينة، يطبعها التهذيب الرفيع والرغبة في إيثار الكلمة الطيبة.

كان نزيلا الدور الثاني – من الطلاب السوريين – على أتم الرضى بمجاورة هذين المخلوقين، إذ يجدان في هدوئهما وحسن معاملتهما الجو الذي تتطلبه دارستهما. أما الدور الأول من هذا البناء فقد أصبح من حظ شخصين من الأوروبيين ظلا حتى الآن، على الرغم من مرور ستة أشهر على سكناهما، مجهولين، لا يعرف أحد في البناء كله من أمرهما شيئاً، سوى أن أحدهما امرأة فرنسية من مواليد بلجيكا اسمها (بوليت غيو) وأن ثانيهما رجل هولندي يرجح إنه بغير عمل، لإنه قلما يغادر الدار إلا يوم الأحد، حيث يخرج مع هذه المرأة في رحلة تستغرق أكثر النهار، وقليل من الناس يعرف اسمه.

ولقد عرف النزيلان جنسية هذين الجارين المجهولين عن طريق صاحبة الدار، التي لا بد لها عند تأجيرهما من أن تعرف بعض المعلومات الضرورية عنهما، ومن ذلك عمل المرأة التي سجلت بجانب اسمها إنها تقوم بمهمة (سكرتيرة) لمدير القسم الخاص بسيارات (فولكس فاجن).

وبدافع من الفضول الشرقي سأل عدنان – وهو أصغر الأخوين الطالبين – صاحبة الدار عما إذا كان الرجل الهولندي زوج المرأة.. فنفت ذلك، وذكرته بأن هذا الأمر لا يهمها، بل لا يهم سواهما، وكل ما يعنيها منهما هو أن يكونا جارين مهذبين،

وأن يؤديا أجرة الدار تامة في الموعد المحدد.. وكلا الأمرين مؤمّنان على أكمل وجه.

وكان مألوفاً أن يتلاقى الأخوان وهذه الجارة الفرنسية معظم الأيام، على مدخل الدار السفلي، أو أثناء الدرج، فلا يكون بينهم أكثر من تحية عابرة تقرضها المجاملة، دون أن تجر وراءها كلمة واحدة.. على كثرة ما تكررت.

على أن أكثر ما يلفت النظر في هذه المرأة هو عنايتها الصارخة بزينتها اليومية، فهي، على الرغم من أنها لا تستطيع حجب سنها الناطقة بما فوق الأربعين لا تكاد تفارق الدار إلى عملها في الصباح إلا بعد أن ينال كل عضو من جسمها حصته من التبرج الغالي.. ومع أن التبرج في الحياة الأوروبية هو الطابع الرئيسي في المرأة.. تفتن به لتفجر الكمين المتماسك من رغبة الرجل، غير أنه في هذه المرأة يعدو المألوف من ذلك.. إذ لا تعرف فيه حد الاعتدال، فالأحمر الذي تقتنع منه الأوروبية بالقليل على حافة الشفتين، يتجاوز عندها المجال الذي حدده العرف، حتى يصبغ مساحة أبعد حولها.. والثوب الذي ترك واجب الستر حتى أصبحت وظيفته مجرد الإغراء.. قد بات على جسدها أقرب إلى (تبان) السباحة، فلا يستر بمقدار ما يجسّم.. حتى نظارتاها ذاتا الإطار الذهبي الأنيق لا تستعملها لتعديل النظر بمقدار ما تريد منهما الإثارة..!

وبأوجز تعبير: كانت المرأة أنموذجاً من الاستهتار الذي لا يقيم وزناً لأي مقياس أو تقدير.

وحدث ذات يوم أن محمداً، وهو أكبر الأخوين، قد عاد من إجازته الصيفية في دمشق، ليستأنف دراسته بقسم الكيمياء الصيدلية، وكعادتهما في مثل هذه المناسبة كان عليه أن يخص جيرانه ببعض الهدايا الشرقية، فملأ لصاحبي البناء طبقاً من الحلوى، ثم مضى بمثله إلى جاريهما الجديدين المجهولين.. وعلى مدخل الطابق وقف يضغط الجرس، وينتظر.. ولما أطلت الجارة الفرنسية تتعرف الطارق فوجئت بما لم تتوقع.. وجمدت قليلاً قبل أن ترد تحيته ثم سألت في لهجة لم تخل من الاستغراب: ماذا؟!

مد محمد يده بالطبق الشهي، وهو يقول إنها هدية صغيرة من حلويات دمشق، قدمت مثلها إلى جيراننا الآخرين، فهل تتكرمين بقبولها؟

وسكب محمد هذه الكلمات في عبارة فرنسية أنيقة، اختار لها الكلمات المناسبة،

وانثالت على لسانه في صوت حييّ سرعان ما بعث الاطمئنان في قلب المرأة، فتناولت الهدية شاكرة ودعته إلى الدخول وألحّت بذلك، فلم يسعه إلا الاستجابة.. واتخذ مجلسه إلى يمين الهولندي الذي قدمته إليه باسم رفيقها السيد (...؟...) الذي لم يعره إلا قليلاً جداً من الاهتمام، إذ سرعان ما عاد إلى محفظة الصور التي بيده يقلب فيها النظر.

ودخلت بالهدية إلى غرفة الطعام، ثم عادت ومعها صحفة فضية يعلوها قدح صغير مذهب.. وانحنت وهي تقدمه إليه، ولكن محمداً وضع يده على صدره وهو يعتذر، سأكون شاكراً إذا أعفيتني.

- ولكنها خمر جيدة من أحسن أنواع الكونياك.
- لا أشك في حسن ذوقك.. ولكني لا أشرب الخمر.
- لماذا؟
- أنا مسلم!!!...

وانزلقت الكلمة في عفوية ممزوجة بالدهشة، وجمدت عيناها لحظة على وجه ضيفها، إنها تريد أن تتبين خصائص هذه الكلمة الغريبة من ملامحه وقسماته. ولم تشأ أن تحرج الفتى بالإلحاح.. فوضعت الكأس في الصفحة الفضية على النضد النصفي، ثم أخذت مجلسها في مقعد مجاور، وجعلت تنظر إليه، وهي تقول: الإسلام! هذا شيء أذكر أني قرأت عنه في بعض الكتب... وقد أعجبني منه دعوته إلى النظافة. فقال محمد: إن النظافة في الإسلام من الصفات الأساسية.. ولكني أرجو مع ذلك أن يكون الكتاب الذي قرأته عنه من الكتب النظيفة التي لا تتعمد تشويه الحقائق.

ويظهر أن حرارة الوجه التي مازجت كلمات الفتى قد استهوت مشاعر المرأة، فعقبت تقول: الحق أنني لم أقرأ الكثير عن هذا الدين الشرقي، ولم أتعمد البحث عن مضمونه.. حتى أنني لا أذكر بالضبط أين قرأت عنه.

فقال لها: إن كنت ترغبين في قراءة شيء عن الإسلام: فإن لدّي كتاباً بالفرنسية ذا أسلوب أدبي معجب.. وفيه كثير من الحقائق الموضوعية عن هذا الدين.. الإلهي.

وتعمد استخدام كلمة (الإلهي) لجعلها مقابل كلمة (الشرقي) التي وردت في تعبيرها.. وقد عني بإخراجها في نظرات خاصة تلفت الانتباه.. فلم تتردد إذ قالت: سأكون شاكرة إذا أعرتني هذا الكتاب ما دمتَ واثقاً من موضوعيته.

ولم يشأ أن يؤخر الأمر فاستأذن ليأتيها به.. وما هي إلا دقيقتان حتى أقبل عليها.. وهو يقول: إنها مقدمة لكتاب ضخم ألفه عالم مصري اسمه (عبد الله دراز) بعنوان (دستور الأخلاق في القرآن الكريم).. لينال به إجازة الدكتوراه من باريس.

وقبل أن يغادر باب المنزل للمرة الأخيرة التفت إلى المرأة يقول: لعل سؤالاً ما يخطر في بالك أثناء قراءته.. فلو كتبت ذلك لكان فرصة أحسن لبذل ما نستطيعه من الخدمة.

كانت شقة محمد وأخيه عدنان أشبه بمكتبة الجامعة، يرتادها العديد من الطلاب العرب في مختلف أوقات النهار.. وقد تطور أمرها أخيراً حتى أصبح بين روادها الإفريقي الأسود والهندي الأحمر والألباني الأبيض.. وبذلك لم يقف دور الشقة عند حدود المذاكرات الجامعية، بل تجاوزها إلى المدارسات الإسلامية، والعبادات الجماعية، وطبيعي أن هؤلاء الرواد لم يكونوا من طبقة الطلاب وحدهم بل تعددت هوياتهم كما تعددت جنسياتهم، ففيهم الطالب والعامل والتاجر.. والفقير والثري يَفِدون إلى الدار من أنحاء العاصمة، ليتعاونوا على فهم دينهم، وتجديد عقيدتهم، والبحث في شؤون شعوبهم وأوطانهم.. وقد رأوا أن يخصصوا يوماً من الأسبوع يتلاقون فيه على حصص منظمة من الدراسة والعبادة، فحصص للقرآن، وأخرى للحديث ومثلها للفقه، ووقت خاص للاستجمام، وللعبادة.. وهكذا كان يوم الإثنين من كل أسبوع هو اليوم الجامع لهؤلاء الشباب، يتزودون منه بما يعوزهم لبقية الأيام ويتهيئون له بالأفكار الجديدة والأسئلة العديدة.

وفي هذه الغمرة من العمل الدائب كاد محمد ينسى تلك الجارة الفرنسية والكتاب الذي أعارها إياه، لولا ذلك اللقاء اليومي الذي يذكرهم بها عند مدخل البناء أو على الدرج المشترك، فلا يزيد عن تحية أو ردها ثم يمضي كل في طريقه دون سؤال..

ولكن حدث اليوم شيء جديد لم يعهدا مثله منذ حلت هذه المرأة ورفيقها مكانهما من هذا البناء.. كان اليوم هو الإثنين موعد الاجتماع الأسبوعي، وبينما الشقة مكتظة بالرواد مالئين غرفها الثلاث وردهتها الواسعة. إذا بصوت الفرنسية يقتحم الشقة صاعداً من تحت.. وفيه تعنيف يصل إلى مستوى الإهانة، موجها إلى الرفيق الهولندي.. دعني.. إلى متى تمص مالي. وأنت لاصق بمقعدك كالعنكبوت!.. لم أعد أطيق رؤيتك!..

ويرتفع صوت الهولندي خلال ذلك، ولكن في لغة خليط لا يكاد يُفهم منها شيء.. ثم لم تلبث الضجة أن همدت وأعقبها وقع أقدام الرجل يهبط السلم وهو يقذف باللعنات يميناً وشمالاً.

ولم يستطع محمد إلا أن يستكشف النبأ فهبط إلى الدور الأرضي يستوضح السيدة (نيلي بلانشار) الأمر، فإذا هي تخبره أن هذه الفرنسية بدأت تضيق بوجود ذلك الرجل منذ أكثر من شهر.. وقد أعلمتها أمس أنها قد تضطر قريباً لمغادرة المنزل إلى شقة صغيرة تكفيها وحدها.. ويبدو أنها قد تخلت عن الرجل.. فهي إذن على وشك الانتقال من البناء كله..!

وكأن محمداً وجد في هذا الخبر الشيء الذي بحاجة إليه.. فلم يتمالك أن قال لصاحبة البناء: (بوسع هذه الجارة أن تحتل مكاننا إذا كانت تؤثر شقة صغيرة.. على أن ننزل نحن مكانها؛ لأننا بحاجة كما ترين لدار أوسع..).

ولم تر المرأة مانعاً من تحقيق هذا المقترح فوافقت بسرعة.. وأخذت طريقها إلى فوق وهي تقول لمحمد: ذلك خيرٌ لكم ولنا.. لأننا لا نتوقع جاراً أطيب منها..

وعاد الأَخوان مساءً ليجدا كل شيء قد تم على ما يرام بل فوق المرام.. لقد بُدِّلت الدار بالدار ورُتبت أشياؤهما، من كتب وحقائب وما إلى ذلك مما يملك المسافر، في أمكنتها المناسبة في المنزل الجديد.. وكانت الدار بأثاثها الأصلي الفاخر غاية في الأناقة فاستشعروا روح الهناءة، ووقفا هنيهة يخططان للاجتماعات المقبلة.. ولم ينسيا أن يخصصا قاعة مناسبة لصلاة الجماعة وقيام الليل المشترك في أوقاته الأسبوعية.. وشد ما أدهشهم منظر بياضهم مغسولاً مطوياً، ثيابهم منظفة مكوية، وقد نسقت على مشاجبها في الخزائن! فقدّرا فضل الجيران الذين نهضوا بهذا العبء متبرعين، وهمّا بالهبوط إلى الدور الأرضي ليشكرا السيدين على جهدهما المبرور، ولكنهما فوجئا بالجرس يدق، ولما فتحا الباب أطلت منه المرأة الفرنسية تحييهما، وتسألهما إذا كانت ثمة من خدمة أخرى تستطيع تقديمها لهما..!

واستجابت المرأة لدعوتهما، فجلست لترشف قدح الشاي الذي صُبّ لها.. وقالت رداً على الثناء الذي وجهاه إليها: لم أفعل شيئاً كبيراً.. لقد وجدت نفسي في فراغ الأحد، وكان لا بد من نقل أمتعتي إلى داركما الأولى كما اتفقنا، فبدلاً من أن أعود فارغة إلى فوق كل مرة كنت أحمل بعض أمتعتكما بطريقي، بمساعدة الجارة

الكريمة صاحبة البناء، ثم وجدت لدي بقية من فراغ فسليت نفسي بإنجاز بعض الأشياء التي قد يضيق وقتكما عن إنجازها في الوقت المناسب.

قال عدنان: ولكن هذا كثير أيتها الجارة المحترمة..

قال محمد: لقد وضَعْتنا بذلك تحت عبء من الفضل قد نعجز عن مكافأته..

وهنا أثبتت نظرها قليلاً في وجه الفتى الذي صبغه الحياء وبرق ببوادر الشعور بالجميل.. ثم قالت: بل لعل الأمر على العكس.. ولو علمت ما أحدثت عاريتك في نفسي لأدركت أنك أنت المتفضل.

وفجأة وثب إلى خيال محمد صورة تلك الليلة التي طواها وراء ستة أشهر، وتذكر الكتاب الذي أعارها إياه.. فقال: أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لقراءة الكتاب!

- لقد أعدت قراءته خمس مرات..
- وبالطبع كتبت ملاحظاتك عليه..!
- الملاحظات كثيرة.. ولكني لم أكتب واحدة منها خارج قلبي.. أجل.. لقد نقشت انطباعاتي بالكتاب هنا.. على صفحة قلبي التي لا تقبل المحو.

وسكتت وسكت الفتيان يفكران بما يسمعان.. وينظر كل منهما إلى الآخر دون كلام.. حتى عادت المرأة تقول: كنت أحسب أن تجاربي الماضية كانت كافية لصرفي نهائياً عن أي تفكير ديني.. ولكن هذا الكتاب قد كشف لي بشكل مباغت أنني على أتم الجهل بجوهر الدين، وإنني لأول مرة أجد نفسي في مواجهة الحقائق الإلهية، وإنني قضيت شطراً كبيراً من عمري في البحث عنها بغير طائل..

لقد اطمأن قلبي وعقلي إلى هذا الدين... وأريد أن أسألكما عن السبيل إلى اعتناقه..

- قال محمد: إن مجرد الاقتناع به اعتناقه.. ويبقى إعلان ذلك بالشهادتين: أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله..
- فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، لأنني مقتنعة من قديم بهذه الحقيقة وأما رسالة محمد فلا ينكرها إلا كافر بعقله أو كاره للحق.. فهل أنا إذن مسلمة الآن؟!
- بالتأكيد.. ولكن هناك مشكلة..
- مشكلة.. وما هي؟

- هي أن الإسلام نظام كامل.. يؤخذ جملة لا تفاريق.. وهو يفرض على معتنقه سلوكاً معيناً، ومظهراً خاصاً، وخلقاً مميزاً بحيث يمثل في شخصه المتميز الخطوط العملية الكبرى لحقيقته الإلهية.

- أدركت هذا من سلوككم.. الذي أعطاني في الواقع كثيراً من التفسيرات التي لم يتسع لها الكتاب.. لقد سئمتُ الأديان التي تفصل بين السلوك الشخصي والمعبد.. وتتساهل حتى في الفضائل الرئيسية، فلا تتورع عن استخدام المسابح المختلطة، والملاهي العابثة، والمراقص المنكرة، بصفتها وسيلة لاستبقاء الرباط بينها وبين الشباب الطائش.. وكرهت من رجال هذه الأديان بوجه خاص وقوفهم في نطاق الطقوس الرمزية داخل حدود المعبد فيفصلون بذلك بين المعبد والشارع، إذ يفصلون بين لحظات العبادة وبقية الحياة، فيكتفون من المتدين أن يظل على صلة بمعبدهم ولو ساعة في الأسبوع، ثم لا عليه بعد ذلك أن ينطلق وراء غرائزه في سباق محموم لا يعترف بأية رقابة لعين الله، ولا أية مسؤولية تجاهه..! وذلك بخلاف الإسلام الذي تبين لي أنه من الشمول بحيث يعد الأرض كلها معبداً وكل عمل صالح عبادة ما دام المؤمن يأتيه وهو مستهدف رضوان ربه..

وقالت: من أجل ذلك استجابت نفسي كلها لهذا الإسلام، إذ وجدت فيه دعوة الله المتجاوبة مع أعماق الفطرة الإنسانية.. وقد صممت على أن أخضع جميع تصرفاتي إلى أحكامه..

ولم يشأ محمد أن يؤخر ملاحظاته أو يجمجم بها فقال: ولو قضت هذه الأحكام بتغيير نظام حياتك كله!؟

وفي تصميم قاطع أجابت: وما فائدتي من الإسلام إذا هو لم يغيّر طريقتي في الحياة!.. وهل تظن أنني كنت راضية عن نفسي.. ونظام حياتي.. وعن أي شيء مما حولي!..

ثق أيها الجار الكريم أنني كنت إنسانة ضائعة، بل غريقة يتلاعب بها تيار المجتمع على كره منها ولم تكن تصرفاتي الشخصية جميعها إلا محاولة للهروب من الواقع الحائر، الذي تفرضه علي حضارة لا أؤمن بها لإنها حضارة عوراء، لا ترى من الإنسان إلا جانبه الجسدي، ولا تقيم وزناً لأي ظمأ داخلي خارج نطاق المادة. ولقد كان لقائي بك ليلة الهدية أول صدمة شدتني إلى الاتجاه الآخر.. ثم جاء كتاب

الدكتور دراز فدفعني شوطاً بعيداً في هذا الطريق، وكان لطريقة حياتكم في هذا الجوار الطيب أثرها العملي في صيرورتي إلى هذا التقرير المطمئن.. وأنا اليوم بما أدركته من هذا الدين أشعر بأنني عثرت على نفسي ووجدت حقيقتي، ووضعت قدمي في الطريق السوي.. فكيف لا أخضع وجودي كله لحقائق الإسلام، وهو الذي أنقذني من ذلك التمزق، وهداني السبيل بعد ذلك الضياع الوبيل..!

وعقّب عدنان على ذلك قائلاً: ولكن عناءً جديداً ينتظر القابض على هذا الدين.. لعل أهون منه قبض الجمر.. إنه يفرض تطهير الجسد كما يفرض تطهير داخله سواء بسواء.. ويتطلب من المسلمة بوجه خاص التخلص نهائياً من مثل هذه الثياب إلى أشكال أخرى تتم بها الحشمة، دون تضييق ولا تقصير ولا خلاعة.. حتى الشعر لا يأذن بظهوره لأجنبي وهناك صلوات خمس في كل يوم وليلة لا مندوحة عن أدائها.. ثم صيام رمضان الذي نحن فيه هذه الأيام.. ثم كف النفس عن كل شهوة حرمها الله.. كالخمر والرقص المختلط، و الخلوة بالأجنبي.. وأقل ما يجره هذا الاتجاه هو أن تصبحي هزأة لدى الذين سيرون منك كل هذا التغيير دون مسوغ مقنع..

ولم يبق لدى الفتيين ما يقولانه بإزاء هذا الإصرار الحاسم.. فاكتفيا بأن قدما إليها الأوراق التي كتب فيها بالفرنسية صيغ الوضوء والصلاة.. وما لا مندوحة عن معرفته للمسلم المبتدئ.. ثم قال محمد: سنكون جميعاً مسروروين باستقبالك أصيل كل اثنين، إذا شئت أن تحضري معنا بعض الدروس والعبادات وسترحب بك أخوات من السنغال وألبانيا وأندونيسياً وأنحاء أخرى من العالم..

كان أول شيء قامت به (هدى) وهو الاسم الذي اختارته (بوليت غيو) الفرنسية لشخصيتها الجديدة أن دخلت في صباح اليوم التالي على مدير الشركة البلجيكي فقالت له: لدي خبر أرى من واجبي إطلاعك عليه لكي لا يفاجئك.

وابتسم المدير لسكرتيرته في لطف أبوي وقال:

- ما الخبر المفاجئ؟

- ابتداءً من الغد سترون تغيراً بل انقلاباً في حياتي كلها، وأول ما تلمحونه من ذلك في ثيابي التي ستكون أدنى من أردية الرهبان..

- لعلك راغبة في اللجوء إلى الدير!

- كلا.. لا شيء من ذلك.. إنما قررت أن أكون مسلمة..

- مسلمة!.. وهل يعني ذلك.. أن تتركي الكاثوليكية؟

- هو ذاك لأن الإسلام شيء غير المسيحية المعروفة كلها.. وسأعرفك به عندما تريد..

- ولكن الإسلام كما قرأت وكما أخبرنا بعض القسس يحتقر المرأة.. ويجعلها قعيدة في بيتها لا تصلح لأي عمل..!

ذلك من دسائس أعداء الإسلام الذي لا تعرفه مع الأسف إلا عن طريقهم.. أما الواقع فهو أن المرأة لم تسترد اعتبارها الإنساني إلا في ظل الإسلام.. ومهما يكن فذلك بحث نرجئه إلى وقته المناسب... ولكن هذا لن يؤثر على إخلاصي في عملي بل سيزيدني رغبة فيه واتقاناً له، لأنني بذلك أحقق أحد تعاليم ديني الجديد..

ولم يرَ المدير في سكرتيرته أي أمر ذي بال، ما دام إسلامها لن يحول دون استمرارها على عملها بالنشاط المعتاد نفسه.. وقَلَّبَ شفتيه ويديه وهو يقول لها: ذلك أمر يخصك ولا يهمني..

ثم مضت هدى إلى زملائها من مستخدمي الشركة، تنقل إليهم النبأ في لهجة مثقلة بالجد.. أكدت لهم جميعاً أنهم ينكرون غداً مظهرها الجديد لأنه مخالف لمألوفهم، ولكنها ترجو منهم أن يدعوها وشأنها وأن يكونوا على أتم الثقة بأن عقلها لم يتغير وأنها لن تسبب لهم شيئاً من الإزعاج..

وجاء اليوم الثاني.. وغادرت هدى الشقة إلى عملها اليومي في زيِّها الإسلامي الجديد، الذي أعدَّته لها أختها فاطمة الأندونيسية: ثوب سابغ أبيض يمتد من أعلى النحر إلى أسفل الساق، وقد اتسع حتى لا يمثل أي عضو تحته، وخمار زبدي اللون أدير على الرأس وحول العنق، بصورة لا أناقة فيها ولا سذاجة، وفي القدمين المجوربتين حذاء قليل الارتفاع لا يوحي بأي إغراء أو تبذل.. وربما كان أغرب ظواهرها هو هذا الوجه الذي تقابل به الناس لأول مرة منذ ثلاثين سنة ونيف خالياً من كل أثر للزينة أو الطلاء.. فلا أبيض ولا دهان ولا أحمر اللهم إلا حمرة الخجل الذي غشى وجهها جميعاً بلون ساحر..!

وفي سيارة الشركة، التي اعتادت أن تمر بها كل صباح، تلقت أول صدمة.. وذلك حين انصبت عليها أحداق العمال والمستخدمين فاغري الأفواه من الدهشة.. لا تكاد أعينهم تصدق أن هذه هي سكرتيرة المدير!.. وحتى الرجال والفتيات الذين

أنبأتهم خبرها بالأمس لم يتمكنوا من كتمان دهشتهم فراحوا يتغامزون ويتهامسون وهم يسارقونها النظر..

ولم تتمالك رعشةٌ سرت في جسدها وهي تستقبل هذه المفاجأة، ثم غلبها الضعف فإذا دمعتان كبيرتان تتدحرجان على خديها، فتسرع إلى مسحهما بمنديل صغير كانت تشغل أصابعها بلمسه وتقليبه!

وودت لو تطير بها السيارة لتخلص من هذا الجو.. وقد قررت أن تلوذ بغرفتها فلا تغادرها إلا بعد أن يألفوا منظرها الغريب!

ولكن سرعان ما خاب فأل المسكينة، إذ ما كادت تهبط من السيارة إلى داخل مكتبها حتى فوجئت بالمدير، يطل عليها من الباب الخاص، ليقلب نظره طويلاً في هذا الزي الذي لمحه عن بعد.. والذي سمع المستخدمين يتهامسون بشأنه..!

وانتبه المدير إلى موقفه فلم يسعه إلا أن يتكلم أسعدت صباحاً أيتها الآنسة. أرجو ألا تجدي ما يزعجك طوال اليوم!

واستمرت حياة هدى على هذا المنوال أياماً طوالاً.. لقيت في أثنائها الأمرين من فضول الناس.. فلم تجتز شارعاً، ولم تطأ حانوتاً ولم تركب حافلة، ولم تدخل مركز الشركة إلا سمعت الهمس، ورأت الغمز واللمز.. وقابلت ذلك كله بجلد هائل.. ولكنها ما تكاد تخلو إلى نفسها في بيتها حتى تستسلم إلى بكاء طويل ونشيج محرق..!

وجاءت صاحبة البناء ذات يوم إلى دار الطلاب لتخبرهم أن جارتهم التي من حقها أن تكون سعيدة في عيد ميلادها اليوم أغلقت عليها بابها لتنخرط في بكاء حزين. وهبطوا: عدنان ومحمد والبلجيكية لاستطلاع خبرها.. وبعد أكثر من دقيقة استجابت لدعوة الجرس وفتحت لهم الباب، فدخل الفتيان إلى الردهة ليأخذا مكانهما بانتظارها.. ولما عادت نحوهما في رداء الاستقبال، كان أثر الدمع لا يزال على خديها.

ورحبت بهم في صوت لم تستطع إخلاءه من أثر البكاء..

وتكلم محمد في كثير من التحفظ: لقد كثرت أحزانك في هذه الأيام.. ولا بد أنها نتيجة لوضعك الجديد، ولما يواجهك بسببه من مزعجات.. وكان الأولى أن تقابلي ذلك بالصبر الذي وراءه الأجر..

أحسّت في تلك العبارة ما حرك أشجانها من جديد، فلم تستطع منع عينها من

الدمع.. وترددت ملياً تغالب نفسها، وتسترد أنفاسها، حتى استطاعت أن تستأنف: حقاً إنها لأحداث مزعجة تلك التي أصادفها في كل مكان.. ولكنها لا تزيدني إلا شعوراً بالرضى وإشفاقاً على هؤلاء المساكين الذين لا يعلمون ما يعملون.. ولعل كثيراً من دموعي وأحزاني لا تعدو أن تكون تعبيراً عن الغبطة الروحية التي تستغرقني، عندما أشعر بأنني أتحمل بعض التضحية في سبيل الله.. غير أن أخوف ما يخيفني هو أن يكون البعض الآخر من هذه الدموع والأحزان نتيجة لضعف خفي في قوتي الروحية!..

وتهدج صوتها، ثم عاقها النشيج عن متابعة الكلام.. فأمسكت لتمسح دموعها وتهدئ أعصابها.

ورأى محمد أن يساعدها على هواجسها فقال: إن مثل هذه الظاهرة تبدو جلية في جميع الذين هدوا إلى الإسلام من أخوتنا الأوروبيين. وهذا كما يبدو لي نتيجة رهافة بالغة في العواطف، ولدتها الأشواق الروحية والتأمل المستديم في معاني القرآن الحكيم.. وهنا رفعت هدى بصرها إلى محدثها وقد شاع في وجهها بشر خفي ثم قالت وفي صوتها رنة السعادة: لكم يسرني أن يكون استنتاجك مصيباً أيها الأخ.. الحق أنني أحس في قلبي رقة لم أعهدها قبل إسلامي.. وكثيراً ما يطغى عليّ هذا الشعور حتى أغيب في فيضه عن كل شيء، إلا تلك الإشارات السماوية التي اكتشفها كل يوم في الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة.

وتوقفت قليلاً كأنما أعترضها خاطر مفاجئ.. ثم قالت: لقد عرضت عليّ أختي بنت سفير السنغال أن أترك الشركة إلى سفارتهم، لعلي أجد الجو الإسلامي الذي يريحني من مضايقات المخالفين.. فترددت أولاً، ثم رأيت أن أقبل هذا العرض وإن كان دخله دون مرتبي الأول، لإنه سيوفر لي من الراحة النفسية ما أنا في مسيس الحاجة إليه.. وفي هذه المناسبة أقول لكما أنني قررت الاكتفاء بالضروري من دخلي لأجعل ما يزيد عن حاجتي في خدمة الدعوة، ولمساعدة الفقراء من لاجئي الألبان المسلمين وسوف أفتح منزلي لاستقبال أطفال هؤلاء الذين تضطر أمهاتهم إلى تركهم للعمل في أثناء النهار.. وعندي اقتراح آخر هو أن نتخذ من هذا المنزل مركزاً خاصاً لاجتماعات نسوية أسبوعية تضم المسلمات وغير المسلمات من المثقفات الأوروبيات اللواتي نأنس فيهن رغبة في الحق، وقدرة على فهمه..

[رجال ونساء أسلموا: ١/ ١٣٦- ١٦٤]

أصحاب الكهف

خرج أهل أفسوس(١) في يوم عيدهم، يحتفلون بأوثانهم، ويتقربون لأصنامهم، ولكنّ شاباً من أشرافهم، وأكرم بيوتهم، لم تطمئن نفسه إلى ما رأى، ولم يسترح عقله إلى الآلهة التي يعبدون، فشكّ وارتاب، واضطرب تفكيره وتحيّر، ثم انسلّ من بين جموعهم، وخرج متخفياً من صفوفهم، حتى انتهى إلى شجرة جلس إليها، ساهماً مطرقاً، مرتاباً متحيراً.

وما لبث أن تهادى إليه آخر، ممن ذهب مذهبه في شَكِّه وحيرته، واضطرابه وارتيابه، وممن أشبهه في شرف عنصره، ثم آخر وآخر، حتى انتهى عددهم إلى سبعة، وما أسرع ما تعارفت أرواحهم، وتعانقت آراؤهم، وألّفَتْ بينهم فكرة واحدة، وإن لم يكن بينهم نسب جامع، أو رحم ماسة، وأعلنوا لأنفسهم شكّهم وارتيابهم، وإنكارهم لآلهة أقوامهم، ثم جالوا في رحاب الكون ببصائرهم النافذة، وفِطَرِهم السليمة حتى ضاءت نفوسهم بنور التوحيد، وهُدُوا إلى الله منشئ الخلق وسر الوجود، واستراحوا إلى هذا الدين واطمأنوا إليه، واتفقوا على أن يكتموه بين جوانحهم، ويستروه في أعماق نفوسهم، إذ كان الملك وثنياً ممعناً في الوثنية، مشركاً ظهيراً للمشركين.

وظل كل واحد يخوض فيما يخوض فيه القوم، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، حتى إذا ما خلا بنفسه، واجتمع مع قلبه، اتجه إلى الله عابداً مصلياً، ومنزهاً ومقدساً، حتى إذا كانت إحدى ليالي اجتماعهم، وانتظام عِقْدِهم، قال أحدهم في صوت خافت، وحذر مريب: لقد سمعت بالأمس يا أخوتي خبراً لو صدق راويه — ولا أخاله إلا صادقاً — فإنّ فيه إفساد ديننا، أو ذهاب حياتنا. سمعت أن الملك قد علم بأمرنا، وافتضح عنده عقيدتنا وديننا، فثار ثائره، وهاج هائجه، وتوعّدنا شراً إن لم نرجع عن هذا الدين الذي أُشْربته نفوسناً وانسجم مع عقولنا وتفكيرنا، وإنه يوشك أن يطلع علينا الغد، فإذا جُمعنا في حضرته، وبين وعده ووعيده، وسيفه

---

(١) أفسوس: بلد اختلف في تحديد موقعه، ويقال إنه بثغور طرطوس، كما يقال إنه مدينة أريحا الحالية وهو الأرجح، والله أعلم.

ونطعه[١]، فتدبروا أمركم، واحزموا رأيكم.

قال الثاني: هذا خبر كنت سمعت به قبل فحسبته من إرجاف المرجفين، وتأويل الجاهلين، ولكن يظهر أنه استفاض وذاع، حتى دل على صدقه، أو إمكان وقوعه، وما أرى إلا أن نثبت على ديننا، ونصمد لاضطهاد يراد بنا، ومحال أن نرجع إلى هذه التماثيل التي يعبدونها، بعد أن عرفنا فسادها وبطلانها، ولسنا براجعين عن عبادة الله، ومع مطلع شمس كل يوم دليلٌ على وجوده، وفي كل سبحةٍ من سبحات التفكير شاهدٌ على عظمته.

وصدقت الإشاعات، وصحت الأخبار، وانتظم جمعُهم أمام الملك، بعد أن انتزُعوا من منازلهم، وأُخذوا من بين يدي أهليهم.

قال لهم: لقد حاولتم ستر أمر فلم تفلحوا، وجاهدتم في كتمان دين ولكنكم لم تنجحوا، وقد انتهى إليّ خبركم. ووصل إليّ أنكم رجعتم عن دين الملك والرعية، إلى دين لا أدري كيف هبط عليكم، أو وصل علمه إليكم. وقد كان يهون عليّ أن أترككم تهيمون في دينكم، وأن ألقي حبلكم على غاربكم[٢]، لولا أني علمت أنكم من أشراف قومكم، ومن أوساط عشائركم، وتوشك العامة - لو علمت بأمركم - أن ترد شريعتكم، و تدخل دينكم، وتتبع طريقتكم، وفي ذلك ما فيه من إفساد المُلك، وانتقاض حبل الأمان. ولست بمعجّل لكم العذاب، أو موقع عليكم العقاب، حتى تفكروا فيما أنتم مقدمون عليه، فإما رجوع إلى ملتنا وإذعان لما فيه الناس، وإما أن يرى الرائي فإذا أمامه رؤوس ملقاة، وأشلاء ممزقة، ودماء منكم تسيل.

وربط اللهُ على قلوبهم، وأيّدهم في إيمانهم، فقالوا: أيها الملك، إن هذا الدين لم ندخل فيه مقلدين، ولم نعتنقه مكرهين، ولم نسر فيه جاهلين، وإنما دعتنا إليه الفطرة فلبيّنا، وأضاء لنا العقل وفي ضوئه سرنا، هو اللهُ الأحد، لن ندعو من دونه إلهاً. أما قومنا هؤلاء فقد عبدوا أصنامهم جاهلين مقلدين، لم يأتوا عليها بسلطان، ولم يُدلُوا

---

(١) النطع: بساط من الجلد كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل لامتصاص دمه.

(٢) الغارب: أعلى كل شيء. وما بين كتفي الإنسان. ومن البعير ما بين السنام والعنق، وهو الذي يلقى عليه خطام البعير (الحبل) إذا أرسل ليرعى حيث شاء.

عليها ببرهان.. هذا ما انتهى إليه علمنا ورأينا، فاقض ما أنت قاض.

قال الملك: اذهبوا اليوم على أن تأتوني في الغد أنظر في أمركم، وأفصل في قضيتكم.

وخلصوا إلى أنفسهم يتشاورون فيما يفعلون، ويُجيلون الرأي كيف يصنعون! قال واحد منهم: أما وقد عرف الملك أمرنا فلا مقام لنا بين وعده ووعيده، وأطماعه وتهديده، ولنفرّ بديننا إلى ذلك الكهف من الجبل، فإنه قد يكون على ظلامه وضيقه، أفسح صدراً، وأطيب مكاناً من هذه الأرض الواسعة التي لا نستطيع أن نعبد الله فيها كما نريد، وأن نجهر بديننا كما نعتقد، ولا قرار في مكان نُردُّ فيه على دين لا نطمئن إليه، ولا كرامة في وطن نقهر فيه على رأي لا نعتقده.

وساروا جميعاً يحملون زادهم، مفارقين أوطانهم، مهاجرين بدينهم. ولمحهم كلب في الطريق، فسار في أثرهم، وتعلق بهم، فلم يروا بأساً في أن يرافقهم، يصحبهم أو يحرسهم.

وما زالوا في سيرهم حتى انتهوا إلى الكهف[1]، وهناك وجدوا ثماراً فأكلوا، وماءً فشربوا، ثم اضطجعوا قليلاً ليُبردوا أقدامهم، ويعيدوا ما ذهب من عافيتهم في أثناء سيرهم، ولكنهم ما لبثوا أن أحسوا إغفاءة خفيفة، داعبت جفونهم، ثم أسلمت رؤوسهم إلى الأرض في نوم عميق.

وتعاقب ليل إثر نهار، ومضى عام وراء عام، والفتية راقدون، والنوم مضروب على آذانهم، لا تزعجهم زمجرة الرياح، ولا يوقظهم قصف الرعود، تطلع الشمس فتنفذ إلى الكهف من كوَّته، فتمنحه الضوء والحرارة، ولكن أشعتها لا تصل إليهم، وتغرب فتميل وتبتعد، تحقيقاً لما أراد الله من حفظ أجسادهم، وبقاء جثثهم، ولو اطّلع مطّلع عليهم لرآهم يتقلبون مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، وقد تغيّرت حالهم، يبعثون الرعب فيمن يراهم، والهول فيمن يراهم، والهول فيمن يطّلع عليهم.

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة منذ نومهم، انتبهوا بعدها، وهم لا يكادون يمسكون نفوسهم عن الجوع، أو يجمعون أعضاءهم من التعب، ظانين أن الزمن لم يمض بهم،

---

(١) اختلف في موضع الكهف: وأقرب الأدلة عليه أنه شرقي مدينة عمان العاصمة الأردنية، لوجود آثار تدل على ذلك. والله أعلم.

وأن عجلة التاريخ واقفة عند كهفهم.

قال واحد منهم يسأل: يخيّل إليّ أننا رقدنا وقتاً طويلاً، فما تظنون يا إخوتي؟ وقال الثاني: ربما نكون قد لبثنا يوماً أو بعض يوم، فإن الجوع الذي نشعر به، ليُؤذِن بما أظن. وقال الثالث: دعونا من تساؤلكم، فالله أعلم بما لبثتم، ولكنني أحس الجوع الشديد ، وكأني لم أُطْعَم منذ ليال، فليذهب واحدٌ منكم إلى المدينة يلتمس لنا طعاماً، وليكن حذراً لبيباً، فطناً أريباً (ذكياً)، حتى لا يعرفه أحد، ولا يفطن إليه إنسان، إنهم لو ظهروا علينا، وعرفوا مكاننا، يقتلوننا أو يفتنوننا في ديننا.

فخرج إلى المدينة واحد منهم يلتمس الطعام، وهو خائف حذر، ودخل أفسوس، وما راعه إلا تغيير في معالمها، وانقلاب في مبانيها: هذه خرائب أضحت قصوراً، وتلك قصور أمست خرائب وأطلالاً، وتلك وجوه لم يعرفها، وصور لم يألفها.

أما الديار فإنها كديارهم   وأرى رجال الحيّ غير رجاله

وتحيرت نظراتُه، وكثرت لفتاته، وظهر الاضطراب في مشيته، والوجوم في حيرته، وألحّ عليه الاضطراب، وتتابع الوجوم، حتى لفت الناس إليه.

قال له أحدهم: أغريب أنت عن هذا البلد؟ وفيم تتأمل؟ قال: لستُ غريباً ولكنني أبحث عن طعام أشتريه، فلا أرى مكان بيعه. وأخذ الرجل بيده حتى انتهى به إلى صاحب طعام، وأخرج صاحب الكهف دراهمه، ونقدها التاجر، وما راعه إلا أن رأى نقوداً ضُربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام، فحسب أنه عثر على كنز، وأن من وراء دراهمه دراهم كثيرة، وأموالاً عظيمة، فجمع الناس من حوله وأقبلوا إليه من كل مكان.

فقال: يا قوم، ليس الأمر كما زعمتم، وليست هذه النقود كما توهمتم، وإنما هي دراهم قد وقعت لي في بعض معاملتي مع الناس بالأمس، وأنا أشتري بها طعامي اليوم، فما يدعوكم إلى الدهشة؟ وما يدفعكم للافتراء عليّ بما تظنون! ثم همّ بالعودة، خشية أن يفتضح أمره، أو تظهر حقيقة حاله، ولكنهم عادوا فرفقوا به وتلطّفوا معه في القول، وحاوروه في الحديث. وما كان أشد ذهولهم حينما علموا أنه أحد الفتية الأشراف، الذين هربوا منذ تسع وثلاثمائة سنة من ملكهم الجائر الكافر، وأنهم هم الذين – فيما سمعوا – طلبهم الملك فلم يظفر بهم، ونشدهم فلم يهتد إليهم. وما كان أشد خوف الرجل حينما علم أنهم فطنوا لأمره، وعرفوا قصته، فخاف على نفسه

وعلى إخوانه، وهمّ بالهرب.

قال له أحدهم: لا تُرع يا هذا إن الملك الذي تخافه قد مات من نحو ثلاثمائة عام، وأن الملك الذي يجلس الآن هو مؤمن بالله كما تؤمنون، وأما أنت فأين بقية صحبك؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله، وعرف تلك الفجوة من التاريخ، التي تفصل بينه وبين الناس، فهو الآن لا يعدو أن يكون شبحاً يمشي، أو ظلاً يتحرك. ثم قال لمن يحدثهم دعوني أذهب إلى صحبي في الكهف، أحدثهم عن شأني وشأنهم، فربما يكون قد طال انتظارهم، واشتد قلقهم.

وسمع الملك بأمرهم، فخف إلى لقائهم، وسعى إلى كهفهم، فرأى فيهم قوماً أحياء تشرق الحياة وجوههم، وتجري الدماء في عروقهم. فصافحهم وعانقهم، ودعاهم إلى قصره، والإقامة في داره، فقالوا: وما نبغي بالحياة، وقد مات الحفيد والولد، وعفت الدار والسكن، وانقطع ما بيننا وبين الحياة من أسباب؟! ثم توجهوا إلى الله طالبين أن يختارهم إلى جواره، وأن يشملهم برحمته، وما هو إلا ارتداد الطرف حتى وقعوا أجساداً لا حياة فيها.

أما القوم فقالوا: لعل الله أعثرنا عليهم، لنعلم أن وعد الله حق، و البعث صدق، والساعة آتية لا ريب فيها. ثم تنازعوا أمرهم بينهم.

[جاد المولى وآخرون، قصص القرآن: ٢٣٣- ٢٣٩]

ريحانة

لم تكن تدري من أمرها شيئاً ولم تكن تعلم عن شأنها أمراً. إلا أن اسمها ريحانة.. وأن الغزاة قد أغاروا على قومها مرة.. فسلبوا ونهبوا.. وقتلوا.. ثم أكمل الوباء على ما تركوا.. وأتى على ما خلفوا.. وقد يكون لصغرها.. وضآلة حجمها.. واعتلال بدنها.. أثره في أن تركها الغزاة عمداً.. ولم يصبها الوباء.. عبرة ودرساً.. وترعرعت ريحانة وأصبحت شابة تعيش في الصحراء.. وحيدة.. إلا من ناقة تحلب لها.. وبعض دجاجات وقلة من نعاج وخراف.. وكانت تقتات مع دوابها ودواجنها ما تنبته الأرض من خضر قد تتعمد زراعته.. وقد تجود عليها الأرض بإنباته.. تأوي في ليلها.. أو إذا اشتد لهيب شمسها.. إلى خيمة متداعية الأركان.. ممزقة الأجزاء..

ولكنها راضية الرضا كله.. قانعة القناعة كلها.. حامدة الله.. حمد من امتلك الدنيا.. بكل ما فيها.

وذات يوم هبت عاصفة هوجاء.. كما لم تهب من قبل. واصفر الجو.. وتبدل الحال إلى الحال فسارت الكثبان والتلال. وطارت الرمال والتراب. وسارعت ريحانة.. فنزلت في حفرة ذات عمق واتساع.. على بعد مناسب من خيمتها. تحتمي بها مما حسبته.. الإيذان بيوم القيامة.. وما هي إلا ساعة أو بعضها حتى سكن الهواء.. وهدأت العاصفة.. وكأن شيئا لم يكن.. وخرجت ريحانة من الحفرة.. لتجد الأمر قد تبدل.. والحال قد تغير.. تماماً.. وكاملاً.. وشاملاً.. فقد انقلبت القدر التي كانت على النار.. وأمسكت النار ببعض الحشائش.. ثم بالخيمة.. ثم بالدواب والدواجن فأتت على كل أمرها.. حتى هذه النباتات الصغيرة التي كانت تلتقطها.. اقتلعتها العاصفة.. ودفنتها في الرمال.. وتلفتت ريحانة.. لتجد أنها أصبحت بلا شئ.. أي شئ.. لا خيمة ولا دجاجة.. ولا عود من نبات.. ولا ملبس ولا مأكل.. وأجالت ريحانة بصرها في السماء.. وهتفت راضية.. باسمة.. عامرة القلب وقالت: ربي أفعل بي ما شئت فإن عليك رزقي.

وفي لحظات أقبلت عليها قافلة.. كانت على بعد منها حينما داهمتها العاصفة.. فأخذت تدور حول نفسها اتقاء لأخطارها..ولم تهتد القافلة بعد.. إلا بالنار التي كانت مشتعلة.. في متاع ريحانة حيث لجأت إليها.. وقدمت ريحانة للقافلة كل ما كانت قد أعدته العاصفة والنار قسراً.. جبراً وقسراً.. من الشواء.. دجاجاتها المحترقة.. وخرافها.. وناقتها الناضجة من النار.. فأكلوا وشربوا.. وحمدوا الله للمرأة.. على ما قدمت.. وعلى ما وجدوا.. منها.. وقرّ قرارهم.. أن يحطوا رحالهم.. حتى أتموا بناء دور في المكان.. يفد إليها المرتحلون.. ويحط عندها المسافرون.. وتزوجها شيخهم.. و تناثرت الدور.. وتكاثر الزرع والثمر.. واندثر الخلق في زمانها من رجال ونساء، ونسي الناس أسماء الملوك والأمراء.. وظلت ريحانة.. أسمها يدوي.. يردده الرائح والغادي.. فلقد أصبح المكان.. هو واحة ريحانة.. مما يقصده كل عابر للطريق أو سائل للسفر.. وكل من سمع بقصتها أو مر بديارها.. ترحم عليها.. وذكرها بأحسن ما يذكر الإنسان..

[كانوا، لعبد الرزاق نوفل: ١٥، ١٦]

عودة فروخ
المفاجأة التي ذرفت لها الدموع

آثر فروخ أن يستقر بعد أن يصحب سيده أمير خراسان في معاركه، اشترى بيتا وتزوج مكتفياً بالعيش على ما بقي لديه من مال الغنائم، لكن حنين السيوف لا زال يداعب شغاف قلبه.

انتهز يوماً نداء خطيب المسجد النبوي، يحض الناس على الجهاد، أعلن عزيمته وودع زوجته التي بادرته: ولمن تتركنا يرحمك الله أنا وجنيني هنا؟

قال: لله ورسوله، لديك ما جمعته من الغنائم، انفقي منها حتى أعود أو أرزق الشهادة، وضعت الزوجة مولودها، مليح الوجه وضاء الجبين وسمته ربيعة، بدت على مخايل الطفل علامات الذكاء قررت الأم أن تسلم طفلها للمؤدبين، وكلما رأت الأم تفوق ابنها أغدقت على المعلمين المال، لكن الحسرة تشعل القلب وهي ترى الأيام تباعد بينها وبين زوجها الذي طالت غربته فقيل: إنه استشهد في سبيل الله.

يواصل ربيعة علمه مقبلاً على حلقات العلم في مسجد مدينة رسول الله ﷺ ، وما زال الطالب يجتهد وذكره يرتفع حتى أصبحت له في ليلة صيف عليلة النسمات، دخل المدينة فارس يلملم بقايا عقده السادس، وفي عينيه تساؤل، وفي نظراته بحث، يحدث نفسه: هل بقيت داره قائمة بعد هذا الغياب؟ ماذا حل بالزوجة!هل وضعت مولودها أم حدث لهم من أحداث الزمان حادث!! ثلاثون عاماً كافية لتغيير الملامح، الوقت ما زال مبكراً، بقايا المصلين من صلاة العشاء يغادرون المسجد النبوي وتزدحم بهم الطرقات، لماذا يمر الناس به ولا يلتفتون؟ هل نسيه الناس بهذه السهولة.. يسير الشيخ، يجتر أفكاره، سارحاً مع خيالاته حتى وجد نفسه أمام داره.. دق قلبه شوقا ورهبة من مفاجأة اللقاء. دخل من باب بيته الموارب، يدفعه بقوة. عندما سمع صاحب البيت صرير الباب، أطل من نافذته، هاله أن يرى غريباً يجوس في صحن الدار، ركبه الغضب وتقدم من الشيخ ممسكا بتلابيبه، أتقتحم علي داري يا عدو الله؟!

علا صياحهما، واجتمع الجيران.

ما أنا بعدو الله، هون عليك إنما هذا بيتي.. استدار يحدث الناس من حوله هذا بيتي يا قوم، اشتريته بمالي، ألا تعرفونني!! أنا فروخ! هل نسيتم فروخاً؟!

استيقظت الأم، وأطلت فرأت زوجها.. أمعقول ما أشاهد وأرى؟!.. هالتها المفاجأة.. هل أنا في حلم؟.

عقدت الدهشة لسانها. وما لبثت أن نادت ابنها بصوت مرتجف:

دعه يا ربيعة، إنه أبوك يا ولدي! وحذاري يا أبا عبد الرحمن أن تمسه بسوء، إن من يقف أمامك ابنك.

أقبل الولد على أبيه والوالد على ابنه يضم أحدهما الآخر ويقبله، ونزلت أم ربيعة تسلم على ما احتسبته عند الله شهيداً(١) لانقطاع أخباره.

التأم شمل الأسرة، شمل الفرح الوالد والولد، ولم يشمل أم ربيعة إذ كيف تفسر لزوجها ضياع أمواله وكيف تبرر له ذلك؟ هل يصدقها أم تهب به الظنون. قطع فروخ على زوجته شرودها.

جئتك بأربعة آلاف درهم، هات ما لديك حتى نضيف إليه هذا المبلغ، ونبحث عن بستان نشتريه ونعتاش من غلته ما بقي لنا من العمر.

لكن الزوجة تشاغلت عن سؤال زوجها ولاذت بالصمت.

كرر فروخ طلبه: أين المال يا أم ربيعة! هاتيه نضمه لبعضه بعضاً.

ردت أم ربيعة بارتباك: في مكان آمن، سآتيك به بعد أيام إن شاء الله.

علا صوت المؤذن، نهض فروخ يتوضأ، سأل عن ابنه فأجابته: سبقك إلى المسجد.

وصل فروخ إلى المسجد، وجد الصلاة قد انتهت، فصلى المكتوبة وسلم على رسول الله ﷺ، وبعض النوافل قبل أن يغادر المسجد.

استوقف فروخ في طريقه مجلس للعلم في صحن المسجد لم ير له مثيل.

رأى الناس يتحلقون حول الشيخ منصتين.

حاول أن يعترف إلى صاحب الحلقة فلم يستطع لبعده عنه، وما لبثت أن أنهى الشيخ درسه ونهض الناس يتدافعون من حوله، يوصلونه خارج المسجد.

استوقف أحدهم يسأله: من الشيخ أيها الأخ؟! رد الرجل مستغرباً الا تعرف صاحب الحلقة؟ ألست من هذه المدينة يا هذا؟.

---

(١) احتسبته عند الله: طلبت أجرها عليه من الله تعالى.

بلى من أهلها ولكنني غادرتها من زمان بعيد.

لا يأس عليك إذاً، إنه أحد سادات التابعين، فقيه المدينة ومحدثها، ومن تلاميذه مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان، و...و...،

لكنك لم تقل لي من يكون الشيخ.

إنه ربيعة الرأي.

ربيعة الرأي؟!!

نعم، اسمه ربيعة، وكناه علماء المدينة بربيعة الرأي لسداد رأيه.

أنسبه لي يرحمك الله فقد شوقتني.

إنه ربيعة بن فروخ المكنى بأبي عبد الرحمن، ولد بعد أن ذهب والده للجهاد وعمدت أمه إلى تعليمه وتربيته.

فاضت عينا فروخ شكراً وفرحاً، وتدحرجت دمعتان ساخنتان على خديه ثم انطلق مسرعا نحو بيته لا يلوي.

استقبلته زوجته وبقايا الدموع ما زالت عالقة في عينيه، تسأله مدهوشة: ما بك يا أبا عبد الرحمن، أحدث مكروه لا قدر الله؟!!.

خيراً والحمد لله، لقد شاهدت ولدنا في مقام لم أحلم أن أراه به، وهذه الدموع دموع فرح والحمد لله رب العالمين.

هنا أضاءت عينا أم ربيعة وقالت باسمة: أيهما أحب إليك يا أبا ربيعة الدراهم، أم ما رأيت عليه ولدنا؟ رد فروخ بلا تردد: ما رأيت عليه ولدنا يعدل كل أموال الدنيا.

لقد أنفقت المال على ما رأيت فهل طابت نفسك؟.

نعم، والحمد لله على أن رزقني زوجة تحرص على العلم وتربي أولادها عليه، هكذا تكون الأمهات، وجزاك الله خيراً.

[انظر: وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٠، وصور من حياة التابعين ١٣٥- ١٥٤]

☆ ☆ ☆

مراجع مختارة

١- ابن قتيبة الدينوري: **عيون الأخبار**. دار الكتب العلمية، بيروت.
٢- جمال الدين ابن الجوزي: **كتاب الأذكياء**. دار الكتب العلمية، بيروت.
٣- أحمد الهاشمي: **المفرد العلم في رسم القلم**. دار الفكر، بيروت.
٤- ابن عبد ربه: **العقد الفريد**. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٦٥
٥- ابن كثير: **البداية والنهاية**. دار المنار، القاهرة، ٢٠٠١.
٦- أبو حاتم البستيني: **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**. دار الكتب العلمية، بيروت.
٧- أبو إسحاق إبراهيم القيرواني: **زهرة الآداب وثمر الألباب**. دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧
٨- أبو علي المحسن التنوخي: **الفرج بعد الشدة**. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧
٩- ابن هشام: **السيرة النبوية**. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧١
١٠- ابن حيان (المعروف بوكيع): **أخبار القضاة**. عالم الكتب، بيروت.
١١- أبو الحسين المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢
١٢- الجاحظ: **البيان والتبين**. الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.
١٣- محمد عبد الملك الزغبي: **مناظرات الأئمة**. مكتبة الإيمان المنصورة، ١٩٩١
١٤- محمد أبو زهرة : أبو حنيفة: **حياته وعصره**. دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩١
١٥- الجاحظ: **البخلاء**. المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٨
١٦- موسى محمد علي: **سيد الشهداء الإمام الحسين**. عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥
١٧- نور الدين الهيثمي: **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**. مكتبة المعارف الرياض.
١٨- يوسف القرضاوي: **الإيمان والحياة**. مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٩- يوسف القرضاوي: **عالم وطاغية (مسرحية)**. مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٠- محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**. دار القرآن الكريم، بيروت.
٢١- خالد سيد علي: **صيد القلم**. اليمامة للنشر والتوزيع، الكويت.

٢٢- عبد العزيز البدري: **الإسلام بين العلماء والحكام**. المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
٢٣- علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي: **أخبار عمر**. المكتب الإسلامي، بيروت.
٢٤- مصطفى أبو زيد فهمي: **فن الحكم في الإسلام**. المكتب المصري الحديث، القاهرة.
٢٥- عبد الودود شلبي: **إجابات حاسمة إلى الأخت الفرنسية المسلمة**. مؤسسة الخليج العربي، القاهرة.
٢٦- محمد أحمد جاد المولى وآخرون: **قصص القرآن**. دار الجيل، بيروت.
٢٧- صلاح الخالدي: **تهذيب كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضل الجهاد**. دار النفائس، عمان.
٢٨- مصطفى صادق الرافعي: **إعجاز القرآن**. دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٩- مصطفى صادق الرافعي: **وحي القلم**. دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٠- مصطفى صادق الرافعي: **تاريخ آداب العرب**. دار الكتاب العربي، بيروت.
٣١- زكي الدين المنذري: **الترغيب والترهيب**. دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٨
٣٢- سعد جمعة: **الله أو الدمار**. المختار الإسلامي، القاهرة.
٣٣- عبد الرحمن رأفت الباشا: **صور من حياة الصحابة**. دار الدعوة، القاهرة.
٣٤- عبد الرحمن رأفت الباشا: **صور من حياة التابعين**. دار الدعوة، القاهرة.
٣٥- محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي: **أيام العرب في الإسلام**. دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨
٣٦- عبد العزيز بن يحيى الكناني: **الحيدة**. رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.
٣٧- عبد الله علوان: **تربية الأولاد في الإسلام**. دار السلام، حلب.
٣٨- شهاب الدين الأبشيهي: **المستطرف في كل فن مستظرف**. دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٩- بكري شيخ أمين: **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**. دار الأوقاف الحديثة، بيروت.

٤٠- محمد أحمد جاد المولى وزميلاه: **قصص العرب**. دار الجيل، بيروت.
٤١- محمد الخضري بك: **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**. دار إحياء العلوم، الدار البيضاء.
٤٢- محمد علي قطب: **قصص القرآن**. المكتبة العصرية، بيروت.
٤٣- مصطفى السباعي: **من روائع حضارتنا**. وزارة التربية والتعليم، عمان، الأردن.
٤٤- محمود محمد سفر: **دراسة في البناء الحضاري**. رئاسة المحاكم الشرعية، قطر.
٤٥- علي فكري: **أحسن القصص**. دار الكتب العربية، بيروت.
٤٦- أحمد زكي صفوت: **جمهرة رسائل العرب**. دار المطبوعات العربية.
٤٧- علاء الدين الغزولي: **مطالع البدور في منازل السرور**. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
٤٨- ابن الجوزي: **تلبيس إبليس**. دار المنار، القاهرة.
٤٩- عبد الله علوان: **الأخوة الإسلامية**. دار السلام، حلب.
٥٠- أحمد الشرباصي: **الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز**. دار الجيل، بيروت.
٥١- شعيب الحريفيش: **الروض الفائق**. دار الفكر، بيروت.
٥٢- جمال الدين ابن الجوزي: **صفة الصفوة**. دار الحديث القاهرة.
٥٣- خير الدين الزركلي: **الأعلام**. دار العلم للملايين، بيروت.
٥٤- إبراهيم زيدان: **نوادر الأدباء**. مكتبة الهلال، القاهرة، ط٣.
٥٥- محمد أحمد الراشد: **صناعة الحياة**. دار البشير، طنطا.
٥٧- محمد متولي الشعراوي: **الإسلام وحركة الحياة**. المختار الإسلامي، القاهرة.
٥٨- الإمام النووي: **رياض الصالحين**. دار الجيل، بيروت.
٥٩- أحمد بن الشيخ حجازي: **المجالس السنية في شرح الأربعين النووية**. ١٩٨٨
٦٠- أبو علي المحسن التنوخي: **المستجاد من فعلات الأجواد**. مطبعة الشرقي، دمشق.
٦١- علي سامي النشار: **شهداء الإسلام في عهد النبوة**. مكتبة أسامة بن زيد، بيروت.
٦٢- ابن سعد: **الطبقات الكبرى**. دار صادر، بيروت.

٦٣- يوسف القرضاوي: **مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام**. مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٤- علي بن السيد عبد الرحمن الهاشم: **المجالس السنية في شرح الأربعين النووية**. ١٩٩٨
٦٥- نور الدين الهيثمي: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. مكتبة القدس، القاهرة.
٦٦- ابن عبد البر القرطبي: **بهجة المجالس وأنس المجالس**. دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٧- أبو الفرج الجريري: **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناجح الشافي**.
٦٨- محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**. دار الشرق، بيروت.
٦٩- مناع القطان: **مباحث في علم القرآن مؤسسة الرسالة**. بيروت.
٧٠- محمد عقله الإبراهيم: **تربية الأولاد في الإسلام**. مكتبة الرسالة الحديثة، عمان.
٧١- أبو الحسن الندوي: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**. دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٢- أحمد نصيب المحاميد: **الأمانة والأمناء**. دار الفكر، دمشق.
٧٣- عبدو محمود: **نساء من التاريخ العربي والإسلامي**. دار ربيع للنشر، حلب، سورية.
٧٤- محمد الغزالي: **تأملات في الدين والحياة**. دار الدعوة، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٢
٧٥- عبد العزيز المحمد السلمان: **إيقاظ أولي الهمم العالية إلى اغتنام الأيام الخالية**. مطابع الخالد للأوفست، الرياض.
٧٦- إبراهيم بن عبد الله الحازمي: **الأجوبة المسكتة**. دار الشريف، الرياض.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تيليجرام

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول: في مكارم الأخلاق	٩
من أخلاق النبوة	٩
حسن الطلب والأداء	١٠
الدين المعاملة (التاجر وابنه الصادق الأمين)	١٢
مروءة العربي	١٢
من أخلاق التاجر المسلم	١٣
حلم معن بن زائدة	١٤
العفو عند المقدرة/ ١	١٥
العفو عند المقدرة/ ٢	١٦
الصدق طريق النجاة	١٦
أكرم الناس	١٧
المجتمع الإسلامي	١٩
من محاسن الأخلاق	١٩
مصالحة بين شقيقين	٢٠
إخوان المروءة	٢١
مسامحة وسخاء	٢١
عدي وشقيقته سفانة	٢٢
صور من الإيثار/ ١	٢٣
صور من الإيثار/ ٢	٢٤
التسامح فوق الحق	٢٥
الباب الثاني: باب الكرامات و غرائب الأمور	٢٧
عقبة بن نافع يبني القيراون	٢٧
دعاء المكروب	٢٨
وما يعلم جنود ربك	٢٨
رب ضارة نافعة حكاية الأعمى والمقعد	٢٩
بطاقة نهر النيل	٣٣
في الحياء شفاء	٣٤
دعاء علاء بن الحضرمي	٣٧
الباب الثالث: في الجهاد والفداء	٣٧
زوج العيناء	٣٧
سُراقة بين جائزتين (مئة من الإبل أو سوار كسرى)	٣٨
تضحية وفداء (في حصار برذعة)	٤٣
أم إبراهيم الهاشمية تخطب الحورية لابنها	٤٤

قتل كعب بن الأشرف	٤٧
قتل أبي رافع	٤٨
الحرب خدعة نعيم بن مسعود في يوم الخندق	٤٩
عبادة بن الصامت يرعب المقوقس	٥١
عمر يتسلم مفاتيح القدس	٥١
نخوة المعتصم	٥٣
عزة المؤمن بين الرشيد وملك الروم	٥٥
موعدنا عند الظهر	٥٦
الباب الرابع: عبر وعظات ووصايا	٥٩
جزاء عقوق الوالدين	٥٩
لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم	٥٩
جحود النعمة وشكر النعمة (حديث الأبرص والأقرع والأعمى)	٦٠
أصحاب الجنة	٦٢
النعمة لا تدوم	٦٤
الصدقة تنجي	٦٥
من وصايا لقمان لابنه	٦٥
وصية علي بن أبي طالب لولده الحسين	٦٦
وصية الخطاب بن المعلى المخزومي ابنه	٦٩
الوصية الذهبية	٧٥
عبر وعظات (الاستعداد ليوم الرحيل)	٧٧
الاستغفار	٧٧
نصيحة قيمة	٧٧
الدعوة بين القول والعمل	٧٧
عمر بن عبد العزيز يعظ نفسه	٧٨
اليد الأمينة واليد الخائنة	٧٨
دواء القلب	٧٩
نصيحة	٧٩
الزهد في الدنيا	٧٩
قتيل النار	٧٩
الحسن البصري يعظ ابن هبيرة	٨٠
المنديل الأخضر	٨١
لقمة بلقمة!	٨٢
بل غضبت للدينارين!	٨٣
عدل الله	٨٥
الباب الخامس: بين العلماء والحكام	٨٧
ابن بنان وابن طولون	٨٧
أمراء للبيع	٩١
الخديوي إسماعيل وعلماء الأزهر	٩٤
بين سفيان الثوري والرشيد	٩٦
عالم وطاغية (سعيد بن جبير والحجاج بن يوسف)	٩٨

هشام بن عبد الملك وطاووس اليماني ١٠٤
العز بن عبد السلام وسلطان الشام ١٠٥
أبو غياث الزاهد يعظ الأمير ١٠٧
الباب السادس: في التربية والتوجيه ١٠٩
التربية بالقدوة ١٠٩
الصدق ينجي (الحطاب والهارب) ١٠٩
لا تبد ما ستر الله ١١٠
أخطأت في ثلاث ١١١
جزاء صنع المعروف مع غير أهله ١١١
الطبع غلب التطبع ١١٢
الشافعي في ضيافة ابن حنبل ١١٢
نماذج من المواطنة الصالحة ١١٣
ابدأ بنفسك (عندما يوافق فعل الخطيب قوله) ١١٦
ما عال من اقتصد (مريم الصناع وحسن تدبيرها) ١١٧
في أدب الخلاف (بين أبي حنيفة ومحمد الباقر) ١١٨
سعة الصدر واحتمال الأذى ١١٩
من صبر ظفر (أبو شروان ووزيره) ١٢٠
كتمان السر من خلق الحر (الملك ووزيره) ١٢٠
المرء حيث يجعل نفسه (كافور الإخشيدي وصاحبه) ١٢١
في الاتحاد قوة المهلب بن أبي صفرة وأولاده ١٢٢
مقياس الصلاح ١٢٢
احذر الغيبة ١٢٤
رضا الناس غاية لا تدرك ١٢٤
العمل، العمل ١٢٥
حق الولد على أبيه ١٢٦
عقوق مقابل عقوق ١٢٦
الباب السابع: قصص في العدل والظلم ١٢٩
أمير المؤمنين بين يدي القاضي ١٢٩
شريح يحكم بين علي بن أبي طالب ويهودي ١٣١
عدالة الإسلام (اضرب ابن الأكرمين) ١٣٢
عاقبة الظلم ١٣٣
على الباغي تدور الدوائر ١٣٤
الحجاج والشيخ والمأخوذ بذنب العشيرة ١٣٥
عدلت فأمنت فمنت ١٣٦
جبلة بن الأيهم يفر من العدالة ١٣٧
اتق دعوة المظلوم (الشكوى من سعد بن أبي وقاص) ١٤٠
الباب الثامن: في المحن و الشدائد ١٤٣
قبلة الحرية ١٤٣
حديث أصحاب الأخدود ١٤٤
قصة جريج الرومي ١٤٦

على ماء الرجيع ١٤٧
الباب التاسع: في الأمانة والتقوى ١٥١
تفاحة أبي حنيفة ١٥١
الحارس الأمين ١٥٢
بشر الحافي وأخته ١٥٤
حلم الخليفة وتواضعه (قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر) ١٥٥
لا تذهبي بنفسك عن الحق ١٥٦
جعلت لهم النهار وجعلت الليل لله عز وجل ١٥٦
الأمانة في البيع والشراء ١٥٨
الفرج بعد الشدة (عز الأمانة) ١٥٨
قصة الهميان ١٦٠
أعطيك من مالي إن شئت ١٦٦
الشمعة والسراج ١٦٦
وأين الله ؟! ١٦٧
ويؤثرون على أنفسهم/ ١ (الرأس المشوي) ١٦٨
ويؤثرون على أنفسهم/ ٢ (صائمة نسيت فطورها) ١٦٨
ويؤثرون على أنفسهم/ ٣ (التكافل والرحمة) ١٦٨
ويؤثرون على أنفسهم/ ٤ (الفقير أولى من الحج) ١٦٩
تجار الآخرة/ ١ (لا نرضي لك إلا ما نرضاه لأنفسنا) ١٦٩
تجار الآخرة/ ٢ (جاري أحق بأن تشتري منه) ١٧٠
القوي الأمين ١٧١
لا تخفى على الله خافية ١٧٢
الباب العاشر: في العفة ومغالبة الشهوة ١٧٣
أبو اليسر والمرأة العفيفة ١٧٣
دقة بدقة ١٧٤
أترضاه لأمك؟ ١٧٥
تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ١٧٦
عد يا فيروز إلى بستانك ١٧٦
من ترك الحرام لله ناله بالحلال ١٧٨
قصة يوسف عليه السلام ١٨١
الباب الحادي عشر: بين الراعي والرعية ٢٠٥
المعاصي تذهب البركة ٢٠٥
أضمر الملك لنا شرا ٢٠٦
عمر بن الخطاب ينصح للوالي الجديد ٢٠٦
هشام وفتى صغير (من عرف بالفصاحة لاحظته العيون بالوقار) ٢٠٧
عمر بن الخطاب وأم الرضيع ٢٠٨
أعطه قميصي لذلك اليوم ٢٠٨
من عفا ساد ومن حلم عظم (بين معاوية وعبد الله بن الزبير) ٢٠٩
الأعرابي لا يهاب الحجاج ٢١٠
عمر يشتري مظلمة العجوز ٢١٢

عمر بن الخطاب وزوجته يخدمان امرأة نفساء	٢١٤
حسن السياسية	٢١٥
الله أقوى من السلطان	٢١٦
تسامح الإسلام	٢١٦
الباب الثاني عشر: مع الأذكياء	٢١٩
ذكاء كاتب (ما يظنه الوالي مدحا وفيه عزله عن منصبه)	٢١٩
شربة الماء بخمسة دراهم	٢٢٠
الديون تمنع من السفر	٢٢٠
فطنة وإخلاص (القاضي الفاضل ينجي صديقه من الموت)	٢٢١
حيلة طريفة في تخليص المال (قبل أن يعلموا بإسلامي)	٢٢٢
الإقرار أولى من الإنكار (التاجر والوالي)	٢٢٣
أقر الله عين الأمير (اللبيب تكفيه الإشارة)	٢٢٤
الرشيد والخارجي (قوة الحجة قد تكون من أسباب النجاة)	٢٢٥
نحن من ماء	٢٢٥
السر في الخروع	٢٢٦
السم في الدسم	٢٢٧
الباب الثالث عشر: مع القضاة	٢٢٩
كعب بن سوار يقضي بحضرة عمر	٢٢٩
ذكاء القاضي إياس	٢٣٠
النبي سليمان يقضي بين امرأتين	٢٣١
الأرغفة الثمانية	٢٣١
اللص قوي القلب	٢٣٢
كان الاتفاق تحت الشجرة	٢٣٢
ذكاء قاضٍ	٢٣٣
الباب الرابع عشر: في العقيدة واليقين	٢٣٥
اليد العليا خير من السفلى (شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم)	٢٣٥
في سلامة اليقين (فتح الموصلي والغلام	٢٣٦
سدد الله دينه	٢٣٧
في حسن التوكل على الله (حاتم الأصم وبنته الصغيرة)	٢٣٨
أينما تكونوا يدرككم الموت	٢٤٠
بين الحجاج والأعرابي الصائم	٢٤٠
إسلام باذان	٢٤١
التأمين الشامل	٢٤٢
نار الشك وبرد اليقين	٢٤٣
رزقي يأتيني	٢٤٥
الحسنة بعشر أمثالها	٢٤٦
بين التجربة واليقين	٢٤٦
الباب الخامس عشر: مع القرآن الكريم	٢٤٩
العلم يهدي للإيمان/ ١	٢٤٩
العلم يهدي للإيمان/ ٢	٢٥٠

امتحان الأديان ٢٥٠
من إعجاز القرآن/ ١ ٢٥١
من إعجاز القرآن/ ٢ ٢٥١
بلاغة أبي خليفة الجمحي ٢٥٢
الإسلام دين الحلول ٢٥٣
الواو ليست فصلاً في كل الأحوال ٢٥٤
الوليد بن المغيرة والرد على القرآن ٢٥٤
حكاية المتكلمة بالقرآن ٢٥٦
الباب السادس عشر: في المناظرات ٢٥٩
بين أبي حنيفة وجاحد ٢٥٩
أبو حنيفة يرد على الملحدين ٢٥٩
أجوبة ذكية ٢٦٢
ثلاثة يناظرون عالما ٢٦٤
الحق أحق أن يتبع ٢٦٥
جواب مفحم الملك فيصل بن عبد العزيز يدافع عن الإسلام ٢٦٨
لنا اختلافان مجادلة المأمون للخراساني المرتد ٢٦٩
بين الباقلاني والبطريق ٢٧١
قصة أسير مسلم ٢٧٢
الحيدة ٢٧٥
الباب السابع عشر: في الوفاء ٢٩٣
وفاء وفداء ٢٩٣
وفاء أحمد اليتيم ٢٩٧
سعدي الجميلة ٢٩٩
الباب الثامن عشر: طرائف ومواقف ٣٠٣
الحجاج وحظر التجول ٣٠٣
في وصف العصا ٣٠٤
فصاحة غلام ٣٠٤
عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ٣٠٥
الزور للزائر ٣٠٥
أبو الأسود الدؤلي وامرأته ٣٠٦
في التورية والصناعات اللفظية ٣٠٧
كم مضى لك من السنين ٣٠٨
حروف المعجم في بدن الإنسان ٣٠٩
شهادة زور ٣٠٩
المسألة الزنبورية ٣١٠
إذا كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا ٣١٠
طحالب الصبايا ٣١١
هنا يباع السمك ٣١٢
حجام يعلم أبا حنيفة ٣١٣
الباقلاني وملك الروم ٣١٣

الباب التاسع عشر: مع الشعراء	٣١٥
ليس في الإمكان أبدع مما كان	٣١٥
الشعراء يقولون ما لا يفعلون آبو نواس وهارون الرشيد	٣١٥
الحسنة بعشرة أمثالها شاعر بين يدي خليفة	٣١٦
زر غبا تزدد حبا الثقيل والطريف	٣١٧
الخليل بن أحمد وابنه	٣١٧
إن من البيان لسحرا المعتصم وتميم السدوسي	٣١٨
رب إشارة أبلغ من عبارة الإمام علي والأعرابي	٣١٩
ثلاثة شعراء في مجلس عبد الملك	٣١٩
سرعة الخاطر وفصاحة اللسان أبو تمام والكندي	٣٢٠
ضاع الدر على خالصة	٣٢١
من غرائب الشعر	٣٢٢
جرير في مجلس عبد الملك	٣٢٣
المأمون والأعرابي	٣٢٤
الشعر بالشعر حرام	٣٢٤
الأصمعي والمنصور	٣٢٥
طرائف في اللغة والأدب	٣٢٧
الباب العشرون: قصص متفرقة	٣٢٩
رب همّة أحيت أمة: درس في الانتماء (قصة من اليابان)	٣٢٩
هند بنت النعمان والحجاج	٣٣٣
إدارة عموم الزير	٣٣٥
اليمامتان	٣٣٧
بنته الصغيرة	٣٤٥
قصة زواج وفلسفة المهر	٣٥٢
ولا تتبعوا خطوات الشيطان (قصة برصيصا الراهب)	٣٦٠
بقرة بني إسرائيل	٣٦٢
بنت الحارث بن عوف تصلح بين عبس وذبيان	٣٦٤
حيلة وذكاء في الإصلاح بين الخليفة وزوجته	٣٦٦
فتنة الدنيا النبي عيسى وآكل الرغيف الثالث	٣٦٦
الأمان العفوي (بين عمر بن الخطاب والهرمزان)	٣٦٨
أبدلك الله بها أربعين عاما	٣٦٩
بين حضارتين صورة أوروبا في القرون الوسطى	٣٧٠
الرفق بالحيوان (بين حضارتنا ومدنياتهم)	٣٧٣
العقد (جناية الترف)	٣٧٨
حديث الغار التوسل بصالح الأعمال	٣٨٢
الغم يذيب الشحم	٣٨٤
موقف محرج مع الألمانية	٣٨٤
إن مع العسر يسرا	٣٨٦
الجزاء العاجل	٣٨٨
لقاطة الحصا (درس في الكتمان)	٣٩٠

هدى (قصة من بلجيكا) ٣٩٢
أصحاب الكهف ٤٠٣
ريحانة ٤٠٧
عودة فروخ المفاجأة التي ذرفت لها الدموع ٤٠٩
مراجع مختارة ٤١٣
فهرس الموضوعات ٤١٧

تنبيه:

كل ملاحظة أو اقتراح يتعلق بمضامين هذا الكتاب سينال كل ترحيب، ويرجو المؤلف من الإخوة القرّاء موافاته باقتراحاتهم وملاحظاتهم على العنوان التالي:

E-mail: ibrahi_60@yahoo.com أو على خلوى: ٠٠٩٦٢٧٧٧٢٧٣٤٨٩

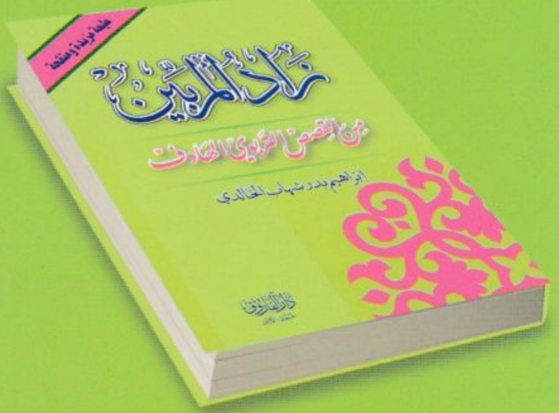

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تيليجرام

9 789957 479343

دار الفاروق للنشر والتوزيع
عمان - العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٠٠٦٤
E-mail: daralfarouq@yahoo.com